حرية الإنسان

فى الفكر الإسلامى

بحث فى القضاء والقدر والجبر والاختيار

دكتور فاروق دسوقى

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع

حرية الإنسان

في الفكر الإسلامي

بحث في القضاء والقدر والجبر والاختيار

دكتور فاروق دسوقي

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

دار الدعوة
للطبع والنشر والتوزيع
٢ شارع منشا - محرم بك (الاسكندرية)

571
82
AIN

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله العلى القدير ، كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وأصلى وأسلم على سيد الاولين والاخرين ، وخاتم الانبياء والمرسلين ، سيدنا محمد بن عبد الله الصادق الوعد الامين ، وعلى من اهتدى بهديه واستن بسنته ومن اتبعه باحسان الى يوم الدين .

وبعد ، فلست أدرى ـ على وجه التحديد ـ فى أية سنة من سنوات عمرى أثيرت فى ذهنى مسألة الجبر والاختيار ، الا أنه من المؤكد أننى كنت فى أوائل سنوات الدراسة الثانوية ـ التى تعادل الدراسة المتوسطة أو الاعدادية فى هذه الايام ـ ولا أذكر بالضبط مصدر اثارة هذا الموضوع الخطير بين أروقة وقاعات وعقول تلاميذ فى مستوى التعليم الاعدادى أو المتوسط ، حتى أنه لا يزال يطوف بخيالى صور لبعض مواقف المنازعات والمجادلات بين منتصرين للاختيار وآخرين مسلمين بالجبر من زملاء هذه المرحلة .

ومنذ ذلك الوقت لم أستطع أن أخلص ذهنى من هذا الموضوع ، فقد لازمنى ذهنيا وفكريا بالحاح شديد حتى أصبح ـ فيما بعد ـ أحد العوامل التى وجهتنى ـ بمشيئة الله وباذنه ـ الى اختيار الدراسة الادبية والفلسفية بالذات ، أملا فى الوصول عن طريقها الى الاجابات المقنعة لعقلى على المسائل والمشكلات التى احتوتها هذه القضية ، والتى تضخمت فى ذهنى مع مرور الايام .

ومع محاضرات الفلسفة الاولى فتح أستاذنا الدكتور محمد ثابت الفندى باب الامل أمام ناظرى على مصراعيه ، للوصول الى بغيتى ، حين

علمنا أن غاية الفلسفة هى البحث عن الحقيقة ، حقيقة الكون وحقيقة الانسان وموقفه الوجودى ومصيره بعد الموت ومدى حريته ومكانته فى تحديد هذا المصير •

ومن ثم أقبلت على دراسة الفلسفة فرحا مسرورا ، راجيا أن أتلقى من خلال دراستها الاجابات على المسائل والمشكلات التى تدور حول قضية الحرية الانسانية أو قضية الجبر والاختيار ، ولكن بمضى سنوات الدراسة ومراحلها بدأ رجائى يخيب شيئا فشيئا وان كنت لم أفقد كل الرجاء مؤملا الوصول الى شىء من بغيتى فى العام الدراسى الاخير •

لقد كانت الخطوط العريضة لدراسة الفلسفة ــ كما درسناها ، وكما هى فيما أظن حتى الان فى الجامعات المصرية ــ محددة بالحقب التاريخية ، فهناك الفلسفة القديمة المتمثلة فى الفلسفة اليونانية ثم فلسفة العصور الوسطى ثم الفلسفة الحديثة ثم المعاصرة ، ولا يخفى على أحد أن هذا كله فكر غربى مصنف حسب تاريخ وعصور الغرب •

كما كان هناك تصنيف آخر للفكر بحسب الاتجاه أو الدين أو الحضارة مما أتاح لنا فرصة دراسة ما يسمى بالفلسفة الاسلامية والمسيحية وفلسفة الاديان الشرقية •

ومن الواضح أن خط الاسلام من هذه الدراسة قليل من حيث الكم فهو يدرس كفرع من فروع الفلسفة وليست الفلسفة الاسلامية ــ فى نظرة أقسام الفلسفة ومناهجها ــ تعبيرا عن الحق الذى يقرره القرآن الكريم وكل ما سواه من عقائد باطل ، بل تقوم هذه الدراسة باعتبارها جانب من جوانب التفكير الفلسفى عند الانسان •

ومن ثم فان الذى يدرس من الاسلام ــ تحت اسم الفلسفة

الاسلامية ــ فى جامعاتنا ، ليس سوى بعض الانحرافات الفكرية التى وقع فيها بعض مفكرى الاسلام فيما يعرف بعلم الكلام وتصوف الحلوليين وأصحاب وحدة الوجود وفيما يسمى بالفلسفة الاسلامية ونعنى به النتاج الفكرى لمتفلسفة الاسلام والذى لا يعدو أن يكون فلسفة اليونان بعامة وأرسطو بخاصة • كل ذلك دون أن يدرس لهؤلاء الطلبة عقيدة الاسلام الصحيحة الخالصة كما نزل بها الوحى : قرآنا وسنة ، بالرغم من أن الدراسة الموضوعية والمنهج الفلسفى الصحيح يقتضى تدريس عقيدة السلف أو عقيدة أهل السنة والجماعة ، حتى ولو باعتبارها أحد الاتجاهات الفكرية الاسلامية فى الفكر الاسلامى •

وتبدو لنا المصيبة أكبر وأعظم عندما نتذكر أن أبناءنا يأتون الى الجامعة من الدراسة الثانوية وهم على جهل تام بالاسلام مما يسهل على أقسام الفلسفة حشو أذهانهم بالانحرافات الفكرية التى دخلت على المسلمين طيلة تاريخهم الطويل دون الرد عليها وبيان أوجه الخطأ فيها •

أما بالنسبة لقضية القضاء والقدر والجبر والاختيار فهى مدار علم الكلام ومفترق الطرق التى سلكتها المدارس والفرق الاسلامية ، أخذت كل مدرسة موقفا من النزاع : اما جبر محض واما اختيار مطلق للانسان • ومن ثم خرجنا من هذه الدراسة ونحن أكثر تساؤلا وأشد حيرة من قبل ، وانتهى الامر بى الى أن خيم على فكرى هذا التساؤل : اذا كان الاسلام ــ وهو الدين الحق ــ ينتهى بنا الى هذه النتيجة ، فأين سيكون الحل الفكرى والموقف الحاسم لهذه القضية ؟•

وفى السنة النهائية ودعنا أستاذنا الدكتور محمد ثابت الفندى بخلاف ما استقبلنا به • قال لنا : ان الفلاسفة والمفكرين مختلفون ، وسيظلون

مختلفين ، فالاختلاف هو روح الفلسفة ، وسبب وجودها وعلة استمرارها وإذا كانت غاية الفلسفة هي الحقيقة ، فان الحقيقة الوحيدة التي يمكن أن نخرج بها من دراسة تاريخ الفلسفة ومذاهب الفلاسفة : هي أنه لا يمكن الوصول الى الحقيقة ، أو على الاقل : لا يمكن الاتفاق على ما يمكن أن يعتبره الفلاسفة الحقيقية •

رحم الله أبي رحمة واسعة ، فلقد عارضني حين علم بعزمي على الالتحاق بقسم الفلسفة بحجة أنها تؤدي الى الكفر ، ولقد علمت بعد ذلك أن هجوم الامام أبي حامد الغزالي على الفلسفة والفلاسفة في كتابه « تهافت الفلاسفة » هو السبب في شيوع هذا الحكم الاسلامي على المتفلسفة بين المسلمين ، ورغم معارضة أبي ، رحمه الله ، فقد كان اصراري على دراسة الفلسفة ، نتيجة لقناعة تامة لدي في هذا الوقت ، بأنني سأجد فيها بغيتي ، وليس في الدين ، الامر الذي ثبت بطلانه تماما مع انتهاء سنوات الدراسة ، وبشهادة الفلاسفة والمفكرين وأساتذة الفلسفة أنفسهم، وكان هذا سببا في عودتي للدين •

لقد من الله عز وجل علي ، وهداني الى أول الطريق مع نهاية الدراسة ، عندما التقيت بأخي وأستاذي محمود عيد أبو العينين ، وهو من المسلمين المجاهدين الصابرين ــ ولا نزكي على الله أحدا ــ وهو أيضا أحد الدعاة الحاذقين المتحمسين ، فتتلمذت على يديه ، وتعلمت منه الكثير من مبادىء الاسلام وأصوله وحقائقه ، ثم كان له فضل توجيهي الى فضيلة الشيخ عبد العزيز بن راشد النجدي ، وكان في هذا الوقت رئيسا لجماعة أنصار السنة المحمدية بالاسكندرية ، فاذا بي أمام نموذج فريد من العلماء لم أجد له نظير الا بين من قرأنا عنهم من علماء الاسلام ورجاله الاولين ،

فتعلمت من فضيلته المنهج والموضوع فى عقيدة السـلف ، أو بتعبير أدق ، عقيدة القرآن الكريم الخالصة .

فكانت من نتيجة ذلك كله ان تأكدت عنـدى حقيقة ، بل هى بديهية ، كنت دائما أحس بها فى نفسى وفكرى وقلبى ، وهى أن الوحى الالهى النازل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : قرآنا وسنة ، هو الحق كل الحق ، وما يخالفه باطل لا محالة .

وانطلاقا من هذا الاساس ، أيقنت أن الحل الحاسم لمسألة القضـاء والقدر والجبر والاختيار متضمن فى القرآن الكريم والسنة ، وأنه لابد من الرجوع اليهما لمعرفته . فأقبلت على القرآن الكريم بعقل خالص كالصفحة البيضاء ، أستلهمه الاجابة على الاسئلة التى ما فتئت تحيرنى ، فاذا بالامور واضحة والقضايا بينة ، والمسائل تصبح اجابات مقنعة للعقل ، ومـرضية للنفس ، ومطمئنة للقلب ، ثم أقدمت على الخطوة التالية ، وبدأت باستخراج الآيات القرآنية الخاصة بالموضـوع ، وكذلك الاحاديث الصـحيحة ، ثم تصنيفها .

وتقدمت لتسجيل رسالة الماجستير بكلية الآداب جامعة الاسكندرية مع أسـتاذنا الدكتور على سـامى النشار ، واتفقت معه على الموضـوع « مشكلة الحرية فى الفكر الاسلامى » ولما أفصحت له عن رغبتى فى أن يكون القسم الرئيسى من البحث فى القرآن والسنة ، رفض ذلك بشدة وأستبعده قائلا : لن تصل ببحثك فى القرآن الكريم والسنة الى نتيجة جديدة ، وهل رجعت الفرق الكلامية المختلفة حول هذا الموضوع الا الى القرآن الكريم والسنة ؟. وكان مما قاله أيضـا : ان بحثك هـذا سيكون مضـيعة للوقت والجهد ، وطلب أن أبدأ البحث فى الموضوع عن الفرق الكلامية كالقـدرية

والجهمية والمعتزلة والاشــاعرة ، وقال تعقيبا على ذلك : اننا هنا فى قسم للفلسفة ، الاصل فى دراستنا فلسفية ، والفكر الاسلامى فرع منها ، وليس الاصل فى دراستنا أنها دينية ، لأن هذا فى جامعة الازهر •

وعدت ــ متبرما غير راض ــ الى كتب علم الكلام ، أو بتعبير آخر ، الى ما يتمثل فيه اختلاف بعض مفكرى الاســلام فى أصــول عقيدتهم ، بسبب أخطاء منهجية وانحرافات موضــوعية ، بحسن نيــة أحيانا ، وبغيا وبسبب طغيان الهوى أحيانا أخرى ، مما يثير ضيقا وحرجا فى صدر المسلم الغيور على دينه عند قراءته لهذه الكتب •

ولكن دراستى لعلم الكلام تفصيلا ، أدت بى الى التأكد بأن ما رزقنى به الله عز وجل من نتائج للبحث فى القرآن الكريم هو الحل المقنع للمشكلة، وفيه الرد الحاسم على اختلافات الفرق ، فتوكلت على الله وأتممت كتابته، ثم عدت لاستاذى ، داعيا الله عز وجل أن يوفقنى فى اقناعــه بقبــوله • وعاودت معه المحاولة وظفرت منه ــ بعد جهد ــ بالمــوافقة على أن أكتب فصلا تمهيديا لا يتعدى بضع صفحات ، واعتبرت هذا اذنا يتيح لى الاعتماد عليه لتقديم كل ما كتبته عن القضية فى القرآن والسنة ، مع أن ما كتبته كان فى حجم الباب الكامل•

وبدأت أنجز كتابة الابواب الاخرى الخاصة ببحث المشــكلة عنــد المتكلمين •

وكنت أتردد على الاستاذ كل أسبوع على أمل أن يكون قد قرأ البحث، وذلك لمدة شهرين أو أكثر ، حتى كان ذهابى اليه بعد أن قرأه ، وقد تقابلت مع الزميل الاستاذ محمد السرياقوسى ــ وكان تلميذه أيضا ــ عند مدخل المنزل ، مما أتاح للاخ الزميل أن يكون شاهدا على كل ما حدث •

عندما دخلنا سلمنا على أستاذنا الدكتور على سامى النشار ، فقام على الفور من مجلسه ، وأخذ مصحفا قـريبا منه ، وقال لى : اجلس هنا ، فجلست حيث طلب ، ثم طلب منى أن أضع يدى على المصحف ، ففعلت ، ثم طلب منى أن أقسم بالله العظيم أن ما كتبته فى هذا الباب ، لم أنقله من أى كتاب آخر ، فأقسمت ، ثم قلت له بنبرة فيها شىء من العتاب الخفى الرقيق : يا أستاذى هل تظن أن فى خلقى غشا أو كذبا ؟• قال : لا ، أنا أعلم أنك صادق وأمين ، ولكنى فعلت هذا ليطمئن قلبى ، ان ما كتبته هـو الحل الحاسم للمشكلة ، وهو فكر جديد لم أره فى القديم ولا فى الحديث • وأنا مطمئن الى صدقك • ثم قال مما قاله : لقد غيرت فكرى ، وجعلتنى أعيد النظر فى كثير مما كنت أعتقد صحته من أفكار ومبادىء •

ولقد صاغ الاستاذ الدكتور على سامى النشار هذه الشهادة مسطرة فى كتابه « نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام » الجزء الاول الطبعة الخامسة، بهامش الصفحة السابعة ، حيث قال (يقوم تلميذى فاروق أحمد حسن بوضع موقف حاسم للجانب الاخلاقى ، فى الاسلام فى دراسة جادة فى بحثه « مشكلة الحرية فى الاسلام » ونرجو أن يطبع هذا البحث قريبا) •

وقد دعانى هذا كله وشجعنى على استكمال البحث ، حتى أصبح على ما هو عليه الآن بين يدى القارىء •

وأيد الاساتذة المناقشون حكم الاستاذ المشرف فنالت الرسالة تقدير « ممتاز ، مع التوصية بالطبع والتبادل » •

وهكذا أصبح فضل الله على عظيما ، بما يعجزنى عن أداء شكره •

لقد تمثل هذا الفضل فى أمور ونعم كثيرة ، أولها حصولى على قناعة تامة بأن عقيدة التوحيد الاسلامية ــ بكل ما تتضمنه من مبادىء ومفاهيم

عن الالوهية والانسان والحياة والكون ـ هى الحق الذى لا يدانيه فكر أو فلسفة أو دين آخر ، وتبدو العقيدة الاسلامية أمام ذهنى الآن ـ وكل آت باذن الله تعالى ـ محكمة احكاما دقيقا ، وبمقارنتها بعقائد المذاهب والاديان الاخرى ، يثبت لنا أنها ليست من صنع البشر ، بل هى من عند الله .

وأول برهان ساطع على هذا القول ، هو عدم وجود مشاكل أو مشكلة. حول قضية القضاء والقدر والجبر والاختيار فى القرآن والسنة . ويكفى هذا كنتيجة هامة للبحث .

وتمثل هذا الفضل أيضا فيما رزقنى الله عز وجل به من قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة فى القرآن والسنة ، تعلمت بعضها من كتاب « خصائص التصور الاسلامى ومقوماته » لشهيد الاسلام الاستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى ، ورزقنى الله عز وجل بالبعض الآخر . كما رزقنى سبحانه وتعالى تطبيق هذا المنهج على أعوص مسألة عقيدية ، وهى مسألة القضاء والقدر ، فثبت نجاحه وصلاحه بشهادة النتائج التى توصلنا اليها بعون الله وتوفيقه .

لقد قامت دراسة الفكر الاسلامى فى الجامعات المصرية حديثا تحت اسم الفلسفة الاسلامية ، هذا بالرغم من أن الاسلام ليس فلسفة ، والفلسفة ـ أيا كان منشؤها واتجاهها ـ ليست اسلاما .

الفلسفة هى محاولة الفكر البشرى الوصول الى حقيقة الكون والحياة والانسان ، وهو ـ أى الفكر البشرى ـ فى حالة ، يكون فيها مستقلا عن توجيه الوحى الالهى ، غير مسترشد بما جاء فيه .

والاسلام ـ كدين ـ هو عقيدة وشريعة وكلاهما سماوى الاصل ، الهى الصبغة ، ربانى الاهداف . فلا يمكن بذلك أن يكون الفيلسوف اسلاميا،

الا اذا كان المفكر مسلما عقله وفكره ووجدانه لله ، يهتدى بقرآنه ويسترشد بسنة نبيه فى الفكر والعمل • وحينئذ لا يكون المفكر فيلسوفا ، بل يكون مفكرا أو عالما أو باحثا مسلما •

أما الاسلام — كحضارة — فيشمل كل ما حدث فى تاريخه من أحداث، وكل ما قام فيه من مجتمعات ، وكل ما ساد فيها من أنظمة وتطورات وتغيرات • وكل ما نمى فيه من علوم وفنون وصناعات ، وكل ما ظهر فيه من اتجاهات ومذاهب ونظريات ، سواء وافق ذلك كله أو بعضه كتاب الله وسنة نبيه أو خالفهما ، حيث الانتساب هنا للاسلام كحضارة وتاريخ • وبيئة ، وليس كعقيدة وشريعة •

فاذا قبلنا ما يسمى بالفلسفة الاسلامية باعتبار أنه انتاج فكرى لمفكرين عاشوا فى الحضارة الاسلامية ، فاننا يجب أن ننتبه الى أن هذا التراث الفكرى — بهذا الاعتبار — يتضمن بالضرورة من المبادىء والافكار والقضايا والانظمة والمصطلحات ما هو ليس باسلامى على الاطلاق ، بل ما هو مخالف للاسلام : لعقيدته وشريعته •

والذى يسميه الباحثون اليوم بالفلسفة الاسلامية ، يبعد فى معظمه عن روح القرآن وصبغته ويخالف فى كثير من نظرياته ومبادئه وأفكاره نصوص الوحى : قرآنا وسنة •

ان أكثر علم الكلام والفلسفة الاسلامية ، ومذاهب الحلول ووحدة الوجود عند الصوفية ليست جميعا — بميزان القرآن والسنة — سوى انحرافات أصابت بعض المسلمين فى دينهم ، ونعنى بهم أغلب المتكلمين والفلاسفة ومتفلسفة الصوفية •

ومع ذلك — وللاسف الشديد — ينظر اليها كثير من الباحثين المحدثين،

وأساتذة هذا التراث فى جامعاتنا ، باعتبارها ما ساهم به المسلمون فى مجال اثراء الفكر الانسانى والحضارة الانسانية ، وهذا خطأ بالغ ، لأن أصالة الفكر الاسلامى والابداع الحضارى للمسلمين ، يتمثلان فى أعمال الفقهاء والاصوليين والمحدثين ، ويتمثلان كذلك فى توصل المسلمين الى قواعد المنهج العلمى التجريبى ، وتطبيقه فى مختلف مجالات العلوم التجريبية ، بما أدى الى تقدم العلوم التجريبية والرياضية والفلكية وغيرها تقدما عظيما لم يشهده تاريخ الانسان المكتوب من قبل ، فى أى حضارة أخرى سابقة على الحضارة الاسلامية أو حتى معاصرة لها .

ولعل من أسباب هذا التقدم العلمى الذىأحرزته الحضارة الاسلامية، سواء من حيث المنهج أو الموضوع ، هو رفض علماء ومفكرى الاسلام لمنطق أرسطو الصورى ونظريته فى القياس ، لارتباطه الوثيق بميتافيزيقا اليونان الوثنية من ناحية ، وبسبب آثاره السلبية بالنسبة للتقدم العلمى ، حيث لا يساعد هذا المنطق على اضافة الجديد الى علم الانسان ، فكان رفض المسلمين ونقضهم لهذا المنطق ، من العوامل الهامة التى مكنتهم من الوصول الى المنهج العلمى التجريبى ومناهج الاستنباط الصحيحة .

فلم يكن ما يسمى بالفلسفة الاسلامية الا تقليدا وتكرارا لفلسفة أرسطو ، مع قليل من الاضافات لكن كل مبادئها مخالفة للتوحيد الاسلامى، بل مخالفة لنصوص الآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة .

وعلم الكلام هو أحد مظاهر تفرق المسلمين واختلافهم ، وهو يقوم على الجدل والمراء الذى نهى عنه الدين ، ومن ثم حفل بانحرافات كثيرة عن الصراط المستقيم ، تمثلت فى عقائد الجهمية والقدرية والخوارج وكثير من آراء المعتزلة .

وأمة الاسلام اليوم تتداعى عليها الامم ، يهودية ونصرانية وشيوعية كما تتداعى الاكلة على قصعتها ، فلا يسع المخلص للاسلام الا أن يتوجه فكره ورجاؤه الى رأب الصدع ولم الشعث وتوحيد الامة ، ولن يتم ذلك • ولن تتوحد أمة الاسلام ، الا بما توحد به الاسلاف ، وهو الاجتماع على القرآن والسنة ، عقيدة ونظاما ، دينا ودولة •

وليس هذا تحجرا فكريا ، ولا تعصبا مذهبيا ولا جمودا نصيا ، كما يظن البعض خطأ ، ويتجنى آخرون ظلما وبغيا وعدولا عن الحق ، لدنيا مؤثرة أو لاعجاب كل ذى رأى برأيه ، الا أن تكون فرقة الامة وضعفها وهزيمتها وذلها أمام أعدائها مطالب مقصودة لهؤلاء وأولئك ، لها يعملون ، وعليها يحرصون •

وليس يعنى هذا القول : أننا ندعو لاهمال هذا التراث أو نبذه ، ولكن الذى نعنيه هو عرضه من خلال ميزان الكتاب والسنة ، وبيان وجه الحق من وجوه الباطل فيه وليس بالصورة التى تحفل بها كتب علم الكلام قديما وحديثا •

فليكن هذا الكتاب بين يدى القارىء المثقف ــ من شباب ورجال الاسلام ــ عونا على تفهم قضية القضاء والقدر والجبر والاختيار ، وحل مسائلها •

وليكن بين أيدى الباحثين فى الفكر الاسلامى ــ فوق ذلك ــ دعوة الى منهج وتطبيقه :

المنهج هو العودة فى كل ما نبحث وندرس الى كتاب الله وسنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ، بقواعد المنهج التى تحمى الذهن من الوقوع

فى أخطاء ، كانت هى ـ أى الاخطاء ـ أحد الاسباب فى تكون الفرق وتحزب الاحزاب وتفتت الامة •

وليكن ما نتوصل اليه من نتائج من القرآن والسنة هـو الميزان الذى نزن به آراء وأفكار ومبادىء وأنظمة الاخرين ، مسـلمين كانوا أو غـير مسلمين •

وأما بدون هذا المنهج ، فيحق لنا الشك ، أو الرفض لكل ما يتوصـل اليه الباحث فى الفكر الاسلامى من نتائج وآراء ، واعتبارها غير اسلامية ، حتى يثبت لنا موافقتها للكتاب الكريم والسنة الشريفة •

اذا بدأ الباحث ـ فى مسـألة ما ـ بحثه فى القـرآن الكريم والسنة بالمنهج الصحيح ، فانه عندما يصل الى نتيجة قرآنية صحيحة ومؤكدة ، فانه يكون قد ملك بيديه النور السـاطع الذى يستطيع أن يكشف به الحـق من الباطل ، والغث من الثمين ، فى آراء ومذاهب وفكر البشر ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، فيصبح بنور القرآن مهيمنا ومستبصرا لما فى الجـاهليات من أباطيل ، وكفى بالله عاصما من الضلال •

دعوتنا منهجيا وموضوعيا • هى أن يكون مـرجعنا ومعيارنا ، الذى نرجع اليه ، ونزن به كل فكر وكل تشريع وكل نظام وكل علم ، هـو القرآن والسنة • وما نقصده من قولنا « كل علم » هو : عـلوم النفس والتربيـة والاجتماع والاقتصاد والتاريخ وسائر العلوم الانسانية •

فهذه العلوم جميعا تدرس فى جامعاتنا ولابنائنا كما جاءت مع رياح السموم التى وفدت علينا من الغرب المادى الكافر بالغيبيات •

وأخطر ما فى هذه العلوم ، أنها مؤسسة على أصـول مادية وعقـائد

جاهلية الحادية ، ويدرسها أساتذتها لابنائنا وشبابنا ، غالبـا ، دون ذكر هذه الاصول الالحادية لهم ، وباسم العلم التجريبى ، لاضفاء صفة اليقين عليها ، وهى ليست كذلك • وعندما يتناول الانسان سما ، لا يهم بعد ذلك عدم ادراكه لمنبعه أو أصل شجرته الخبيثة ، فهو مصاب به على أى حال • وهذا ما تفعله العلوم الانسانية الغربية المؤسسة على أسس الحادية ، فى نفوس طلابنا •

وهذا الامر الخطير يجعل مسئولية الباحثين المسلمين فى شتى مجالات العلوم الانسانية ضخمة وثقيلة ، وليس أمامهم من حل للتخلص من هـذا الغزو الفكرى الصهيونى والصـليبى الخبيث والدائم المتمثل فى العـلوم النفسية والتربوية والاجتماعية الغربية ، أقول : ليس أمامهم من حل ، الا أن يعيدوا تأسيس هذه العلوم على القرآن الكريم والسنة •

أسأل الله عز وجل أن يهدينا الى الحق والى العلم النافع وأن يجمع أمة الاسلام على كتابه وسنة نبيه : عقيدة ومنهاجا أقـوم للحياة العزيزة ، وللفوز بالجنة فى الاخرة ، انه نعم المولى ونعم النصير •

الرياض فى ٤/٥/١٤٠١هـ

دكتور فاروق أحمد دسوقى

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

تصدير

إبليس والشبهات السبع

ان الحمد لله وحده لا شريك له ، منه العون وبه التوفيق . والصلاة والسلام على خاتم الانبياء والرسل ، وعلى آله وصحابته ، ومن اهتدى بهديه الى يوم الدين . وبعد .

فانه لا يخفى على أحد أن مسألة الجبر والاختيار ، أو قضية القضاء والقدر من أصعب المسائل الدينية ، ومن أعقد المشاكل الفلسفية التى واجهت الفكر البشرى على مدار تاريخه الطويل ، ان لم تكن أصعبها وأعقدها على الاطلاق .

شهد بذلك الائمة المجتهدون والعلماء البارزون فى سائر الاديان السماوية، وأقر به الفلاسفة والمفكرون فى مختلف المذاهب والاتجاهات.

ويمكننا أن نجد فى مجال الفكر الاسلامى أكثر من تصريح يثبت هذه الصعوبة ، مثال ذلك ما يقرره ابن سينا من ان القدر سر الله ، كما يصرح ابن رشد بان أدلة العقل والنقل حيال مشكلة القضاء والقدر متناقضة ، حتى شيخ الاسلام ابن تيمية يصرح بان مسألة خلق افعال العباد مشكلة .

ولعل أقدم وأشمل صياغة تضمنت عناصر هذه المشكلة وردت متفرقة فى التوراة اليهودية (١) على شكل مناظرات بين ابليس والملائكة (٢) . كما وردت أيضا هذه الصياغة (مسطورة فى شرح

---

(١) أى التوراة المحرفة ، حيث أن من المعلوم أن التوراة التى نزلت على موسى عليه السلام ليست هى التى بين أيدى اليهود الان ، حيث حرفها الاحبار ، وقد سجل عليهم القرآن الكريم ذلك .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ــ نشر مؤسسة الحلبى / القاهرة جـ ١ ص ١٤ .

الاناجيل الاربعة : انجيل لوقا ومارقوس ويوحنا ومتى)[1] .

ويتضمن حوار ابليس للملائكة فى هذه المناظرات سبع أسئلة يشكل كل منها شبهة من شبهات ابليس السبع ، وكلها تدور حول حرية المخلوق المبتلى ازاء أفعاله الخلقية المحاسب عليها ، ومدى نسبة هذه الافعال الى فاعليته ، والركائز التى تقوم عليها هذه المسئولية ، ثم — وبناء على ذلك كله — الانتهاء الى التشكيك فى ثبوت العدالة الالهية حيال مصير الكافرين والعاصين وأولهم وعلى رأسهم ابليس .

ويتخذ ابليس — فى مناظرته للملائكة — من معصيته للامر الالهى بالسجود لآدم أساسا ومثلا لهذه الشبهات ، حيث يحاول جاهدا أن يثبت وقوع المعصية منه بتقدير الله عز وجل السابق لها ، حتى يوهم بان جزاء الله عز وجل له بالطرد من رحمته وتخليده فى النار متعارض مع العدالة الالهية المطلقة .

ويورد الشهرستانى شبهات ابليس لعنه الله كما يلى :

قال كما نقل عنه :

انى سلمت ان البارى تعالى الهى واله الخلق ، عالم قادر ، ولا يسأل عن قدرته ومشيئته ، وأنه مهما أراد شيئا قال له كن فيكون . وهو حكيم ، الا أنه يتوجه على مساق حكمته أسئلة قالت الملائكة : ما هى ، وكم هى ؟

قال لعنه الله : سبعة .

الاول منها : أنه قد علم قبل خلقى أى شىء يصدر عنى ويحصل منى، فلم خلقنى اولا ؟ وما الحكمة فى خلقه اياى ؟

والثانى : إذ خلقنى على مقتضى ارادته ومشيئته ، فلم كلفنى بمعرفته وطاعته ؟ وما الحكمة فى هذا التكليف بعد أن لا ينتفع بطاعة و لايتضرر بمعصية ؟

والثالث : اذ خلقنى وكلفنى فالتزمت تكليفه بالمعرفة والطاعة ، فعرفت وأطعت ، فلم كلفنى بطاعة آدم والسجود له ؟ وما الحكمة فى

(١) المرجع السابق نفس الصفحة . ويجدر التنبيه ايضا الى أن هذه الاناجيل ليست هى الانجيل الذى نزل على عيسى عليه السلام ، ومن ثم تكون هذه الشبهات الواردة فى النص من صنع الفكر البشرى .

هذا التكليف على الخصوص ، بعد أن لا يزيد ذلك فى معرفتى وطاعتى ايـــاه ؟

والرابع اذ خلقنى وكلفنى على الاطلاق ، وكلفنى بهــذا التكليف على الخصوص ، فاذا لم أسجد لآدم، فلم لعننى وأخرجنى من الجنة، وما الحكمة فى ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحا الا قولى: لاأسجد الا لك ؟

والخامس : اذ خلقنى وكلفنى مطلقــا وخصوصا فلم أطع فلعننى وطردنى ، فلم طــرقنى الى آدم حتى دخلت الجنة ثانيــا ، وغررته بوسوستى ، فأكل من الشجرة المنهى عنها • وأخرجه من الجنة معى • وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن لو منعنى من دخول الجنة لاستراح منى آدم ، وبقى خالدا فيها •

والسادس : اذ خلقنى وكلفنى عموما وخصوصا ، ولعننى ثم طرقنى الى الجنــة ، وكانت الخصــومة بينى وبين آدم ، فلم ســلطنى على أولاده ؟ حتى أراهم من حيث لا يروننى ، وتؤثر فيهــم وسوستى ولا يؤثر فى حولهم وقوتهم وقدرتهم واســتطاعتهم ؟ وما الحكمة فى ذلك ؟ بعد أن لو خلقهم على الفطرة دون من يجتالهم عنهــا فيعيشوا طاهرين سامعين مطيعين ، كان أحرى بهم وأليق ، ما الحكمة ؟

والسابع : سلمت هذا كله : خلقنى وكلفنى مطلقا ومقيدا ، واذ لم أطع لعننى وطردنى ، واذا أردت دخول الجنة مكننى وطرقنى ، واذ عملت عملى أخــرجنى ثم سلطنى على بنى آدم ، فلــم اذ استمهلته أمهلنى ؟ فقلت (أنظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين الى الوقت المعلوم) وما الحكمة فى ذلك ؟ بعــد أن لو أهلكنى فى الحــال استراح آدم والخلق منى ، وما بقى شر ما فى العالم ؟ أليس بقـــاء العالم على نظام الخير خيرا من امتزاجه بالشر ؟ •

قال : فهذه حجتى على ما ادعيته فى كل مسألة• قال شارح الانجيل: فأوحى الله تعالى الى الملائكة عليهم السلام : قولوا له انك فى تسليمك

الاول أنى الهك واله الخلق غير صادق ولا مخلص • اذ لو صدقت انى اله العالمين ، ما احتكمت على بلم • فأنا الله الذى لا اله الا أنا • لا أسأل عما أفعل ، والخلق مسئولون •

هذا الذى ذكرته مذكور فى التوراة ومسطور فى الانجيل على الوجه الذى ذكرته) [1] •

ولا شك أن أسئلة ابليس السبعة من قوة التلبيس بحيث أنه يصعب على المرء بعد سماعها ان يتحاشى ماتثيره فى نفسه من شكوك وشبهات حول أصول الايمان • وسنرى ان اختلاف الفرق الفكرية فى الاسلام وفى الاديان السماوية السابقة انطلق فكريا ونظريا من محور هذه الاسئلة جميعا ، وأعنى بها موضوع القضاء والقدر •

أما ما جاء تعقيبا او اجابة على هذه الاسئلة منسوبا لشارح الانجيل ، فانه وان كان منطقيا ، الا أنه لا يعتبر ــ كاجابة على هذه الاسئلة ورد على هذه الشبهات ــ بمثابة الرد الصحيح المقنع الذى يناظر الاسئلة فى قوتها •

وليس يخفى على أحد ان ايراد الشبهة او الاعتراض ملفوف فى صيغة منطقية وحجة قوية ، ثم ايراد الاجابة عليها بحجج ضعيفة ، وبراهين مهزوزة خافتة ، ينتهى بالقارىء أو السامع الى تثبيت وجه الاعتراض فى نفسه ، وتعميق الشك والريب حول الموضوع قيد البحث •

وهذا الرد المقدم من شارح الانجيل ــ على مايذكر الشهرستانى ــ أوضح مثال على ذلك • فالاجابة كلمة حق يراد بها باطل • ذلك أنه لا يمارى مؤمن بان الله عز وجل الذى لا اله الا هو لا يسأل عما يفعل، وأن نفاذ مشيئته وفعله من مقتضيات الالوهية • ولكن ليست هذه هى الاجابة على أسئلة ابليس ، وليست هى الرد على شبهاته • لان

---

(١) المصدر السابق : ص ١٤ ــ ١٦

الاسئلة السبعة تدور كلها حول معرفة الحكمة من ارادة الله عز وجل لمـا أراد ٠

ولا شك ان الله عز وجل حكيم ، وهذا يعنى أنه عـز وجل ـ فوق أنه فعال لمـا يريد ولا يسأل عما يفعل ـ فانه يفعل لحكمـة ٠ وعندما يتسـاءل المرء عن الحكمـة من خلق السـماوات والارض ، او خلق الانسان ، أو خلق الجـان ، او خلق الملائكة ، فانه لا يكون فى موضع المحاسب لله عز وجل وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ، وانما يكون فى موضع الباحث عن الحكمـة من خلق الله سبحانه وتعالى لهـذه المخلوقات ، ومحاولة منه لمعرفة الغاية من وجود كل منها ٠ فهو سؤال استفسارى وليس سؤالا للمحاسبة والمحاكمة ٠ فهو ليس من قبيـل لم فعلت كذا ولم لم تفعل غيره ، ولكن من قبيل ما الحكمة من فعلك كذا ٠

وبذلك تبدو اجابة شارح الانجيـل ـ باعتبارها تعزى حدوث ذلك كله الى القدرة الالهية فقط ـ متجاهلة لصفةالحكمة التى وصف الله عز وجل بها نفسه ٠ ويبدو الامر ـ نتيجة لهذه الاجابة ـ كما لو أن الاله بما فعل مع ابليس وآدم وأبناء آدم ، قد فعل ذلك كله بلا حكمة مقبولة للعقل ومرضـية للنفس ٠ ومن ثم ينتهى هذا الحـوار بذلك الرد من شارح الانجيل الى وصول أعداء الايمـان والمشككين والملاحدة وعلى رأسهم ابليس الى هدفهم من هذه المناظرة ، وهو القاء بذور الشـك حيال حقائق فى نفس السامع او القارىء ٠

والحق الذى لامراء فيه ان القرآن الكريم يحمل بين سورة وآياته الاجابة الحقـة الكاملة على كل ما سأله ابليس وعلى كل ما وضـعه أبالسة البشر من ملاحدة ومشككين وأعداء للايمان ٠

يقدم لنا كتاب الله عز وجل الحكمة التى من أجلها خلق الله عز وجل ابليس ، ثم الحكمة من تكليفه خصوصـا بالسجود لآدم ، ثم الحكمة من خلق آدم وابنائه ، والحكمة من تمكين ابليس من الوسوسة له فى الجنة ، والحكمة من انظـار ابليس الى يوم يبعثون ، ثم الحكمة من

اعطاء ابليس وسائر الشياطين معــه مكنة الوسوسة لآدم وابنــائه والايعاز لهم بالشر • كذلك يقدم لنا كتاب الله عز وجل الحكمــة التى من أجلها اذن الله عز وجل بوقوع الشر فى الحياة الدنيا •

ان القرآن الكريم يقدم للانســان ، الباحث عن الحق والحقيقة باخلاص ، الحكمة من كل ذلك مقنعة للعقل وموافقة للمنطق ومرضية للنفس ، فى بيان واضح منير يورث فى النفس الاطمئنــان ، ويثبت فى القلب الايمان بالله عز وجل وبحكمته وعدالته المطلقة ، ومن ثم يغرس فيه نور اليقــين •

ويكمن أساس التضليل فى شبهات ابليس السبع فى زعم كاذب ورد فى الشبهة الرابعة فى قوله لعنه الله (••• فاذا لم أســجد لآدم فلم لعننى وأخرجنى من الجنة ، وما الحكمة فى ذلك بعد أن لم أرتكب قبيحا الا قولى : لا أســجد الا لك) • ولسنا هنا فى مجــال الرد على هذه الشبهات أو هذه الشبهة بالذات ، وذلك لان بيــان الحكمة التى تدور الاسئلة السبعة منها ، وكذلك الرد القرآنى على هذه الشبهات السبع ، مبسوط فى مواضعه من الجزء الاول من هذا الكتاب بفصوله التسعة ، ولكنا نود هنا الاقتصار على بيان هذه الكذبة ــ باعتبارها مكمن وعلة التضليل فى الشبهات جميعا ، وذلك بما ورد صريحا مباشرا فى كتــاب الله عز وجل مكذبا لهذه المقــولة • فابليس لم يرفض الســجود لانه اختار الا يسجد لغير الله ، وهو ــ أى ابليس ــ لم يذكر فى تعليــل امتناعه عن السجود ، أنه بسبب اصراره على التوحيد ، بل بين ان كبره واستعلاءه على آدم وحقده عليه هو الذى جعــله يرتكب المعصية • فعلة المعصية هى ذاته ، وليست شيئا خارجا عنهــا • وهذا ما سجله الله عز وجل عليه (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ــ ٣٤ البقرة) فالاباء والاستكبار هما سبب معصية ابليس وليس لانه قال « لا أسجد الا لك » ، والدليــل على ذلك قوله عز وجل فى موضع آخر (ولقــد خلقناكم ثم صورناكم

ثم قلنـــا للمـــلائكة اسجدوا لآدم فســـجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين • قال ما منعك الا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ـ الاعراف ١١ ـــ ١٢) فالحكمة كل الحكمة فى سؤال الله عز وجل له « ما منعـــك ألا تسجد اذ امرتك » فلو كان المانع ـــ كمايزعم هذا الزعم الكاذب ـــ هو معارضـــة الامر بالسجود لآدم مع التوحيد ، أو هو متعارض التكليفين : الاول العام الذى أمر الله فيه ابليس بالتوحيد وافراده بالعبادة مع سائر الملائكة ، والثانى الخاص بالسجود لآدم ، لذكر ابليس ذلك ، ولكنه لا يستطيع أن يخدع الله عز وجل أو أن يكذب عليه ، فقال الحق فى هذه القضـــية ، والعلة التى امتنع بها عن السجود وهى عـــلة ذاتية ، من لدن نفسه المتعالية الرافضة للاقرار بالافضـــلية لآدم عليه السلام • وفى موضـــع آخر شهد أبليس على نفســـه عندما ســـأله الله عز وجل (قال يا ابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى ، أستكبرت أم كنت من العالين • قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ـــ ص ٧٥ ـــ ٧٦) •

كما أن امـــر الله عز وجل للمـــلائكة ولابليس بالسجود لآدم ليس متعارضا مع توحيدهم لله • لان هذا السجود بمثـــابة الاقرار لآدم بالخلافة والتفضيل والتكريم ، وليس هو سجود عبادة • ويتضح لنا ذلك من قول الله عز وجل « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى » فبين الله عز وجل أن عـــلة هذا السجود هو تكريم آدم وتفضيله بخلقـــه بيديه ، كما أن امر الملائكة بالسجود لادم جاء بعد ان أخبرهم الله عز وجـــل بأنه جعله خليفـــة (الايات من ٣٠ الى ٣٤ من سورة البقرة) فكان سجود الملائكـــة له بعد ذلك بمثابة الاقـــرار منهم والاعتراف بخـــلافته •

وعلى ذلك فقول واضعى الشبهات السبع ان ابليس رفض السجود لآدم ، لانه لم يرد أن يسجد لغير الله زور وبهتـــان من صنع شياطين الانس ، ولم يستطع ابليس نفسه أن يزعمـــه او هو لم يحدث منه ، كما أخبرنا بذلك ربنا عز وجل فى كتابه العزيز •

ولكن هذه المكذبة أضحت فى مجال الفكر البشرى حجر الزاوية فى الضلالات والشبهات التى ينسجونها حول مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار • وذلك لانها تتضمن زعما خطيرا كان له أثر خطير فى التفكير البشرى حيال هذه المسألة ، وهو أن أبليس عندما أمر بالسجود لآدم وضع بين امرين متعارضين ، ان أطاع الله فى أحدهما أصبح عاصيا له فى الاخر ، فآثر الا يسجد لآدم ابقاء على توحيده لله وهو يعلم ان مصيره النار • ومن ثم يبدو ابليس — حسب هذا الزعم الكاذب — فى موقف البطل المأساوى أو شهيد التوحيد المظلوم •

وبالمثل يحاول الكفار والفساق أن يصوروا انفسهم فى مثل موقف ابليس المزعوم • فيزعمون أنهم حينما يعصون الله يكونون — حسب زعم الجبرية — خاضعين للامر الالهى والقدر الالهى الذى لا يحدث شىء فى الكون الا بمقتضاه ، ومع ذلك فان هذا الامر الكونى او ما قدره الله عز وجل عليهم يتعارض مع الامر الشرعى المتمثل فى التكاليف الشرعية النازلة بالوحى • اى أنهم يزعمون أن الله عز وجل كلفهم بتكليفين متعارضين وأمرهم بامرين متناقضين ، كما هو الحال بالنسبة لابليس • وفى هذا التعارض تكمن علة مأساة الانسان فى نظرهم •

لقد كان لهذا الزعم الكاذب تأثير كبير على الفكر البشرى فى شتى مناحيه ، وبخاصة فى مجالى الادب والفلسفة •

فبعد التوراة المحرفة التى بين أيدى اليهود من قبل نزول القرآن وحتى الان ، وبعد الاناجيل المزيفة الموضوعة لم تقتصر اثارة مشكلة القدر على هذا النحو الذى يصور فيه ابليس او الكافر من بنى البشر بطلا لمأساة أو شهيدا لحق وواجب ، بل استمرت هذه الصورة الغنوصية الالحادية خلال فكر الالحاد والزندقة الذى تسرب فى ثنايا الفكر الاسلامى والحضارة الاسلامية ، سواء فى مجال الفلسفة أو مجال الادب على حد سواء •

ولكن مهما قال القائلون ، ومهما زيف المزيفون ، فان أقوالهم وتحريفاتهم وتلبيساتهم لا تتعدى هذه الشبهات السبع ، وان تناوبتها الصيغ المختلفة والصور المتباينة ، فالجوهر واحد والاغراض مختلفة باختلاف البيئة والثقافة والحضارة •

شبهات ابليس فى مجال الادب :

لقد سيطرت مسألة تعارض الامرين الصادرين الى الانسان على الادب التراجيدى الغربى خلال عصوره القديمة والوسطى • وتكمن المأساة الانسانية ، فى هذا الادب ، فى أن الانسان هالك أيا ما اختار احد الامرين الصادرين اليه • ومعنى ذلك أن الادب الغربى ــ فى عصريه القديم والوسيط ــ غلبت عليه النظرة الجبرية بالنسبة لما يتعرض له الانسان من احداث فى حياته ، فطبيعته تتجه الى أمور بينما تطلب منه أمور أخرى منافية لها تماما •

وقد تكون علة تعارض الامرين الصادرين الى الانسان أن أحدهما يتمثل فى حب البقاء والرغبة فى الحياة ، وما يتبع ذلك من حب المال والجاه والقوة وكراهية الموت ، وقد يتمثل ذلك كله أو بعضه عند هؤلاء الادباء فى السلطة الزمنية المتمثلة فى الحاكم • والاخر يتمثل فى الايمان بالخلود والرغبة الفطرية الدفينة فى النفس البشرية لعمل الخير للفوز بالاخرة ، ويمثل ذلك كله عندهم السلطة الدينية •

وما يجعل من حياة الانسان مأساة الانسان هو اختياره وايثاره لاحدى السلطتين وتضحيته للاخرى ، بالرغم من كونه معاقبا ومعذبا على ذلك ، اى فى كلا الحالين • ومثال ذلك مسرحية « أنتيجونا » حيث وجدت أنتيجونا نفسها بين أمرين : اما ان توارى جثة أخيها القتيل التراب مذعنة لامر السماء القاضى بدفن الموتى ، واما أن تتركها للوحوش والنسور مذعنة لامر الملك كريون •

ومن ناحية أخرى ، فان الملك كريون نفسه عندما قتل أخاها وغيره كان بطلا مأساويا أيضا ، حيث وجد نفسه بين أمرين : العمل بالقوة

والقسوة على اعادة النظام والامن وقمع الفتنة فى المدينة حسما للشر ، وليس من سبيل الى ذلك الا باراقة الدماء .

وكذلك كان شـــقيق أنتيجونا هو الاخر بطلا مطحـــونا بين واجبين متعارضـــين .

ويتضح لنـــا التعارض بين الامرين الذين واجهتهما انتيجونا عندما يسألها الملك كريون :

ـ وكيف جرؤت على مخالفة الامر ؟

ـ ذلك لانه لم يصدر عن زيوس (هوكبير الالهة عند اليونانيين). ولا عن العـــدل ، ولا عن غيرهما من الالهـــة الذين يشـــرعون للناس قوانينهم ، وما أرى أن أمورك قد بلغت من القوة بحيث تجعل القوانين التى تصدر عن رجل أحق بالطاعة والاذعان من القوانين التى تصـــدر عن الالهة الخالدة ، تلك القوانين التى لم تكتب والتى ليس الى محوها من ســـبيل (١) .

وهكذا انتهت انتيجونا حين خيرت بين أمرين ، الى ان تختار الادوم والابقى ، وان كان هذا الاختيار ينتهى بها الى مأساة الانسان .

ولعله لا توجد مسرحية فى القـــديم والحديث تثبت جبرية محضة يرزح تحت ثقلها الانسان ، وتثبت مواجهة الارادة الانسانية للامرين المتعارضين ، مثل مسرحية أوديب . حتى اضحى نص هذه المسرحية مجالا يستعرض فيه كبار الادباء عقيدتهم فى القضاء والقدر ، وذلك بادخال التغييرات والتحويرات فى الحوار والاحداث بمـــا يؤدى الى اظهار رأى الكاتب (٢) .

---

(١) د. طه حسين : من الادب التمثيلى اليونانى (سوفوكليس ص ١٥١) .

(٢) مثال ذلك النص الخاص بالاستاذ توفيق الحكيم حيث حاول أن يثبت فيه حرية الانسان واختياره ، ويحدد له دورا حيال دور القـــدر . وذلك بالرغم من أن النص اليـــونانى يثبت الجبرية المحضة .

أما الكاتب اليونانى سوفكليس فيتصور القدر سيفا صارما لا سبيل الى افلات رقبة الانسان منه • هذا من ناحية ، ومن ناحية أخــرى فان أحداث القدر الجبرية التى لا يمكن للانســـان ان يتحاشاها بأى حال من الاحوال ــ وهى بمثــــابة الامر الكونى ــ تأتى متعارضـة ومخالفة لامر الخير والواجب ومقتضيات الفطرة الانسانية السليمة ، وهى بمثابة الامر الشرعى •

فالملك وزوجته جوكاستا يرزقان طفــلا هو أوديب ، ولكن الكاهن ينبؤها بان هذا الطفل سيقتل أباه ويتزوج أمه • فيأمر الملك بارســال الطفل الى البرية لتأكله الوحوش او يموت جوعا وبردا • ولكن الخادم يشفق عليه ويتركه عند أحد الرعاة ، فيتربى ويكبر • ويسمع بقصة وحش يهدد المدينة المجاورة ويحاصرها وقد صرع كل من تصدى له من الابطال ، فيخرج اليــه أوديب ويتصدى له ، وينتصر عليــه ويخلص المدينة من شره ، فيكتسب محبة وولاء اهل المدينــة ، ومن ثم تنتهى الاحداث الى حـدوث صراع بين أوديب وأنصــاره وبين ملك المدينة فينصر أوديب ، ويقتــل الملك الذى هو أباه • ويتــولى الملك ويتزوج الملكة التى هى أمه • وهكذا تتحقق نبوءة الكاهن •

وهذا يعنى أن الانسان مسير ومجبر فى الامور والافعــال الخلقية التى يحاسب عليها الانسان ويترتب عليها مصيره فى الحياة وبعد الموت وأن علة مأساة الانسان المتمثلة فى أوديب هى مواجهة ارادته بأمرين متعارضــين : الاول أمر الواجب والفطرة المتمثل فى القيــم الخلقية الواجب تحقيقها بالفضائل • والثانى هو القضــاء النافذ الذى أجبر أوديب وجميع ابطال المسرحية عن طريق التسلسل الحتمى للاحداث على ارتكاب هذه الافعــال •

لقد اختار سوفكليس اليونانى أبشع الجرائم التى يمكن أن ترتكب على ظهر الارض ، وهما قتــل الوالد ونكاح الام ، وحاول أن يثبت وقوعهما منه رغما عنه ، ليقول : ماذنب اوديب فيما فعــل ؟ ألم يكن

مكتوبا ، ومقدرا عليه من قبل ؟ ومن ثم يعطى بذلك لمن يفعل أى جريمة المبرر الذى يتبرأ به من مسئوليته الخلقية •

لقد شنقت جوكاستا نفسها ، وفقأ أوديب عينيه ، وأخذ بنـــاته من أمه يتجول بهن بين البلاد متسولا •

وهكذا أراد الكاتب ان يبرز مأساة المصير الانسانية من وجهة نظر ابليسية محضـــة ، وعلى أساس الشبهات السبع مبينـــا أن المعصية الكبرى التى يشقى بها الانسان الضال شقاء أبديا ، انمـــا هى مقدرة عليه ، ولا يستطيع الافلات منها ، وليس بين هذا الزعم الباطل وبين زعم ابليس فى تبرير معصيته أدنى فرق يذكر •

ان مأساة الانسان المزعومة فى نظــر هؤلاء الجبريين تقـــوم على نفس الكذبة التى قامت عليها مأساة ابليس المزعومة •

وتقوم مأساة اوديب على نفس الفكرة الخاطئة التى قامت عليها مأساة انتيجونا ، حيث يجد اوديب نفســـه امام أحد امرين ، كلاهما يحتم عليه مصيرا سيئا : الاول هو الواجب الانسانى الخلقى الذى يدعوه الى تخليص المدينة من الوحش الذى يهدد حياة أهلها ، وهذا الامر فى حد ذاته خير يدعو اليه الضمير والواجب • والثانى هو رفض مصارعة الوحش وايثار الســـلامة ، وهو ما يتعارض مع فضيلتى الشـــجاعة والتضحية• ولكن عندما يختار أوديب ما يمليه عليه الواجب والفضيلة، فان هذا الاختيار بعينه هو الذى يضعه فى مواجهـــة الصراع الدموى مع أبيه وهو الذى يغرس رأسه فى وحـــل الرذيلة ، حيث يؤدى الى قتل الاب والزوج من الام •

وكأن المسرحية ــ يشـــاركها فى ذلك كثـــير من مسرحيات وروايات التراجيديا الغربية قديما وحديثا ــ تريد أن تقول للانسان أنه عندما يبدو أمامك طريقان للاختيار ، فانك حينما تختار أحدهما ، فان أيا ما اخترت فانه يؤدى بك الى مأساة ، وان ما يبدو لك اختيارا حرا ، انما هو جبر مقـــدر عليك •

اى ان مأساة الانسان تكمن فى أنه لا مفر من مواجهة المأساة فى حياته • وهذه الاخيرة هى التى يتعلق بها مصيره الابدى •

ولا شك ان لعقيدة الجبر أثر خطير على النظام الخلقى فى الحياة الاجتماعية ، كما أنها لا تقل خطرا على الشعور والدوافع الخلقية عند الفرد • وذلك لانها فى نظر معتنقيها مبرر مقبول لارتكاب الشر وفعل الاثام •

فاعتقاد الانسان بأنه مسير يجعله قبل ارتكاب الشر والاثم فى حالة يأس تام من مقاومة الرغبة والدافع الى الرذيلة • فينتهى هذا الاعتقاد بالفرد الى التسليم بعجزه التام عن فعل الخير او الامتناع عن الشر •

ومن ناحية أخرى ، تقضى عقيدة الجبر فى نفس صاحبها على كل نوازع الخير ودوافع الفضيلة ، وذلك بقضائها على النفس اللوامة التى من شأنها محاسبة صاحبها على فعل المحرمات وزجره عن معاودة ارتكاب الاثم وتحميله المسئولية الخلقية لفعله ودفعه الى التوبة والاستغفار والندم • كل ذلك بحجة ان ماحدث ليس سوى أمرا قد كتب ولا مناص من وقوعه •

ومن ثم يتبين لنا الى أى مدى يساهم الادب او الفكر القائم على اعتناق الجبرية والمؤسس على شبهات ابليس فى هدم الفضيلة والخير كما حدث فى العالم الغربى القديم •

وامتدت عقيدة الجبر وتعليل الشرور بالقدر الى أعمال كثير من الروائيين العرب المعاصرين • وأبرز مثال على ذلك هو انتاج الاستاذ نجيب محفوظ ، حيث نجد أن المحور الذى تدور حوله معظم رواياته هو أن معظم الشخصيات والابطال يدورون فى مدارات لا يملكون حيالها دفعا او تغييرا أو تحويلا، حتى فيما يقترفونه من أفعال خلقية•

ففى روايته « بداية ونهاية » ــ على سبيل المثال ــ تنتهى بطلة الرواية الى احتراف البغاء كنتيجة حتمية لمقدمات جبرية ، وعندما

يكتشف أمرها لاخيها الضابط لا تجد بدا من القاء نفسها فى نهر النيل على مرأى من عينيه ، ثم يتبعها هو الاخر بالانتحار قائلا « فليرحمنا الله » مشيرا بذلك الى أن كل ذلك كان قـــدرا عليهم جميعا • ذلك لان الاحداث تسير منذ البداية الى النهاية وليس لابطال روايته فيها أدنى تأثير يذكـــــر •

ويضيق المجـــال هنا عن حصر الامثلة الكثـــيرة فى الادب الروائى المعاصر الذى اعتنق أصحابه الجبرية ، ودعوا اليهـــا كامثال الدكتور طه حسين فى « الايام » ويوسف السباعى فى كثير من رواياته وغيرهما •

ويصور هؤلاء الكتـــاب الوجود البشرى من خلال منظـــار أسود كمأساة تقوم على نفس الاساس الفكرى الخاطىء الذى تقـــوم عليه المأساة عند اساتذتهم من أدباء الغرب وهو نفس الفرية التى أسس عليها واضعوا التوراة والانجيل شبهات ابليس السبع • مما جعل من ابليس بطلا مأساويا مظلوما بسبب تعارض الامرين الالهين الصادرين اليـــــه •

ويأبى الاستاذ توفيق الحكيم الا أن يشارك اهل التوارة والانجيل فى التتلمذ على شبهات ابليس، حتى أنه بالرغم من أن كثيرا من رواياته الاولى ـــ مثل نصـــه الخاص عن « أوديب » و « أهل الكهف » وغير ذلك من انتاج شبابه ـــ تدل على اعتناقه لفكرة القدرية المقابلة للجبرية والتى تنسب للانسان قدرة خاصة على اكتساب افعاله وتنكر جبرية القدر عليه وتجعل الانسان رب أفعاله صالحة وطالحة ، أقول ، بالرغم من ذلك ، فانه يتناقض مع نفسه ، ويعتنق الجبرية ـــ ربما رغبـــة منه واصرارا على تمجيد ابليس ، وترديد ما ورد فى التوراة والاناجيل من محاور تدور حولها شبهاته السبع •

لقد حاول الاستاذ توفيق الحكيم فى قصـــة له بعنوان « الشهيد » أن يقول فيها ان العالم لا يمكن ان يقوم الا بابليس وأفعالة الشريرة

وغوايته للناس • وأن الاله هو الذى خلقه ، وكتب عليه هذه الحياة الشريرة ، ودفعه اليها ، والزمه بها ، لاستقامة أمر الكون على ما هو عليه الان • لان العالم لا يمكن الا ان يكون كذلك •

ومن ثم ينتهى الاستاذ توفيق الى تصوير ابليس فى صورة البطل الشهيد المظلوم فى دنياه وآخرته• وينسب بذلك ــ على سبيل الاضمار والاخفاء ــ الظلم الى الاله عز وجل ، وذلك كنتيجة حتمية لتصوير ابليس بهذه الصورة ، ثم الحكم عليه بالعذاب الابدى •

يقول الاستاذ توفيق أن ابليس أراد ذات يوم ان يتوب الى ربه ، وأن يقلع عن فعل الشرور ، وان يتفرغ لفعل الخير والعبادة فذهب الى شيخ الازهر ليتوب على يديه ، فدار بينهما الحوار التالى :

ــ شيخ الازهر : ايمان الشيطان عمل طيب ولكن ••

ــ ابليس : ماذا ؟ اليس من حق الناس أن يدخلوا فى دين الله أفواجا ؟ أليس من آيات الله فى كتابه الكريم « فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » هأنذا اسبح بحمده واستغفره ، وأريد ان أدخل فى دينه خالصا مخلصا ، وأن أسلم ويحسن أسلامى ، وأكون نعم القدوة للمهتدين •

وتأمل شيخ الازهر العواقب لو أسلم الشيطان ، فكيف يتلى القرآن؟ هل يمضى الناس فى قولهم «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»؟ ولو تقرر الغاء ذلك لاستتبع الامر الغاء أكثر آيات القرآن ••• فان لعن الشيطان والتحذير من عمله ورجسه ووسوسته لما يشغل من كتاب الله قدرا عظيما ••• كيف يستطيع شيخ الازهر أن يقبل اسلام الشيطان دون ان يمس بذلك كيان الاسلام كله ؟!

رفع شيخ الازهر رأسه ونظر الى ابليس قائلا : انك جئتنى فى أمر لا قبل لى به ••• هذا شىء فوق سلطتى ، وأعلى من قدرتى ، ليس فى يدى ما تطلب ••• ولست الجهة التى تتجه اليها فى هذا الشأن •

ابليس : الى من أتجه اذن ؟ ألستم رؤساء الدين ؟ كيف أصل الى الله اذا ؟ اليس يفعل ذلك كل من أراد الدنو من الله ؟

أطرق شيخ الازهر لحظة ••• وهرش لحيته ثم قال :

نية طيبة ولا ريب ! ••• ولكن ••• على الرغم من ذلك أصارحك ان اختصاصى هو اعلاء كلمة الاسلام ، والمحافظة على مجد الازهر ، وأنه ليس من اختصاصى أن أضع يدى فى يدك » •

ويعنى هذا أن الاستاذ توفيق الحكيم يسجل على لسان شيخ الازهر ضرورة وجود ابليس لبقاءالدين واثبات صحته• وأن اختصاص شيخ الازهر وعلماء الدين وأهميتهم مستمد من وجود ابليس ، ولو زال ابليس من الارض لانتهى مبرر استمرار شيخ الازهر وعلماء الدين بل يقصد أن صحة مبادىء الدين تقوم على فرض واه هو استمرار ابليس فى الكفر وهو يقرر هذه المعانى صراحة حين يتساءل :

« كيف يمحى ابليس من الوجود دون أن تمحى كل تلك الصور والاساطير [1] والمعانى والمغازى التى تعمر قلوب المؤمنين وتفجر خيالهم ؟ ••• ما معنى يوم الحساب » اذا محى الشر من الارض ؟ وهل يحاسب أتباع الشيطان الذين تبعوه قبل ايمانه أم تمحى سيئاتهم ما دامت توبة ابليس قد قبلت ؟ •• » •

ولكن ابليس لم يستسلم لرفض شيخ الازهر توبته فصعد الى السماء وطلب من جبريل (عليه السلام) التوسط عند ربه لقبول توبته فيقول له جبريل (٢) :

---

(١) لو كان مقصد الاستاذ توفيق الحكيم أن الغيبيات فى القرآن والسنة أساطير فانه يكون كافرا .

(٢) هذا حسب زعم الكاتب ، وان كنا نرى أن اعتبار جبريل متحدثا فى حوار قصصى خيالى نوع من الكذب على الله عز وجل لان جبريل أمين الوحى ورسول الله عز وجل الى الانبياء والمرسلين .

ــ : نعم ، ولكن زوالك من الارض يزيل الاركان ويزلزل الجدران، ويضيع الملامح ويخلط القسمات ، ويمحو الالوان ويهدم السمات • فلا معنى للفضيلة بغير وجود الرذيلة ••• ولا للحق بغير الباطل ••• ولا للطيب بغير الخبيث ••• ولا للابيض بغير الاسود ••• ولا للنور بغير الظلام ••• بل ولا للخير بغير الشر ••• بل ان الناس لا يرون نــور الله الا من خلال ظلامك • وجودك ضرورى فى الارض ما بقيت الارض مهبطا لتلك الصفات العليا التى أسبغها الله على بنى الانسان !

ــ وجودى ضرورى لوجود الخير ذاته ؟! نفسى المعتمــة يجب ان تظل كذلك لتعكس نور الله ! سأرضى بنصيبى الممقوت من أجل بقــاء الخير ومن أجل صفاء الله [١] •• ولكن •• هل تظل النقمة لاحقه بى ، واللعنة لاصقة باسمى على الرغــم مما يسكن قلبى من حسن النيــة ونبيل الطــوية ••• ؟

ــ نعم يجب ان تظل ملعونا الى آخر الزمان ••• اذا زالت اللعنة عنك ، زال كل شىء ، وبكى ابليس وترك السماء ، مذعنا ، وهبط الارض مستسلما ، ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء ، رددت صداها النجوم والاجرام فى عين الوقت ، كأنها اجتمعت كلهــا معها لتلفظ تلك الصرخة الدامية [٢] : انى شهيد ! انى شهيد ••

ولا شك ان توفيق الحكيم مدلس وضال او مضلل فيما يتصوره عن حقيقة ابليس وعلاقته بنظام العالم ، وهو بهذا التضليل تلميذ مخلص لتوراة بنى اسرائيل فى هذه القضية •

---

(١) هذا التعبير سىء جدا ، ويتضمن الاساس الفكرى للشرك ، حيث انه يثبت حاجة الاله الى غيره لبقاء صفائه ، ولو أن الحاجة التى يثبتها معرفية وليست وجودية الا أن التوحيد الاسلامى يقتضى استغناء الاله عن غيره وجوديا ومعرفيا •

(٢) يحاول توفيق الحكيم بهذا التعبير القــول بأن الكون يشهد مع ابليس بأنه مظلوم وشهيد وأن الاله ظالم كبرت كلمــة تخرج من فيه ان يقول الآ كذبا .

ولسنا فى معرض الرد على هذا الافك الان فذلك مبسوط فى موضعه من الجزء الاول تحت عنوان « حقيقة الشيطان » ، ولكن نكتفى بابراز الضلالات الاتية فى قصته :

الاولى : ان توفيـــق الحكيم يصور شـــيخ الازهر على غرار احد الباباوات الكنسيين الذين يغفرون ويتوبون على من يريدون من الناس، وهو بذلك يجهل (ولعله يعلم ويتجاهل) أنه ليس فى الاسلام رجال دين ، وأن التوحيد الاسلامى يمنع وجود وساطات بين العبـــد المبتلى وبين الله عز وجل ، وأن من أصول التوحيـــد الاسلامى توجه الراغب فى التوبة الى خالقه مباشرة دون واسطة من أحد من الناس او الانبياء او الملائكة .

الثانية : ان المخلوق المبتلى انسا كان أو جنـــا ، اذا اراد أن يتوب مخلصا صادقا ، فان الله عز وجل ــ كما وعد ــ يتوب عليه ويغفر له حتى لو جاءه بمثل ملء الســـماوات والارض ذنـــوبا . وأنه لا يستثنى من ذلك حتى شياطين الانس والجن .

الثالثة : ن ابليس لا يريد التوبة ، فان الباعث له على المعصية كان ذاتيا ، استكبارا وحقدا وحسدا من نفســـه على آدم . ومازال باعثه النفسى من ذاته . ولما كان شرط قبول التوبة هو الاقلاع عن المعصية وابداء النـــدم وعقد العزم على تركها . فان توبة ابليس ــ اذا أراد التـــوبة ــ حسب اصول الاسلام ، مقبـــولة بشرط اعـــلان ندمه على معصيته واستعدادة للسجود لآدم . والذى يمكن استنباطه من الايات التى تتناول معصية ابليس ، أن الله عز وجل لم يطـــرده من رحمته ، فور امتناعه عن السجود لآدم ، بل سأله عن الذى منعه عن السجود ، فأعطاه الفرصة للندم والتوبة والسجود . فكان رد ابليس وبيانه هو الاستكبار والاســـتعلاء على آدم عليه الســـلام . وهذا الاستعلاء والاستكبار والحقد على آدم هو الدافع له الى يوم الدين لفعل الشر ، وللايعاز به بين الناس .

وبذلك قطع ابليس على نفسه خط الرجعة الى طاعة الله عز وجل والتوبة اليه ، فأعلن اعلانا واضحا صريحا عزمه على المضى الى النهاية فى طريق المعصية ، بالرغم من علمه بمصيره المترتب على اختياره • لان حقده على آدم واستكباره النابع من ذاته مستمر ومتزايد ، وهذا الحقد هو الدافع له الى محاولة الايقاع بآدم وأبنائه فى نفس المصير الذى هوى اليه •

ويعرض القرآن الكريم هذه الحقائق الثابتة فى أكثر من موضع يقول الله عز وجل : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم• ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين • قال ما منعك الا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين • قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين • قال أنظرنى الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين • قال فبما أغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم ـ الايات من ١١ ـ ١٦ سورة الاعراف•

ولا شك أن الذى يطلب من الله عز وجل أن ينظره ويمهله الى يوم يبعثون ، هو فى الحقيقة مصر على معصيته ، غير نادم عليها مستمر فيها الى يوم يبعثون • يتأكد هذا الاختيار الابليسى من اعلانه وتأكيده العزم على محاولة اضلال الناس • وهذا يجعل توبة ابليس بالذات مسألة باطلة ، لان التوبة لابد أن تنبع من نفس العبد ، واعلان ابليس وبيان عزمه يدل على استحالة حدوث هذه الرغبة فى نفسه الى يوم الدين ، لانه قد اختار المعصية اختيارا نهائيا لا رجعة فيه •

بل ان مصير ابليس قد تحدد نهائيا بعلمه وبموافقته وبقبوله لهذا المصير ورضائه به فهو قد قبل اللعنة الابدية ، ولم يبد لله عز وجل أى رغبة فى التخلص من هذا المصير ولم يطلب منه رحمته او مغفرته ، ولم يبد ندمه ، وانما اصر على المعصية الموجبة لهذه اللعنة ـ يقول الله عز وجل :

قال ابليس مالك الا تكون مع الساجدين ، قال لم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون « ٣٢ ـ ٣٣ سورة الحجر » •

وهذا الرد من ابليس بيـــان منه على تصميمة على المعصـــية وعدم العودة الى الطاعة •

قال فأخرج منهـــا فانك رجيم ، وان عليك اللعنـــة الى يوم الدين ٣٤ ـ ٣٥ الحجر •

وهنا علم ابليس يقينـــا بجزائه على كفره ـ وكان يتوقعه قبـــل اخبار الله عز وجل له ـ ولكنـــه ـ رغم ذلك ـ لم يبد النـــدم ، ولم يتراجع ، فقبل بذلك أن يكون ملعونا الى يوم الدين مرتين : مرة عندما اختار المعصية وهو يعلم جزاءه عليها ، ومرة عندما سأله الله عز وجل عن المانع له عن السجود فأقـــر بانه من ذاته وباختيـــاره ، استعلاءا واستكبارا على آدم ، مبديا اصراره على المعصية • ومن ثم قبل ابليس بذلك ان يكون ملعونا الى يوم الدين وان يخلد فى النـــار • ولكن كل ما طلبه من الله عز وجل هو الامهال الى يوم البعث •

قال رب انظرنى الى يوم يبعثون ، قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم « ٣٦ ـ ٣٨ سورة الحجر » •

وهذا كله يعنى فى النهـــاية اصرار ابليس على الافســـاد والفسق والمعصية والكفر منذ رفضه للسجود وحتى البعث ، حتى انه ليقسم بعزة الله عز وجل أنه سيعمل على غواية الناس ، خـــلال مدة الامهال الى يوم البعث •

قال فبعزتك لاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ـ ٨٢ـ٨٣ سورة ص •

كل ذلك يدل دلالة قاطعـــة على أن أبليس قد قطـــع على نفسه خط

الرجعة الى الله عز وجل ، وأنه آثر الحياة الدنيا واختارها مستغنيا عن الاخرة • فأعطاها الله عز وجل له بناء على اختياره• وعلى ذلك ، فندم ابليس ورغبته فى التوبة فرية كبرى ، وفرض خيالى ، مخالف لما ورد على لسانه فى القرآن الكريم • ومن ثم فالفرض الخيالى الذى بنى عليه الاستاذ توفيق قصته باطل ، ونقصد به رغبة ابليس فى التوبة ، وما بنى على باطل فهو باطل • ولكن هذا الكاتب يستخدم الادب والفن وما اتاه الله من خيال وقدرة على استخدام الحوار لتلبيس الحق بالباطل ، والوصول بالخداع الى نتيجة باطلة ، وهى : أن ابليس مظلوم وشهيد •

الرابعة : أنه ليس يوجد نوع من المخلوقات العاقلة اسمه الشيطان وانما الانواع العاقلة ثلاثة : الانس والجن والملائكة ، منها نوعان للابتلاء هما الانس والجن • والذين يفسقون عن طاعة الله ويكفرون به من هذين النوعين ، يصبح كل منهم شيطانا • وابليس أحد هؤلاء ، فان زال أو أسلم فثم ملايين غيره من الانس والجن أصبحوا بأفعالهم الاختيارية شياطين • فابليس لم يكن شيطانا قبل المعصية ، كذلك ليس هو الشيطان الوحيد •

كما أنه ليس للشيطان على الانسان سلطان فيما يفعل من شر ، سوى الايعاز به وتزيينه لفاعله فقط • فقول الاستاذ توفيق ان زوال ابليس يدمر نظام الكون باطل ، لان الانسان وحده قابل للشر حتى بدون وسوسة ابليس له • أفلا يرى الكاتب الكبير منحوله من شياطين الانس من بنى اسرائيل وقادة امم الباطل وأئمة الكفر والدعاة الى الضلال من المفكرين والادباء والفنانين ، مافاق دعوة ابليس وجنوده من الجن الى الشر بمراحل كبيرة •

ان وجود الشر والاشرار ــ نتيجة طبيعية لخلق الله عز وجل للانس والجن أحرارا مختارين ، اذ يقتضى كونهم احرارا اختيار البعض للخير واختيار البعض الاخر للشر ، فحرية المخلوق المبتلى هى علة

الشر فى العالم ، وليس ابليس هو علة الشر ، الا بما يخص ذاته ومعصيته وأفعاله الخاصة ، بل ان ابليس وكل الشياطين وكل العصاة أصبحوا أشرارا لان الله خلقهم أحرارا فأختاروا الكفر والمعصية على الايمان والطاعة • وعلى ذلك فقول الاستاذ توفيق أن توبة ابليس تعنى انتهاء الشر من العالم قول باطل ومن قبيل الوهم والجهل بطبائع الناس •

الخامسة : ان بعض الشياطين يتوبون الى الله عز وجل ، ويسلمون له فيتوب الله عليهم ويقبل اسلامهم • من ذلك ما جاء فى السنة الصحيحة عن اخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم لام المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، أن لكل انسان شيطان حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له شيطان يحاول ان يوسوس له ، ولكن الله عز وجل أعانه عليه فأسلم • وهذا يفيد قابلية شياطين الجن والانس للتوبة ويفيد ، أيضا قبول الله عز وجل توبة التائب منهم • ومن ثم فابليس مخلد فى النار لانه مصر على معصيته غير نادم ولا راغب فى التوبة • وليس كما يزعم هذا الكاتب بأن هذا مقدرا عليه وأنه بذلك مظلوم وشهيد ، مخالفا ومعارضا بهذا الزعم قول الله عز وجل فى ابليس وتصوير القرآن الكريم له •

السادسة : أن هذه النظرة الجديدة التى ينظر بها الاستاذ توفيق الى ابليس ، أو بتعبير أدق ــ التى يدعونا اليها ــ تتضمن فى طياتها بذور الثنوية القائلة بالهين : اله للخير والحق والنور ، واله للشر والباطل والظلمة ، ويمكن أن ندرك هذه البذور فى محاولة الكاتب اثبات ضرورة وجود الشيطان لنظام العالم ، والحديث عنه كأنه أحد أركان الوجود التى لا يمكن للكون ان يستمر بما هو عليه من نظام وقيم وموازين ، اذا زال ابليس أو الشيطان • وهذه الفكرة تعطى ابليس مشاركة للاله فى نظام الكون ، لانه يصبح ضرورة للكون ، كما أن الاله ضرورة للكون ، وقد أتى الكاتب ــ كذبا وبهتانا مستترا ومتذرعا بالاسلوب القصصى ــ بهذا المعنى على لسان جبريل فى قوله .

ـ نعم ولكن زوالك من الارض يزيل الاركان ، ويزلزل الجـدران ، ويضيع الملامح ويخلط القسمات ، ويمحو الالوان ويهـدم السمات ، فلا معنى للفضيلة بغـير وجود الرزيلة ، ولا للابيض بغير الاسود ، ولا للنور بغـير الظلام •• بل ولا للخير بغـير الشر •• بل ان الناس لا يرون نور الله الا من خلال ظلامك •• وجودك ضرورى فى الارض ما بقيت الارض •

وليس هذا القـول سوى الاساس الفلسفى لعقيـدة الثنوية التى تقول باثنين من الالهـة ، فقوله لا وجود للخير بغـير الشر ، يسلب الاستقلال الوجودى عن الاله وكونه ضرورة لوجود كل شىء ، ويثبت أن غيره ضرورة لوجوده أو حتى ليصبح لوجوده معنى •

والتوحيد الاسـلامى يثبت ان الله عز وجل ضرورة الخـلق كله ، ولا ضرورة وجوديةأو معرفية عليه من سواه فهو الموجود الازلى الذى لا يشاركه فى أزليته غـيره • وهو خالق كل شىء وهو فى غنى عن كل شىء ولا شىء فى غنى عنه •

كذلك الله فى غنى عن كل شىء معرفيا ، كما أنه فى غنى عن كل شىء وجوديا ، فهو معروف بذاته وصـفاته • وهو فى غنى عن أن يعـرفه غيره ، ولا يمكن لاى من مخلوقاته أن يعرف الله حق المعرفة او يقدره حق قدره • والله عز وجل مستغن بمعرفته لذاته عن معرفة سواه له • بينما كل ما سواه من المخلوقات لا يستغنى فى وجوده وفى معرفته عن معرفة الله عز وجل باعتباره الاله الحق وخالق كل شىء •

يقول الله عز وجل شاهدا لنفسه بانه لا اله الا هو وكفى به شهيدا • شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ـ ١٨ آل عمران •

وشهادة الله عز وجل بانه لا اله الا هو فى الازل قبل بدء الخلق كله ، تثبت استغناء الله عز وجل عن أى ضرورة وجودية من غيره ، كما تثبت فى نفس الوقت استغناءه عن أى ضرورة معـرفية من غيره ، أى أنه

عز وجل ليس فى حاجة لكى يعرفه أحد • وانما كل مخلوقاته فى حاجة اليه فى وجودها اى فى خروجهـا من اللاوجـود الى الوجـود ثم فى استمرار ذلك الوجود • كما أنها فى حاجة لكى يستمر وجودها أن تعرفه وتسبحه وتقدسه • فالملائكة وأولو العلم عنـدما يشهدون أنه لا اله الا هو انما ذلك لخير وجودهم وليس تنتفع الله هذه الشهادة بشىء• كما أن اجماع الانس والجن على انكار هذه الشهادة لا يضـره فى شىء ولا يغير من الحقيقة الازلية الابدية المطلقة وهى أنه لا اله الا الله •

ولا شك أن ما أورده الاستاذ توفيق ناسبا اياه لجبريل عليه السلام يتعارض مع هذا الاساس من أسس التوحيـد الاسلامى ، لانه يثبت ضرورة على الاله فى الوجود والمعرفة ، ويثبت لابليس ضرورة لمعرفة الخير والحق ، كما يثبت له ضرورة لوجود العالم على ماهو عليه• وهذه الضرورة التى يثبتها الاستاذ توفيق لابليس هى الاسـاس العقيدى لديانة الثنوية التى تقول بالهين اثنـين • وهو يستدرج القارىء الى هذه النتيجة الوثنية من مقدمة باطلة ، ببراعة رجل الحـوار الحاذق دون أن يشعر القارىء العادى بمواضع التلبيس والتضليل والخداع•

السابعة : ان توفيق الحكيم يرمي — من قصته — الى تغيير مشاعر الكراهية والعداء التى عند الناس نحو ابليس ، ان وصـفه لابليس بالشهادة يعنى أننا يجب ان نغير من موقف الانسان التقليدى نحوه ، بحيث تتحـول من موقف العداء والحذر منـه ، الى موقف الاجلال والتقدير ، والشعور بالشفقة والتعاطف معه •

وهذه النتيجة التى يرمى اليها هذا الكاتب رفض لقول الله عز وجل:

••• ان الشيطان لكم عـدو ، فاتخذوه عدوا ، انمـا يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير « آية ٦ سورة فاطر » •

وقوله عز وجـل :

ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين — آية ١٦٨ • سورة البقـرة •

ولئن كانت قصة «الشهيد» للاستاذ توفيق ترمى الى ذلك بالاسلوب القصصى غير المباشر الصريح الذى يعمل على ترك هذه النتيجة كأثر فى نفس القارىء دون التصريح بها ، فان كاتبا آخر من تلاميذ ابليس فى الشبهات ، يدعو الى هذه النتيجة صراحة فى مقال له بعنوان « مأساة ابليس نظرة جديدة الى موضوع قديم » [1] يستخدم فيه أساليب الغش والخداع والتزوير التى يمكن أن يزاولها كاتب بالقلم . من ذلك استدلاله على ضلالاته بايراده أقوالا وعبارات مبتورة لبعض مشاهير علماء المسلمين المخلصين على طريقة من يستدل بقول الله عز وجل (ولا تقربوا الصلاة) على نهى القرآن عن الصلاة . وهذا أسلوب للتحريف والتدليس معروف للجميع ، ولكن الكاتب يستخدمه معتمدا على عفوية القارىء العادى ، وعدم معرفته بخلفيات هذه العبارات التى يستخدمها .

وهذا الكاتب ــ ويدعى دكتور صادق جلال العظم [2] لم يخرج فى مقاله عن شبهات ابليس ، وليس له من اضافة تذكر سوى صياغتها فى أسلوب عصرى ، ومن ثم فمقاله فى الحقيقة « نظرة ابليسية قديمة الى موضوع قديم » وليس « نظرة حديثة الى موضوع قديم » كما أسماه ذلك أن مقاله ــ مع استخدامه لكل الشبهات بلا استثناء بصيغ مختلفة ــ يدور حول فكرة باطلة أتت فى الشبهة الرابعة فى قول ابليس « لا أسجد الا لك » صاغها الكاتب فى عنوان فرعى يقول (اصدار على التوحيد فى أصفى معانيه) ومن ثم يبنى دعوته على أساس أن مأساة أبليس المزعومة تتضمن نوعى المأساة التى عرفها الانسان فى فكره وأدبه ، وهما مأساة الغربة ومأساة المصير ، وأساس المأساة المزعومة عنده هو تعارض الامرين الصادرين الى ابليس . ويرى الدكتور العظم هذا أن ابليس اجتاز مأساة الغربة عندما انفرد وحده دون

(١) نشرته مجلة « حوار » العدد الثانى السنة الرابعة . كانون ثان ، شباط ــ يناير ، فبراير ١٩٦٦ . صدرت بقرار الحكومة اللبنانية الممنوح للدكتور جميل جبر بوصفه ممثل المنظمة العالمية لحرية الثقافة .

(٢) يعمل استاذا للفلسفة فى الجامعة الامريكية ببيروت

الملائكة باصراره على التوحيد ، فأصبح غريبا بينهم [1] كما أنه اجتاز مأساة المصير بطرده من السماء وقضاء حياته ملعونا فى الارض •

ويرى الكاتب أن ظلما فادحا وقـــع على ابليس ، وان هذا الـــذى حدث له هو نتيجة ايقاع الاله له بنصب فخ نصبه له بمكره • وهـــو يفسر مكر الاله الذى وصف به نفسه فى القرآن الكريم بمعنى لا يليق بالالوهية حيث يفسره بمعنى الخداع والمخاتلة والغش والكذب •

ثم بعد ذلك ينتهى بمقاله صراحة الى نفس النتيجة التى دعانا اليها توفيق الحكيم ضمنا ، وهى أن ابليس مظلوم وشهيد ، وهو أحد أركان هذا الكون ، ولا يمكن أن يستمر العالم بما هو عليه من نظام ، الا اذا استمر ابليس فى دوره كمصدر للشر • ومن ثم فهو بذلك منفذ لارادة الاله ، ولابد ان يثيبه الاله فى النهاية ثوابا حسنا على ما يقـــوم به ، باعتبار ان ما يقوم به ضرورى لبقاء العالم على ما هو عليه • ومن ثم يتوقع الكاتب ان مصير ابليس لابد أن يكون الجنـــة • ويفسر ما جاء فى القرآن الكريم عن وعيد الله عز وجل له بالخلود فى النار ، بأنه من قبيـــل المكر الالهى (الذى يفهمـــه هذا الكاتب على أنه غش وكـــذب وخداع) • ومن ثم ينتهى فى استنباطه الى قـــوله (نستنتج اذن ان اللعنـــة التى نزلت بابليس لم تكن تعبيرا عن نهـــايته الحقيقية التى شاءها الله له ، وانما كانت مكرا الهيا غايته تنفيذ أحكام المشيئة فيه) وأن مصيره سيكون فى الجنة (اذ أن مكر الله يتطلب ان يعتقد ابليس اعتقادا جازما بأن خاتمته لن تكون الا خاتمة تعيســـة وبائسة) وهذا

---

(١) وفى هذا وصف منه للملائكة بالشرك حاشا الله .

وصف صريح من هذا الكاتب للاله بالكذب والخـــداع [1] وذلك لان القرآن الكريم ينص صراحة على خلود ابليس فى النار بحكمين • حكم عام فى قوله عز وجل (ان الله جامع المنـــافقين والكافرين فى جهنـــم

---

(1) صدق الله العظيم وكذب هذا الكاتب تلميـــذ ابليس وأحد جنوده المخلصين له اكثر من اخلاص ابليس لنفســـه وهو كافر وماحد باعترافه حيث يصرح فى صدر مقاله أنه سيعالج مأساة ابليس معتمدا اولا على (الايات القرآنية التى تروى لنا قصة ابليس وسيرته ، وبعض المؤلفات التى تركها لنـــا المفكـــرون المسلمون الذين اهتمـــوا بابليس وشـــخصيته ووظيفته ونهايته) وهو لا يعتمد على الايات ومؤلفات علماء المسلمين باعتبارها تتحدث عن حقائق كونية ثابتة ، كما انه لا يعتمد على ما يقصه القرآن الكريم باعتباره حقا وباعتبار أن ابليس موجودا حقيقيـــا وما حدث منه ، حسب رواية القرآن قد حدث بالفعل ، بل انه يفعـــل ذلك ويتناول هذه القضية بالدراسة فى (اطار التفكـــير الميثولوجى ـــ الدينى الناتج عن خيال الانســـان الاسطورى وملكاته الخرافية) وذلك على حد قوله ، وهو يصرح باكثر من ذلك حيث يقول (ولا أريد ان أتكلم عنه (اى عن ابليس) باعتباره كائنـــا موجودا حقيقيـــا وانما أريد دراسة شـــخصيته باعتبارها شخصية ميثولوجية أبدعتها ملكة الانسان الخرافية وطورها وختمها خياله الخصيب) وهو هنا يشهد على نفسه بالكفر بكل الرسالات السماوية ويخص بالذكر كفرة بالقرآن الكريم حيث صرح بانه ســـيعتمد على آياته فى دراســـة شخصية ابليس ونهايته ثم صرح بأنه يدرسه باعتباره اسطورة من الاساطير الخرافية . ومن ثم فهذا الكاتب كافر بما شهده على نفسه وبحكم القرآن الكريم (وقال الذين كفـــروا ان هذا الا افك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلما وزورا . وقالـــوا أساطير الاولـــين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا. قل انزله الذى يعلم السر فى السماوات والارض انه كان غفورا رحيما / ٤ ـــ ٦ سورة الفـــرقان) وعلى ذلك فانه يحق لنا وصفه بالكفر ، وانذاره باللعنـــة الابدية اذا مات على هذا الاعتقاد ، وليس لمثل هذا الكاتب أن يعترض على ذلك لان اللعنة الابدية التى تصيب الكافرين ليست ـــ حسب اعتقاده ـــ الا شيئا اســـطوريا ليس له وجود فى الحقيقة والولقع .

جميعا ــ ١٤٠ آل عمران) وقد حكم الله على ابليس بالكفر فى قــوله تعالى (الا ابليس ابى واستكبر وكان من الكافرين ــ ٣٤ سورة البقرة) اما الحكم الخاص ففى قوله عز وجل (قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفــورا ــ ٦٣ الاسراء) ويؤكد الله عز وجــل هذا الوعيد ويثبت هذا المصير لابليس بقــوله عز من قائل (٠٠ قال فالحق والحق أقــول لأملأن جهنم منك وممن تبعــك منهم أجمعــين ٨٤ ــ ٨٥ سورة ص)

ومن ثم ينتهى مؤلف هذا المقــال الى نفس النتيجة الضــمنية التى رمى اليهــا توفيق الحكيم من قصة « الشــهيد » حيث يصرح الاول بضرروة عمل الاتى خلقيا وتربويا بالنسبة لابليس •

أولا : يجب علينا ادخال تعــديل جذرى على نظرتنا التقليدية الى ابليس ، واحداث تغيير جوهرى لتصورنا لشخصيته ومكانته •

ثانيا : يجب ان نرد له اعتباره بصفته ملاكا يقــوم بخدمة ربه بكل تفان واخلاص ، وينفذ احكام مشيئته بكل دقة وعناية •

واخيرا يجب ان نكف عن كيل السباب والشتائم له ، وأن نعفو عنه ونطلب له الصفح ، ونوصى الناس به خيرا ، بعــد أن اعتبرناه زورا وبهتانا مسئولا عن جميع القبائح والنقائص) وذلك لان الكاتب يرى أن الاله هو المسئول عنهاوليس ابليس باعتباره مكلفا له بها ومريدا لها •

والملاحظ ان الكاتب يتعامل هنا مع ابليس باعتباره موجودا حقيقيا مظلوما فيطلب الصفح عنه ويحاول رد اعتباره ويدعونا الى تغيير نظرة الناس له ، وذلك بالرغم من تصريحه بانه شخصية اســطورية وليس شخصية حقيقية • وهذا يعنى انه تناقض مع نفسه •

وعلى كل حال ، فان هذا الكاتب يتفق مع الاستاذ توفيق الحكيم فى

اصول نظرتهما لابليس • فأصول هذه النظرة ونتائجها عنـــد الاثنين مستمدة من شبهات ابليس الواردة فى توراة اليهود •

وأخيرا ، فان ما نود قـــوله ، بناء على ذلك كله ، هو أن كثـــيرا من أدباء اللغة العربية المعاصرين يقومونبنشر وترويج ودس سموم توراة اليهود المحرفة ، ويثبتون بين المسلمين شـــبهات ابليس فى صور فكرية وأدبية وفنية وأن قضية الجبر والاختيار ومسألة القضاء والقدر كانت بالنسبة لهم ولغيرهم الميـــدان الخصيب لمحاربة الايمـــان الفطرى فى النفس البشرية والقضاء عليه •

ولعل الاستخدام المغرض لاعداء الايمان لقضية الجبر والاختيـــار ومسألة القضاء والقدر فى مجالى الادب والفن على مستوى أجهـــزة الاعلام الشعبية الواسعة الانتشار (الاذاعة والتليفزيون) اكثر خطرا على نفوس الشـــباب وقاعدة المسلمين العريضـــة من مستوى الفكر الفلسفى الذى لا يجد مجالا للنشر سوى الكتاب •

لقد قصدنا فى هذه المقـــدمة الى ابراز هذه النماذج المبينة لمـــدى تغلغل شبهات ابليس فى مجال الادب ، وذلك لان هذا الكتاب باجزائه الاربعة يتناول تغلغل هذه الشبهات فى مجال الفكر الدينى والفلسفى •

شبهات ابليس فى الفكر الدينى والفلسفى :

مما لا شك فيه أن لشبهات ابليس السبع تأثيرا خطيرا على تاريخ الفكر الدينى والفلسفى ، سواء قبل التوراة المحرفة أو بعدها ، لانها ـــ أى الشبهات ـــ تقوم على غموض مسألة القضاء والقـــدر والتباس عناصرها فى الذهن البشرى • فهى بمثـــابة الارض الخصبة التى يلقى فيها الشيطان بذور التشكيك فى أصول الايمان فى النفس البشرية •

ففى مجال الفكر الدينى لاحظ الباحثون أن تاريخ اليهودية الاول ، يثبت افتراق اليهود الى فرق ، برزت منها الجبرية والقدرية ، وفرقا

أخرى حاولت التوسط بينهما • وقد حدث ذلك أيضا فى النصرانية حتى لاحظ بعض الباحثين [1] ، أنه قد وجدت فى تاريخ اليهودية فرقة مقابلة للجبريين ، قالوا بقدرة الانسان وحريته وسميت باسم المعتزلة ، وهو نفس الاسم الذى سميت به الفرقة التى أثبتت حرية الانسان وقدرته على خلق افعاله فى الاسلام • وهذا ليس بمستبعد ، لان طرائق تفكير العقل البشرى واحدة فى كل زمان ومكان • فانه ــ اتباعا للاهواء ــ يسلك نفس المسالك والدروب التى يسلكها فى كل مرة ازاء نصوص الوحى •

ومن ثم يمكننا القول ان مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار ، كانت من أوائل المسائل الفكرية التى تسببت فى فرقة المسلمين ، ولئن كان من المعلوم والمشهور ، أن سبب ظهور الفرق فى الاسلام سياسى لظهور الخوارج والشيعة ــ كفرق سياسية ــ قبل الجهمية والقدرية والمعتزلة ــ كمدارس فكرية ــ ، فان القضية التى أثارها الخوارج بقولهم (لا حكم الا لله) تتضمن فى طياتها وجهة نظر جبرية فى مسألة القضاء والقدر ، حسب مقصدهم من هذه العبارة ، ولذلك نجد الشيعة وهى الفرقة المقابلة للخوارج يغلب على عقيدتها موقف القدرية المقابلة للجبرية •

ولا شك أن علة نشوء الجهمية والقدرية والمعتزلة والاشاعرة ــ بعد ذلك ــ كان بسبب مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار ، وبعد ظهور هذه الفرق ، أضحت هذه المسألة حجر الزاوية فى فكر كل فرقة وعقيدتها • فلم يسع الفقهاء والمحدثون والصوفية والفلاسفة ، الا أن يدلى كل منهم بدلوه فى هذه المسألة ، كما حدث فى علم الكلام ، فظهر فى الفكر الاسلامى وجهات نظر متعددة ومختلفة ، حسب منهج وعقيدة كل فئة من هذه الفئات •

ان السؤال الذى يطرح نفسه بالحاح على كل مفكر بل وعلى كل

(١) هو البير نصرى نادر فى كتابه عن المعتزلة .

عاقل هو : اذا كان قدر الله عز وجل شاملا لكل شيء وقضاؤه نافذا لا محالة ، فلم يحاسب الانسان على أفعاله وهي مقدرة ومسجلة قبل ان يفعلها • ؟!

وليس ثمة سؤالا — في تاريخ الفكر الديني والفلسفي — شغل الناس جميعا مثل هذا السؤال ، كما لا نعلم مسألة فلسفية كانت أو دينية شغلت فكر الخاصة والعامة مثل مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار • وهذا السؤال هو لب شبهات ابليس السبع وجوهرها جميعا ، والاجابة عليه فوق طاقة الكثير من المتخصصين وعجز عنه أشهر الفلاسفة والعلماء فما بال العامة حياله • ؟

ولذلك نجد توجيه رسول الله صلى الله عليه وسلم لبعض الصحابة حين وجدهم يتنازعون في القدر محذرا وموجها قائلا لهم « عزمت عليكم الا تتنازعوا هذا الامر » موضحا ان تنازع هذا الامر اثما أهلك الامم من قبلهم • وهذا النهي النبوي الكريم عن التنازع في مسألة القدر لا يعني تحريما للبحث فيمسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار انما هو نهي عن التنازع فيه ، بمعنى ان يأخذ البعض وجهة الجبر ، ويأخذ الاخرون وجهة الاختيار ، ثم يتنازع الفريقان •

ان البحث في القرآن الكريم والسنة بنية خالصة لمعرفة الحق في هذه القضية هو هدف الجزء الاول من هذا الكتاب ، وقد توخينا الوصول الى ما يثبته القرآن الكريم والسنة الصحيحة كاجابات لكل الاسئلة التي تدور حول هذه المسألة ، متناسين أو متجاهلين كل نتاج الفكر البشري قديما وحديثا حول هذا الموضوع ، بما في ذلك نتاج الفرق الاسلامية كلها • وذلك ايمانا منا بان القرآن الكريم هو كلام عز وجل ، ومن ثم ففيه كل الحق ، وليس فيه سوى الحق • وهذا يعني ان الخلافات القائمة بين الفرق الكلامية المستندة في آرائها الى القرآن الكريم ، انما هي بسبب المنهج الذي تتناول به كل فرقة آيات الله عز وجل • ولذلك كان لابد من وضع عدة قواعد منهجية ، الهدف منها

مساعدة الباحث فى التوصل الى الحقيقة القرآنية فى ذاتها خالصة نقية دون شوائب من آراء وضعية غريبة عنه وبفضل الله عز وجل وعونه وتوفيقه تعد النتائج التى توصلنا اليها فى هذا الجزء الخاص ببحث المشكلة فى القرآن والسنة جديدة ، وذلك حسب شهادة بعض المتخصصين • فاذا انتهى القارىء بعد قراءته للفصول التسعة الى تصور واضح عن هذه القضية ، بحيث يجد فى نفسه وذهنه الردود المقنعة على كل سؤال من أسئلة ابليس السبعة ، فان ذلك كله من الله عز وجل والفضل كله له • واذا وجد القارىء قصورا او غموضا فى مسألة من المسائل أو اخفاقا فى ناحية من نواحى البحث ، فان ذلك منى ومن الشيطان • ونسأل الله عز وجل العفو والمغفرة •

أما بالنسبة للجزء الثانى فانه يتناول المشكلة عند المتكلمين • فقد وجدت الجبرية فى تاريخ الفكر الاسلامى متمثلة فى الجهمية ، مما دفع الفقهاء والمحدثين الى تكفير الجهمية ، لانها تقوم أساسا على شبهات ابليس الاولى التى يعلل فيها معصيته بما قدره الله عليه •

وقامت القدرية ثم المعتزلة كرد فعل للجهمية • أما القدرية فكان بعضهم من مخلصى التابعين ، حاولوا درء مفسدة فى العقيدة وخطأ فى الاعتقاد ، فوقعوا فى مفسدة اخرى مقابلة حين أنكروا القدر •

فالجهمية والقدرية مخطئتان، لان الاولى تنكر كل استطاعة للانسان على اكتساب الفعل ، والثانية تنكر القدر الالهى ، وتثبت القدرة للانسان على احداث وخلق أفعاله •

وعرف المسلمون بعد ذلك ان ثمة موقف وسط بين الموقفين ، يجب أن يكون هو المعبر عن عقيدة التوحيد الاسلامية ، فيثبت القدر الالهى المحيط بكل شىء ، وفى نفس الوقت يثبت للانسان اختيارا واستطاعة تدينه على افعاله الخلقية ، وحاولت الما تريدية والاشعرية أن تصل

الى هذا الموقف . ولكن المشكلة القائمة هى كيفية التوفيق بين الموقفين فى نسق فكرى واحد .

وازاء هؤلاء وأولئك كان للتابعين والفقهاء والمحدثين مواقف من كل فرقة ، وموقف من القضية ، كل حسب مجال تخصصه ومنهجه .

ان الدارس لكل هذه الفرق ولكل ما هو مكدس فى انتاجها من آراء مختلفة ، وأفكار متعارضة ومتقابلة ليتساءل أين الحق من ذلك كله ؟

ولقد كان يلح هذا السؤال على نفسى اثناء دراستى لعلم الكلام ، لان المناهج الدراسية القائمة تقدم كل هذه الاراء المتضاربة وتترك الدارس بعد ذلك دون ان تحسم له القضية بالحق الذى أنزله الله عز وجل ، وهذا المسلك يورث فى عقول الشباب الدارس اعتقادا بتضارب آيات القرآن الكريم . ولكن اعتقادا فطريا لازمنى طيلة سنوات الدراسة ، هو فى اعتقاد كل مسلم ، وبديهية من بدهيات الاسلام وهو ان كلام الله عز وجل لا يمكن أن يكون متضاربا . ومن ثم لابد من البدء به باعتباره الحق فى ذاته فى هذه القضية وفى كل قضية اعتقادية أخرى كثرت حولها الخلافات . فكان من الضرورى أن نبدأ بحث هذه القضية فى القرآن الكريم أولا ، حتى تكون النتائج التى نتوصل اليها بمثابة الميزان الذى توزن به نتائج الفرق وارائها ، لان التضارب قائم فى فكر الفرق ، وليس فى كلام الله عز وجل (افلا يتدبرون القرآن ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .(النساء : ٨٢) .

وبناء على ذلك فان الجزء الثانى من هذا الكتاب يتناول بحث مسألة القضاء والقدر والجبر والاختيار عند الصحابة والتابعين والفقهاء والمحدثين ، وهؤلاء جميعا لم يخرجوا على مبادىء القرآن والسنة فى القضية ، كما سيرى القارىء – ثم ببحث المشكلة عند المتكلمين : القدرية والجهمية والمعتزلة والاشاعرة ، مع عرض أصول مذاهبهم

ونتائج آرائهم ، على مفهوم القضاء والقدر فى القرآن والسنة ، حسب ما توصلنا اليه وأثبتناه فى الجزء الاول •

وسيرى القارىء أن كثيرا من غنوصيات ابليس السبع دخلت هذه الفرق ، فخالفت كل منها التوحيد الاسلامى بقدر ما احتضنت فى ثنايا فكرها من هذه الشبهات ، وبقدر ما دخلت عليها من افكارها سواء بقصد من بعض مفكريها أو بغير قصد •

أما الجزء الثالث «مشكلة الحرية عند متفلسفة الحضارة الاسلامية» فهو يتناول جانبا آخر من جوانب الفكر الاسلامى يختلف جذريا ومنهجيا عن علم الكلام ،ونعنى به ما يسمونه « بالفلسفة الاسلامية » المتمثلة أوضح ما تتمثل فى انتاج الكندى والفارابى وابن سينا • وهذه الفئة لم يكن اعتمادها على القرآن والسنة، بقدر ما كان اعتمادها على الفلسفة اليونانية وبخاصة افلاطون وأرسطو والرواقية •

لذلك اقتضى منا بحث المشكلة عندهم بحثها أولا عند اليونانيين وذلك لرد فكر هؤلاء المتفلسفة الى أصولها الحقيقية فى فلسفة اليونان• وليتبين لنا مدى قربهم أو بعدهم عن القرآن والسنة ، وهذه القضية من القضايا التى يختلف حولها الباحثون ، حتى يرى البعض أن فكر المتفلسفة مزيج من اليونانية والاسلام ، ويرى آخرون أنه فكر يونانى صرف • وليس فيه من الاسلام أمر جوهرى • وليست هذه القضية مقصدا رئيسيا لنا فى هذا الجزء ، وانما المقصد الرئيسى هو دراسة مفهوم القضاء والقدر عند متفلسفة الحضارة الاسلامية مع مقارنته بمفهوم القضاء والقدر فى القرآن الكريم والسنة ، وحيث أن القضاء والقدر فى الاسلام هو أحد المحاور الرئيسية التى تدور حولها عقيدة التوحيد الاسلامية ، فان القارىء سيعرف ــ كنتيجة رئيسية للجزء الثالث من الكتاب ــ المخالفات التى يخالف بها المتفلسفة المذكورون عقيدة التوحيد • ومن ثم يستطيع أن يحكم على انتاجهم الفكرى

بميزان اسلامى خالص ، وعندئذ سيتضح للقارىء باذن الله تعالى وتوفيقه الى أى مدى تسربت وتغلغت شبهات ابليس فى فكر متفلسفة الحضارة الاسلامية ، بما حوى من غنوصيات وباطنيات ومجوسيات وزندقة •

أما الجزء الرابع من هذا الكتاب « مشكلة الحرية عند الصوفية فى الاسلام» فانه يتناول دراسة هذه القضية فىعقائد المتصوفة المسلمين• ولئن كان الحكم على متفلسفة الاسلام على الجملة بأنهم جميعا مخالفون لبعض مبادىء التوحيد ، جائزا ، وقد قال به الكثيرون ، فان هذا التعميم لا يجوز على الصوفية ، وذلك لان ماحدث فى الفكر الاسلامى من فرقة بين مفكريه ومدارسه ، قد حدث بخطوطه العريضة بين صوفية الاسلام •

فبينما نجد فى تاريخ الفكر الاسلامى فقهاء ومحدثين ومتكلمين وفلاسفة ، نجد بين صوفية الاسلام من يلتزم بالقرآن والسنة بمنهج المحدثين والفقهاء ، ونجد بينهم المتكلمين ، كما نجد بينهم الفلاسفة •

وعلى قدر نقاء عقيدة صوفية السلف من شبهات ابليس ، على قدر تراجم هذه الشبهات فى فكر متأخرى الصوفية المتفلسفين من أصحاب الحلول ووحدة الوجود•حتى يصف الحلاج ابليس بأنه أول الموحدين، فيتفق الحلاج رجل القرن الثالث الهجرى مع الدكتور جلال العظم وغيره من مروجى شبهات ابليس فى القرن الرابع عشر الهجرى ، وذلك لتتلمذ الجميع على الشبهات الواردة فى التوارة والانجيل فى قضية القضاء والقدر •

وبذلك يكون من الخطأ تعميم حكما واحدا على التصوف الاسلامى ولذلك نهجنا الى بحث مذهب الصوفية الاوائل فى الحرية فى قسم خاص ، ثم بحث صوفية الحلول ووحدة الوجود — مع سائر متأخرى الصوفية الناشزين على مبادىء القرآن والسنة فى التوحيد الاسلامى فى قسم آخر •

ولا يفوتنا هنـا أن نذكر ان الذين يعـادون التصوف من مفكرى الاسلام ، ربما كانوا على حق فقط ، اذا كانوا يقصـدون بالتصوف التصوف الحديث والمعاصر ، أو التصوف منذ القرنين الرابع والخامس الهجريين حتى هذا العصر • وذلك لان الباحث المحايد لا يكاد يجد فى متصوفة هذا العصر ، وطرقهم ومشايخهم وفكرهم من يماثل الصوفية الاوائل فى الاعتقاد والعمل الا القليل النادر الذى لا يمكن أن يعتد به فى حكم عام •

ولكن اذا أخذنا التصوف بمفهومه العام الذى يضم التراث الصوفى كله ، فيجب احقاقا للحق التفريق بين الموحدين منهم وبين الخارجين على القرآن والسـنة •

لقد استطاع الصوفية الاوائل وشيوخهم الافاضـل التوصل الى مفهوم قرآنى خالص فى القضاء والقدر، لم يسبقوا اليه من سائر المفكرين أو المتكلمين فى العالم الاسلامى • بينما غلب على متأخـرى الصوفية الجبرية المحضـة كالجهمية ، وكان انتشار عقيدة التـواكل بين عامة المسلمين منذ القرن السابع ، عن طريق سـيطرة الفكر الصـوفى على العالم الاسلامى ، أحد العوامل الرئيسـية لسكون المد الحضـارى الاسلامى وتوقفه عن النمو حتى العصر الحديث •

وذلك لان الحضارة لا تقـوم فى أمة ، الا اذا استطاعت هذه الامة ان تصحح عقيدتها فى القضاء والقدر والجبر والاختيار ، بحيث تصل ــ بتفويق الله ــ الى الوسط الدقيق بين الجبرية وبين القدرية • وهذا الوسط هو الذى يسمح للفـرد وللمجتمع الاسلاميين ، بالانطـلاق فى العمل والاخذ بكل الاسباب المادية للنتائج ، وفى نفس الوقت يحافظ الفرد والمجتمع على الاعتقاد بأن كل ما يحدث منه وبه انمـا هو بقدر الله وقدرته وتوفيقـه •

وذلك لان الناس يقفون من القدر ثلاثة مواقف :

جبرى محض ، وفى هذا مدعاة للتــواكل وترك الاخــذ بالاسباب والعزوف عن العمل ، فاذا غلب هذا الموقف على افــراد أمة من الامم وانتشر اعتقــاد الجبرية بينهــم ، تجمدت هذه الامة حضـــاريا ، وعزلت عن مكان القيادة والتــأثير التاريخيين ، وأقصيت عن حلبــة الصراع الحضارى فى الارض ، وذلك بسبب تواكلها وفساد عقيدتها فى القضاء والقدر ، وليس بسبب قوة اعدائها • وهذا هو الذى حدث لامة الاسلام فى القرون والســنوات السابقة على سقوط الخــلافة العثمــــانية •

وليس ذلك هو العامل الوحيد ، وان كان هو أحد العوامل الرئيسية• وعلى ذلك فليس من سبيل لدفــع امة الاسلام للعمل الحضـــارى ، واعادتها الى مكان القيادة التاريخية للبشرية ، كما كانت دائمــا ، الا بالعودة لكتاب الله عز وجل وسنة نبيه اعتقادا وعملا بعامة ، ومن ذلك تصحيح عقيدتهم فى القضاء والقدر بخاصة •

والموقف الثانى هو أن يكون الانسان فى حالة اعتقــادية تسمح له بالايمان ايمانا مطلقا بالاسباب المادية ، متناسيا أو متجاهلا قدرة الله وقدره وفاعليته لكل شىء • وفى هذه الحالة ، فان اقباله على الاسباب المادية يكون كاملا ، ومن ثم ينتج مدنية ، ولا ينتج حضـــارة ، حيث يتقدم فى النواحى المادية وينحط خلقيا وانسانيا واجتماعيا بقدر تقدمه المدنى، وهذا الانفصام الحضارى من شأنه أن يدمر المدنية فى النهاية• وهذا هو شأن الحضارة الغربية المعاصرة أو بتعبير أدق المدنية الغربية المعاصرة • وليس من سبيل الى انقاذ هذه المدنية ، الا بتصحيح ايمان الرجل الغربى فى الالوهية والقضــاء والقدر حسب عقيــدة التوحيد الاســلامية •

أما الموقف الثــالث الذى يقفه الناس حيال القــدر فهو المتمثل فى السبيل الوســط بين الموقفين الســابقين والوصول اليــه لا يكون الا بالتوحيد الخالص الذى جاء فى القرآن الكريم والسنة ، وهو الموقف

المنتج للحضارة بشـــقيها ، المادى والانســـانى ، وتلك هى صبغة الله فى تاريخ الانسانية ، تجلت فى المد الحضارى الاسلامى الذى حمــل لواءه المسلمون الاوائل فأقاموا المدنية المتطورة المتقدمة التى لم يعرف التاريخ البشرى نظيرا لها من قبل ، وفى نفس الوقت عاشوا علاقات انسانية نظيفة وطاهرة فى ظــل شريعة الله ، فآتاهــم الله عز وجل ــ كثمار لجهاد السلف الصالح لهذه الامة : صحابة وتابعين ــ خــير الدنيا والآخــرة •

وهذا المد الحضارى الفريد ما كان يحدث لولا التصحيح الذى قام به الاسلام لعقيدة العرب فى الالوهية بعامة، والقضاء والقدر بخاصة•

لقد كان العرب قبل الاسلام جبريين ، ولو لم ينعموا بنعمة التوحيد الاسلامى ، بما يشتمل عليه من عقيدة صحيحة فى القضاء والقدر ، لا هى الى جبر ولا هى الى تفويض ، لما استطاعوا أن ينجزوا ما أنجزوه من عمــل تاريخى خارق ، فتحوا الدنيــا فى غضون سنوات قليلــة وأخضعوها لحكم الله وشريعته •

ان تصحيح عقيدة المسلمين اليوم فى القضاء والقدر خطوة ضرورية أولى لاعادة المسلمين الى حلبة الصراع الحضارى الدائر بينهم وبين الحضارة الغربية السائدة •

لقد كانت غفلة المسلمين عن دينهــم ووقوعهم فى مخالفات للتوحيد الاسلامى ــ لعل أخطــرها ركونهم الى الجبــرية المحضة ــ بفعــل التفلسف ودعاوى الباطنية والتصوف المتأخر بمــا فيه من سلبيات ، بمثابة الضربة العازلة ــ ولا أقول القاتلة ــ التى اخرجت أمة الاسلام من حلبة الصراع الحضارى فنامت طــويلا • فاذا كان علينا واجبــا تاريخيا هو العودة الى حلبة الصراع الحضــارى والتأثير لتاريخى ، فان الخطوة الضرورية الاولى هى تصحيح عقيدة المسلمين فى القضاء والقدر ، وبيــان زيف فكر الفلاسفة والباطنيــة ومتأخرى الصوفية ،

وتلبيس هؤلاء جميعا لعقيدة العامة والخاصة فى القضاء والقدر ، تلبيسا ابليسيا نابعا من شبهاته السبع •

ان فساد عقيدة المسلم فى القضاء والقدر خدش فى توحيده لله عز وجل ، لان الايمان بالقدر أصل من أصول الايمان فى الاسلام •

والمؤمن — اذا لم يكن تصوره للقضاء والقدر صحيحا — فانه ينتهى الى أحد طريقين : اما طريق الاستسلام وترك الجهاد وذلك بالنظر الى ما عليه واقع الحياة فى المجتمعات الاسلامية الان من اقبال على الحرام واتباع للشهوات ، وبالنظر الى ما عليه الحكومات الاسلامية من ترك للجهاد وارتماء فى أحضان المعسكر الشيوعى تارة والرأسمالى تارة أخرى ، والانهزام امام المدنية الغربية ، والايمان المطلق بها • كل ذلك يجعله يشعر باليأس من نصر الاسلام وعودته ، فيركن مثل هذا المؤمن الى ترك الجهاد والاكتفاء بالعبادات والشعائر التعبدية ، معتقدا أن له عذره عند ربه فى ذلك • ومثل هذا جانبه الصواب والتوفيق ، وعلة ذلك عنده هو خطأ فى مفهوم القدر •

أما اذا كان الفرد المؤمن متحمسا وكان مفهومه للقضاء والقدر غير صحيح ، فان تحمسه غالبا ما يدفعه الى التفكير فى العنف والقوة ، رغبة خالصة منه لاعادة أمة الاسلام الى مجدها الحضارى ، واستعجالا منه للنتائج والثمار التى أنعم الله بها على المسلمين الاوائل صحابة وتابعين والاجيال والقرون التى تلتهم • وهذا التفكير فى استخدام القوة سبيل خاطىء تماما ومخالف لمنهج الاسلام فى الدعوة الى الله • وسببه فساد فى مفهوم القضاء والقدر فى الاسلام •

ان عجلة التاريخ البشرى تدور ، وهى بيد الله عز وجل اولا وأخيرا ، فليس لاحد من الناس كافرا كان او مسلما ، حاكما كان او محكوما ، أن يتدخل فى قضاء الله وقدره ليوقف عجلة التاريخ أو يوجهها وجهة لا يريدها الله عز وجل ، فالله غالب على أمره • والذين

يتهورون أو يندفعون من شباب المسلمين المتصدين للدعـوة الى الله ، متصورين أنهم قادرون على ان يحركوا عجلة التاريخ حسب تفكيرهم ورغباتهم مخطئون • وعليهم باديء ذى بدء أن يصححوا عقيدتهم فى القضـــاء والقـــدر •

الى هؤلاء وأولئك الـــذين دق عليهم التصور القـــرآنى الصحيح للقضاء والقدر ، وعز عليهم طرد ما تسرب الى قلوبهم من شـــبهات ابليس ، والى كل من يبحث عن الحق فى هذه المسألة العويصة المحيرة من سائر العالمين ، أقدم هذا البحث سائلا الله عز وجل أن ينفع به ، وأن يدخر لى ثوابه الى ما بعد الممات ، انه سميع مجيب كريم •

فـــاروق دســـوقى

الاسكندرية فى ١٨ ذى الحجة ١٣٩٨ هـ
١٨ نوفمبر ١٩٧٨ م

al-maktabeh www. .com مكتبة المهتدين

الفصل الأول

قواعد منهجية
للباحث عن الحقيقة فى القرآن والسنة

تمهيـــــــد:

الله عز وجل هو الاله الحق، وما من اله غيره ، والاله الحق لا يرضى من عباده ولا يقبل منهم الا الاستسلام والطاعة والانقياد له وحده ، ويرفض منهم أى استسلام أو طاعة او انقياد او عبادة يشرك فيهــا العبد معه غيره • فهو لا يقبــل من العبد الا ما كان خالصــا له وحده سواء كان ذلك صلاة أو نسكا او محيا او ممات •

فالاسلام بهذا المعنى هو العقيــدة الفكرية والمشــاعر الوجدانية والسلوك العملى والحياة الاجتماعية للتوحيد الخالص ، ذلك أن المعنى اللغوى والشرعى للاسلام هو اسلام الوجه والارادة لله رب العــالمين وصرفهما عمن سواه •

ومن ثم كان الاسلام ــ ولا يزال ــ هو دين الله عز وجــل الذى ارتضاه لخلقه من الانس والجــن ، من لدن آدم ونوحا الى ابراهيم ومحمد عليهم جميعا الصلاة والسلام • فما من رسول أو نبى الا أتى قومه بالاسلام (ان الدين عند الله الاســلام ــ آل عمــران ١٩) • ومن ثم وجب على المسلم الايمان بالرسل وبما جاءوا به ، لانهم جميعا لم يأتوا الا بما أوتى به خاتم الانبياء والمرسلين (قل آمنا بالله ، وما أنزل علينا ،وما أنــزل على ابراهيم واســماعيل واسحق ويعقــوب والاسباط ، وما أوتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ، لا نفرق بين

أحد منهم ونحن له مسلمون ـ ومن يبتغى غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الاخرة من الخاسرين) • (آل عمران ٨٤ ـ ٨٥) •

وبهذا المعنى تكون التـوراة هى مصدر الاسـلام الذى نزل على موسى عليه السلام ، ويكون الانجيل مع التوارة هما مصدر الاسلام الذى جاء به عيسى عليه السـلام • فليس ثمـة فروقا واختـلافات جوهرية بين اسلام نبى واسلام نبى آخـر لان عقيدتهم واحدة هى « لا اله الا الله » ، وشريعتهم واحدة وأصلها معرفة الحلال والحرام وأنظمة الحياة الاجتمـاعية فى الكتب المنزلة من عنـد الله وليس من غـيرها •

واذا كان أصل الاديان كذلك ، فما الذى جعل اتباع التـوراة الان وقبل الان يهودا كافرين ، وليسو، مسلمين موحدين ؟! وما الذى جعل أتباع الانجيل الان وقبـل الان مسيحيين مشركين ، وليسوا مسلمين موحدين ؟! • وما بال أتباع القرآن حيال هذه القضية ؟

ان هذه القضية تخص ـ فى المقام الاول ـ مصدر الدين ، فمصدر الاسلام الذى نزل على موسى هو التوراة ، وقد حرفها اليهود فحادوا بذلك عن التوحيد وعن الاسلام لله عز وجل ، فمـا أصبحوا بعد ذلك مسلمين موحدين ، ولا أصبحت الديانة التى بين ايديهم ـ نتيجة لغلبة التحريف على كتابهم ـ هى الديانة التى نزلت على موسىعليه السلام (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ـ النساء ٤٦) • (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنـا قلوبهم قاسية يحـرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ـ المائدة ١٣) •

وكذلك الحال بالنسبة للمسيحيين حيث أصاب الانجيل من الوضع والتحريف والتغيير ما أصاب التوراة •

وأنزل الله عز وجل القرآن الكريم على سيدنا محمد خاتم الانبياء

والمرسلين صلى الله عليه وسلم ناسخا لما قبله من الكتب السماوية ، باعتبارها لم تعد صـالحة ـ نتيجة التحريف والتبديل ـ لارشاد الانسان وهدايته وتمكينه من تحقيق عبوديته واسلامه لله وحده (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفوا عن كثير ، قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ـ المائدة ١٥) •

ولان القرآن آخر الكتب السماوية من الله عز وجل للعالمين حتى يوم الدين ، وعد الله عز وجل بحفظه من التبديل والتحريف الذى أصاب الكتب السابقة بفعل الكافرين (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ الحجر ٩) •

ومن ثم فالقرآن الكريم ، منذ أن أنزله الله عز وجل على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم الى قيام الساعة ، هو المصدر السماوى لدين الله ، أى الاسلام ، ولكنه ليس المصدر الوحيد ، ذلك أن الله عز وجل أوحى الى نبيه الكريم بوحى آخر غير القرآن هو السنة النبوية الشريفة •

فالسنة وحى من الله الى رسوله ، كالقرآن سواء بسواء من حيث الاصل ، بيد أن القرآن الكريم كلام الله فهو من الله بلفظه ومعناه ، وأحاديث الرسول الامين وحى من الله عز وجل بالمعنى والمفهوم ، ولفظها وحروفها من صياغة الرسول عليه الصلاة والسلام •

فالقرآن الكريم والسنة الصحيحة هما مصدرا الاسلام وتلك قضية لم ولن يختلف عليها اثنان من المسلمين أفرادا وجماعات ، مدارسا وفرقا، مذاهبا واتجاهات• والمختلف مع المسلمين حيالها بالرفض الكلى أو الجزئى أو بمجرد التحفظ البسيط ليس مسلما •

ويقدم القرآن الكريم للناس جميع الحقائق الكونية التى يجد الانسان نفسه مدفوعا بفطرته للبحث عنها ، حيث يشعر بدوافع ذاتية ملحة لمعرفتها ، معرفة يطمئن لها قلبه ، ويركن اليها عقله ، وتسكن بها نفسه •

وكذلك السنة النبـوية الصحيحة ، فهى المبينـة للقرآن الكـريم والمفصلة له ، وهى التطبيق الامين الراشد ، والثمرة النموذجية الكاملة للتوجيه والتنظيم القرآنى للحيـاة البشرية والانسانية ، متمثـلة فى رسول الله صلى الله عليه وسلم كنموذج للسلوك الخلقى الانسـانى حتى قالت عنه أمنا عائشة رضى الله عنها « كان خلقه القرآن »(١) ، ومتمثلة فيه كزعيم وكقائد للمؤمنين المجاهدين فى سبيل الله ، وكحاكم لامة الحق ، ومتمثلة فيمن كانوا حوله من الصحابة رضوان الله عليهم كمجتمع نموذجى فريد ، حتى يمكن القول أن المجتمع الاسـلامى فى العهد النبوى وفى عهد الراشـدين كان تطبيقا أمينا خالصا للقـرآن الكريم ، ومن ثم ارتقت البشرية ، متمثـلة فى هذا المجتمع الى قمـة سامقة نستطيع أن نقول : أنها لم تبلغها من قبل ولا من بعد وان كان فى مقدورها وفى مكنتها أن تعيد هذا البناء بعينه مرة ثانية الى واقـع الحياة البشرية ، أو على الاقل الى درجة قريبة منه ، اذا وجدت الفئة المؤمنة التى تريد اقامته ، وتعمل وتجاهد لاعادته ، وتحيا وتموت من أجـلـه .

فالقرآن الكريم لم يكن (لدى الصحابة كتاب مواعظ أخلاقية فقط ، أو تاريخا أنزل كغيره عن قرون ماضية ، وانما هو كتاب غيبى وانسانى واخلاقى وعملى وضع الخطـوط الرئيسية للوجود كله ، فهو كتـاب الكون منذ نشأته)(٢) . وذلك هو الاصل الاول للاسلام (وبجانب هذا الاصل الاول ، وجد الاصل الثانى وهو السنة ، ما صدر عن رسول الله من قول وفعل واشارة ، وأن يتلمسوا فى هذا الاصـل الثانى مالا يقل عن الاصل الاول فى حقيقته الالهية مادة فكرهم وعملهم ، وسار الاصلان متعاونين يرسمان الحيـاة الجديدة ويرسخانها فى جميـع قـواعدها)(٣) .

---

(١) أخرجـه النسائى
(٢)د . على النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ص١
(٣) نفس المصدر والصفحة

وبالرغم من أن جميع المفكرين الاسلاميين على اختلاف مذاهبهم وفرقهم يقرون جميعا بأن القرآن الكريم والسنة الشريفة هما المصدر الوحيد لجميع الحقائق الكونية والمبادىء التشريعية ، فانه ــ لمما يؤسف له ــ ظهور الفرق المختلفة والمتباينة والمتعارضة فى تاريخ الفكر الاسلامى ، وبالرغم من وحدة المصدر الذى يستقون منه ، فان التقابل بين بعض الفرق بالنسبة لبعض المسائل التى عرفت بالمسائل الكلامية ، يصل أحيانا الى حد التناقض التام وهى مسائل تمس مسا مباشرا او غير مباشر حقائق كونية يتحدث عنها الوحى ــ قرآنا وسنة ــ كالالوهية والانسان والكون والحياة .

وازاء اجماع المدارس الفكرية وأئمة الفرق فى الاسلام على المصدر وازاء حقيقة الحفظ الالهى للقرآن الكريم من التبديل والتحريف ، وللسنة من الضياع والتحريف ، فاننا لا نملك الا ان نتساءل عن سبب اختلاف بعض مفكرى الاسلام وتفرقهم الى شيع وأحزاب كل حزب بما لديهم فرحون وبه متمسكون ؟! .

تتضح لنا الاجابة على هذا السؤال اذا علمنا أن المعرفة الانسانية موضوع ومنهج ، وذلك لان أجهزة الادراك والمعرفة البشرية عندما تبحث وتدرس وتستنبط فانها تكون بازاء أمرين ، وليس أمرا واحدا .

الاول : هو الموضوع وهو مادة البحث ومصدر المعرفة .

والثانى : هو المنهج ونعنى به السبيل الفكرى والخطوات الذهنية التى يتبعها فكر الباحث أو العارف فى مساره بقصد تحصيل المعرفة .

وبناء على ذلك ، فان علة اختلاف الفرق والمدارس ــ مادام الاتفاق قائما بينهم حول الموضوع والمصدر ــ تكمن فى المنهج الذى تتبعه وتستخدمه كل مدرسة أو كل فرقة من الفرق الاسلامية المخلصة .

أى أن اختلاف الوسائل والمناهج التى بدأ بها مفكرو الفرق بحثهم فى القرآن والسنة أدى بهم فى النهاية الى التباعد والتقابل والتناقض

فى نتائج أبحاثهم ، مما جعلهم فرقا وشيعا وأحزابا ، أو على الاقل نقول ان اختلاف المناهج هو من أهم العوامل التى ادت الى ظهور الفرق •

ومما لا شك فيه أن الحق واحد (فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق الا الضلال • يونس ٣٢) فاذا اختلف اثنان أو أكثر حيال قضية ما ، فقد يكون الحق مايقوله أحدهم فقط ، وما سواه مخالفون للحق ومجانبون للصواب بالضرورة ، وكل ما فى القرآن حق ، وليس ثمة اختلاف بين آياته وسورة أو تضارب بين حقائقه ، فاذا اختلف المختلفون حول حقيقة قرآنية ، وكان الحق مع أحدهم فالاخرون مخطئون بالضرورة •

والفرق الاسلامية والمذاهب الفكرية تختلف بالرغم من استناد الجميع الى القرآن الكريم ، وهذا يعنى أن البعض منهم لم يصب الحقيقة القرآنية فى الموضوع قيد البحث • وسبب مجانبته للحقيقة القرآنية هو المنهج الذى بحث به آيات القرآن للتوصل الى بغيته ، وهذا يعنى أن مناهج البحث عند كل الفرق — الا واحدة — تتضمن عيوبا ونقائص وسلبيات من شأنها أن تبعد بالباحث فى القرآن عن الحقيقة القرآنية بالرغم من استناده على آيات من الكتاب الحكيم •

ومن ثم فاننا — بازاء ذلك كله — نكون بحاجة الى عدة قواعد تحكم نظرنا وتدبرنا وبحثنا فى القرآن الكريم والسنة ، الغاية منها أن نخرج بحقيقة قرآنية خالصة — نتيجة البحث — متأكدين فى الوقت عينه أنها الحقيقة القرآنية الكاملة والشاملة فيما نحن بصدد البحث فيه •

ولكى نصل الى ما نبغى ، ينبغى علينا أن نستعرض المعالم الرئيسية للمناهج التى اتبعها مفكرو الفرق فى فهم حقائق القرآن حتى نتجنبها ولا نقع فى مثل ما وقعوا فيه من أخطاء ، آملين فى الله عز وجل ان يوفقنا ويهدينا الى أهم الاسس التى نقيم عليها أهم القواعد الرئيسية لمنهج البحث فى القرآن الكريم والسنة •

القـــاعدة الاولى :

وجوب الرجـــوع الى القرآن الكريم كله
لمعرفة حقيقة قرآنية واحدة

الامر الاول الـــذى يجب أن نتبعـــه ، لكى يكون المنهـــج صـــحيحا والموضوع نابعـــا من القـــرآن ـــ اذا أردنا أن نعرف حقيقـــة ما فى القرآن ـــ هو أن ننظر فى القـــرآن جملة ليتحدد ويتضح لنـــا طريقة معالجة القرآن الكريم للحقائق الكونية • فالقرآن الكريم عند المسلمين هو كلام الله تعالى الى البشر ، صدر من الله الواحد للانسان الواحد فى النوع ، المتعدد أفرادا ، فهو يحمل فى ذاته ـــ أى القرآن ـــ طابع الوحدة لانه صادر عن واحد ، وهو صـــبغة الله وروح من أمره تعالى (وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا) • ومن ناحية أخرى فهو موجه الى الانسان الى بنى البشر المتعددين والمختلفين زمانا ومكانا ، ومن ثم فهو يحمل فى ذاته معنى الكثرة والتعـــدد ، حيث يتحدث عن حقـــائق كثيرة وموضوعات شتى ، فى مائة وأربـــع عشرة سورة تضـــم آلاف الايـــات •

ومن ذلك يصبح من المعلوم بالضرورة لكل مسلم : أن القرآن يفسر بعضه بعضا ، فما أجمله فى موضع ، أفاض فيه تفصيلا فى موضع آخر •

ونتيجة لهذا ينبغى علينا ـــ لمعرفة حقيقة من الحقـــائق الكونية أو الانسانية فى القرآن ـــ أن ننظر فيه جملة ، باعتباره وحدة واحدة ، وأن نحاول معرفة هذه الحقيقة أو استخلاصها من هذا القرآن الواحد ككل وليس كسور متباينة ، أو آيات متفـــرقة • ومعلوم أن القـــرآن الكريم لا يحمل رؤوس موضوعات أو أسماء مباحث كمباحث الفلسفة، فاذا أردنا معرفة حقيقـــة الالوهية نجد أنفســـنا مضطرين بالضرورة للبحث فى آيات القرآن جميعها ، وسنجد انهـــا جميعا تتنـــاول هذه الحقيقة سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة • كذلك لمعـــرفة حقيقة

الانسان فى القرآن لابد أن نعود الى آياته من أولهـا الى آخرها بلا استثناء ، وأن تكون نظرتنا شاملة كلية عامة حتى نخرج بالحقيقة عن الانسان كاملة صحيحة ، ولو اقتصر بحثنـا على الايات التى تتحدث حديثا مباشرا عن الانسان فسوف نصل الى حقيقة ناقصة مشوهة ، أو سنصل الى بعض جوانب الحقيقة الانسانية فى القرآن دون الاخرى ٠

حقيقة أن السور القرآنية تحمل أسماء ، وقد يعترض البعض بأنهـا تعتبر موضـوعات كاملة وهذا صحيح ، ولكن هذا الاعتراض مدفوع لاننا نجد أن الموضوع الواحد والخبر الواحد يذكر فى أكثر من موضع فى القرآن ، كما نجد كثيرا من السور تحمل اسما لموضوع واحد فقط ، مع اشتمالها على عدة موضوعات فى سياقها ٠ فهنـاك سورة الانسان مثلا ، سنعود اليها حتما حين نبحث عن حقيقة الانسان فى القـرآن ، ولكن من الخطأ أن نقتصر عليها لاننا نجد أن القرآن كله أو جله يتحدث عن الانسان بما فيه سورة الانسان ٠ ولعل أوضح مثل على هذا القول هو معرض الكلام عن حقيقة الالوهية وخصائصها فى القرآن الكريم ، حيث نجد أننا ملزمون باستعراض آيات القرآن الكريم كاملة ، حتى نخرج بمفهـوم كامل صحيح عن فكرة الالوهية ، واذا كنـا سنقصر البحث عن الايات المباشرة فقط ، تلك التى تتحدث عن الله وصـفاته وأفعاله ، فلن نصل الى مفهوم لفكرة الالوهية كما هى فى هذا الكتاب ٠ فهناك آيات تتناول مخلوقات جزئية معينة هى فى حقيقتها تخبرنا عن خصائص الله سبحانه وصفاته ، فآيات الكتاب الكريم كلها خطـاب موجه من الله تعالى الى البشر ، وفى الكلام دلالة خاصـة على قائله وخصائصه جل وعلا ٠ حتى لو كان موضوع القول بعيدا تمـاما عن فكرة الالوهية فآيات القـرآن الكريم التى تتحـدث عن خلق العالمين (السموات والارض) لها دلالتها الخاصة على القدرة الالهية المطلقة فقوله تعالى (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليـل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون ــ يس ٤٠) اعلام لنـا بحقيقة طبيعية وسنة كونية وقانون فلكى تنتظم بحسبه حركات الافلاك ٠ ولكن بدون

هذه الحقيقة الفلكية ومثيلاتها الكونيــة والطبيعية لا نســتطيع ان نستشعر مدى عظمة القدرة الالهية وسعة العلم الالهى وشموله وقوة احكامه تعالى للعالمين حيث يخضع كل شىء فيه لحكمه وقدره ومشيئته، وبدقة بالغة بحيث يستحيل ان يخرج كوكب أو نجم عن مساره المحدد أو يسبق أو يتأخر عن زمنــه الذى حدده له خالقه تعــالى • وهذا يستتبع القول بأنه سبحانه وتعــالى على كل شىء رقيب ، يدبر شئون العالمين وليس مهملا وتاركا لهم • تلك الحقــائق من أخص خصائص الالوهية قد فهمناها من آية واحــدة تتحدث عن بعض مخلوقات الله وان دل هذا على شىء فانما يدل على أن القرآن وحــدة كاملة شاملة عامة ، ويجب أن يؤخذكذلك عند البحث فيه عن أى حقيقة من الحقائق• وهذا يلزمنا بأن نستخدم فى البحث بين آياته منهجا احصائيا شاملا ، بمعنى أن لا يكون هناك مجال لاغفــال أو ترك بعض الايات أو حتى آية واحــدة •

ومما لا شك فيه ، أن طبيعة اللغة ـــ أى لغة ـــ تحتم على مستخدمها كى يصل الى المعانى الصحيحة للالفاظ ، أن يتناول الجملة أو العبارة كاملة وكذلك الموضوع • وهذا ينطبق ، بطبيعــة الحال ، على اللغــة العربية ، لغة القرآن الكــريم • فنحن اذا تركنا آية أو أخذنا بعضها دون البعض ، قد نصل الى معنى مغاير أو مناقض للمعنى المقصود • فمثلا الاية (فويل للمصلين ـــ الماعون /٤) اذا فصلت عمــا بعدها يصبح معناها وعيد للمصلى ، ونهى عن الصلاة ولا شك أن هذا تناقض واضح مع نصوص الايات الاخرى ، ولكن باستكمال ســياق الايات يتضح المعنى الحقيقى حيث يقول الله (فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ، ويمنعون الماعون ـــ الماعون / ٤ ـــ ٧) • وهذا شىء معروف لدى مفكرى المسلمين وعامتهم ، الا أن الامر الذى وقع فيه كثير من مفكــريهم ، هو عدم أخذ القــرآن كله كوحدة واحدة ، والرجوع اليه جميعا عند البحث عن أية حقيقــة من الحقائق التى تضمنها •

ولقد فعل ذلك علماء بنى اسرائيل وأحبارهم بكتابهم نصا ومعنى ، فآمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعض • فبدلوا وحرفوا وغيروا ، وهذا نوع من التبديل والتحريف والتغيير يمكن تسميته بالتبـديل السلبى بمعنى أنه قائم على اخفاء بعض الحقائق والغائها أو تكذيبها والكفـر بها بالتجاهل والتغاضى عنها وليس بالانكار الصريح ، وفى ذلك يقول سبحانه (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهـرون عليهم بالاثم والعـدوان ، وان يأتـوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم اخراجهم ، افتؤمنـون ببعض الكتـاب وتكفرون ببعض؟ فما جزاء من يفعل ذلك منكم، الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغـافل عما تعملون ـ البقرة / ٨٥) وآية سورة الانعام تقول (وما قدروا الله حق قدره ، اذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء ، قل : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ؟ تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم • قل : الله ، ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون ـ الانعام / ٩١) •

فاذا كان بنو اسرائيل قد آمنوا ببعض الكتـاب وكفروا بالبعض الاخر ، وذلك عن قصد وسوء نية واضحين ، فان كثيرا من مفكرى أو متكلمى الاسلام قد أخذوا ببعض الكتاب وتركوا البعض ـ عن قصد أو غير قصـد ـ حين تبويبهم وتصنيفهم للحقائق الالهيـة والكونية والانسانية واستخراجها من القرآن ، وذلك بتركهم النظـرة الشاملة الكاملة ، فجاء تقريرهم للحقائق مشوها قاصرا غير واف أحيانا كثيرة ، ومضطربا ومتناقضا فى بعض الاحيان •

فالقائلون بالجبر لم يصيبوا حين قرأوا (والله خلقكم وما تعملون ـ الصافات /٩٦) أو (وما تشاءون الا أن يشاء الله ـ المدثر /٥٥)• وأمثالهما وما فى معناهما مقتصرين عليهـا • وكذلك القدريون عنـدما اقتصرت نظرتهم على الايات الكثيرة الدالة على الاختيار مثل قـوله

تعالى (كلا انها تذكـــرة فمن شاء ذكره ــ الانسان /٣٠) أو قــوله (قل: الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر ــ الكهف/٢٩) وتوقفوا عندها •

بل ذهبت بعض الفـــرق فى الاستدلال بالايات الى استعمال نصف الاية أو بعضها ، ومثال ذلك تعاملهم مع قوله تعالى (فمن شاء اتخذ الى ربه ســـبيلا ، وماتشاءون الا أن يشـــاء الله ، ان الله كان عليما حكيما يدخـــل من يشاء فى رحمته والظـــالمين أعد لهـــم عذابا أليما ــ الانسان / ٣٠ــ٣١) • حيث نجد أصحاب القدر والاختيار يقتصرون على الاستشهاد بالجزء الاول منها (فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا) ، وأصـــحاب الجبر يهمـــلون الاول ويستشهدون بالجزء الاخـــير فقط (وما تشاءون الا أن يشاء الله) •وعندما يواجه كل فريق بمـــا يناقض مذهبه من الاية يلجأ ــ متعسفا ــ لتأويلها •

القاعـــــدة الثـــــانية :

افراد الله عز وجل بالالوهية والربوبية

يوجب افـــراد الوحى كمصدر للعقيدة والشريعة

والامر الثانى المهم لكى يكون المنهج علميا والموضوع قرآنيا خالصا فى بحثنا عن حقيقة الكون وموقف الانسان فى الاسلام ، هو ان يكون القرآن والسنة فقط هما المصدرين الوحيدين قولا وتنفيذا وليس قولا فقط وبمعنى آخـــر علينـــا أن نســـأل ، ثـــم نســـمع الاجـــابة من ربنا جل وعلا وحده ، وذلك بالبحث فى القـــرآن والسنة وحدهما دون ادخال شركاء من مصادر أخرى من دونهما •

ان القرآن والسنة الصحيحة وحى من السماء ، وهذه الحقيقـــة ، التى تعتبر مسلمة من مسلمات ومبادىء الاسلام وأصوله ، تخطاها الكثيرون من مفكرى الاسلام ــ بقصد أو بغير قصد ــ مما نتج عنه

اتخاذ اصول بشرية ووضعية أخرى معهما ، تدخل على المفكر فى صورة أفكار ونظريات وفروض يعتقد هو بصحتها ، أو مترسبة فى أعماقه نتيجة رواسب ثقافية قديمة وسابقة ومغايرة لروح الوحى وحقائقه ، ومن ثم يصبح مصدر الباحث أو المفكر فى هذه الحالة القرآن والسنة وغيرهما ، وهذا مالا يستقيم مع مبدأ افراد الوحى كمصدر وحيد للحقائق الغيبية والتشريعية والتاريخية، وحين يختلط المصدر السماوى بمصادر أرضية ينتهى الباحث حتما الى تخبط وتناقض وتضارب وبعد تام عن الحقيقة المنشودة . فعلينا اذا كباحثين عن حقيقة ما فى الاسلام ان نقبل على مصدريه ، وقد أفرغنا عقولنا من كل تصور سابق لم يستمد مباشرة منه . أى أن يكون عقلنا صفحة بيضاء خالية من الفروض والنظريات والافكار المسبقة ومستعدة لتلقى الحقائق كما هى .

حقيقة أن الرسول والصحابة لم يقوموا بعد تلقيهم للقرآن ، باثارة مشاكل فلسفية فكرية عن الالوهية والكون والانسان . وفى هذا يذكر الاستاذ الدكتور على سامى النشار ما نصه (كانت فلسفة القرآن التى ذكرنا صورا منها تتردد فى كيان المسلم ، وتعلن اليه حقائق الكون وحقائق الانسان ، ولم يحاول المسلم فى أوائل عهد القرآن أن يبحث وأن يتجاوز الحدود التى رسمت ، ورأى حقيقتين أمامه كما قلت ، حقيقة توفيقية وحقيقة توقيفية ✡ اما الاولى فقد سار فيها وارتاض رياضة كبرى فانتج العلم التجريبى ، وحقيقة توقيفية لم يستطع عليها صبرا فبحث فيها أيضا اما بمنهج متطابق معها واما بمنهج مخالف فظهر العلم النظرى) [1] .

كما يقول الدكتور محمد البهى ما نصه (ان النبى عليه السلام لم يقف عند وصف من أوصاف القرآن والحديث لذات الله تعالى ، ليخرج

---

(١) د. النشار : نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام ج ١ ص ٤ ط. الاسكندرية ١٩٦٥ .

✡ يقصد بالاولى العلم المادى التجريبى الذى فوضه الرسول الكريم العقل البشرى بقوله « أنتم أعلم بأمور دنياكم . أما الثانية فيقصد بها حقائق العقيدة والشريعة .

من هذا الوصف مذهبا أو مذاهبا فى فهم العقيدة ــ كما حاول بعده المسلمون ــ بعد أن تفرقوا وتحزبوا مستندين الى عبارة أو عبارات وردت فى القرآن أو الحديث يصح أو يحتمل أن يمال بها الى رأيهم الخاص ومذهبهم الشخصى ، ولكنه عليه السلام لم يثر مثلا حول الايات الظاهرة للاختيار والاخرى الظاهرة للجبر مثل ما أثاره حولها فيما بعد بعض المعلقين والمتفهمين من القدرية والجبرية ، ولم ير صلى الله عليه وسلم كذلك بين النوعين من الايات تضادا حاول أن يرفعه كما صنع بعض متفهمى العقيدة أو المفسرين . لم يعمد عليه السلام الى التخريج اذا كما عمد المسلمون بعده ، ولم يشأ أن يبحث ويتعقب فى آى الذكر الحكيم الذى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وآخر متشابهات) (١) لان مثل هذا التخرج أو التنقيب يستلزم حياة رغدة آمنة ، خالية من الجهاد ولان ذلك أيضا لم يكن من الخير للامة الاسلامية الناشئة ، التى كانت فى ذلك الوقت أشد ما تكون فى حاجة الى الوحدة الفكرية الكاملة . والان وقد كثر خصوم الاسلام وهجومهم عليه ، وتزاحمت منذ صدر الاسلام شىء الملل والنحل والفلسفات والمبادىء تريد كلها أن تنتقص منه كعقيدة صالحة للحياة والبقاء ، أما وقد كان ذلك ، فقد أصبح لزاما على مفكرى المسلمين ، أن يذودوا عن دينهم ويبرزوا حقائقه كاملة من القرآن والسنة وبالمنهج النبوى الكريم اى ان نتخطى كل المناهج التى استخدمها مفكروا الاسلام المختلفون مقتصرين على أسلوب الرسول الكريم والصحابة المهديين من بعده فى تعاملهم مع كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة . ولا يتسنى للمسلمين ذلك الامر الا بافراد القرآن والسنة كمصدر وحيد للبحث وذلك بخلع ونقض كل آثار وأفكار ونظريات الثقافات البشرية والاقبال على القرآن بعقول خالية وناصعة مستعدة للتلقى وليست متحفزة للاضافة

---

(١) د. محمد البهى : الجانب الالهى من التفكير الاسلامى ص ٤٠

والتحريف • ان افراد الله عز وجل بالالوهيــة والربوبية يوجب افراد الوحى كمصدر للعقيدة والشريعة •

علينا اذن أن يكون بحثنا فى القرآن الكريم خالصــا من آثار ونتائج مباحث الفرق الاســلامية التى ظهرت بعد عصر الصــحابة والتابعين وخالصا أيضا من الافكار والنظريات الحديثة التى يظن البعض انهــا اسلامية لوجــود بعض الشــبه بينها وبين بعض مبــادىء الاسلام ، معتمدين فى فهمنا للنصوص على موحيات الايات حسب قواعد اللغــة العربية • ومن ثم فالامر الذى يجب أن نتوخاه فى المنهج هو الا نقبــل على القرآن وفى أذهاننا فروض وحقائق مسبقة غريبة عنه ثم نبحث فيه عما يؤيد ما فى أذهاننا من حقائق وأفكار • (فالذى أدى بالمسلمين الى الاختلاف فى فهم العقيدة الى رأى أو آراء أو حقائق معينة حددتها أهداف وبواعث أخرى ــ غير العقيــدة ذاتها ــ كان أهمهــا أهداف سياســية واجتماعيــة وغيرها وسيطرت على طائفــة أو طوائف من المسلمين) [1] •

القـــــاعدة الثالثـــــة :

الوحى والعقل ومنهــج التأويل العقلى

وهذه القاعدة خاصة بتحــديد امكانية العقل البشرى ودوره حيــال النص الالهى ✡ فالاسلام يقرر ابتداء وجود عالمين على الفــرد أن يؤمن بهما كشرط لقبول اسلامه ، همــا : عالم الغيب وعالم الشهادة ، حيث تقول الايات الاولى من الكتاب (ألم ، ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ــ البقرة / ١ــ٤) •

وعالم الغيب هذا خارج عن نطاق وحدود الزمان والمكان : المقولتين

(١) د • محمد البهى : الجانب الالهى من التفكير الاسلامى ص ٣٢

✡ أنظر كتاب « خصائص التصور الاسلامى » للاستاذ ســيد قطب (كلمة فى المنهج) .

اللتين يعمل من خلالهما العقل ، واللتين لابد أن يكون موضوع تفكيره واقعا تحتهما . أما عالم الغيب : الله والملائكة والسموات والجن والاخرة فهذه أمور لا يدركها العقل ولا يستطيع ان يعرفها معرفة تفصيلية بنفسه ، وانما دوره حيالها وهو التلقي والفهم والتصديق ، وما عدا ذلك ، أي عالم الشهاة وهو العالم المحسوس الذى تقع موضوعاته وأجزاؤه تحت الزمان وفى المكان . فللعقل أن يبحث فيه ويصل الى حقائقه . ومن ثم فحقائق الغيب لا تناقش مناقشة عقلية منطقية ، وانما نعرفها ونتلقاها من النصوص ثابته كما هى . ويقتصر دور العقل فيها على التصنيف والتقسيم والتبويب والتقنين . حتى نخرج بحقيقة عامة كاملة متوازنة متناسقة ، وغير منافية للعقل ولا للمنطق .

وعلى هذا فلا يعتبر العقل فى مستوى الوحى ، اذ أن الحقائق الغيبية التوقيفية التى وردت فى القرآن والسنة فوق مستوى العقل البشرى ، وغير داخلة فى نطاق عمله ومادة تخصصه . وقد نادى القرآن بالحقائق التوقيفية الحقائق التى لا مجال للعقل أن يرتادها ولم يحدث ان اخترق العقل أيضا منذ وجد القرآن ومنذ وجد الحديث سياج الحقائق التوقيفية . ووجه العقل الى نطاق الحقائق التوفيقية ، الحقائق التى للعقل مجال التوفيق فيها ، وقد اندفع العقل فى نطاقها فأبدع كما سنرى بعد العلم وأقام الحياة)[1] .

ومادمنا فى معرض الحديث عن العقل والوحى ، فلا يفوتنا أن نذكر أن بعض مفكرى الفرق الاسلامية بدأوا البحث فى القرآن وفى أذهانهم مقررات عقلية سابقة ، أو فروض يعملون على اثباتها ــ سواء كان مصدرها المفكر نفسه ، أو أى مصدر أجنبى آخر من الفلسفات والثقافات الغربية عن الاسلام ــ فان وجدوا بين آياته ما يؤيد هذه المقررات والفروض فبها ونعم ، وان لم يجدوا قاموا بتأويل الايات

---

[1] د. النشار : نشأة الفكر ج ١ ص ٢

والاحاديث تأويلا متعسفا لا تقبله الاية ، ولا يحتمله متن الحديث • وبذلك انحرفوا بتأويلات النصوص القرآنية والنبوية ومفهوماتها انحرافا شديدا •

ومما لا شك فيه أن شيوخا فى الفكر الاسلامى مخلصين قد لجأوا للتأويل العقلى لحل مشكلات فكرية معينة • ولكن الذى حدث أن غيرهم من غير المسلمين أو غير المخلصين قد استخدموا هذا المنهج الفكر ىاستخداما يهدم الاسلام • فوضعوا به للقرآن تفسيرات باطنية وعلمية وعقلية ، جعلت منه قرآنات وليس قرآنا واحدا • وذلك هو السبيل الذى لجأوا اليه فى محاولة منهم ، لتغيير القرآن وتحريفه وتبديله ، عبثا بالمعنى ، بعد أن قهرهم اللفظ المنطوق والنص المكتوب فعجزت أصابعهم أن تمتد اليه •

وما وقع فيه بعض المخلصين من علماء الاسلام ، نتيجة ايمانهم الشديد بالعقل ، واعتباره فى مرتبة مساوية مع الوحى ، هو محاولة اخضاع الوحى لمقرراته حتى تبدو حقائقه معقولة ومقبولة ، مسايرة منهم لروح الحضارة السائدة فى عصرهم ، دفاعا عن الاسلام وحرصا منهم على نشره • بيد أن نتائج هذا المنهج كثيرا ما تكون خاطئة وخارجة عن المضمون الحقيقى للحقائق القرآنية ، ومن ثم يأتى النسق الفكرى الاسلامى غير متوافق ولا متوازن أو متساند ، ويحمل فى طياته كثيرا من الثغرات ووجوه النقد ، ومثال هؤلاء فى القديم : الجهمية والمعتزلة ، وغلاة الشيعة والخوارج ومتفلسفة الصوفية ، ولكن نأخذ مثلين على ذلك من مفكرين حديثين هما: الشيخ محمد عبده ، وتلميذه الشيخ رشيد رضا •

مسايرة لروح العصر نجد الشيخ محمد عبده فى تفسير قوله تعالى (وأرسل عليهم طيرا أبابيل ، ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول ـ الفيل / ٣ـ٥) يفسر الحجارة من سجيل بأنها (ما يسمونه الان بالميكروب) أما عن الطير ، فقد أجاز لنا أن نعتقد أنه (من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل الجراثيم) • ومن ثم

تكون هذه الحجـــارة من ســـجيل هى جراثيـــم (مرضى الجدرى أو الحصبة) حيث بسببهما يتساقط لحم البشر بدليل قوله تعالى (فجعلهم كعصف مأكول) • (١) ولو جادلناه بالعقل لقلنا له ان مرضى الجدرى والحصبة يحتاج كل منهما الى زمن طويل لكى يهلك جيشا جرارا كاملا• وقد أثبتت الروايات التاريخية أن هذا الجيش كان على بعـــد ساعات من الكعبة حين نزلت الطير عليهم بالحجـــارة من سجيل • فلـــو كانت جراثيم لاحتاجت وقتا حتى تتغلب على مناعة ومقاومة الجسم وتمرضه ولكن الذى حدث انه بمجرد حضور هذه الطير والقائها بالاحجار على الجند والفيلة فروا ورجعوا هالكين • وما الدليـــل على أن معنى الطير الابابيـــل فى اللغـــة هو الذباب ! ؟ • ان هذا التأويـــل يتضمن انكارا للمعجزة ولقدرة الله تعـــالى المطلقة ويوحى بان الله عنـــدما يريد ان يفعل شيئا يتحتم عليه ان يفعـــله حسب القوانين والسنن الطبيعيـــة والكونية وهو قول يؤدى ويلزم فى النهاية بانكار المعجزات • ولكنا لا نجادل بالعقل ولا نقول بالرأى فى كتاب الله تعالى • انما أردنا ان نبين فساد هذا المنهج فقط •

هذا مثال يوضح لنا كيف أن حرص الشيخ محمد عبده على أن يكون النص القرآنى ملائما كل الملاءمة للعـــلم الحديث ، وموافقا مع سمة الحضارة المادية العقلية لعصره ، جعله يتـــأول النصوص تأويلا غريبا عن مدلولات الايات • فماذا لو عاش الامام الى أيامنـــا هذه ، حيث القنابل الذرية والهيدروجينية والغازات السامة والقنـــابل الحارقة ؟ أيتغير اذا معنى الحجارة من سجيل لتصبح شيئا عصريا أم ماذا يكون معناها فى المستقبل ؟ أن هذا السبيل فى التفسير يجعل المعانى للايات متغيرة ومختلفة وخاضعة لمكتسبات العلم وسمة الحضارة لكل عصر من العصـــور •

والمثال الذى اخترناه عن تلميذه الشيخ رشيد رضا رحمه الله هو

---

(١) تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده ص ١٢٠ كتاب الشعب .

ذكره فى تفسير المنار أن الملائكة هى القوى والافكار الموجودة فى النفوس ، وأن المراد بسجود الملائكة لادم هو تسخير هذه القوى للانسان فى هذه الحياة . وأن قصة آدم بما فيها من محاورة الملائكة وتعليمه الاسماء ، وسجود الملائكة له من باب التمثيل ولم تقع بالفعل.

وهكذا نجد أن مدرسة تفسير المنار التى جعلت من أهدافها التوفيق بين الدين والعقل ، قد أصابها طائف من المبالغة حيث أسرفت فى الخضوع للعقل ، كما أسرفت فى الحذر من تقبل حقائق الغيب التى قد لا تتمشى مع عقلية العصر وسمة الحضارة المادية . وقد حدث ذلك فى معرض محاولة الشيخ رضا نفى طوفان الخرافات الاسرائيلية، وغيرها التى تسربت الى رحائب التفسير ، وجعل أحكام الدين وحقائقه ومقرراته معقولة للفهم البشرى ، وربما كان له الحق فى ذلك ولكن نهجه الذى احتكم فيه الى العقل فى كل حقائق الوحى خاطىء حيث حاول أن ينفى كثيرا من الغيبيات التى يجب التسليم بها ، ورفض أن يقف عند الحقائق التوقيفية ، وعالجها باعتبارها توفيقية حيث نسى أن يرجع لفهم كل حقيقة فى ضوء كل الحقائق والايات القرآنية الاخرى . والا فكيف يستقيم مفهومه للملائكة مع قوله تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ـ الحج / ٧٥) ، ومع قوله (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) [١] أى الملائكة الحفظة ، ومع وصف الله سبحانة لهم بأنهم (أولى اجنحة : مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء [٢]) واذا جاز أيضا

(١) سورة الرعد : ١١ .
(٢) سورة فاطر : ١ .

ما يقول فان الشيطان أيضا يكون معنى وقوى شريرة غير مرئية [1] ، بينما كل النصوص الواضحة الصريحة تثبت بما لايدع مجالا للاختلاف أنه من الجان وهو مخلوق كالانســان يأكل ويشرب ويتزوج وينسل ويؤمن ويكفر ويدخل الجنة للنعيم والنار للعذاب • ان كل ما جاء عن الملائكة والجن يثبت أنهــا ذوات حية عاقلة وليس ثمــة مجال لغــير هذا المفهــوم •

---

(۱) من مثل هذه التأويلات المتعسفة ما ذهب اليه فكــر الدكتور محمد البهى فى تفسيره لسورة « الجــن » ، فقد صــادم فى تأويلاته هذه صريح القرآن والسنة .

ذلك أنه أنكر وجود عالم ثالث يتميز عنعالم الملائكة وعالم الانس ويتقــابل تماما مع كل منهمــا هو : « عالم الجن » ، فالملائكة والجن ـــ عنده ـــ من طبيعة وأصــل واحد وهو : « النار » ، فالنار منبع النور ، والنور عرض ومظهر للنار !! فترتب على ذلك وقــوعه فى التعــسف فى تفسير الســورة ، فذهب بعقله مثلا عندما فسر قوله تعالى : (قل أوحى الى : انه استمع نفر من الجن ..) الى أن الفريق الذى تخفى ولم يكن معروفا للمكيين ـــ حتى كذلك لرســول الله صلى الله عليه وســلم ـــ عند سماعه القــرآن بمكة هو من (البشر) وليس من القوى النارية (الجن) !!

ولو أخذ (اســتاذنا) بصريح القرآن وصحيح السنة النبوية لما أنكر شيئا علم ثبوته من الدين بالضرورة ، فقد ثبت بالدليل القطعى الذى لا احتمال فيه والخبر الصادق الذى رواه أحمد ومسلم ـــ رضى الله عنهما ـــ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق الانسان مما وصف لكم» والذى يجب أن نسلم به بالنسبة للنور الذى خلقت منه الملائكة والنــار التى خلق منها الجانانهما سر منأسرار الله ولاسبيل لعقولنا وحواسنا فى ادراكهما . وعليه فيكون من التعسف الا نســلم بوجود الجان كعالم متميز فى أصله وطبيعته وخصــائصه ، وبذلك يكون النفر الذين استمعوا القــرآن هم من قبيل (الجــن) وليسو من البشر ، ويكون أبليس من الجــن تسليما بصريح قول الله تعالى : (الا ابليس كان من الجــن ففسق عن أمر ربه) وليس من الملائكة ومن الجــن فى آن واحد كمــا ذهب الدكتور فى تأويلاته .

أما أمثلة التفسيرات الخارجة باللفظ عن معناه الواضح الصريح ، وتحميله مالا يحتمل فمنها تفسير بعض الصوفية لقوله تعالى (ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة [1]) ، أى النفس وتفسيرهم قوله تعالى لموسى (فاخلع نعليك) [2] أى بدنك ونفسك ✿ ومثل ذلك أيضا فهم أبى حامد الغزالى « للنعلين » انهما يرمزان الى الكونين : الدنيا والاخرة وأن الله يطلب منه بجانب خلع نعليه اللذين فى قدمه أن يطرح الدنيا والاخرة ، وأن يتوجه الى الواحد الحق ، ويعلل ذلك بأنهما متقابلتان متحاذيتان كالنعلين، وهما عارضان للجوهر النورانى البشرى حيث يمكن اطراحهما مرة ، والتلبس بهما أخرى. فمثال اطراحهما عند الاحرام للتوجه الى كعبة القدس خلع النعلين) [3] .

بل ان الامام الغزالى فى محاولة منه للتوفيق بين تفسيرات ومفهومات الايات القرآنية حسب قواعد واصول اللغة العربية منعا لانزلاقه الى ماذهب اليه الباطنيون من معانى غريبة وبعيدة كل البعد عن القرآن الكريم ــ قد أثبت لكل آية مفهومها الذى تحدده معانى الالفاظ المعروفة بين أهل العربية ، ثم جعل هذه الالفاظ والايات فوق أنها مقصودة لذاتها وهى حق ، مجرد رموز لمعانى علوية وأمور نورانية

---

(١) سورة البقرة : ٦٧ .

(٢) سورة طه : ١٢ .

✿ نقل د . مصطفى محمود هذه التأويلات الرمزية الخارجة من مصادرها فى كتب التصوف واسماها « محاولة عصرية لفهم القرآن » ووفق الله الاستاذ عبد المتعال الجبرى فى الرد عليه فى كتاب بعنوان « شطحات مصطفى محمود » من منشورات دار الاعتصام بمصر .

(٣) ابو حامد الغزالى / مشكاة الانوار د . ابو العلا عفيفى

أخرى ، لا يدركها كل الناس وهى مثل تعبير الرؤى فكما الشمس فى الرؤيا تعبيرها السلطان ، والقمر تعبيره الوزارة ، فكذلك نجد أن (فى الموجودات العالية الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب ، فكذلك فيها ماله أمثلة أخرى اذا اعتبرت منه أوصاف أخر سوى النورانية)[1]. ثم يذهب بعد ذلك الى تفسير الطور والوادى المقدس طوى والنعلين برموز معينة كما مر .

وقد لا نستطيع التحدث عن خطورة منهج التأويل العقلى والرمزى بين أيدى المخلصين من شيوخ الاسلام ومفكريه ، مراعاة لظروف عصورهم ودواعى استعمال ذلك المنهج وتوفر حسن النية عندهم . ولكن أحدا من المفكرين الاسلاميين المخلصين لا يستطيع السكوت على بعض الذين يلحدون فى آيات القرآن الكريم بهذا المنهج ، حيث يعبثون بالمعنى بعد عجزهم عن العبث باللفظ ، ومن أمثلة ذلك حديثا تفسير البهائية المائدة التى نزلت على عيسى والحواريين من السماء بأنها غذاء الروح والعقل ، واحياء عيسى عليه السلام للموتى بأنه اخراج الجاهل من ظلمة الجهل الى نور العلم ، وهكذا يؤولون كل المعجزات التى حدثت حدوثا حسيا واقعيا مخالفا للعادة على أيدى الانبياء والمرسلين فيجعلونها أمورا معنوية يقدر عليها كل مصلح اجتماعى أو أى بشر عادى .

ومثله ، ميرزا غلام أحمد القاديانى ، الذى ادعى النبوة فى الهند فى القرن الماضى ، وفسر لاتباعه كون الرسول صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء بأنه معتمدهم بخاتمه وليس آخرهم[2] .

كل ذلك يحتم علينا الحذر من منهج التأويل العقلى ، والالتزام بمدلولات الالفاظ والعبارات حسب دلالاتها اللغوية ، وقواعد اللغة

---

(١) الغزالى / مشكاة الانوارص ٧٠ .
(٢) المسألة القاديانية لابى الاعلى المودودى .

العربية • واقفين بالعقـــل عند حدوده ، مميزين بين ما هـــو توقيفى وما هو توفيقى من الحقائق ، فلا نهمله أو نبخسه قـــدره بل نضعه فى موضعه الذى خلق لاجله •

القاعــــدة الرابعــــة :

المعرفة بالوحى والمعرفة بالعقـــل

وتتلخص فى أننا يجب الا نقبل على القرآن بغيـــة البحث فيه عن ادلة لابطال آراء الخصم ، أو مفهومات ـــ رأينا فى خالص فكرنا أنها خاطئة ـــ وذلك لدحضها وابطالها • لان ذلك النهج الفكـــرى ينحرف بالباحث عن ادراك الحقيقة القرآنية فى ذاتها • فالحقيقة القرآنية هى المعيار الذى توزن به مسائل المذاهب والنظريات والفلسفات الاخرى ، أو هكذا يجب أن تكون ، ما دمنا فى نطاق الفكر الاسلامى الخالص • ومن ثم وجب معرفتها كاملة وبطريقة مباشرة من القرآن والسنة وذلك بعكس سبيل الفكر البشرى الحر الذى يتدرج فى اكتشاف الحـــق فى المسألة تدرجا بطيئا حيث يعجز وحده عن معرفة الحقيقة دفعة واحدة • فالدارس لمسارات الفكـــر البشرى فى فلسفات وعقـــائد الحضارات الجاهلية المختلفة قديمها وحديثها يرى ان العقل الانســـانى يكتشف الفكرة أو المبـــدأ أو التفسير أو النظام لمـــا يبدو فيها من حـــق وخير ويعتنقها زمنا ما ، ولانها افكار ونظم بشرية فلا مناص من تلبس الحق

✿ يراجع بتوسع كتاب : « موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين » للعلامة الشيخ مصطفى صبرى شيخ الاسلام السابق فى دولة الخـــلافة العثمانية ، وهذا الكتاب فى جمـــلته مجموعة من المواقف الفكـــرية الجليلـة ، تصدى فيها شيخنا العظيم لتيارات الالحـــاد وفتنة قداسة العقل عند مشاهير المؤلفين المعاصرين فى الوطن الاسلامى ، المفتونين بفتوحات العقل فى حضارة الغـــرب المادية ، لكى يرد الى قيم الاسلام وعقائده صفاءها ومكانتها فى النفوس .

كما يراجع فصل : تربية العقل فى كتـــاب « منهج التربية الاسلامية » للاستاذ محمد قطب ، فقد توسع فى بيان حدود العقل ومجالات عمـــله .

بالباطل والخير بالشر فيها ، ومن ثم لا يلبث العقل الا قليلا حتى يكتشف الاخطاء والاضرار فيما ظنه حقا محضا وخيرا كاملا، فيندفع بعد ذلك — فى محاولة لعلاج الخطأ وتلافى الاضرار — الى نقيض الفكرة الاولى أو النظام السابق وهو لا يدرى أنه باندفاعه هذا من النقيض الى النقيض قد استبدل خطأ بخطأ وشرا بشر وتخطى بذلك الحق الكامل والخير الخالص • والذين درسوا الفلسفة اليونانية يدركون الى أى حد ينطبق هذا القول على تاريخها • حتى نستطيع ان نرى مسار العقل اليونانى وانتقاله فى تفسيره للوجود من اعتماده على مبدأ التغير الى الثبات ومن التعدد الى الوحدة ، ومن المادية المحضة الى التصورية الصرفة ، ومن الجزئية الى الكلية ، ومن انكار القدر والعناية الالهية للعالم الى الايمان بالقدر الصارم الذى يخضع له كل شىء حتى الاله نفسه ، وهكذا ، حتى انتهت الفلسفة اليونانية على غير اتفاق ، وكذلك كل الفلسفات وعلة ذلك تكمن فى تكليف العقل البشرى بما لا يطيق وبما لم يخلق من اجله فقد كانت موضوعات الفلسفة اليونانية هى نفس موضوعات الوحى ، فلو خلق الله العقل البشرى مؤهلا لهذه الموضوعات لما جاءت الرسل للبشرية ، ولكن الرسالات السماوية نزلت من السماء حتى لايبرر أحد من الناس يوم القيامة ضلاله وفسوقه بالجهل (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)[1] فلو كان العقل وحده كفيلا بهداية الانسان للحق الكامل والخير الخالص لما جاز للناس أن يحتجوا بعدم ارسال الرسل • ولكن الله تعالى الذى خلق الانسان وعقله وفكره جعل لعقله حدودا وموضوعات خاصة تليق به وجعل حقائق الغيب والتشريع خارج هذه الحدود ومخالفة لموضوعات العقل ، شاء سبحانه ان يرسل الرسل حتى لا تكون هناك حجة للناس لعلمه تعالى انه بدون الوحى السماوى لا يهتدى الانسان الى الحق أبدا ولا يصل الى الخير المنشود فى دنياه وآخرته •

---

(١) سورة النساء : ١٦٥ .

(لقد أدركنا الغرور ، ونحن نرى العقل البشرى يبدع فى عالم المادة، ويأتى بما يشبه الخوارق • فوهمنا أن العقل الذى يبدع الطائرة والصاروخ ويحطم الذرة وينشىء القنبلة الهيدروجينية « ويرتاد الفضاء » ويعرف القوانين الطبيعية ويستخدمها فى هذا الابداع ••• وهمنا أن هذا العقل جدير بأن نكل اليه كذلك وضع (نظام) الحياة البشرية ••• وقواعد التصور والاعتقاد وأسس الاخلاق والسلوك •• ناسين أنه حين يعمل فى (عالم المادة) فانه يعمل فى عالم يمكن أن يعرفه لانه مجهز بادراك قوانينه •• اما حين يعمل فى (عالم الانسان) فهو يعمل فى متاهة واسعة بالقياس اليه • هو غير مجهز ابتداء بادراك حقيقتها الهائلة الغامضة) [1] •

والذى فعله الانسان بتجربته البشرية فى الفلسفة اليونانية هو أنه وضع عقله أمام موضوعات لم يخلق لها وليست فى طاقته • وليس معنى ذلك أننا نقلل من شأن العقل والفكر • كلا • فالعقل أو الفكر أو الذكاء البشرى بخاصة وجميع أجهزة الادراك البشرية بعامة هى أعظم ملكات الانسان وقدراته ، وهى خطيرة الشأن فى وجوده ، فبدونها لا يستطيع أن يحقق هدفا من أهدافه الكونية العظمى التى خلقه الله من أجل تحقيقها • ولكن الانسان — بعقله وأجهزة ادراكه جميعا — يعجز عجزا تاما عن ادراك ومعرفة حقائق الغيب والتشريعات المنظمة لحياته الفردية والاجتماعية اذا ترك العقل البشرى وحده دون توجيه وتعليم وترشيد من السماء ومعنى ذلك أن للعقل دورا رئيسيا وهاما فى معرفة حقائق الغيب والوحى والتشريع ولكن الخطأ يكمن فى محاولة العقل البشرى معرفة ذلك وحدة دون قيادة الوحى وتوجيهه •

ان السائح الذى يريد أن يعتمد على نفسه فى اكتشاف الاماكن السياحية والاثرية التى جاء من أجل زيارتها رافضا الدليل السياحى

---

(1) عن كتاب : « المستقبل لهذا الدين » للاستاذ سيد قطب رحمه الله .

مخطىء حيث من المؤكد أن مدة زيارته ستنتهى دون معرفة هذه الاماكن بل ربما ينتهى عمره كاملا دون أن تصل اليها جميعا • حقيقة أنه من المحتمل أن ينجح فى التعرف على بعضها ولكن من المؤكد أنه لن يصل الى زيارتها كلها ومعرفتها المعرفة التى يمكن أن يجنبها من مرافقة المرشد السياحى • والسائح هنا هو العقل البشرى عندما يرتاد الامور والمسائل الكونية والوجودية والمرشد هو الوحى والوحى من عالم الغيب ولذلك فهو المصدر الوحيد للانسان لمعرفة هذا العالم معرفة كاملة وحقيقية يقينية •

وعندما يقبل السائح مختارا مرافقة المرشد حيث سيعطيه من المعرفة والهداية فى وقت قصير ما لا يستطيع ان يجنيه فى عمر طويل وحده فعليه أن يقبل اختيارا او طواعية التزامه بطاعته ويترك له قيادته وتنظيمه ويسلم بما يلقنه اليه من معلومات تاريخية وأثرية ويقتصر دوره على التلقى والفهم والاستجابة •

وهذا هو المطلوب من العقل البشرى حيال الوحى الالهى الهادى الى الحق والمرشد الى الخير : التلقى والفهم والتسليم والاستجابة • فالاسلام هو اسلام الارادة لله فى السلوك والمعاملات واسلام العقل الى الوحى فى مجال المعرفة وادراك الحق • ولن يتم أحدهما الا بالاخر •

ولا شك أننى عندما أخضع عقلى كانسان لقول الله تعالى ايمانا بأن فيه كل الحق ، ولا حق فيما سواه اذا كان يخالفه ـ فاننى فى الواقع احرره ولست أخضعه أو أقلل من شأنه لان الاستسلام لله وحده تحرر واستعلاء على ما سواه • والعقل وقوانينه الفكرية من صنع الله ، ومن ثم فخضوعه للحق وتوافقه مع الحق الاتى الينا من الله واستسلامه له وأخذه عنه انما هو تكريم له وليس تقليلا من شأنه ، وليس هناك تكريما لكائن أعظم من وضعه فى موضعه المناسب له الذى خلقه الله من أجله •

ننتهى اذن الى تقرير نتيجة هامة وصحيحة ، تتلخص فى قولنـــا : أن ما يظل العقل وحده باحثا عنه قـــرونا طويلة دون الاهتداء اليـــه ، يتلقاه تلقيا مباشرا وسريعا وكاملا من الوحى الالهى ، وفى هذا رحمة وخلاص للناس وهداية لهم الى الحق والخير اللذين لا تستغنى عنهما البشـــرية .

ومن ثم ينجو الانسان بذلك من التخبط بين الافكار المتناقضة والنظم المختلفة ، كما حدث فى الفلسفات والعقائد الوضعية قديما وحديثا .. ومعنى ذلك أننا يجب أن نتلقى الحقـــائق القرآنية باعتبارها حقـــائق كاملة وليســـت حقـــائق جـــزئية ناقصـــة تنتظر منـــــا اســـتكمالها والاضافة اليها أو تعديلها لاننا عندما نكون بازاء حقائق القرآن الكريم فاننا نتلقى ونسمع من الله عزوجل بعكس سبيل العقل البشرى فى التفكير حينما ينتقل من فكرة الى نقيضها أو من فكرة الى فكرة مكملة لهـــا أو من معنى الى م عنى يتداعى وراءه وبسببه ، فاذا نحن حاولنا معرفة حقائق الوجود والغيب من القرآن بهذا السبيل الفكـــرى الذى يغلب على طبيعة العقل البشرى فى بحثه سنقع لا محالة فيما وقع فيه مفكرو الاسلام قديما مما أدى بهم الى الفرقة والتقابل والتناقض فى المذاهب والاتجاهات حيث نجد نماذج من هذا الخطأ المنهجى فى التفكير الاسلامى قديما عند الفرق ، بـــل ان منشأ الفرق ذاتهـــا ، ووجودها لم يكن الا نتيجة لهذا الخطأ فى تطبيق المنهج . أما تطبيقه على الحقائق التوقيفية ، فسيؤدى حتما الى التخبط والى الحصول على نتائج خاطئـــة . وهذا ما وصلت اليه فعلا بعض أو معظم الفرق الاسلامية . فهناك فـــرق قامت كوجه مقابل وكرد فعل لفرق أخرى ، رأت الفرق التالية خطـــأ الاولى بل فسوقها أو كفرها فاذا بهـــا تذهب الى الطـــرف الاخر من القضية متعدية الحقيقة .

ومثال ذلك ظهور فرق الخوارج التى انشقت على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وغالى بعضهم حتى قال بكفره فتبع ذلك ظهور الشيعة

الذين تشيعوا له ، وغالى أيضـــا بعضهم حتى ذهبـــوا الى تأليهه ، والحقيقة تجافيهما فما هو بكافر ولا هو باله •

مثال آخر ، يتمثل فى تفشى القـــول بالجبر فى عهد بنى أميـــة وأخذ الناس يتعللون ويحتجون عن معاصيهم بالقدر الالهى المكتوب ، وهذا خطأ وضلال دفع تابعيا صدوقا هو معبد الجهنى الى مقاومتة فقـــال لا قدر والامر أنف وأنكر القدر ــ فوقع فى خطأ آخر لانكاره القـــدر وهو أصل من أصول الايمان فى الاسلام •

ولكن معبدا حينما أخطـــأ فى محاولته معالجة هذا الانحـــراف كان خطؤه منهجيا قبل أن يكون موضوعيا • حيث لم يعد الى آيات القرآن يستلهمها الرأى ، وانمـــا جاءت محاولته للبحث فى الموضـــوع قاصرة على غير أساس منهجى سليم ، مدفـــوعا بالرغبة فى مقاومة الاتجـــاه الاخر ، ومعالجة الانحـــراف العقيدى والخلقى النـــاتج عنه ، فأنكر القدر انكارا تاما ، وذلك بسبب استخدام عقله وفكره استخداما مستقلا مغفلا لنصوص الوحى وتوجيهه •

وخلاصة القول : أنه كما يتعين علينا الا نقبل على القرآن بمقرارات عقلية أو فروض ذهنية مسبقة باحثين فيه عما يؤيدها بتأويل نصوصه أو بغير تأويل ، كذلك يجب علينا الا نقبل عليه وفى أذهاننا من الافكار والنظريات والفروض والاراء التى نعتقد أنها خاطئة ومنحرفة ــ بغية البحث بين آياته عما يدفع هذه الافكار ويدحضها •

القاعدة الخامســـة :

ضرورة توافـــق
الحقيقة المستنبطة من البحث فى القرآن
مع غيرها من الحقـــائق القرآنية

وهذه القاعدة فى هذا المنهج ، قاعدة معيارية بمعنى أنه ينبغى علينـــا أن نزن الحقائق التى نصل اليها بعد البحث بمعيار نابع من القـــرآن

أيضا وليس بمعيـــار أجنبى عنه أى أنه لابـــد من أن تكون الحقيقـــة المستخلصة من الايات متوافقة مع بقية حقائق القرآن بصفة عامة من ناحية ، كما تكون متوافقة ومتسقة ومتســـاندة مع كل سورة وكل آية من آياته جميعا ، وليست متعارضـــة مع آية واحدة ، والا بطلت هذه الحقيقة المستخلصة على الفور ورفضت رفضا تاما وقاطعا •

وذلك لازم من مســـلمتين هامتين ✿ يؤمن بهمـــا المســـلمون ، وتؤيدهما المناهج العلمية للنقد التاريخى أولاهما :أن القرآن كتاب منزل بجميع آياته من عند الله سبحانه ، وأن الله سبحانه وتعالى وعد البشرية بحفظه من التبديل والتغيير والضياع (واتل ما اوحى اليك من كتـــاب ربك لا مبدل لكلماته) [1] (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) [2] وهذا يعنى يقينا أن ما بين أيدينا من الذكر ، هو بكامله وبرمته كتاب الله لا زيادة فيه ولا نقصان ولا تحريف فيه ولا تبديل •

وهذه المسلمة يؤدى تجاهلها أو انكارها الى الخـــروج بمتجاهلها أو منكرها عن محيط الدائرة الاسلامية: ذلك أن القرآن كتاب منزل من عند الله تعالى ، ومن ثم فكل ما جاء فيـــه حق كامل ، وكل ما أرشـــد اليه خير تام وكل ما نهى عنه شر مؤكد • والقول بغير ذلك كفـــر بالقرآن وتكذيب به وتكذيب برسالة محمد صلى الله عليه وسلم •

ومن ثم لا يمكن اعتبار أى بحث فى القرآن والسنة لا يقـــوم على هذ هالمسلمة بحثا اسلاميا حتى لو استدل على نتائجه بآيات قرآنية ، ولتوضيح ذلك نقول : ان الباحث الاسلامى يجب أن لا يقبـــل على

---

(١) سورة الكهف : ٢٧ . (٢) سورة الحجـــر : ٩ .

✿ القول بأن هذهمسلمة انما هو فى نطاق الفكر الاسلامى وبين المسلمين حيث التسليم بأن القرآن وحى الهى ، أما حيال غير المسلمين وفى مجال الفلسفة العامة فان هذه القضية يجب أن تقدم بأدلتها العقلية والتاريخية والاعجازية للقـــرآن الكريم فهى مسلمة بالنسبة للمسلمين وغير ذلك بالنسبة لغيرهم .

القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة المحققة باعتبارهما كتابين من الكتب والمصادر الكثيرة التى يرجع اليها ، فكل المصادر سوى القرآن والسنة يخير فيها الباحث الاسلامى بين الاخذ والترك • والحق فيهـا مرهون بنتائج البحث وخاضع لقواعده المنهجية ، أما القرآن الكريم فلا يملك المسلم حين يتلوه أو يبحث فيه الا أن يعتقـد ويسلم ابتداء بصـحة كل ما جاء فيـه ، وصدقه وأحقيتـه وكذلك السنة المحققـة الصحيحة • والذى يتناولهما بقصد أخذ ما يتفق مع مذهبه وترك مالا يتفق ليس باحثا اسلاميا ، وثمة شك فى اسلامه لو علم خطـأ ما يفعل وأصر عليه • ولا فرق بينه عندنا وبين المستشرقين اليهود والصليبيين الذين يبحثون فى اصول الاسلام ليس بقصد معرفة الحق ولكن بقصد الانتقاء من آياته ما يخدم اهدافهم واخفاء وتجاهل ما يتعارض معها •

وثانى المسلمتين : هى أن القرآن يوافق بعضه بعضـا ، ولا يضرب بعضه بعضا، فنهاك اتفاق واتساق وتوازن واحكام بين آياته، وبالتالى بين حقـائقه ، ومن ثم يلزم من هاتين المسـلمتين أن تكون الحقيقـة المستخلصة من الايات متمشية ومتوافقة مع باقى الحقائق والايات ، سواء أكانت تلك الحقائق خاصة بعالم الغيب ، أم بعـالم الشهادة أم فى مجال التاريخ والاخلاق والتشريع •• هذا هو المعيار الاول •

أما المعيار الثانى : فهو قائم على هذا الاول ، ذلك ان القرآن الكريم يقدم لنا حقائق كثيرة ، ولكنهـا يمكن أن تصنف دراسيا الى حقـائق نظرية ، وأخرى عملية • وهو ما عرف عند علماء الاسلام ـــ اصوليين وفقهاء ـــ بالتوحيد وأبحاث الفقه والتشريع • وهما فى القرآن مرتبطان يقوم الثانى على الاول ويكمل أحدهما الاخر ، فالنظم العملية متفقـة ومتساندة وقائمة على الحقـائق التصورية حيث نجـد التشـريعات العملية فى الاسلام قائمـة ومرتكزة على التوحيد وحقـائق العقيدة الاسلامية ارتكاز البناء على أساسه فى باطن الارض ، كما أن المسلم

لا يصبح موحدا الا بالتطبيق العملى للتشريع القــرآنى الفردى منه والجماعى على حد سواء •

فالقرآن الكريم يقدم لنا عقيدة تصورية محضة فى الالوهية والعالم والانسان ، ولكن هذه العقيدة التصورية ليست مجرد موضوع للذهن البشرى يتعامل معه ويقف عند هذا التعامل الذهنى التصــورى • بل أنه يعتبر الاســاس الفكرى الذى تقــوم عليه التشريعات الخلقيــة والاجتماعية والانسانية فى الحيــاة البشرية واليومية والجيلية منهــا على حد سواء • فالعقيدة التصورية للفرد هى أصل الدوافع النفسية للعمل والحياة ، وهى بالنســبة للمجتمع أساس النظم القائمة فيــه • والقرآن ليس كتابا فى الميتافيزيقا ✡ والابحاث الكونية أو الفيزيقية، الهدف منها المعرفة المجردة للثقافة والتثقيف فقط •

فلطالما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بدعائه المأثور « اللهم انى أعوذ بك من علم لاينفع » كما ورد فى الاثر « اللهم أنى أسالك علما نافعا » ولا علم أعلا وأنفع من توحيد الله عز وجل ، وهو أساس العقيدة الاسلامية ، وكل ما فى القرآن والسنة الصحيحة حق وعدل ، أما الحق فهو تصورات وأقوال تعبر عنحقائق كائنة وموجودة فى العالم وليست مجرد علم نظرى تصــورى فقط ، بل هو الاساس الذى تقــوم عليه السموات والارض أى العالمين • وهذه المعرفة ليست من نوع المعارف النظرية والظنية عند الفلاسفة والمفكرين • ويعتبر التوحيد هو أساس الحق فى عقيدة القرآن ، وهو أيضا أساس الحق فى العــالم وقوانينه التى تحكمه ، ومن ثم فمعــرفته ليست مجرد علم للثقــافة والمعرفة

✡ الميتافزيقا : كلمة يونانية ترجمتها « ما بعد الطبيعة » ، وكان فلاسفة اليونان عادة يقسمون مباحثهم الفلسفية الى مباحث فى الطبيعة «الفيزيقا» ومابعد الطبيعة «الميتافيزيقا» والاثنان عندهم يشكلان العــالم أو الوجود وثمة اختــلاف بين هذا التقسيم وبين مفهوم العالم والوجود فى الاسلام .

النظرية بل انه يترتب عليه السلوك الفردى والاجتماعى فى الحياة البشرية ويتحقق به الخير والعدل •

أما العدل ، فهو السلوك العملى للافراد والجماعات الذى يحقق الخير للانسان فى الدنيا والاخرة ، ولا عدل الا عدل القرآن ، ولا عدل بدون الحق • ومن ثم لا يتمثل الحق كقيمة والعدل كنظام وعمل الا بالتوحيد •

فالتوحيد أو عقيدة الاسلام مرتبط أوثق ارتباط بالعمل ، والعدل والخير يقومان عليه قيام البناء على الاساس أو الشجرة على الجذور الممتدة فى باطن الارض ، وتعتبر السعادة والحياة الطيبة فى الدنيا والاخرة هى الثمرة التى يجنيها الانسان من هذه الشجرة الطيبة •

ومن ثم فان السنة هى التطبيق العملى للقرآن حيث كان الرسول عليه الصلاة والسلام النموذج البشرى الحى لهذا التطبيق ، حيث كان خلقة القرآن كما أن الصحابة عليهم رضوان الله فى مجموعم كانوا هم النموذج البشرى الحى لما يجب أن يكون عليه المجتمع الانسانى • حتى أنه يمكن القول أن الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة معه فى مجتمع المدينة قد عاشوا وتمثلت فيهم الحقائق الانسانية : الخلقية والاجتماعية فى القرآن • وتلك ظاهرة تاريخية ، ربما أمكن القول ، انها لم تتكرر كثيرا حيث وحد القرآن بين شعوب وأمم ومجتمعات متغايرة بتأسيسة نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية فى المجتمع الاسلامى على تصور اعتقادى واحد هو : حقيقة التوحيد ، ومن ثم تحقق الحق الكونى فى واقع الحياة البشرية متمثلا فى العدل القرآنى •

ننتهى من هذا الى أن حقائق الاسلام جميعا بتساندها وترابطها ، إنما هى حقائق عملية فى المقام الاول حتى حقائق الكون الغيبية فيه •

وكذلك الحقائق الانسانية التى تحدد ماهيةالانسان وغايته فى الكون وتعلل وجوده فى هذه الحياة •

نخلص من ذلك الى أنه يتحتم علينا اذا وصلنـــا الى مفهوم ما عن الانسان وحريته ـــ نتيجة بحثنا فى القرآن والسنة ـــ أن ننظر فى النهاية ان كان هذا المفهوم وما يستتبعه من نتـــائج عملية يتمشى مع الغـــاية والمفهوم اللذين يحددهما القرآن لجميع الحقـــائق الكونية الاخرى ، أم لا ؟ وذلك تبل أن نعتبر ما وصلنا اليه حقيقة قرآنية ثابتة ونهائية •

فاذا وجدنا هذه المفاهيم الانسانية ومفهوم الحرية مثلا ، لا يتعدى الجانب التصورى النظرى وأنه ليس له صـــلة ولا رابطة بالغـــاية من الحياة البشرية ، التى لا تتحقق الا بالعمل ، ولا يكون له المشـــاركة والدور الرئيسى فى تحقيق الغاية البشرية من الوجود الانسانى بعامة ، والحياة البشرية بخاصة والتى تعمل وفقها الموجودات جميعـــا حسب حقائق وجودها كما هى فى القرآن ، فان هذا المفهوم خاطىء لا محالة ، حيث أنه يصطدم مع الغاية التى تؤدى اليها بقيةحقائق القرآن الغيبية والطبيعية متكاتفة ومتوازنة فى تناســـق وأحكام حيث الغـــاية واحدة والمنهاج للوصول اليها واحد •

فاذا خرجنا فى بحثنا عن حقيقة الحرية الانسانية بنتائج لا تعـــدو ان تكون مناقشات ومحاورات ومجـــادلات فلسفية لا تتعدى ظاهر صفحات وبطـــون الكتب الى واقع الحيـــاة فلا يكون هذا البحث ونتائجه بحثا صحيحا بالقياس الى صبغة القرآن وروح الاسلام •

فكم من مفاهيم فلسفية عن الكون والانسان ظلت هكذا منذ وضعها واضعوها ملتصقةبصفحاتها ومدادها لا تعدوها الا الى رؤوس دارسى الفلسفة ، ثم لا يكون لها أى أثر على حياتهم الخلقية ، وبالتالى تكون مقطوعة الصلة بينها وبين مجتمعات هؤلاء الفلاسفة والدارسين • وخير مثال على ذلك هو مفهوم الالوهية عند معظم فلاسفة اليونان ، حيث

لا نجد له أى تأثير عملى على سلوك الناس فى الحياة ، بعكس حقيقة الالوهية فى الاسلام ، التى اذا آمن بها مجتمع ما كان لها أكبر الاثر بل كل الاثر فى تنظيم حياة افراده ومجموعاته وأجيـــاله تنظيما دقيقا تستقيم معه حياتهم ويهنأ به عيشهم •

وكذا كل الحقائق الكونية النظرية فى القرآن ، كان لها كل الفضل فى تشكيل وتخطيط الحياة اليومية فى المجتمع الاسلامى بمنهاج القرآن القويم •

وأخيرا يمكننا صياغة هذه القاعدة المنهجية المعيارية الاخيرة للبحث فى القرآن بالقول بأنه اذا كان بديهيـــا أن لا يأتى البحث عن حقيقـــة ما من حقائق القرآن بمفهوم متعارض مع نصوصه وآياته جميعا ، فانه يلزم أيضا أن تكـــون هذه الحقيقة المستخلصـــة من سوره وآياته غير متعارضة او منافية أو مناقضة معه ككل ، أى مع ما يمكن تسميته بروح القرآن أو صبغته أو اتجاهه العام من ناحيـــة ، كما يلزم أن تكون غير متضاربة ومتناقضة مع بقية حقائقه ومفهوماته الصحيحة الاخرى من ناحية ثانية • فيكون المفهوم عن هذه الحقيقة موضوع البحث نابعـــا ومشتقا من هذه الروح القرآنية أو الصبغة الالهيـــة ، اشتقاق الفرع من الجذع ، متمـــاثلة معها تمـــاثل الثمرة والشجرة ، فنعـــلم حينئذ باطمئنان ويقين أن ما وصلنا اليه من نتائج ومفاهيم انما هى مفاهيم صحيحة عن حقيقة قرآنية كريمة •

القـــاعدة الســـادسة :

اخلاص النيـــة وســـلامة القصـــد

وتتلخص فى ضرورة صدق النية وابتغـــاء الحق والحـــق وحده عند البحث فى القرآن الكريم ، فالانسان يجب أن يتنزه عن الهوى ويخلص نفسه من التحيز والتعصب القـــومى أو العنصرى أو العقيدى أو غير ذلك مما يقف حاجزا بين الانسان وبين ادراك الحقيقة المنشـــودة •

واخلاص النية وصدقها أو ابتغاء الحق وحده عند البحث فى القرآن أمر نفسى خلقى وليس أمرا فكـريا منهجيا • ولكن الانســان وحدة واحـدة وأجهـزته تعمـــل جميعها حين يقـــوم بأعلى الاعمــال وأرقاها وتعمــل جميعها حين يقــوم بأدناها ، والفصــل بين اجهزته وملكاته فى تفسير النشاط الانسانى سبيل خاطىء • ومن ثم لا يصح أن نتجاهل أجهزة الادراك والعلم البشرية عند تفسير النشاط الخلقى•

وليس كل من قرأ القرآن اهتدى به ، بل ثمة من الناس من يضـله الله به ، فالناس تقرأه فيضل الله به البعض ويهدى به البعض الاخر، ولكن من الذى يضله الله بالقرآن ؟

تأتينا الاجابة من القرآن نفسه ، فيقول الله تعالى :

— « واذا قرأت القرآن ، جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالاخرة حجابا مستورا • وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا ، واذا ذكرت ربك فى القـــرآن وحده : ولـــو على أدبارهم نفـــورا » (١) •

— ويقول الله سبحانه وتعالى : « وننزل من القـــرآن ما هو شـــفاء ورحمة للمؤمنين ، ولا يزيد الظالمين الا خسارا » (٢) «ولقد صرفنا فى هذا القرآن ، ليذكروا ، وما يزيدهم الا نفورا » (٣) •

أى بينا الايات والامثال والوعد والوعيـــد ليتعظـــوا ولكن ذلك ما يزيدهم الا بعدا عن الحق ونفورا منه •

— ومثلها قوله تعالى : « ان الله لا يستحى ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها • فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهـــم ، وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟!! يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين» (٤)

---

(١) سورة الاسراء : ٤٥ — ٤٦ (٢) سورة الاسراء : ٨٢ .
(٣) سورة الاسراء : ٤١ (٤) سورة البقرة : ٢٦ .

فبين سبحانه فى هذه الايه من كتابه العزيز ، ان الله يهدى بالقرآن ويضل به ، أى بآياته ووعده ووعيده ، ويشقى به ويزيد به نفور النافرين منه المحاربين له •

ومن ثم فليس التعامل مع القرآن الكريم من خلال العقل أو الفهم أو أجهزة الادراك البشرية فقط دون الارادة ، بل ان الارادة الانسانية المختارة تعتبر عاملا حاسما فى تقبل الحق والهدى والخير النازل فيه ، أو الصرف عنه •

ــ وقوله سبحانه وتعالى « فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات يجحدون » [1] يدل دلالة قاطعة على أن هؤلاء المكذبين والكافرين بالحق لا يعقلون ذلك بسبب نقص فى المعرفة أو بعد عقلى عن الحق ، وانما بارادتهم يكذبون جحودا ونكرانا وعنادا واصرارا على الهوى وحرصا على الدنيا • اذن : فالعلة فى كفرهم وتكذيبهم هى ارادتهم الحرة وليس قصورا فى ادراك الحقيقة والحق •

واذا عدنا الى الاية التى ذكرناها وما بعدها من سورة البقرة حيث يقول الله تبارك وتعالى : « ان الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا ، فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين • الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الارض ، أولئك هم الخاسرون » [2] نجد أن نقض العهد والميثاق ومعصية الله والافساد فى الارض ، ينتهى بقارىء القرآن وسامع ما يضربه الله للناس من أمثال فيه الى الضلال وليس الى الهدى ما دامت هذه حاله ، ويهدى الله بالقرآن وبهذه الامثال المؤمنين لايمانهم •

والايمان والكفر فعلان نفسيان اراديان اختياريان للناس ، كما سنعلم ذلك بعد •

---

(1) سورة الانعام : ٣٣ . (2) سورة البقرة : ٢٦ ــ ٢٧ .

ومن ثم تكون معرفة الحق والخير ــ وهما مطلب العقل البشرى ــ مرهونة بالايمان وعمل الخير فى الارض • وهنا تخضع المعرفة للاخلاق فى الاسلام ، وليس كما ظن فلاسفة اليونان حيث أخضعوا الاخلاق للمعرفة • ونعنى بخضوع المعرفة للاخلاق ، ان ادراك الحقيقة ومعرفتها مرتبط أوثق ارتباط باختيار الانسان المتمثل فى النية والقصد الى الخير أو الى الشر ، فمن يقبل على القرآن الكريم وفى نفسه ابتغاء معرفة الحق وحده ، يهديه الله ويفتح له كنوز معرفته بقدر تقواه (اتقوا الله ويعلمكم الله) ، ومن يقبل عليه وفى صدره حرج منه وشك وريبة وهو يقرأه وقد عزم على تكذيبه ، ومن ثم يبحث فيه عن تناقضات وهمية بين آياته أضله الله به •

وهذه القاعدة ليست قاعدة منهجية فكرية لانها لا تتم بالفكر ولا يطلب من الفكر تطبيقها • ولكنها قاعدة خلقية سلوكية تتم بارادة الانسان واختياره للخير وابتغائه للحق ، وليس فى مقدور القواعد المنهجية والاساليب الفكرية أو غيرها الزام أحد باختيار الخير دون الشر أو العكس • ولكن ليكن معلوما أن القرآن الكريم لا يكرم الله به الا أهله ، المؤمنين به ، والمسلمين بكل ما جاء فيه ، العاملين بشريعته فى حياتهم العامة والخاصة ، وغير هؤلاء ليس لهم من آياته وحقه نصيب •

وهذه القاعدة التى تقوم على التجرد لله بغية معرفة الحق عند البحث فى القرآن ، هى أول القواعد وأحقها بالالتزام وأجدرها جميعا بالتمسك لانها مفتاح البحث القرآنى •

فالعمل الذى لا تسبقه النية الواضحة الخالصة لله لا يقبله الله • والبحث فى القرآن الكريم عبادة من أجل العبادات لو خلصت فيه النية لابتغاء الحق والخير • ومن ثم فهى تسبق كل القواعد وتتقدم عليها فى خطوات البحث • ولكنا أوردناها كخاتمة لكل القواعد السالفة من حيث كونها ليست قاعدة منهجية معرفية بقدر ما هى سلوكية خلقية وان كانت شرطا لازما لمعرفة الحق والخير القرآنيين •

الفصل الثاني

الأسس الغيبية للحرية الانسانية

١ ـ الانسان والزمان :

ونعود الان الى مشكلة الحرية ونسأل : هل يثبت القرآن للانسان الحرية ؟ واذا كان الانسان فى القرآن حرا، فما حدود حريته ومقوماتها وعللها والنتائج ؟ وكيف نصل الى هذه الحقيقة التوقيفية الانسانية الخطيرة كما هى بالذات فى القرآن الكريم بتطبيق ما ذكرناه من قواعد آنفا فى المنهج ؟ •

ولعل معترضا يقول : ان الانسان موجود حسى موضوعى قائم على الارض يملأ « عالم الشهادة » ، فلم لا يكون البحث فيه بالعقل وحده ؟ ولم لا نعتبره من الامور التوفيقية لا التوقيفية ؟ ولكن هذا وان كان يبدو صوابا الاأنه عين الخطأ، ذلك لان الانسان موجود غيبى الاصل والمصير : يمتد أصله فى الوجود سابقا حدود الارض والزمن ، كما يخترق وجوده المستقبل حتى الخلود • وما دامت تلك بدايته وذلك مضيره ، فوجوده الوضعى الذى نحسه اذا ، محصور بين وجودين غيبيين ، وعالمه المشهود ليس سوى صفحة بين عالمين غيبيين • ومن ثم ينبغى علينا اتباعا للمنهج الصحيح أن نأخذ حقائق وجوده الغيبى من مصادرها الصحيحة فى الاسلام : الكتاب والسنة •

أما عن وجوده الواقعى المشهود ، وقداته النفسية وامكانيات فعله ، وتأثيره وتأثره فهذه أمور نحسها فى الواقع فعلا ، ولكن لا يمكن تفسيرها الا بمقدماتها ونتائجها فى عالم الغيب • ذلك لان الانسان ،

وان كان موجـودا ماديا على الارض ، الا أن القرآن يثبت له أصـلا روحيا ويذكر أنه مزيج بين روح ومادة (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذى أحسن كل شىء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سـلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيـه من روحه ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون ـ السجدة / ٧ ـ ٩) • فالانسان مخلوق بنفخة من روح الله بجانب كونه من طين، فهو يحتوى بين جوانبه أمرا غيبيـا ، ويطوى فى باطن كيـانه المادى جوهرا ميتافيزيقيا •

والانسان ـ كمخلوق لله سـبحانه وتعالى كما يقـرر القرآن ـ لا يدرك ماهيتـه كما يعلمها خالقهـا وبارؤها ، الذى فتـح للمعرفة البشرية كتابة الكونى نستشهد به على وجوده وعظمته ، كما فتح لهـا أيضا كتابه الكلامى المقروء تعرف منه ما خفى عنهـا من عوالم غيبية وحقائق ميتافيزيقية •

أما عن حقيقة الوجود الانسانى الميتافيزيقى السابق على الوجود البشرى فى الارض ، فالقرآن الكريم والسنة يقـرران حقيقة ثابته ، هى أن الله سبحانه وتعالى قد أوجد البشر جميعا قبل خلقهم ونزولهم على الارض ، ولا يعنى ذلك قدمهم ، بل أن الله سبحانه وتعالى بعـد أن خلق آدم ـ أبا البشر وأولهم وجودا ـ جمع ذريته فى وجود سابق على هذا الوجود فى كينونة تختلف عن كينونتهم البشرية فى الارض ، وذلك حيث يقول (كيف تكفرون بالله؟ وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون ـ البقرة / ٢٢) • ويقول أيضا فى موضع آخر (قالوا : ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ، فاعترفنا بذنوبنا ، فهل الى خروج من سبيل ؟ غافر / ١١) • ويذكر ابن كثير فى تفسير هاتين الايتين مانصه (وقال سفيان الثورى عن ابى اسحاق عن أبى الاحوص

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا » • قال هى التى فى البقرة وكنتم أمواتا فأحياكم : أمواتا فى أصلاب أبائكم لم تكونوا شيئا ، حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق ، ثم يحييكم ثم يبعثكم • وقال وهى مثل قوله تعالى — أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) •

فالايتان تثبتان للانسان موتين وحياتين ، ومعلوم ان الموت وجود ، أو هو صورة لوجود الانسان فى مرحلة وجودية تكون الروح فيها منفصلة عن جسده المادى • وهذا ما نقصده بوجوده السابق على وجوده الارضى • فالانسان وجد من قبل فى كينونة ما ثم تحول هذا الوجود السابق الى الوجود البشرى الحالى ، ثم يرجع وجودا روحيا خالصا ثم يبعث فى جسد مرة أخرى وتلك هى مراحل الوجود الانسانى عبر الزمن •

فى هذا الوجود السابق للانسان تمت فى تكوينه عدة عمليات خلقية تكوينية حددت ما هيته وكينونته فى حياته فى الدنيا ، وأصبح بها انسانا كما نحسه ونعيشه ونعايشه ونعرفه • وهذه العمليات الخلقية هى : عرض الامانة ، والاستشهاد ، وتنصيبه خليفة فى الارض • فالامانة ميزته عن كل المخلوقات ، وانفرد عنها بخاصية لا يشاركه فيها غيره • والاشهاد منحة الفطرة التى فطره الله عليها • أما الخلافة فهى الوظيفة الكونية للانسان حيث ترتكز على الامانة والفطرة •

٢ — الفطـــرة :

أما حقيقة الفطرة فقد جاءت نتيجة العملية الكونية الثانية ، التى حددت ماهية الانسان ، ونعنى بها عملية الاشهاد • يقول الله تعالى (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم ، ألست بربكم ؟ قالوا : بلى شهدنا — الاعراف آية ١٧٢) •

وفى « صحيح البخارى » فى كتاب الانبياء عن أنس رفعه أن الله يقول : لا هون أهل النار عذابا : لو أن لك ما فى الارض من شئ كنت تفتدى به ، قال : نعم • قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم ، أن لا تشرك بى شيئا ، فأبيت الا الشرك) •

كما يذكر ابن القيم فى تفسير آية الاشهاد (عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى قال : لما أخرج الله آدم من الجنة قبل أن يهبط من السماء مسح صفحة ظهر آدم اليمنى فأخرج منه ذرية بيضاء مثل اللؤلؤ كهيئة الذر فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتى ومسح صفحة ظهره اليسرى ، فأخرج منه ذرية سوداء كهيئة الذر فقال : ادخلوا النار ولا أبالى ، فذلك حين يقول أصحاب اليمين وأصحاب الشمال • ثم أخذ منهم الميثاق فقال : « ألست بربكم ؟ » قالوا : بلى • فأعطاه طائفة طائعين وطائفة كارهين على وجه التقية فقال هو والملائكة : « شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا : انما اشرك آباؤنا من قبل » الاية) [1] •

والشاهد من كل هذا أن عملية الاشهاد وهى عملية تكوينة ، تحدد بعدها وبعد عملية عرض الامانة ، ماهية الانسان وجوهره وخاصته • فالاشهاد حدد الماهية والامانة حددت الخاصية التى أفردت هذه الماهية عن سائر الماهيات • والقرآن يسمى هذه الماهية : الفطرة ، وذلك حيث يقول الله (فاقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله • ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ــ الروم / ٣٠) •

قال ابن كثير فى التفسير عن آية الاشهاد (قال قائلون من السلف والخلف : ان المراد بهذا الاشهاد انما هو فطرهم على التوحيد) •
وفى «الصحيحين» عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى

---

(١) ابن القيم : شفاء العليل / ص ٣٢ •

الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة ــ وفى رواية « على هذه الملة » ــ فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تولد بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء ؟) ، وفى « صحيح مسلم » عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يقــول الله : انى خلقت عبادى حنفاء ، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم) •

وسواء أوقع الاشهاد كما هو فى الاية بقيــام الحوار المذكور بين الله وبين آدم والذرية أو وقع على سبيل الحــال ، فلا خلاف فى نتيجة عملية الاشهاد على أنها العملية التى حددت جوهر الانسان وفطرته • على أنه ليس ما يمنع أنها وقعت كما صورتها الاية فنتجت عنها الفطرة الموحدة ، أو كأن الله ســبحانه يخبرنا أنه خلق الناس حنفــاء وبين العملية الخلقية التى تم بها هذا الخلق وهى عملية الاشهاد •

الفطـــرة والالحـــاد :

وقد يبدو لنا هذا القول متعارضا مع وجود ما يمكن تسميته « موجة الكفر الحديثة » التى ينكر أصحابها وجود اله لهذا الكون • والكفــر والشرك اللذين عرفهما لنا القرآن وعرفناهما من تاريخ عقائد البشرية قبل نزول القرآن وبعده حتى العصر الحديث ، لم يكونا ينفيان وجود الاله ، وانما كانا يصفــان الاله بما لا يليق بألوهيته وخصــائصها • وكذلك جل الفلسفات اليونانية القديمة لم تكن تنكر وجود كائن أعلى ، كأول الكائنات ومصدرها ، وانمــا كانت تصفه أيضا بمــا لا يليق • وما كان مشركو مكة وشــبه الجزيرة العربية قاطبــة ، الذين اجتمعت عندهم كل عقائد الجاهليات التى وجــدت والتى يمكن أن توجد على ظهر الارض ، ماكانوا ينكرون وجود الاله البتة ، حتى الدهريين منهم الذين ينكرون البعث ومن ثم نجد أن منهج القــرآن فى معالجــة هذه

---

(١) ابن القيم / شفاء العليل ص ٣٢ .

القضية مخالف لمنهج التفكير البشرى تماما • فهـو يثبت هذه الفطرة التى خلق الله الناس عليها • وعلى ذلك فقـد بين أن علاج المنحرفين والمخالفين لفطرتهم انما بردهم اليها وتذكيرهم بها لان هذه الفطـرة كافية لمعرفة الله سبحانه وتعالى بالضرورة ، وبالطبع وبايجاب الخلقة والماهية البشرية • والضرورة هنا تعنى أن ماهية الانسان ، وامكانيات المعرفة عنـده ، وتركيب الكون المخـلوق ، كل ذلك يوجب معـرفته لخالق الكون وخالقه معرفة فطرية ، وهى كافيـة لان يكون الانسان متعبدا معظما لله على طريقة الحنفاء •

أما طريق الاستدلال العقلى ، فقد ثبت تعثر الفلاسفة فيه من قبل بين معارض ومثبت له ، ثم اختـلاف المثبتين لوجود الاله فى صـفاته وكمالاته اختلافا كبيرا ، والايات الكريمة التى تصور محـاولة سيدنا ابراهيم عليه الصـلاة والسلام معـرفة الرب جل وعلا بالنظـر والاستدلال مترددا بين القمر والشمس والكوكب ، تدل على ما يقول •

فالايات الكريمة تبين أن ابراهيم عليه السلام كان مسلما مقدما ـ وبدون محاولة أو برهان أو استدلال ـ بوجود خالق عظيـم ومدبر لهذا الكون • ومن ثم شرع فى البحث عن معرفته • فاستبعد الاصنام أن تكون الها خالقـا ، وذلك بدليل الفطـرة • وذهب يبحث عن الاله الذى توافق معرفته فطرته (اذ قال ابراهيم لابيه آذر : أتتخذ أصناما آلهة ؟ انى أراك وقومك فى ضلال مبين • وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض ، وليكون من الموقنين فلمـا جن عليه الليـل رأى كوكبا قال : هذا ربى ، فلما أفل قال : لا أحب الافلين ، فلما رأى القمر بازغا قال : هذا ربى ، فلمـا أفل قال : لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين فلما رأى الشمس بازغة قال : هذا ربى ، هذا أكبر ، فلما أفلت ، قال : ياقوم انى برىء مما تشركون • انى وجهت وجهى للذى فطـر السـماوات والارض حنيفـا ، وما أنا من المشركين ـ الانعام / ٧٤ ـ ٧٩) • وهكذا نجـد ابراهيم عليه السـلام كلما دله

عقله على شىء ليتخذه ربه والهه رفضه بالفطـرة ، فاستبعد الكوكب ثم القمر ثم الشمس • ثم كان نتيجة البحث بالدليل والعقـل الفشل والتسليم بالعجز حيال هذه المحاولة فرجـع من حيث بدأ ، وعاد الى فطرته وهى : الايمان بوجود خالق له وللكون مع العجز عن معرفة أكثر من ذلك ، أى أكثر مما تعطيه الفطرة من هذه المعرفة العامة الشـاملة المبهمة • فالفطرة التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى الانسان ، لا تعطيه مهمااستخدم الانسان منوسائل المعرفة، معرفة تفصيلية عنالله سبحانه وتعالى عن حقائق الكون وعن الحكمة من الخلق بعامة ، وخلق الانسان بخاصة • وعن حقائق الغيب ومستقبل الانسان الابدى ، وعن كيفيات التقرب الى الله وعبادته مما يعرف بالشعائر التعبدية • ومن ثم قال ابراهيم عندما أفل القمر مقرا ومبينا أن معرفة ربه بأسمائه وصـفاته لابد أن تكـون آتية له من خارج فطـرته • ولابد أن يمده بهـا ربه ويعرفه بنفسه ، فقال (لئن لم يهدنى ربى لاكونن من القوم الضالين وعندما أفلت الشمس وأدرك بدليل الفطرة أيضا أنه لا يتغير ولا يتحول ولا يغيب ، كما أدرك أن كل ما يعبـده الناس على الارض سوى الله باطل ، ضج الى ربه وأعلن (قال يا قـوم انى برىء ممـا تشركون) وهنا ترك الاستدلال بالعقل جانبا ، وأدرك أن الطريق الى معرفة ربه بأسمائه وصفاته ليس ذاك • وانما هو بامداد من ربه ، فـان لم يمده الله بالهداية فلن يهتد اذا أبدا • ويدل ذلك أيضا على أن ابراهيم قـد عرف بمحض فطرته أنربه الذى خلقه وخلق الكون لن يتركه حائراضالا دون أن يمده بالهداية التى يرجوها • ومن ثم فضل أن يظل على هذه النظرية الشاملة المبهمـة من أن يذهب فى تيه دلالات العقـل والمنطق واستدلالات الفكر بقياس الخالق على المخلوق •

ومن ثم عاد ابراهيـم مسرعا الى فطـرته التى بدأ منهـا ، حيث التسليم بوجود فاطر للسماوات والارض والانسان ، وحيث الايمان بعناية الخالق بخلقه ، وتوجه اليه وقال (انى وجهت وجهى للذى فطر

السماوات والارض حنيفا ، وما أنا من المشركين) • ذلك لان الفطرة تدل عليه واحدا لا مثيل له ولا شريك ولا متحولا ولا فان •

فالقضية اذا ليست قضية الحاد أو انكار لوجود الله ، ولكنها قضية مخالفة لذلك وهى معرفة الله سبحانه وتعالى واحدا لا شريك له •

ولا يقدح فى هذا القول وجود ملاحدة الان على وجه الارض — حيث سيتضح لنا بالبرهان فى ثنايا هذا البحث — أن ذلك يفعله بمحض اختياره ، حبا فى الدنيا وحرصا عليها وطلبا لها واختيارا • وانما هو فى قرارة نفسه وساكن ضميره يؤمن بالله والقرآن يثبت ذلك أكثر من مرة ، حيث يؤكد رجوعهم الى الله ساعة العسرة والضيق ولحظة الخطر على حياتهم ، ثم اذا نزلوا الى بر النجاة ، اذا هم يشركوا به مرة ثانية (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين • قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون — الانعام / ٦٣) (واذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم اذا لهم مكر فى آياتنا • قل : الله اسرع مكرا ، ان رسلنا يكتبون ما تمكرون • هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى اذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان • وظنوا أنهم أحيط بهم ، ودعوا الله مخلصين له الدين : لان أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين • فلما أنجاهم ، اذا هم يبغون فى الارض بغير الحق • يا أيها الناس : انما بغيكم على أنفسكم ، متاع الحياة الدنيا ، ثم الينا مرجعكم ، فننبئكم بما كنتم تعملون — يونس / ٢٢ — ٢٣) • واذا مس الانسان الضر عرف الله وحده وتوجه اليه وحده موقنا أنه لا شريك له ولا فاعل الا هو فى ملكه (واذا مسكم الضر فى البحر ، ضل من تدعون الا اياه ، فلما نجاكم الى البر ، أعرضتم وكان الانسان كفورا • أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ، أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا • أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى • فيرسل

عليكم عاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم • ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا ــ الاسراء / ٦٧ ــ ٦٩) • فمعـــرفة الله واحدا لا شريك له والتوجه اليه وحده للعبـــادة والدعاء باخلاص ويقين ، انما تنبـــع من داخل النفس البشرية ، وليســـت تأتى عن طريق النظـــر والاستدلال العقلى بل هى آتية من الفطرة التى أودعها الله بين جنبى الانسان •

كما أن الاستدلال بالعقل على وجود الاله لا يورث اعتقادا متينا ، كما لا يورث الاستدلال العقلى على نفى وجوده اعتقادا يقينيا بعدم وجوده أيضا • ولذلك لم يناقش الله سبحانه فى القرآن قضية الالحاد كما ناقش قضايا الشرك وانكار البعث والنبوات • أما حيال الملحدين فان منهجه معهـــم هو استحثاث فطـــرهم واستجاشـــة لضمـــائرهم وايقاظ لقلوبهم •

كما وضح القرآن الكـــريم حقيقة بعض الناس المكابـــرين الذين يتخذون هذه القضية ، وسيلة لاضلال الناس ، اذلالا لهم واستعبادا • فهى قضية مفتعلة يختلقها ذوى السلطان والنفوذ وأصحاب الهـــوى وأرباب الشر ، وهم غير مؤمنين بصحتها لاسترقاق الضـــعفاء والعامة ويقدم لنا القرآن فرعون مثلا على ذلك • فما يؤمن أحدهم بعدم وجود الاله ، ولكنهم يطمسون فطرتهم ويغالبونها بارادتهم، لسوء اختيارهم، حبا فى ادنيا وايثارا لها على الاخرة وكرها لما تتطلبه الاخرة منهم من حيـــــاة فاضـــلة •

تلك حقيقة قرآنية عظيمة وخطيرة ، متخللة فى كثير من آياته ، ونعنى بها حقيقة الفطرة المؤمنة الموحدة بالله • ومن ثم لم نجد فى القـــرآن برهانا واحدا ودليـــلا عقليا يحـــاول ان يرد به منكرى وجـــود الله سبحانه ، لان هذه القضية من المسلمات والبديهيات فى النفس البشرية أودعها الله فيها ، فلا تحتـــاج الى برهان • أما معـــرفة الله سبحانه بصفاته وأسمائه الحسنى ، ومعرفته فى علاقته بخلقه بعامة وبالانسان

بخاصة ، ومعرفة الحكمة من الخلق ، فكلها معارف اخبارية أيضا لا تعرف بالنظر العقلى ، وانما تبدو لنا بعد معرفتها عن طريق الوحى معقولة ، ومقبولة للنفس لاتفاقها مع الفطرة من ناحية وعدم تعارضها واختلافها مع مقولات العقل والمنطق الصحيح من ناحية أخرى • ومن ثم فمصدر هذه المعرفة هو هداية الله وامداده لنا بها • وعلينا أن نتلقاها منه تعالى عن طريق الوحى مسلمين كابراهيم عليه السلام : أنه لو لم يهدنا ربنا اليه فلن نهتد اذا أبدا • وعلينا كمسلمين بعد ذلك أن نقر بذلك ونحمده ونقول (الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ـ الاعراف / ٤٣) •

ومن ثم فأدلة الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم من مفكرى البشرية لاثبات وجود الله صانعا وخالقا وموجدا للمحدثات ، ليس لها مبرر ، وليس لاقامتها داع أو فائدة • ويحق لنا أن نسأل : هل منعت هذه الادلة وجود الملاحدة فى العالم ؟! لان المسألة كما مر بنا ليست الحادا لنقص فى المعرفة أو لعجز عن الفهم أو خطأ فى الاستدلال • فليس على الارض هذا الانسان الذى يلحد لهذا السبب ، لان الله زوده بالفطرة فى عالم الاشهاد قبل نزوله الى أرض الحياة الدنيا ، وذلك حتى لا يحتج بذلك السبب على الله يوم القيامة ويقول مع أمثاله (انا كنا عن هذا غافلين) • لكن المسألة وحقيقتها هى اختيار حربين الدنيا والاخرة • وهذا الملحد انما اختار الدنيا بكل ما فيها ، مفضلا اياها على الاخرة ثم بعد ان أخذ يبحث عن العقائد الملحدة التى يبرر بها اختياره ، حتى يبدو معقولا أمام نفسه وأمام الناس ، طامسا بهذا الاعتقاد فطرته ، مغالبا اياها •

فالمسألة اذا ليست باطلا يبدو فى صورة حق ، أو حقا يبدو فى صورة باطل •بل هو أصرار على الدنيا ، وعلى الحياة وفق الهوى • وما الادلة العقلية أو التى تبدو أنها عقلية ، التى يحاولون أن يتمسحوا

فيها ، الا مغالبة للفطرة وتبريرا لاعمالهم • ومقارعة من يظهر الحادا بالدليل فرج له ونصر لعدة أسباب •

الاول : أنه جعل المؤمن ينزل عن درجة الايمان الفطرى والذى يحمل درجة اليقين الى درجة أقل ، فيجعل من قضية وجود الله سبحانه ، التى هى بحكم الفطرة مسلمة لا تحتاج الى برهان بل يحتاج اليها البرهان ، يجعلها محل نظر ومحتاجة الى الدليل والبرهان • وهذا فى حد ذاته كسب له ونزول بالقضية من مستوى المسلمات والبديهيات الى مستوى النظريات ، ومن ثم فقد أصبحت قضية مشكوك فيها حتى تثبت •

الثانى : أنه من المعلوم يقينا أن كل ما يمكن اثباته بدليل عقلى ، يمكن نفيه بدليل عقلى آخر ، وتاريخ الفلسفة والفكر البشرى عموما خير برهان على صحة هذا القول ، حيث وجد على مر العصور من الفلاسفة والمفكرين من يثبت ويسلم بوجود الاله ، ومنهم من ينفى وجوده ، ومنهم من يثبته بصفات معدومة فيجعله كالعدم أو قريبا منه — ان صح التعبير — أو يجعله متحدا مع العالم حالا ومتخللا فيه، وهذا نفى لوجوده أيضا •

الثالث : ان الادلة العقلية تتفرع بين المتناظرين اخذا وردا ، وكثرة للاحتمالات التى تنأى بالعقل والذهن البشرى عن أصل القضية بتصورات ذهنية بعيدة ومعقدة ، حيث تذهب البراهين والاحتمالات الكثيرة المرهقة للذهن بفائدة البرهان العقلى المطلوب غرسها فى القلب والضمير ، وهو أن يورث هذا البرهان فى النفس البشرية الاعتقاد بما يبرهن عليه • وهكذا يصبح الاستدلال بالبراهين العقلية المحضة بالنسبة لهذه القضية بالذات ولغيرها من قضايا حقائق الغيب بلا فائدة • وحتى اذا حدث الاعتقاد الذهنى ، فان احالة القضية من قضية فطرة وعقيدة راسخة فى النفس وفى تكوينها الى مجرد قضية عقلية ذهنية مجردة يجعل موضوع القضية — وهو وجود الاله —

موضوعا دراسيا باردا لا يورث ايمانا دافعا للسلوك القويم والعمل الفاضل كما ليس لنتائج أيةمعادلة رياضية تأثير على السلوك فى حين أن الرجوع الى الفطرة المؤمنة الموحدة بالله كفيل بتحقيق ذلك • لان الايمان الناتج عن الفطرة ، انما هو نابع من الكيان البشرى كله ومن الكينونة الحية النابضة بما تحويه من أجهزة معرفة وادراك وارادة واختيار واستطاعة ومن ثم فهو دافع للسلوك وموجه له •

أما الايمان عن طريق الاستدلال العقلى فهو ناتج عن بعض الكائن البشرى وعن جزء من كينونته ــ ربما كان جزءا هاما وخطيرا ــ ولكنه لا يرقى الى أهمية وخطورة الكينونة الشاملة ، وليس معنى هذا أن القرآن لا يجادل المشركين والدهريين بالعقل ويقارعهم بأحكامه ، بل ان المقارعة بالادلة العقلية كثيرة فيه ولكن ذلك لاثبات التوحيد ولاقامة الحجةعليهم أيضاوانكان المعول الاول فىهدايتهم انماهو طريق استجاشة ضمائرهم وفطرهم وايقاظها واحيائها، شأنه فى ذلك معاملته للملاحدة• والدليل على ذلك أنه رغم الادلة العقلية الواضحة التى قارعهم بها فانه ما زال الملحدون والمشركون موجودين على الارض • كما أن منهم من مات على كفره فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليل ذلك هو ما ذكرناه من تفضيلهم الدنيا على الاخرة ، وأن المسألة عدم فهم أو غموض أو نقص فى المعرفة أو نتيجة اقتناع منهم بما هم عليه من عقائد مشركة باطلة •

وهكذا يثبت لنا القرآن أن منهج الفلاسفة والمتكلمين بالنسبة لحقيقة الالوهية يقدم لنا نتائجا مخالفة للحقيقة فى القرآن ، من حيث الاثر على النفس البشرية ، وهو الهدف والغرض والحكمة من نزول القرآن • ومن العلم سبحانه وتعالى اجمالا وتفصيلا بصفاته وأسمائه الحسنى حيث نجد أن معرفة الوحى يتبعها بالضرورة عمل وينتج عنها عمل ، بينما معرفة الفلاسفة والمتكلمين للاله لا يتبعها ذلك • فضلا عن

انها تظل ظنية ، ولا ترتقى الى مرتبة اليقين ، فهى غير اسلامية ولا قرآنية بالمعيار القرآنى وبالمنهج العلمى للبحث فى القرآن ٠

وقد يظن البعض — نتيجة النظرة السطحية — أن القرآن الكريم الملاحدة بالحجة العقلية ، ويقدم الادلة المنطقية على وجود الله ٠ ويحاول هؤلاء أن يستخرجوا من الايات بعض الادلة العقلية نذكر منها هنا أشهرها ٠ ذلك الدليل الذى يستعمله المفكرون والفلاسفة منذ فجر تاريخ الفكر البشرى بعامة والفكر الاسلامى بخاصة ٠ ويقوم هذا الدليل على حقيقة أن لكل معلول علة ، ولكل مصنوع صانع ، متدرجا بالعلل والصناع صعودا حتى ينتهى بالضرورة عند صانع أول هو علة العالم وموجده ، وليس معلولا لعلة ولا مخلوقا لخالق ، وذلك هو الاله ٠ ويقوم نفس الدليل فى صورة أخرى مرتبطا بالافعال البشرية حيث أنه مادامت أفعالنا دليلا على وجودنا فلابد أن يكون العالم بما فيه الانسان مفعولا لفاعل آخر غير العالم والانسان ، ولابد بالضرورة أن يكون هذا الفاعل قديم حتى لا نقع فى التسلسل الى غير نهاية ٠ والايات التى يستشهدون بها من القرآن على هذا الدليل كثيرة منها (والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم٠ ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض ، لايات لقوم يعقلون — البقرة /١٦٢ — ١٦٤) ٠ والذى يزعم أن هذه الاية تحوى الدليل السابق على وجود الله حيث تتحدث عن خلق العالم والسنن التى تحكم الاحياء فى الارض بما يستتبع ذلك وجود خالق لها ومدبر ومنظم ، من يزعم ذلك فهو مخطىء ٠ وذلك لان الاية فى الحقيقة تبين أن فى خلق العالم بالنظام الذى عليه ، حيث يسير كل شىء فيه الى غايته باتقان ودقة واحكام ٠ آيات لقوم يعقلون ٠ ومعنى ذلك أنهم مؤمنون أساسا بالله سبحانه كخالق ومدبر لهذا العالم ٠ ولذلك فقد سبقت أية الخلق قوله تعالى

(والهكم اله واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم) • وتلك هى المسلمة والبديهية ، وهى مقدمة هذا الاستدلال وليست نتيجة له • كما أن الاية تدل على أن الله الحكيم لا يخلق هذا العالم الدقيق المحكم عبثا وانما خلقه لحكمة ويؤيد هذه النتيجة قوله تعالى (ان فى خـــلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب • الذين يذكرون الله قيــاما وقعــودا وعلى جنوبهم ، ويتفكـــرون فى خلق السماوات والارض : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النـــار ــ آل عمران / ١٩٠ ــ ١٩١) فبين هنا أن الايات التى يدركها الذين يعقلون نتيجة التفكر فى خلق العالم ، هى أن الله لم يخلق هذا العــالم باطلا ولا عبثا ، كما تبين هاتان الايتان الاخيرتان أن الذين يعتبرون ويعقلون هم اولو الالباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنـــوبهم • فهم مؤمنون بالله ، ومع ذلك يتفكرون فى خـــلق السماوات والارض ليس للتدليل على وجود الله بأفعاله ، وانما للعظة والاعتبــار والتيقن بأن هذا العالم خلقه الله بالحق ، لحكمة ، وأن هذه الحكمة تستوجب دخول البعض الجنة ، ودخول البعض النار • ومن ثم كان آخر دعائهم (وقنـــا عذاب النار) •

ولعل أصحاب هذه النظرة الخاطفة يحتجون على أن دليل الخلق هذا فى القرآن بقوله تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفـــلا تذكرون ؟! ــ النحل / ١٧) ولكن هذه الاية لم ترد كدليل على وجود الله ، حيث أن الله سبحانه بعد أن ذكر خلق السماوات والارض وخلق الانسان من نطفة فى قوله (خلق السماوات والارض بالحق تعالى عما يشركون خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين) عدد نعمه على عباده من البشر ثم عقب على ذلك بقوله : (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) وذلك السياق للايات يثبتايمان المخاطب بالله مسبقا ويدل بوضوحعلى السياق للايات يثبت ايمان المخاطب بالله مسبقا ، ويدل بوضوح على أن الادلة لاثبات الوحدانية لله وليس لاثبات وجوده • حيث ان المعنى المستفاد من هذا السؤال الاستنكارى « أفمن يخلق كمن لا يخلـــق ،

افلا تذكرون ؟! يتضمن رفض مساواة المتفرد بالخلق بغيره من الذين لا يخلقون او اشراكهم معه فى صفاته وأفعـــاله ، وهى رد على الذين ماثلوا بين الخالق والمخلوق فى العبادة • فبكتهم لذلك • ومن ثم قال فى موضع آخر (أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم• قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهـــار ـ الرعد / ١٦ • كذلك قال أيضا سبحانه (والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شـــيئا وهم يخلقون ـــ النحـــل / ٢٠) • كذلك قال (واتخـــذوا من دونه آلهـــة لا يخلقون شـــيئا وهم يخلقون • الفـــرقان / ٣) ففى هذه الايات معالجة اذا لقضية الشرك ولا يمكن القول أنها علاج لقضية الالحاد أو لانكار وجود الله •

فالايات تدلك على أن الاحق بالعبادة والالوهيـــة دون ســـواه هو الخالق • وهذا الدليل يمكن صياغته كالاتى : «ليس من خالق الا الله» مقدمة ، لا خالق الا الله ، مقدمة ثانيـــة ، اذن : ليس من أحد احـــق بالعبادة الا الله • ومن ثم فالقضية « للعالم خالق » بديهية ومسلمة فوق المناقشة والبرهان ، ولا نجد دليـــلا واحدا فى القرآن لاثبـــات صحتها وما دامت بديهية فهى نابعة من الفطرة ، أى من جذور قلوب الناس • ومن ثم تكون الادلة كلهـــا أدلة على وحدانية الله ســـبحانه باثبات وحدانية الصانع تبعا لوحدانية الصنعة • أى أن الخلق دليل الوحدانية ، والا لما كان الخلق متشابها ، ولاختلفت نماذج المخلوقات كيفا وكما حسب كل خالق لها • ولكن الوجود المخلوق واحد من صغيره الى كبيره مما يشهد على أن الخالق واحد • ومن ثم يبدو هذا الفهـــم للايات السابقة واضحا جليـــا ، يوضحه قوله تعالى (قـــل : أرأيتكم شركاءكم الذين تدعون من دون الله • أرونى ماذا خلقوا من الارض • أم لهم شرك فى السماوات • أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه •؟ بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا ـــ فاطر / ٤٠) فهنـــا يدلل على أن المعبود والاله واحد لان الخالق واحد ، وليس هناك من يخلق سواه ، فلا يستحق أحد أن يعبد معه • وهذا دليل من واقع الخلق •

أما الدليل الثانى الذى تقدمه الاية السابقة هو من واقـــع الكتب التى نزلت على البشر من السماء وحيا حيث تثبت الاية أنه ليس فيها جميعـــا ما يدل على وجود خالق ســـواه • ومثلها قوله (قـــل أرأيتم ما تدعون من دون الله • أرونى ماذا خلقوا من الارض ؟ أم لهم شرك فى السماوات ، ائتونى بكتاب من قبـــل هذا أو اثارة من علم ان كنتم صادقين ــ الاحقاف / ٤) •

فليس فى كتاب الله الكـــونى ما يدل على وجود خالق آخر معه لمـــا يحتويه الكون من وحـــدة فى الصنع والطبيعة والكيفية والغـــاية بين أجزائه جميعا ، كما أنه ليس فى كتابه الكلامى ما يدل على ذلك •

ومن ثم وجه القرآن اجهزة الادراك البشرى مجتمعة الى مخلوقات الله جميعا للنظر فى كيفية صنعها والحكمـــة من وجودها لكى يستشعر الانسان بذلك القدرة الالهية والعظمة والجبروت ، وليس للتدليل على وجوده ســـبحانه فقـــال (أفلا ينظرون الى الابـــل كيف خلقت والى الســـماء كيف رفعت والى الجبـــال كيف نصـــبت والى الارض كيف سطحت فذكر انما أنت مذكر ــ الغاشية / ١٧ــ٢٢) فالمسألة اذا مسألة تذكر وليست مسألة تدليل وبرهنة فالعطب الذى أصاب فطرة الكافرين انما هو أقرب للنسيان منه الى الجهل ومن ثم فقال (فذكر انمـــا انت مذكر) ومعلوم أن التذكير لعلاج النسيان وليس لعلاج الجهل أو نقص المعرفة بالدليل ، ذلك أن كفـــرهم وشركهم ليس سوى نتيجـــة طمس لفطرتهم المؤمنة الموحدة ونسيان لها • والتذكير هو العـــلاج المناسب لهذا الصدأ المتراكم عليها الذى حب نورها •

ان كتاب الله الكونى مطابق لكتابه الكلامى ومطـــابق للحقيقة التى غرسها الله فى البشر بعمـــلية الاشهاد • ومن ثم فالنظـــر فى ملكوت السماوات والارض يهدى الى هذه الحقيقة كالنظر فى كتابه الكلامى سواء • بيد أن الاولى حقيقة كلية شاملة والثانية تفصـــيل وتوضيح وتأكيد للاولى • فاذا اجتمـــع النظر فى كليهما فقد وقـــع النور على

النور وبان الحق واضحا جليا ، حيث طابق هذان النوران النافذان الى داخل الذات البشرية النور الذاتى لها الذى ورثها الله اياه بالفطرة نتيجة عملية الاشهاد .

ولقد نظر أحد شيوخ الفكر الاسلامى من المتكلمين [1] الى قوله تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ !) على أنه دليل عقلى على وجود الله ، وذلك خطأ منهجى حيث الاية تسلب الفاعليات الطبيعية والبشرية القدرة على خلق الافعال والاشياء ، وذلك لافراد الله بالخلق ومن ثم بالالوهية وليس لاثبات وجوده تعالى ، ولذلك قال بعد هذه الاية (أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ... — الواقعة / ٥١ — ٦٤) .

ان قضية وجود الله سبحانه موكولة للفطرة البشرية وليس لشىء آخر . ولعل الاشارة الى انكار الملاحدة لوجود الله قد وردت فى قوله تعالى (فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين ، أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون . ؟ ! أم خلقوا السماوات والارض بل لا يوقنون ؟ ! ... الطور / ٣٤ — ٣٦) . وتلك الايات تشمل عدة مسلمات تعتبر مقدمات فى استدلال منطقى الاولى ان الانسان والاحياء والسماوات والارض مخلوقات محدثة وليست أزلية . والثانية انه لابد لكل مخلوق من خالق والثالثة : ان الانسان لا يمكن أن يكون خالقا انفسه . والرابعة : أن الانسان لم يخلق السماوات والارض كذلك ، وتلك قضايا لا يرفضها أهل الشرك والوثنية من أهل الجزيرة العربية ، ومن كانوا معاصرين لوقت نزول القرآن حيث كانت البشرية جميعها تدين بسائد الشرك والوثنية المختلفة . ومن ثم فسؤاله تعالى لهم (أم خلقوا من غير شىء ، أم هم الخالقون) . انما هو على سبيل التبكيت والتوبيخ والسخرية من عقائدهم وتصوراتهم

(١) هو الشيخ ابو الحسن الاشعرى مؤسس فرقة الاشاعرة .

بناء على المسلمة الثانيـــة التى يؤمنون بها ، ذلك انه فى موضـــع آخر يخبر عن عقيدتهم بقوله (ولئن سألتهم من خلق السماوات والارض ليقولن الله ــ لقمان / ٢٥) فبين أنهم يؤمنون بالله خالقا ومن ثم تأكد لنا أن سؤاله هذا انما كان على سبيل السخرية منهم •

واذا عدنا الى تطور العقائد البشرية كما يخبرنا عنها القرآن وجدنا ــ خلافا لما يدعيه أصحاب نظريات الاجتماع الحديث ــ أن عقيـــدة البشر الاصلية هى الايمان بوجود خالق واحد واله واحد لهذا الكون • وذلك منذ نزول آدم ابى البشر الى الارض • ثم تتطـــور العقيدة من التوحيد وافراد الله بالفاعلية فى هذا الكون منتكسة الى اشراك فاعليات أخرى معه ، سواء أكانت فاعلية الطبيعة أو فاعلية البشر، غرورا باطراد العلة والمعلول على أساس ثبات النواميس والسنن الكونية والبشرية ثم تنتقـــــل هذه العقيدة التى تقـــوم على الشـــرك الى انكـــــار الفاعليـــــة الالهيـــــة تمـــــاما ، والرجـــوع بكل شـــىء الى فاعلية الطبيعة • وتلك هى المذاهب المادية التى تقول بالالحـــاد وتنكر وجود الاله • وهذه العقيدة تطور لعقائد الشرك وخاصة فى العصور التى تتقدم فيها الحضـــارة العلمية المادية ، كالحضارة الســائدة فى الغرب الان •

وتلك هى نهايات الامم حيث يصـــلون بتصوراتهم الكونيـــة الى تصورات مادية صرفه نتيجة تقدمهم المبهر فى العلوم الطبيعية والكونية (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، قـــوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم ، وقالوا : انا كفـــرنا بما أرسلتم به • وانا لفى شـــك مما تدعوننا اليه مريب • قالت رسلهم : أفى الله شك ؟ ! فاطر السماوات والارض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ، قالوا : ان انتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بســـلطان مبين ــ ابراهيم / ٩ ــ ١٠) • والشـــاهد من هاتين

الايتين ، أن عقيدة الالحـاد التى تنتهى اليها عقـائد الشرك • ليست عقيدة حقيقية مؤكدة يقينية عنـد أصحابها ومن ينادى بهـا • وذلك واضح من قول الامم لرسلهم (انا كفرنا بما أرسلتم به • وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب) • فهم يصرحون بأنهم كفروا بما أرسلوا به من الحق والرسالة • سواء فى تفسيرهم للكون والحياة أو قولهـم بالبعث أو تشريعهم ونظمهم التى جاءوا بهـا لاسعاد الناس فى الدنيا والاخرة • أما بالنسبة لمـا يدعوهم اليـه الرسل وهم يدعـون أول ما يدعون الى الايمان بالله واحدا لا شريك له ، فهـم فى شـك منه مريب • وهكذا يبين لنا القرآن أن الذين ينكرون الرسـالات والنبوات والبعث لا ينكرون الله البتة وان انكروه باللفظ والقول فانهم لا يقيمون دعوى انكارهم على اسس يقينية ومؤكدة ، وانما هى مسألة شك لعدم وجود الدليل المادى الذى يطلبـونه ويرضون به • وتلك هى عقيـدة الالحاد ، حيث تجد الذين ينكرون وجـود الاله يقيمون دعواهم على الشك فى وجوده وليس على اليقين فى عدم وجوده • فماذا كان جواب الرسل لهم ؟ هل ناقشوهم بالحجـة والدليل العقلى ؟ هـل جادلوهم ؟ هل ناظروهم ؟ هل قدموا لهم البراهين المنطقية ؟ كلا • فكـل ما رد به عليهم الرسل هو قولهم (أفى الله شك ؟! فاطـر السماوات والارض ، يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى • قالوا : ان أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصـدونا عما كان يعبـد آباؤنا فاتونا بسلطان مبين) فالرسل هنا تتعجب من الشك فى الله لانه مخالف لفطرهم وفطر الشـاكين •

والملاحدة لا يؤمنون لهم الا اذا أتوا لهم بسـلطان مبين ، أى بدليل مادى ملموس على وجود الله• لا الدليل المادى ولا العقلى يصلح معهم، وانما هى محاولات رفع الصدأ الذى علا فطرهم والا ، فلا فائدة •

وانى لاعجب حقـا ممن يبحثون بين آيات القرآن عن دليـل على وجود الله وهو سبحانه المتحدث بالقرآن •. فالقرآن كلام الله سبحانه وتعـالى الى البشـر ، وهو صـفته • فهـل يجـوز أن يبحث بين

كلام المتحدث عن دليل يثبت وجوده ؟! ان الصفة دالة على الموصوف بذاتها كما أن الموصوف برهان على وجود الصفة كذلك • فاذا قرأنا قوله تعالى (أفرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟!) فهل يمكن أن نطلب من هذه الايات دليلا على وجوده وهو سبحانه المتحدث بهـا ؟!

ان كلمات الله سبحانه التى بين دفتى كتابه الكريم صفته ، فليس ثمة كلام مثل كلامه كما أنه (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ــ الشورى / ١١) • والدليل على أنه كلام الله ، أنه ليس كمثله كلام يمكن أن يوجد من المتكلمين من دونه • ومازال تعجيز قائله سبحانه للبشرية ، بل وللجن معهم أيضا منذ أربع عشرة قرنا قائما حتى الان وسيظل قائما الى الابد ، فتحداهم أن يأتوا بمثله فقال (أم يقولون تقوله ، بل لا يؤمنون • فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين ••• الطور / ٣٣ ــ ٣٤) • وقال (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ــ الاسراء / ٨٨) فلما لم يأتوا بمثله ، تحداهم بأن يأتوا بعشر سور منه (أم يقولون فتراه ! قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعو من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين ــ هود / ١٣) ولكنهم يعجزون عن عشر سور أيضا فتحداهم بأن يأتوا بسورة بهذا الاعلان العام الى البشر والجن منذ نزل القرآن حتى الان (وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا ، فاتوا بسورة من مثله ، وادعو شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين • فان لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ــ البقرة /٢٣ ــ ٢٤) •

ذلك هو كلام الله الذى يحق به الحق (أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمحو الله الباطل ، ويحق الحق بكلماته • انه عليم بذات الصدور ــ الشورى / ٢٤) • ان القرآن كله دليل على الله سبحانه لانه ليس كمثله كلام ومن ثم فلابد أن يكون

قائله من ليس كمثـــله شيء • وذلك الدليـــل يقوم أيضـــا على أساس الفطرة البشرية الموحدة ، حيث ان النور الصادر للبشرية بكلمات الله تعالى عن طريق الوحى ، يطابق النور المغروس فيهم بعملية الاشهاد (ولقد انزلنا آيات بينات ومثلا من الذين خــلوا من قبلكم وموعظة للمتقين • الله نور السماوات والارض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء • ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم ــ النور / ٣٤ ــ ٣٥) ولعل أفضل ما قيــل فى تفسير المقصود من «مثل نوره » هو نور الفطرة التى غرسها الله فى النفس البشرية بعملية الاشهاد • ومن ثم يكون المصباح داخــل المشكاة هو باطن الانسان او قلبه او روحه فى تقويمه الذى وصــفه الله بأحسن تقويم (عن ابى بن كعب فى قوله تعالى « الله نور السموات والارض» قال : فبدأ بنور نفسه فذكره ، ثم ذكر نور المؤمن فقال « مثل نوره » يقول مثل نور المؤمن ، فقال : ابى بن كعب يقرأها كذلك « مثل نــور المؤمن » قال فهو عبد جعل الايمان والقرآن فى صــدره كالمشكاة ، قال المشكاة صدره فيها مصباح ، قال المصباح القرآن والايمان الذى جعل فى صدره « المصــباح فى زجاجة » ، قال الزجاجة قلبه كأنهــا كوكب درى ، قال : قلبه لما استنار فيــه الايمان والقــرآن كأنه كوكب درى يقول : مضيء)[1] • وما نود اثبــاته ان هذا النور ليس آتيــا من خارج • فيكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار • ذلك أن نور الفطــرة كاف وحده لهداية الانسان لرب الكون وان كانت هداية شــاملة عامة كلية كمعرفة ابراهيم عليه الســلام • فاذا ما جــاء الوحى وهو نور

---

(١) ابن قيم الجوزية / مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة ص ٣٦٦ .

تطابقت معرفته وحقائقه مع معرفة وحقائق الفطرة فأضحى نورا على نور ، وحصل فى النفس اليقين الذى لا يدانيه يقين ، ذلك الذى جيش الجيوش ودفع الالاف والملايين من البشر الى الجهاد فى سبيل الحق فدفعوا انفسهم وأرواحهم موقنين بأن لهم الجنة . فشتان بين دليل الفلاسفة على وجود الله ، وبين معرفته سبحانه بالفطرة المغروسة فى النفس سيما اذا جاء على نورها نور الوحى فطابقها وأكدها وثبتها هذا معنى قوله تعالى « نور على نور » : النور الاتى من الوحى والنور المغروس فى النفس البشرية فى عالم الذر بعملية الاشهاد . ومع ان نور الفطرة وحدة يكاد يكفى ، حيث يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، الا أن الله يمد الانسان بالنور النازل من السماء بالوحى بكلماته فتكون جميعها دليلا على الحق فى هذا الوجود .

وتاريخ البشرية يثبت هذه النتيجة والحقيقة الهامة حيث وجد على مر العصور الجاهلية أو المشركة ، الموحدون ومنهم الحنفاء الذين وحدوا الله على دين ابراهيم فى شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام . وتلك هى امارة الفطرة ودليلها وهدايتها الى وجود الله ووحدانيته .

ويمكن القول أن الباحث فى القرآن الكريم لا يجد الا الاشارات التى تم ذكرها للملحدين الذين يشكون مجرد شك فى وجود الله ، دون مناقشة القضية وذلك لان مناقشتها نزول بها من مستوى بديهات الفطرة الى مستوى القضية التى تحتاج الى دليل ومن ثم يثبت الشك فيها على الاقل . وهذا هو ادعاء الملاحدة فى كل عصر متحضر من عصور البشرية ، حيث تطغى الفاعلية الطبيعية . ودليل ذلك ازدياد درجة الالحاد وانتشارها بين الناس كلما تقدم العلم المادى والتكنولوجيا وسيطر الانسان به على مجالات عديدة فى هذا الكون . ان الثقة فى قانون العلة والمعلول ، والايمان بان العلة تنتج المعلول وتحدثه هو

الخطر الاول على عقيدة البشر الموحدة بالله • حيث يبدأ منها الشرك بالله ثم تتطور فيحل الايمـان بالفاعلية الطبيعية والانسـانية محل الايمان بافراد الفاعلية الالهية •

والقرآن الكريم ــ اعتمادا على الطبيعة الموحدة للنفس البشرية من خلال الفطرة ــ لا يناقش الملحد ولا يلتفت اليه تاكيدا وثقة فى أنه يخـادع نفسه وغـيره ويغالب فطرته ويفسـدها ويطمسها ، اتبـاعا للهوى والشهوة وايثارا للدنيا على الاخرة •

ولكن القرآن الكريم يقدم لنا ما يمكن ان نجاهد به هؤلاء الملاحدة فكريا ، بيد أن منهجه فى مقـارعتهم منهج مجدى يبعـد عن الثرثرة والجدل والمراء • وذلك لان المجـادل بالحجج العقليـة من الملاحدة يستطيع ان يؤول ويدعى ويخاتل • ومن ثم عرض لنا مناظرة ابراهيم عليه السلام لواحد منهم بل ممن ادعوا الالوهية ايضـا • وبين كيف يستعملون التأويل للمخاتلة والخداع (ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك • اذ قـال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال : أنا أحيى وأميت • قـال ابراهيـم : فان الله يأتى بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفر • والله لا يهدى القـوم الظالمين ــ البقـرة / ٢٥٨) • ففى هذه المناظرة نجـد ابراهيم عليه السلام يترك الدليل العقلى القائم على اثبـات وجود الله بالاحيـاء والامانة جانبا ، مادام مناظـره الملحد قد استعمل التـأويل فى معنى الاحياء والاماتة تمويها ومخاتلة للاخرين ولم يحاول ابراهيم أن يبطل هذا التأويل لعلمه أن ذلك استدراج من المناظـر له لقضـايا فرعية تتميع بها المناقشة وتنأى بها عن الهدف المطلوب • ولذلك انتقل ابراهيم الى تعجيزه عندما طلب منه اخراج الشمس من المغرب بدلا من المشرق، فبهت الذى كفر •

ويعتمد ملحدو هذا العصر فى تشكيكهم فى وجــود الاله بانكارهم لعالم الغيب أصلا بحجة فقد الدليل المادى على وجوده • ذلك لانهم لا يؤمنون الا بالمادة المحسوسة كما يعتقدون الا بالمنــاهج التجريبية كوسائل بشرية للبحث • ومن ثم يعمد القــرآن الى وسيلة تناســب ما يؤمنون به لا ليثبت وجود الاله ـــ فتلك مسلمة ـــ ولكن لكى يثبت لهم وجود فطرتهم المؤمنة بالله والموحدة به • فاذا أثبت لهــم وجود هذا الايمان فى أعماقهم ، فقد أثبت ما ينتهى اليه هذا الايمان ، وأثبت بذلك ايضا مخاتلتهم لانفسهم ولغيرهم •

والمنهج المناسب الذى يقدمه لهم القرآن ليكشف حقيقتهم به ، هو المنهج النفسى التجريبى • حيث يجرى عليهم تجربة نفسية تتلخص فى أن نأخذ بعض الملاحدة فى قارب صغير فى بحر لجى حيث يوشك القارب أن يغرق بهم بشرط أن تكون التجربة دون علم هؤلاء الملاحدة الذين يركبون القارب حتى يتوهموا أنهم فى خطــر حقيقى • ثم علينــا بعد ذلك أن نسجل مشاهدتنا وملاحظتنا عن سلوكهم حيال هذا الخطــر على حياتهم • وسنرى هل سيتوجهون الى الارض أم الى السماء ؟ • وهل سيدعون البحر أن ينقذهم ام سيدعون رب البحر وخالقه ؟ ثم علينا ان نسألهم بعد ذلك من أين لهم هذا الايمان ، دون مناظــرة أو مجادلة أو اقناع ؟ ولقد أخبرنا القرآن الكريم منذ نزوله أنهــم اذا حدث لهم هذا ضل من يدعون الا اياه ، ذلك انهــم ساعتئذ ســوف لا يؤمنون بوجود الله فقط بل سيؤمنون به واحدا لا فاعــل ولا قادر سواه • فاذا كان القرآن قد أخبرنا بالنتائج النفسية لهذه التجربة فاننا نتحدى بذلك ملاحــدة هذا العصر أن يقيموا هذه التجــربة بشرط أن يتحلوا بما يجب ان يتحلى به الباحث من حياد ورغبة فى الوصول الى الحق والحقيقة والامانة العلمية التى تحتــم عليه تسجيل النتــائج

وتبليغها كاملة كما هى • ثم عليهم أن يبلغونا بالنتيجة التى لا يمكن الا ان تطابق كلام الله تعالى •

ان الفطرة حقيقة مؤكدة كائنة بين ضلوعنا ، هادية لنا الى الخير والحق • وهى بذاتها دليلنا الى الله •

وكلام الله تعالى المعجز حقيقة مؤكدة ، مسجل ومكتوب ومحفوظ بين دفتى المصحف ومقروء ألفاظا وأصواتا على ألسنة القراء من البشر • فهو الصفة الالهية الكريمة التى اودعها الله قلوب المؤمنين وصدورهم • وهو بذاته معجز لانه ليس كمثله كلام ، وذلك دليل على على أن قائلة ليس كمثله شىء سبحانه •

والكون المخلوق بما فيه من دقة وعظمة وضخامة واتقان ونظام واتساق وتوازن يشكل مع حقيقة الفطرة والكلام المعجز حقيقة هامة وخطيرة فوق كل برهان ودليل يقوم عليها كل برهان ودليل وهى : أنه لا اله الا الله •

٣ ـ الامانة : (١)

وهى العملية الكونية الثانية التى تحددت بها ماهية الانسان ، وتعينت بها خاصيته التى افردته عن سائر الماهيات • وفيها عرض الله سبحانه وتعالى الامانة على السماوات والارض والجبال ، فأبين أن يحملنها خوفا من سوء العاقبة ومغبتها ، وآثرن السلامة على ركوب هذه المخاطرة الصعبة ،وانبرى هذا المخلوق الفريد ـ الانسان ـ وتقدم لحملها وما كان قبوله هذا لها الا ظلما لنفسه وجهالة منه وتهورا واندفاعا (انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين

(١) سنعرض باذن الله عز وجل لهذا الموضوع فى كتاب عن الانسان فى القرآن والسنة حيث سنعالجه معالجة مستفيضة

أن يحملنها وأشفقن منها ، وحملها الانسان • انه كان ظلوما جهولا ــ الاحزاب / ٧٢) •

أما معنى كلمة الامانة فقــد وردت فى اربعة مواضع من القــرآن الكريم بمعنى العهد والمسئولية بعامة ، مثل قوله تعالى (والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون ــ المؤمنون / ٤) ، وبخاصة فى دفع الدين واداء الودائع وذلك فى قوله (••• فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن امانته ــ البقرة / ٢٨٣) ومثلها (ان الله يامركــم أن تؤدوا الامانات الى اهلها ، واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعــدل ــ النساء / ٥٨) • ويرى الامام الزمخشرى فى تفسير « الكشــاف » أن هذه الاية الاخيرة أمر (عام لكل أحد فى كل امانة) [١] • ومن ثم ينتهى فى تفسيرها الى القول بأنه (خطاب للولاة باداء الامانات والحكم بالعدل) [٢] • كما يذكر تفسير الجلالين مناســبة نزول الاية حيث أخذ على بن ابى طالب مفتاح الكعبة عنوة من عثمان بن طلحة بن عبد الدار سادن الكعبة بعد ان اغلقها هذا الاخير وصعد سطحها ، ورفض تسليمه للرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك يوم فتــح مكة فنزلت الاية تأمر برد المتفاح باعتباره أمانة • ومن ثم نجد الشيخ طنطاوى جوهرى يقول فى تفسيره المسمى « بالجواهر » أن الامانة (كل ما أؤتمن عليه من قول أو عمل أو مال أو علم وبالجملة كل ما يكون عند الانسان من النعم التى تفيد نفسه وغيره [٣] •

---

(١) الزمخشرى / تفسير الكشاف

(٢) نفس المصــدر

(٣) الشيخ طنطاوى / تفسير الجواهر

بيد أن الامانة التى عرضت على السماوات والارض والجبال ليست بلا شك احدى هذه الامانات المادية والمعنوية المشار اليها فى الايات الاخرى • فهذه الامانات من لوازم الحياة البشرية على الارض ، وحيث يعيش الانسان فى مجتمع او مجتمعات • فالامر بأداء الامانة لاهلها والحكم بين الناس بالعدل ، أمر تشريعى يحدد التعامل العادل بين الناس فى شئونهم المادية والاقتصادية وفى سائر علاقاتهم الخلقية والسياسية والشخصية كذلك • أما الامانة التى عرضت فى الوجود الغيبى الانسانى السابق على هذا الوجود البشرى فقد اختلف فيها المفسرون فجعلوها الطاعة حينا والتكليف او الفرائض حينا آخر • وكلها من لوازم الحرية او المسئولية كما سنرى ، فالامام الزمخشرى يقول فيها (يريد بالامانة الطاعة فعظم أمرها وفخر شأنها ، ويراد بها الطاعة لانها لازمة الوجود كما أن الامانة لازمة الاداء وعرضها على الجمادات واباؤها واشفاقها مجاز ، وأما حمل الامانة ، فمن قولك فلان حامل الامانة أو محتمل لها ، تريد أنه لا يؤديها الى صاحبها حتى تزول عن ذمته وتخرج من عهدتها)[1] •

ولكن المفكر الفخر الرازى (٦٠٦ هـ) يقدم لنا أبعادا جديدة لمفهوم الامانة ويفسرها بالتكليف يقول « انا عرضنا الامانة » أى التكليف وهو الامر بخلاف ما فى الطبيعة [2] • واعلم أن هذا النوع من

(١) الزمخشرى / الكشاف

(٢) نتحفظ هنا حيال قول الرازى بان التكليف — وهو الشريعة الالهية ، انما هو الامر بخلاف ما فى طبيعة البشر لانه من الثابت ان الله لا يأمر الا بما يطيقه المكلفون ، ولا يشرع لهم الا ما يطهر نفوسهم ويزكيها ويثقفها ويتوافق مع طبيعتهم كما انه لا ينهى الا عما يدنسهم ويشقيهم •

ولعل القول يكون دقيقا اذ قلنا ان التكليف هو الامر بخلاف الهوى ، وباتفاق طاقة النفوس ، وطبيعة البشر تشمل التقوى والهوى او نوازع الخير ونوازع الشر ، وسيأتى تفصيل ذلك بعد باذن الله تعالى •

التكاليف ليس فى السماوات ولا فى الارض لان الارض والجبل والسماء كلها على ما خلقت عليه ، الجبل لا يطلب منه السير والارض لا يطلب منها الصعود ، ولا من السماء الهبوط ، ولا فى الملائكة وان كانوا مأمورين منهيين عن اشياء ، لكن ذلك لهم كالاكل والشرب فيسبحون الليل والنهار لا يفترون كما يشتغل الانسان بأمر موافق لطبعه) .
وهكذا يفرق الفخر الرازى بين الانسان وغيره من المخلوقات بالتكليف حيث يجعل التكليف هو الخاصية التى بها صار الانسان انسانا ويفسر التكليف بأنه الامر بخلاف ما فى الطبيعة حيث أن كل المخلوقات غير الانسان ــ حسب مفهومه ــ أمر الله لها موافق لماهيتها وطبيعتها .
ثم بعد ذلك يفرق بين رفض السماوات والارض والجبال لحمل الامانة ورفض ابليس السجود لادم بقوله (لم يكن اباؤهن كاباء ابليس فى قوله « أبى أن يكون من الساجدين » من وجهين : أحدهما أن هناك السجود كان فرضا وهاهنا الامانة كانت عرضا ، وثانيها أن الاباء كان هناك استكبارا وهاهنا استصغارا ، استصغرن أنفسهن بدليل قوله تعالى « وأشفقن منها » .

وينقل لنا ابن كثير أقوال بعض الصحابة والتابعين فى تفسير معنى الامانة فيقول نصا (قال العوفى عن ابن عباس يعنى بالامانة الطاعة ، عرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لادم : أنى عرضت الامانة على السماوات والارض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال ياربى : وما فيها ؟ قال : ان احسنت جزيت وان أسأت عوقبت فاخذها آدم وحملها بذلك . وقال على بن ابى طلحة عن ابن عباس الامانة الفرائض) [1] . ثم يذكر ابن كثير قول (مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصرى وغير واحد: ان الامانة هى الفرائض، وقال آخرون : الطاعة) ثم يذكر عن قتادة قوله انها (الدين والفرائض والحدود) واخيرا يعلق على هذه الاقوال كلها بقوله (وكل هذه الاقوال

---

(١) ابن كثير / التفسير

لا تنافى بينها ، بل هى متفقة وراجعة الى أنها التكليف ، وقبول الاوامر والنواهى بشرطها وهـو أنه : ان قام بذلك أثيب ، وان تركهـا عوقب فقبلها الانسان على ضـعفه وجهله وظلمه الامن وفـق الله • والله المستعان) (١) •

والقول عن الامانة أنها : قبول التكليف بشرط تحمل الجزاء ، معناه قبول المسئولية وتبعاتها ، وهذا يتضمن جعل الانسان حرا مختارا لان ذلك هو الاساس الذى يقوم عليه التكليف • وقولهم بأنها : الطاعة ، يعنى بالضرورة أنها الطاعة الاختيارية للاوامر والنواهى • واذا كانت عملية الاشهاد وغرس الفطرة عملية تكوينية تحدد بها طبيعة الانسان وماهيته ، فان قبول الامانة ليست سـوى الخاصية التى ينفرد بهـا عن بقية المخلوقات التى رفضتها ، ولذلك فمن الخطأ البين اعتبار الامانة هى الطاعة لان الانسان ليس وحده المأمور بهـا ، وليس وحده المكلف بالعبودية لله سـبحانه وتعالى حيث تدين جميـع المخلوقات له بذلك عز وجل (ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض : ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ــ فصلت / ١١) • أى أن السماوات والارض والجبال قبلت ، بنص هذه الاية ، أن تكون طائعة عابدة لله بينما تدل آية الامانة على رفضها جميعا الامانة اشفاقا ، ولا يقدح فى هذا كون هذه الطاعة موافقة لطبيعـة المطيع او مخالفة له كما يقـول الفخر الرازى ، فليسـت هى الطاعة اذا • فهـل هى التكليف بمعنى العبادة ؟ اذا كانت بمعنى العبـادة فقط ، فان هذه المخلوقات مطيعـة عابدة قانتة خاضعة لله أيضا • ولقد كلفها الله سبحانه ان تأتى طوعا او كـرها فأتت طائعـة • فهى لم ترفض الطـاعة ، كمـا انهـا لم ترفض العبـادة ، ومن ثـم يكـون معنى الامـانة معنى اخر غير التكليف والعبادة والطاعة • ولعل الاقـرب أن يكون معناها قبول المخلوق كينونة قابلة للاسلام لله ، كما تكون قابلة للكفر به وذلك

---

(١) ابن كثير / التفسير

معنى أن يكون حرا . أما القول بانها التكليف فهو خطأ او هو قول غير دقيق لان التكليف بمعنى أمر الله بالعبادة والخضوع له سار على كل مخلوق حتى على من ليس قادرا على المعصية ، كما يكون قادرا على الطاعة ، فالطاعة المكلف بها الانسان لله طاعة اخرى لاتفهم الا بقبول الامانة حيث انها طاعة يتبعها تحمل المسئولية فهى ليست طـاعة ولا قبولا بالتكليف بضرورة الخلق ومقتضى الماهية ؛ بل هى طاعة وقبـول للتكليف عن طواعية واختيار حر . وعلى ذلك فهى ليسـت بالضرورة والحتم طاعة ، بل قد تكون معصية ، بمعنى أن الانسان مكلف بالطاعة، ولكنه قد يفعل المعصية بخلاف السماوات والارض والجبال التى هى عبيد لله بحكم الخـلق والماهيـة ، وبما جبلت عليه وليس بارادتهـا واختيارها وهذا الحال يختلف عن حال الانسان الذى صار منذ حمـل الامانة يعرف الله بادراكه وشـعوره ، ويهتدى الى ناموسه بتدبيره وبصره وعمله وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده ، ويطيع الله بارادته ويحقق عبوديته له باختياره .

وما تثبته آية الامانة أيضا أن قبول الانسان لحملها كان نابعا من ذاته وبمحض اختياره فالله سبحانه وتعالى لم يلزمه بهـا وانما جاء حملها نتيجة عرض عليه وعلى بقية المخلوقات ، فقبول الانسان لها لم يكن الا عن طواعية واختيار ، والله سبحانه بوصفه له بالظلم والجهالة انما يقرر قبوله للامانة بمحض اختيـاره وحريته خلال لحظـة تخيير وجودية من الله لجميع المخلوقات حيث أبت، جميعهـا ، الا الانسان ، أن تكون حرة .

ولكن اليس بتفسـيرنا الامانة بالحرية خـروج على مفهوم اللفظ ومستلزماته ومقتضياته ؟ حقـا ، أن المعنى هنا غيبى ، بمعنى انه يغاير المفهوم البشرى الارضى للامانة والذى يحدها بأنها الودائع المادية او المعنوية يتركها فرد لفرد ثم يستردها حين يشاء ، فمما لا شك فيـه ان المفهوم الغيبى للامانة ذلك الذى نبحث عنـه ، يجب الا يخـرج عن

المفهوم العادى للكلمة ، مع كونه يعبر عن حقيقة غيبية مغايرة للامور المادية . ذلك لان اختيار هذا اللفظ بالذات من الحكيم تعالى — كما فى سائر الفاظ وآيات القرآن — ليس الا لمافيه من مدلولات ومستلزمات متضمنة لمستلزمات ومدلولات الامانة المعروفة لنا نحن البشر ، ومن ثم نجد أن الامانة ليست الحرية . بل هى امر آخر ، حيث ان الحرية ليست وديعة مستردة بل هى كالتكليف من شروط حمل الامانة . فالحرية كما تبدو لنا صفة اساسية يجب توفرها فى حامل الامانة . والانسان اصبح حرا وكونه حرا لانه قبل حمل الامانة ، كما ان التكليف جاء بعد حمله لها ، وهو قائم على كونه حرا وكونه حاملا للامانة . وذلك نابع لكون الامانة وديعة مستردة . فالتكليف بالنسبة للانسان هو مطالبته بتأدية الامانة وتسليمها كما هى ، دون اتلاف أو نقصان أو تحريف أو تغيير أو تبديد ، وسواء كانت الامانة بالمعنى الغيبى ، أو بالمعنى المادى ، فان القاسم المشترك بين المعنيين والمفهومين هو ما يحمله اللفظ من دلائل ومستلزمات . هذا القاسم المشترك هو كون الامانة وديعة مستردة يعطيها صاحبها ومالكها الى من يقبلها قبولا اختياريا ليستردها صاحبها حين يشاء ، كما هى ، بشرط أن يكون متقبل الامانة أهلا لذلك ، وحرا مسئولا ، وبشرط تحمله مسئولية التبديل او الاتلاف او التغيير أو التبديد . ومن ثم تكون تأدية الامانات الى أهلها من واقع التعامل الاجتماعى فى حياة البشر والحكم بين الناس بالعدل هى السبيل الذى به يحافظ الانسان على ما أودع لديه من الامانة بالمعنى الغيبى .

ومن ثم يكون ما قاله المفسرون حول معنى الامانة ليس حقيقيا لها ، حيث أن الطاعة لازمة من لوازم التكليف ، والتكليف مترتب على حمل الامانة ، وهو الاوامر والتعليمات والنصائح التى بها يستطيع الانسان أن يحافظ عليها . والذى فسرها كذلك بالعبادة مخطىء حيث أنها جزء من التكاليف او هى تنفيذ التكليف . كما أن الحرية ليست هى الامانة

أيضا لانها لا تحمل معنى الوديعـــة المستردة ، بل هى شرط لتحمـل الامانة وقبولها والمحافظة عليها حتى يحق الحساب والجزاء من بعد •

أن معرفة الامانة يستوجب منا معــرفة الخاصية التى يتميز بهــا الانسان عن سائر المخلوقات ، حيث هو الذى انفــرد بقبولها • وهذه الحقيقة الهامة فى الوجود الانسانى لا تعرف الا فى ضوء عدة حقــائق تفسر لنا الوجود الانسانى والبشرى والاخروى ، منها حقيقة الفطرة، وهى العملية الكونية الثانية فى التكوين الانسانى ، ثم ما يترتب على حمل الامانة والفطرة ويقوم عليهما ، ونعنى بها حقيقة الخلافة ، ثم الحقيقة الهامة التى من أجلها خلق الله العالم والانسان وعرض عليه الامانة وغرس فى نفسه الفطرة الموحدة وجعله خليفة له ، ونعنى بهــا حقيقة الابتــــلاء •

الامانة والخــــلافة :

الفطرة والامانة هما الدعامتان اللتـــان ترتكز عليهما حقيقـــة كونية انسانية كبرى فى هذا الوجــود ويتحدد بهــا موقف الانسان من الله وسائر االمخلوقات ونعنى بها حقيقة الخلافة ، والخــلافة كما سيأتى الكلام عنها تفصيلا بعد قليل هى الحلقة التى تربط بين الوجود الغيبى الاول للانسان وبين وجوده فى الدنيا حيث تعتبر بحق بمثــابة جذور الانسان الممتدة فى أعماق الازل ان جاز هذا التعبير ، يقــول عز وجل

واذ قال ربك للملائكة : انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمــدك ونقدس لك قال : انى أعلم مالا تعلمون • وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال : انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليـــم الحكيم ، قال يآدم أنبئهــم بأسمائهم فلما انبــأهم بأسمائهم قال : ألم أقــل لكم انى أعلم غيب السماوات والارض واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ ــ البقرة / ٣٠ ــ ٣٣) •

ولكى نعرف معنى الخلافة وكيف يحققها الانسان فى الارض نقول : ان الانسان هو الخليفة الوحيد له سبحانه فى الارض فهو من ناحية مخلوق لله يشترك مع بقية المخلوقات فى كونه مخلوقا وعبدا له ولكنه من ناحية أخرى يتميز عنهم جميعا بخاصية تحدد ما هيته وتفرده عن سائر المخلوقات وهى الامانة . فالامانة كما جاء آنفا أساس مقومات الخلافة وركائزها ومادام الانسان قد صار خليفة لله فى الارض، وليس من خليفة غيره فانه يلزم لمعرفة معنى الامانة وحقيقة الخلافة ، أن نعمل مقارنة بين ماهيات هذه المخلوقات وبين ماهية الانسان ، لنعرف فى أى شىء يختلف عنها ، وما يتميز به ، وبهذه الخاصية التى ستفرده سنثبت المعنى الدقيق للامانة ونصل بذلك الى حقيقة الخلافة التى بها نعرف حقيقة الانسان ، لان الخلافة هى وظيفة الانسان فى الكون ، والامانة هى مؤهله لهذه الوظيفة .

ومنهجنا فى تحقيق ومعرفة ذلك هو ما عرفه المسلمون بتنقيح المناط (وهو أن يدل نص ظاهر على التعليل بوصف ، فيحذف خصوصه من الاعتبار ، ويناط الحكم بالاعم ، أو تكون أوصافا فى محل الحكم فيحذف بعضها عن الاعتبار بالاجتهاد ، ويناط الحكم بالباقى ، وحاصله الاجتهاد فى الحذف والتعيين . او بمعنى أدق ، يقوم تنقيح المناط على عمليتين الاولى هى الحذف والثانية هى التعيين ، أى أن على القائس حذف ما لا يصلح للعلية من أوصاف المحل ، ثم يعين العلة من بين ما تبقى) [1] .

وتطبيقا لهذا المنهج نقول : هل يتميز الانسان عن سائر المخلوقات بعبادته لله؟ كلام الله سبحانه يقول (تسبح له السماوات السبع والارض ومن فيهن وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليما غفورا — الاسراء / ٤٤) ويقول أيضا (ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم

---

(١) د. النشار / نشأة الفكر ط ١ ص ١٧١ .

الجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العقاب ومن يهن الله فما له من مكرم ان الله يفعل ما يشاء ــ الحج / ١٨)٠

ونعود فنقول : ربما يتميز الانســان عن بقية المخلوقات بالفهــم والحكمة ؟ ولكن هذا أيضا غير صحيح ، فالله سبحانه وتعالى يقول كما سبق (انا عرضنا الامانة على السماوات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منهــا وحملها الانســان انه كان ظــلوما جهولا ــ الاحزاب / ٧٢) ٠ ولا شك ان صفة الجهــل والجهالة والظــلم أبعد ماتكون عن الحكمــة ٠

اذا ربما يتميز عنها بكونه عاقلا ناطقا ؟ ولكن القرآن الكريم يثبت هذه الصفة لغير الانسان حيث يقول (وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون ، حتى اذا أتوا على وادى النمــل قالت نملة : يا أيها النمل ادخــلوا مساكنكم لا يحطمنكم ســليمان وجنوده وهم لا يشــعرون ، فتبسم ضاحكا من قولهــا وقال : رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين وتفقد الطير فقال : مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتــك من سبأ بنبأ يقين ، انى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون الا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والارض ويعلم ما تخفــون وما تعلنون ، الله لا اله الا هو رب العرش العظيم ــ النمل / ١٧ ــ ٢٦)٠

فمن الواضح أن قول النملة يدل على ادراك ووعى وفهــم لحقيقتها وحقيقة ما حولها ومن حولها ، أما حديث الهدهد ، فيثبت منطقا عاقلا مدركا لحقائق الكــون والانسان ، والشر والخــير مؤمنا بالله عارفا بخصائص ألوهيته ٠

ونعود فنقول : لعل ما يميز الانسان كونه اجتماعيا ، ولكن أبحاث علم الحيوان فى دولة النحل ومجتمعات النمل تؤكد اشتراك كثير من المخلوقات فى صفة الاجتماعية مع الانسان • والقـــرآن الكريم يؤيد نتائج أبحاث علم الحيوان بقوله (وما من دابــــة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيــــه الا أمم أمثـــالكم ، ما فرطنا فى الكتـــاب من شىء ــ الانعـــام / ٣٨) •

مما تقدم يتضح لنا أن القرآن الكريم يقرر أن الكائنات على الارض كلها : حية مؤمنة عابدة قانتة مسبحة لله ، وعاقلة ناطقة اجتماعية ، ولا يتميز الانسان بواحدة عنها •• فما هى خاصية الانسان اذا ؟ لم يبق الا أن يكون الانسان حرا مختارا • حقـــا قد تكون تلك خاصيته التى يتميز بها عن سائر الكائنـــات فى الارض ، اذا لم يكن فيهـــا سواه من الاحياء حرا مسئولا •

بيد أن القرآن الكريم يذكر لنا مخلوقا غيبيا آخر يعيش مع الانسان فى الارض ويخبرنا أن هذا المخلوق حر مختار مكلف مثـــله ، ونعنى به الجـــن •

أن حقيقة الجن كما صورها القرآن وكما سيأتى الكلام عنهـــا بعد قليل ، تؤكد فى وضوح ان الجـــان جنس من الخلق مخلوق للابتـــلاء كالانسان ، لذلك يملك الحـــرية والارادة المختـــارة ، وأنه مسئول عن فعله وعمله أثناء حياته الارضية كالانسان ، وأنه سيبعث يوم القيامة ويحاسب وسيدخل فريق منهم الجنة ، وفريق فى السعير خالدين فيهما كالانسان سواء بسواء •

وهنا تبدو لنا الامانة شيئا آخر غير الحرية ، حيث أن الانسان فقط هو الذى قبلها وحملها بينما نجد الجان يشترك معه فى الحـــرية ، كما ينتج عن ذلك أن الحرية غير الخلافة التى اختص الله بها الانسان •

ومما لا شك فيه أن المصطلحات والمفهـــومات القرآنية الثـــلاثة :

الامانة والفطرة والخلافة تحتـــاج الى نظر عميق لمعـــرفة كل واحد فى ذاته من جهة ، وكل مفهوم وعلاقته بالاخر من جهة •

أن الخلافة هى المستوى الارضى للكمـــال البشرى المكلف بتحقيقه الانسان ، أو هى المثال الاعلى للحياة الانسانية للفرد والمجتمع والنوع بأسره ، والحرية هى وسيلة الانسان لتحقيق ذلك كله •

والامانة هى ما به أصبح الانســـان حرا لتحقيق الخــلافة فهى ، كخاصية ، ينفرد بها الانسان بسر الهى وهبه الله فصار ما هو عليه ، وتحقق بها مركزه المرموق ومكانتـــه الفريدة على قمـــة المخلوقات فى الارض • ولا شـــك أن فى معنى الامانة اللغوى ما يفيـــد أن ما أعطى للانسان انما هو هبة الهية ونفحة علوية ، وأن هذه الهبـــة وديعة لديه ويترتب عليها فى النهاية السؤال والحساب ويصبح معنى التكليف هو المحافظة على هذه الوديعة من الضياع والفساد حتى يعـــود الانسان ثانيا الى ربه • وهذا يســـتتبع بالضرورة ان يكون هذا المميـــز واردا للانسان وهو كائن حى ، وبذلك يحتمل فقد الانسان له وهو كائن حى كذلك ، وهذا هو شأن الامانة •

وبالنظـــر الاستقرائى فى آيات القـــرآن الكريم الخاصة بماهيـــة الانسان وخلقه وتكوينه يتبين أن ذلك السر الالهى الجليـــل الذى من أجله سجدت الملائكة له بأمر الله ومن أجله وبه وصار الانسان خليفة ، واعطى الحرية ومقوماتها كوسيلة لتحقيقها ، كما أن الفطرة التى فطر الله الناس عليها من نتائجها كذلك ، يتبين لنا هذا السر فى قصـــة خلق الانسان التى ترد فى القرآن الكريم فى أكثر من موضـــع (اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، ألا أبليس ، استكبر وكان من الكافرين • قال : يا ابليس ، ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين) •

قال : انا خير منه ، خلقتنى من نار وخلقته من طين • قال : فاخرج منها فانك رجيم ، وان عليك اللعنة الى يوم الدين ــ ص ٧١) • وفى موضع آخر (واذ قال ربك للملائكة : انى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين • فسجد الملائكة كلهم أجمعون ، الا ابليس أبى واستكبر أن يكون مع الساجدين ــ الحجر ٢٨ ــ ٣١) ونقرأ كذلك قوله سبحانه (الذى أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الانسان من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون ــ السجدة ٧ ــ ٩) وما تشير اليه هذه الايات ، هو أن الاصل المادى فى التكوين البشرى هو الطين ، وهذا ما يتفق مع ما ورد فى مواضع كثيرة أخرى من القرآن عن خلقه وجميعه يدل على أن أصله وأصل الحياة كلها من طين هذه الارض ، ومن عناصره الرئيسية التى تتمثل بذاتها فى تركيب الانسان الجسدى ، وتركيب الاحياء أجمعين وأن هذه كلها أطوار يمر فيها خلق الانسان الفرد وذلك بدلالة كلمة « سلالة » وبدلالة قوله سبحانه (ما لكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم أطوارا ــ نوح ١٣ ــ ١٤) • كما أن الايات تثبت أن كل انسان فرد انما خلق بنفخة من روح الله ، فليست النفخة مقصورة على خلق الانسان الاول ، بل ان كل واحد من البشر مخلوق بنفخة من روح الله كذلك •

واذا كان العلم الحديث بما وصل اليه من تقدم فى مجالات العلوم الطبيعية والحيوية والكيماوية ما زال عاجزا كل العجز عن ادراك كيفية نشوء الحياة من المادة اللاحية وعن سبيل تحول الطين الى مستوى الحياة العضوية المتمثلة فى الخلية الحية • ومازال حتى الان سر الحياة ووجود الخلية الاولى ــ على حسب نظرية النشوء والارتقاء ــ خافيا لا يزعم زاعم أنه قد اهتدى اليه ، هذا فضلا عن عجز الانسان عن ادراك سر الحياة وخصائص الانسانية العليا ، التى تتمثل وتتجلى فى

مقومات الخلافة ، حيث يبدو الانسان بهـا على الارض نسيجا فريدا بين الكائنات ، يحتل بما أوتى من هذا السر مكان القـوامة ، ويمسك بيده زمام أموره وأمور ما دونه من الكائنات يسخرها جميعـا لنفسه ولحياته بأمر الله • فاذا وجدنا العلم فى عصر العلم والحضارة حتى الربع الاخير من القـرن العشرين قد عجز عن الوصـول الى التبرير العلمى اليقينى لكل ذلك ، ولمعـرفة ذلك السر ، فان القـرآن الكريم يخبرنا عن هذه الحقيقة ، فيقدم لنا السر الذى تنبثق منـه مقومات الخلافة الانسانية (فاذا سـويته ونفخت فيـه من روحى فقعـوا له ساجدين) • فهى نفخة الله من روح الله تنقل ابن آدم من كونه كائنا حيا كغيره من الاحياء الى ذلك الافق الانسانى الكريم •

لقد خلق الله سبحانه الانسان من عناصر هذا الطين اللزج المتحول الى صلصال ، ثم من النفخة العلوية التى فرقت بينه وبين سائر الاحياء ومنحته خصائصه الانسانية ، وهى ــ كما سنعلم بعد مقومات الخلافة أو أصول الحرية : الاختيار ، والاستطاعة ، والعلم • وهذه النفخـة التى تصله بالمـلأ الاعلى ، تجعله أهلا للاتصـال بالله مباشرة دون وساطة ، والتى بها وهبه الله طاقـات وامكانات ، ومدارك واشراقات تجاوز بها النطاق المادى الذى يتعامل فيه جسده ، الى النطاق الغيبى الذى تتعامل فيه القلوب •

ومن ثم صارت المسافة بين ماهية الانسان وسائر الماهيات ، مسافة لا متناهية وبون شاسع لا يقطع أبدا ، فهو لم يكن حيوانا ثم انتقـل بارتقاء الى الانسانية ، انما خلق انسانا كما هو ، وكما نعـرفه الان ونعيشه ، وهو لم يكن ملاكا ثم انحط درجة بالطين فصـار انسانا ، وانما هو مخلوق بماهيتـه الانسانية كما نعرفهـا ونعيشـها الان • فالانسانية ماهية منفـردة عن سائر الماهيات ، ولا مجـال للمقارنة بينهـا وبين سـائر الماهيـات ، وان بـدا بعض التشـابه بين البعض لوجود بعض الصفات الذاتية والعرضية المشتركة بينهن •

فالانسان مخلوق من طين حقا ، وهذا الاصل فى تكوينه ، ربما جعل بينه وبين مخلوقات أخرى كالحيوان والنبات صفات مشتركة ، وتشابها من عدة جوانب • ولكن دعوى خلق الانسان من طين فقط دعوة شيطانية ، هدفها الحط من قدر البشرية ومكانتها المرموقة بين الكائنات ، كما يراد من جرائها الغاء الانسانية فى الانسان بتحريف فطرته ، والهبوط به الى درك متسفل فى مستوى ما دونه من الكائنات، بينما هذا الاصل الطينى يحمل فى ذاته دلالات وامكانات السيطرة للانسان على العالم المادى فى الارض ، ذلك أنه حوى جميع العناصر المادية المعروفة فى الارض ، فجاء التركيب المادى للانسان منها جميعا شاملا المعادن وسائر العناصر والمواد ، متلبسا كله بالنفخه الالهية الكريمة التى صار بها هذا الحشد العظيم من العناصر المختلفة والمتباينة منسقا ومنظما ومتعاونا ، مما جعل الانسان فى تركيبه كون كامل صغير ودلالة هيمنة الانسان على الارض ، والتى يمكن معرفتها من التركيب الخلقى له ، والقائمة على كونه فى أحسن تقويم هى فى هيمنة الروح أو النفس البشرية على الجسد البشرى ، تدبره وتنظمه وتحفظ وجوده وتماسكه ، مما يمكن الانسان ككل بعد ذلك من الهيمنة والسيطرة على بقية العالم الارضى المخلوق لتحقيق نيابته لله فيه • ومن ثم فليس وجود هذا العنصر المادى فى التكوين الخلقى للانسان محطا من قدره مسفلا له ، وانما هو من أسباب وأدوات تحقيق النيابة الالهية فى الارض • مادام هذا الجزء فيه خاضعا للروح • أما الاقتصار على تفسير الماهية الانسانية بالتكوين الطينى فى كينونتها البشرية ، فانه تفسير خاطىء حيث تغافل عن النفخة الالهية الكريمة وأثرها على هذا الطين ، مما يؤدى الى الهبوط بالانسان الى درك متسفل عن مكانته الانسانية المرموقة •

كما أن الاقتصار على النظر الى الروح ، واهمال الجانب المادى ، نظر خاطىء أيضا ، يؤدى الى تبديد جزء أصيل من الكينونة البشرية ونسف ماهيتها وتحطيم فطرتها السوية •

ومن ثم فان هذه النفخة هى الاساس الغيبى للحرية الانسانية • بل هى الميراث الالهى الذى ورثه الله سبحانه للانسان ، فاستخلفه بها فى الارض ، واتصف بها ببعض صفاته سبحانه ، فصار مريدا مختارا ومستطيعا فاعلا ، وعارفا عالما ، فهى التى جعلت الطين مخلوقا آخر لائقا بالمركز الكونى العظيم بين المخلوقات ، نائبا عليها لله تعالى ، وان كانت هذه النيابة فى الحياة الدنيا مؤقته وليست دائمة ، لان الانسان فى الارض نائب لله وخليفة له « تحت الاختبار » فالخلافة تعنى النيابة والوراثة والتكليف وهذه النفخة العلوية الكريمة ، وهبت الانسان وأورثته بعض صفات الله سبحانه وتعالى ، وان كانت صفات محدودة ومحددة بكينونته الصغيرة ، ولائقة بدوره كخليفة ، فالاشتراك بين بعض صفات الله وبين بعض صفات الانسان هو اشتراك فى الاسم دون جنس الصفة ، لاننا نؤمن بان الله ليس كمثله شىء وصفته ليس كمثلها صفة لاحد غيره •

فمن المعلوم بالضرورة وباخبار الوحى أن ذات الله وصفاته لا يشاركه فيها أحد ، وليس كمثله شىء وانما نعنى بهذا القول : أن هذه النفخة جعلت الانسان ذا علم ، كما أن الله عليم ، مع الفارق بين علم الله المطلق الشامل التام وبين علم الانسان المحدود القليل • كما جعلته مستطيعا ، كما أن الله قادر ، مع الفارق بين القدرة الالهية المطلقة والاستطاعة البشرية المحدودة • وجعلته مريدا باختيار كما أن الله سبحانه مريد ، وله مشيئته المطلقة التى لا يحدها حد ولا يقف ولا يقف أمامها سد ، ولا يرد عليها قيد ، وبالجملة فان الله قد منح كل هذه الصفات والمقومات جميعا للانسان ، وورثة اياها بهذه النفخة فصار الانسان بها ذا هيمنة وسيطرة واشراف وربوبية على ما دونه من كائنات الارض ، كما أن الله اله ورب كل شىء لا شريك له •

واذا كان هذا كله من أثر النفخة العلوية الجليلة فى الانسان ، أو بتعبير أدق فى الطين ، فان أثر الطين واضح جلى بثقله فى طبعه :

وبخضوعه لضرورات الطين وحاجاته من طعام وشراب ولباس وشهوات ونزوات ، وما يستتبع ذلك من ضعف وقصور • ومن ثم فان للانسان جانبان جانب حر طليق ، مصدره وأساسه النفخة العلوية الكريمة • وجانب جبرى ، مصدره الارض وأساسه الطين وضروراته المادية • ولا يعنى ذلك أن الانسان ذو طبيعتين أو نفسين ، وانما هو انسان واحد ذو طبيعة واحدة وجوهر واحد فى نفس واحدة ، أما جانبه الاختيارى الحر وجانبه الجبرى فهما مظهران وصفتان لحياته وأفعاله ولذلك نجد الناس بسبب هذين الاصلين فى تكوينهما حيال سلوكهم الحر ثلاثة :

الاول : متأله متعال مغرور • ينظر الى مقومات خلافته وسيطرته على الارض دون النظر الى الاصل الطينى فيه ، فيتخلله العجب بنفسه ، وينسى خالقه أو يتناساه ، حبا منه فى شهوة السطوة والتملك فى الدنيا • ويخبرنا القرآن الكريم عن فرعون الذى قال (أنا ربكم الاعلى) و (ما علمت لكم من اله غيرى — القصص ٣٨) • فنفى أن يكون فوقه من هو أقدر وأعلم وأملك للدنيا منه ، أو الذى حاج ابراهيم فقال (أنا أحيى وأميت — البقرة ٢٥٨) • ظنا منه أن ما فى يده من الاستطاعة والسلطة انما هو قدرة حقيقية على الفعل حتى الاحياء والاماته • أو كالذى نسب الى نفسه القدرة على الاثراء والافقار فقال عن ثروته وكنوزه (انما أوتيته على علم عندى — القصص ٧٨) • وهؤلاء انما نظروا الى ما ورثه الله اياهم من مقومات الخلافة من علم واستطاعة واختيار ، دون النظر الى جوانب الضعف والقصور الناشئة عن ضرورات الطين فيهم • وان كانوا يمارسون شهواتهم ولذاتهم ، ويعيشون حسب هواهم وشريعة أنفسهم • ويغلب هذا النوع على انسان الحضارة الغربية المعاصرة الذى غرته الحضارة المادية والتقدم التكنولوجى فنسى أو تجاهل خالقه •

الثانى : متسفل بنفسه الى ما دون مرتبتها الوجودية ، محط بقدر

ذاته الى مرتبة حيوانية أو أقل ، يعيش متناسيا أو متغافلا أثر النفخة فيه ، مهتما ومركزا فى حياته على ما تقتضيه ضرورات المادة وجبرية أصله الطينى من شهوات ونزوات ونزعات مادية غارقا فيها الى أذنيه حتى يبدو كالانعام أو أضل ، منسلخا عن كل الافاق الانسانية العليا نتيجة اغفاله أثر النفخة فيه ، حتى يصبح قلبه كالحجارة أو أشد قسوة ذلك هو الانسان الوثنى فى كل زمان ومكان •

الثالث : هو الانسان القرآنى الذى اتبع الشريعة القرآنية وعاش بالتصور القرآنى الحق للوجود ، ايمانا وأفعالا • فحقق فى ذاته التوازن الدقيق بين متطلبات روحه وجسده •

وذلك هو الافق الانسانى الرفيع الذى يعلو على كل افق ، حتى آفاق الملائكة المقربين ، حيث تحقق هذا النموذج الفريد العجيب فى رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه ، مبرهنين للبشرية على امكان تحقيقه وسهولة الوصول اليه ، ومن ثم كان صعوده عليه السلام ليلة المعراج الى ما فوق السماوات السبع تاركا خلفه جبريل الامين ، انما هو ارتقاء وارتفاع بالانسانية الى المكانة التى أرادها الله لها منذ أن أسجد لها الملائكة من قبل •

ننتهى من ذلك كله الى أن الامانة هى النفخة الالهية الكريمة حيث هى خاصية الانسان التى لا يشاركه فيها أحد •

٤ ـ الانسان والعالم :

واذا كانت عملية عرض الامانة ، وعملية الاشهاد ، قد حددتا ماهية الانسان وخاصيته أى حددتا كينونة الانسان فى ذاته، فان الخلافة هى التى حدد الله سبحانه وتعالى بها كينونته ومكانته ، وعلاقته بغيره من المخلوقات ، وعلاقته بالله كذلك ، وكان لها الاثر الكبير فى كيفية حياته فى الارض ومن ثم تعتبر بحق أساسا من الاسس الغيبية للحرية الانسانية

وقبل أن نعرض لها فاننا قد نكون على حق اذا ما ذكرنا ما ورد فى القرآن الكريم عن المخلوقات التى سبقت الانسان فى الوجود ، مادمنا بسبيل تحديد العلاقة بينه وبينها ، ومكانته منها .

أما عن أول المخلوقات ، فقد حدده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (أول ما خلق الله القلم ، فقال له : أكتب ، قال : ربى وماذا اكتب؟ قال: أكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة) [1] والقلم مخلوق بذلك قبل السماوات والارض حيث يقول عليه الصلاة والسلام أيضا (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والارض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء) [2] .

ثم يبين القرآن الكريم أن الله سبحانه وتعالى خلق بعد ذلك الارض ثم السماوات ، ثم خلق الجبال وهيأ الارض للحياة ، وقدر الارزاق فيها والاقوات للناس والاحياء وذلك حيث يقول سبحانه (قل ائنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، سواء للسائلين • ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض : ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، فقضاهن سبع سماوات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم فصلت ٩ ــ ١٢) .

ويفصل الله سبحانه وتعالى مباركته للارض ، وتقدير أقواتها بعد خلقها بقوله (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها ، والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم ــ النازعات ٢٧ ــ ٣٣) .

---

(١) و(٢) صحيح مسلم : كتاب رقم ٤٦ .

فخلق السماء يسبق خلق الارض ولكن تسوية السماء الى سبع سماوات كان بعد خلق الارض ثم ان دحو الارض واخراج الماء والمرعى وارساء الجبال وتهيئتها للحياة وتقدير ارزاق الاحياء فيها كان قبل تسوية السماء الى سبع سماوات فهى اذا والسماوات سابقة وجودا على الانسان •

كذلك يخبرنا القرآن الكريم بمخلوقات أخرى تعيش مع الانسان على الارض وفى السماء وتسبقه فى الوجود وهى الملائكة والجان • ودليل وجودهما وخلقهما قبله قوله للملائكة (واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من طين — ص ٧١) • وقوله فى الجن (ولقد خلقنا الانسان من صلصال من حمأ مسنون ، والجان خلقناه من قبل من نار السموم — الحجر ٢٦ — ٢٧) •

الملائكة : أما الملائكة فى النظرة القرآنية أو الاسلامية ، فهم جنود الرحمن تنفذ بهم مشيئته فى الارض وفى السماء ، ويتخذ منهم رسلا ، ويقبض بهم أرواح الموتى ، ويحفظ بهم حياة البشر ، يسجل بهم أعمال الناس ، ويستغفرون للمؤمنين ، ويحاربون الكفار معهم ويلعنون الكافرين وغير ذلك كثير من الوظائف والمهام التى يقومون بها من أمر الله طائعين ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون بمقتضى الخلق والجبلة •

الجان : أما الجان فالقرآن الكريم والسنة يمداننا بنصوص واضحة صريحة ، تبين أن الله سبحانه وتعالى خلق الجان ليعيش على الارض مع الانسان ، وكلفه كما كلف الانسان وزوده بالعقل ، ومن ثم فهو قرين الانسان ، حياته شبيهة بحياته ومصيره مثل مصيره ويحاسب على عمله بعد بعثه يوم القيامة مع الانسان • ومن ثم فان الله أرسل اليهم الرسل مبشرين ومنذرين أيضا فكان منهم المؤمنون وغير ذلك (قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا ، يهدى الى الرشد فآمنا به ، ولن نشرك بربنا أحدا —

الجن ١) • (وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا ، وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا ـ الجن ١٣ ـ ١٤) والقرآن منزل اليهم كما هو منزل الى البشر ، وهم مكلفون به كذلك والله يعجزهم به أيضا (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ـ الاسراء ٨٨) • ودليل تكليفهم قوله عز وجل (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون ـ الذاريات ٥٦) • والرسل حجة عليهم يوم القيامة كما هم حجة على البشر (يامعشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم أنهم كانوا كافرين ـ الانعام ١٣٠) • وفريق منهم فى الجنة وآخر فى السعير (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ـ الاعراف ١٧٩) •

ودليل دخولهم الجنة (فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان ـ الرحمن ٥٦) ، والايات تثبت كذلك أن أجهزة المعرفة عند الجن تشبه أجهزة الانس حيث تحدثت الاية السابقة عن قلوب وأعين وسمع للجن كما هى للانس •

الشياطين: يذكر القرآن الكريم فى أكثر من موضع أن ابليس كان من الجن مع الملائكة فى السماء ، ولا نعلم بنص من القرآن أو السنة ، هل ابليس فى الجن بمثابة آدم فى الانس أو أنه كان واحدا من الجان ، ووجد فى هذا الوجود فى ظروف لا نعلمها ؟ • وليس هذا ما يهمنا على حال ، ولكن الذى نريد ذكره هو أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الانسان ، كان قد خلق قبله القلم والسماوات والارض والجبال والملائكة والجن المتمثل وجودهم فى ابليس •

وما دمنا فى معرض حقيقة الانسان فى القرآن وموقفه الوجودى ، وبالاخص حقيقة الحرية الانسانية ، فمما لا شك فيه أنه يتحتم علينا أن نعرض قصة خلق الانسان كما وردت فى الكتــاب ، وأحداث هذه القصة وما لهذه الاحداث من تأثير واثر على وضع الانسان الوجودى بين ما سواه ومن سواه من المخلوقات عامة وبينه وبين الشيطان خاصة باعتباره مصدر الشر فى هذا الوجود ٠

وبالنظر فى القرآن الكريم نجد قصة خلق الانسان قــد وردت فى ستة مواضع منــه ، كل موضع منهــا لاداء غرض خاص فى معرض خاص ولابراز معانى معينة وزوايا مقصودة من حقيقة الخلق تختلف من موضع لموضع ٠ ومن ثم فاننا سنحاول ابراز ملامح القصة وزواياها التى يتحدد بها موقف الانسان فى الكون ، الامر الذى يعين لنا حريته وأبعادها مفهوما وقيمــة ٠

يقدم لنا الله سبحانه وتعالى فى صدر سورة البقــرة مجمل قصــة البشرية من البداية للنهــاية حيث يقول (واذ قال ربك للمــلائكة انى جاعل فى الارض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيهــا ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال : انى أعلم ما لا تعلمون ٠ وعلم آدم الاسماء كلهــا ، ثم عرضهم على الملائكة فقــال : انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم قال يا آدم انبئهم بأسمائهم ، فلما أنبــأهم بأسمائهم قــال : ألم أقل لكم انى أعلــم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ واذ قلنــا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ٠ وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فأذلهما الشيطان عنهــا ، فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين ٠ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب

الرحيم • قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـ البقرة ٣٠ ـ ٣٩) •

وتلك هى قصة الانسان منذ البدء ، حتى يسدل الستار على فريق منه فى الجنة وآخر فى السعير ويبرز فى هذا العرض الاول والاجمالى لقصة الخلق اختيار الله سبحانه للانسان خليفة فى الارض من سائر المخلوقات جميعا • وخلافة الله فى الارض تعنى تمليك الله سبحانه لخليفته الارض ، يحكم فيها ويسيطر ويهيمن ويصبح نائبا له • وتلك مكانة وجودية رفيعة حيث أنه ليس بين المخلوقات من هو أرفع وأعلى درجة من نائب لله فى الارض • ومن ثم كان عجب الملائكة من تمكين الله سبحانه لفاعل الشر والفساد من هذه المكانة الوجودية العالية ، واستفهامهم التعجبى الذى أبدوه لله عندما أخبرهم بذلك ، كما حدث من ابليس ما حدث من الغيرة والحسد والحقد ، نتيجة اختيار الله سبحانه وتعالى لكائن آخر غيره لهذه المكانة الخطيرة العالية مع صلاحيته هو لها ، حسب زعمه ، حيث أنه مخلوق مادى قابل للحياة فى الارض فأما وقد جعلت القوامة فى الارض للانسان عليه وعلى بنى نوعه من الجن ، فان ذلك دعاه لوقوفه من الانسان موقف العدو اللدود • ومن ثم رفض الاذعان للانسان بالقوامة والهيمنة والعلو عليه ، وحدث هذا الحدث الهام والخطير الشأن فى حياة الانسان بخاصة وفى الكون المخلوق بعامة ، وهو رفض ابليس السجود لادم مع الملائكة ، فلا شك أن الامر الالهى بالسجود له ، انما يعنى القوامة للانسان عليه وعلى نوعه وتفضيله وتكريمه عليه ، واذا كانت الخلافة تعنى القوامة والهيمنة والحكم ، فان أمر السجود يعنى ذلك كله • أى أن زمام الامور وسير الحوادث فيها سيكون فى يد الانسان بأمر الله تعالى حتى يرثها منه •

كما يبرز فى هذا العرض الاول لقصة الخلق حدث هام وخطير أيضا يترتب على معصية ابليس لامر الله سبحانه وتعـــالى ورفض السجود لادم ، وهو العداء التام للانسان والمحاولة الدائبة المستمرة اللحوحة منه لاقصاء الانسان عن هذه الخلافة ، واثبات فشله ، وعدم استحقاقه وجدارته لهذا المركز الوجودى المرموق الذى وهبـــه الله له بالحق • وذلك حتى تنتقل قيادة الحياة على الارض وزمام الامور الى يده هو من يد الانسان • وهذا واضح من الحوار الذى دار بين الله سبحانه وتعالى وبين الشيطان بعد المعصية (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم ، فسجدوا الا ابليس قال : أأسجد لمن خلقت طينـــا ، قال أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا ــ الاسراء ٦١ــ٦٢)• وكذلك قوله فى سورة الاعراف (•• قال مامنعك الا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ــ الاعــراف ١٢) •

كذلك قوله فى معصية ابليس وتبرير ابليس لها (••• قال لــم أكن لاسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون ــ الحجر ٣٣) • وتبرير ابليس معصيته بالاصـــل الطينى لادم فوق أنه معصـــية لله فان هذا التبرير مخالف لحقائق الكون والمخلوقات ، حيث يناقض التوحيد المطلق لله ، فهو يرفض السجود لان عنصره النارى ــ حسب زعمه ــ خير من عنصر آدم الطينى ، وقد يكون هذا صحيحا ، ولكن هل هناك ضرورة على ارادة الله المطلقة تلزمه أن يجعل أفضل الموجودات التى خلقها أفضلهم عنصرا ، ان الله سبحانه هو الذى خلق العناصر ورتبها درجات وفضل بعضهـــا على بعض ، وجعل درجة النـــار أفضل من الطـــين ، ولكن هل القانون الذى سنه الله بمشيئته مرتبـــا به العناصر المـــادية ملزم لله ولمشيئته بعد ذلك أن يرتب العناصر الحية من هذه العناصر المادية حسب المواد التى تخلق منها ودرجاتها ؟ ان من أخص خصـــائص الالوهية فى القرآن أنه ليس على الله من ضرورة فى فعله وخلقه ، وقانـــون ترتيب المخلوقات والتفاضل بينها من خلقه هو سبحانه ، فمشيئته مطلقه ، وهو

فعال لما يريد • أما ابليس فانه بقوله لله (أنا خـير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) وغير ذلك من الردود التى تدور حول هذا المعنى معتقدا بأفضليته على آدم ، انما يحركه فى ذلك ويدفعه لهذا القول حقد وحسد وكراهية وعداء ، مما جعـله يقف هذا الموقف للايقـاع به ، وليكـون مصيره كمصيره (قال : أرأيتـك هذا الذى كرمت لئن أخـرتن الى يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا ــ الاسراء ٦٢) • وقوله (ربى بمـا أغويتنى لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين ، الا عبـادك منهم المخلصين ــ الحجر ٣٩ ــ ٤٠)• وهذا هو ما سيكون من ابليس للانسان فى الارض حيث سيحاول افقـاده ما كرمه به الله لعزله عن الخـلافة وانتزاعها منه ، وذلك واضح من قوله السابق •

ان الانسان لا يقف وحده فى الارض، ولا يقوم وحده فى هذا العالم• ان الملائكة يستغفرون له يحافظون عليه بأمر الله فهم أصدقاؤه • كمـا يقوم معه بجانب هؤلاء الاصدقاء عدوه اللدود وجنـوده من الشياطين (••• ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا ــ الاسراء ٥٣) •

حقيقة الشيطان : واذا كان موقف ابليس من الانسان بعد استكباره واستعلائه ورفضه الاقرار له بالخلافة والتفضيل ، موقفـا مفهوما من حيـث تحوله الى عدو ، فاننا بحاجة الى نظـرة متأنية ، حيث أن موقف الله سبحانه وتعالى وما قاله له وما شاءه أيضا حيال الانسان ، له كبير الصلة بالاختيار الانسانى ، ومما يوحى للذهن من أول وهـلة بالشبهة والفهم الخاطىء •

واذا عدنا الى الحوار وجدنا أن الشـيطان ، بعد أن طـرده الله من رحمته ولعنه وتوعده بالنار جزاء له ، قد طلب من الله سبحانه وتعـالى جل شأنه أن يمهله الى يوم القيامة • وهذا يعنى أن الشيطان قد اختار ــ بارادته الحـرة ــ الدنيا ، مضـحيا فى سبيل ذلك بالاخـرة (قال : انظرنى الى يوم يبعثون ، قال : انك من المنظرين ــ الاعراف ١٤ ــ ١٥) وفى سورة الاسراء(قال : أرأيتك هذا الذى كرمت على لئن أخرتن الى

يوم القيامة لاحتنكن ذريته الا قليلا ــ الاسراء ٦٢) • وعـسورة الحجر (قال : ربى فانظرنى الى يوم يبعثون ، قال : فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ــ الحجر ٣٦ ــ ٣٨) • ولعل سائلا يسأل لمـــاذا أمهله الله ، وترك له الفرصة الى يوم القيامة وهو يتوعد الانســـان بغوايته واضـــلاله ؟[1] •

ان الاجابة على هذا واضحة جلية فى القرآن • ذلك أن الله سبحانه خلق الجان كائنا مبتلى ، وخلق الانسان كائنا مبتلى • والابتلاء ــ كمـــا سيجىء عنه الكلام تفصيلا فى فصل لاحق • يعنى تخيير العبد بين الدنيا والاخرة ، وقد قدر الله سبحانه وشاء أن يعطى الدنيا لمـــن يختارها ، وأن يعطى الاخرة لمن يختـــارها ، وذلك هو موقف ابليس فى تجـــربته الابتلائية الاولى ، لقد فشل واختـــار الدنيا على الاخـــرة ، وتحركت نفسه لكى يوقع بمن ابتلاه الله به وهو الانســـان حتى يكون مصـــيره الفشل والخسران • ولقد ابتلى الله ابليس بآدم ، وآثر ابليس الدنيا على الاخرة وطلبها صراحة من ربه ، فأعطاه الله الدنيـــا حسب مشيئته وسنته فى الابتلاء والاختبـــار •

ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد ، فان ابليس يأخـــذ بأمر كونى من الله ومشيئته النافذة ، امكانات ووسائل غواية الانسان والوسوسة له • وهذا عين العدل من الله سبحانه ذلك ان الله عز وجل ابتلى ابليس بآدم أى بالانسان فمن العـــدل ان يبتلى الله عز وجل آدم وابنـــاءه بابليس وجنوده من أجل ذلك (قال: فبما أغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لاتينهم من بين أيديهم ومن خلفهـــم وعن ايمانهم وعن شـــمائلهم ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ــ الاعراف ١٧) • وليس اتيان ابليس لادم وابنائه الا بأمر الله وذلك مفصل بقوله عز وجل لابليس (قال : اذهب، فمن تبعـــك منهم فان جهنـــم جزاؤكم جـــزاء موفورا ، واستفزز من استطعت منهم بصوتك ، وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ، وشـــاركهم فى

---

[1] وهذا السؤال يمثل أحدى شبهات ابليس •

الاموال والاولاد وعدهم ، وما يعدهم الشيطان الا غرورا • ان عبادى ليس لك عليهم سلطان ، وكفى بربك وكيــلا ــ الاسراء ٦٣ ــ ٦٥) • وليس لابليس من سلطان على الانسان يجبره على الفعل ، وانما هو داعية للشر والمعصية فقط ، فاذا ما ارتكب الانسان المعصــية والشر واكتسبهما باختيــاره ، استذله الشــيطان بهما ومارس ابليس عداءه وغوايته ووسوسته للانسان الاول ، ليخرجه وزوجه من الجنة •

ثم ينزل آدم وزوجه وذريته الى دار الابتــلاء ، فيمارس معهــم ابليس غوايته ابتلاء للانس بالجن الشياطين كما ابتلى الله عــز وجل ابليس بالانسان حين فضله عليه وأمره بالسجود له ، (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ، واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس أبى ، فقلنــا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى • ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى ، فوسوس اليه الشيطان قال : يا آدم هــل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ؟ فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة • وعصى آدم ربه فغــوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ــ طه ١١٥) • وما نريد ابرازه من هذا الحدث الاول للانسان بفعله وارادته ، هو أنه كمــا أن الله سبحانه وتعالى ابتلى ابليس بادم حــين أمره بالسجود له ، فــانه ابتلى آدم بالشجرة المحرمة فى الجنة ووسوسة ابليس له •

والابتلاء كما سيجىء عنه الكلام هو الغاية والحكمة التى من أجلها خلق الله الثقلين : الجن والانس فالشجرة اذا رمز للابتلاء ، قد تكون شجرة معينة من شأن ثمرتها اذا أكلها آدم وحواء أن تنبههما الى ما فى طبيعتهما من شهوة جنسية دفينة ، والى ما يحتوى عليه جسداهما من أعضاء تناسلية وعورات وبامكانية استعمال هذه الاعضاء بمــا يجلب لهما المتعة واللذة وهذا بدليــل قوله تعــالى (فأكلا منها فبدت لهمــا

سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة) وكذلك قوله (فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما ، وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، وقاسمهما أنى لكما من الناصحين ، فدلاهما بغرور • فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما الم أنهكما عن تلكما الشجرة ، وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين ــ الاعراف ٢٠ ــ ٢٢) • ويفهم من الايتين ان سوءاتهما كانت مخلوقة معهما وموجودة ولكنها لم تبد لهما على أنها سوءة • أو أنها كانت موجودة ، ولكن الله واراها عنهما فلم يعرفا كنهها ووظيفتها ، وأنها شيء يخجل منه الانسان بفطرته • فلما أكلا منها بدت سوءاتهما وعوراتهما ، وأدركا وجوب تغطيتها حسب ما فطرهما الله عليه بعد ادراك وظيفتها ، فأسرعا يغطيانها مما تحت ايديهما من ورق الجنة •

والارجح أن الاكل من الشجرة لكونه معصية لله ، هو الذى كشف عورة آدم وحواء ، وذلك لقوله سبحانه (يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان ، كما أخرج أبويكم من الجنة ، ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ــ الاعراف ٢٧) • فما حدث لهما اذا ، لازم من لوازم المعصية ، وليس للشجرة بعينها ، وانما الشجرة رمز للابتلاء والحرام والممنوع شرعا على الانسان فى الدنيا • والحق الذى لا مراء فيه أن الايات تدل على أن الشجرة هى رمز للحرام والممنوع فهى شجرة ابتلاء ، كما أن هذا المحرم والممنوع اذا اقترفه الانسان فى حياته ، يسبب له الالم والشقاء والتعاسة على الارض ، كما سبب اكتساب ادم المعصية خروجه من الجنة •

ويمكن ايجاز نتائج هذا الحدث الذى حدد علاقة الانسان بالجن وبالشيطان خاصة فيما يلى :

أولا ــ أن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان حرا مبتلى ، كما خلق من قبل ابليس أو الجن للابتلاء كذلك • وكما أن الله يبتلى الانس بعضهم ببعض ، فانه يبتلى الانس بالجن والجن بالانس • وكانت التجربة التى ابتلى بها ابليس هى أمره بالسجود لادم واقراره بأفضليته وهيمنته عليه وعلى بقية المخلوقات على الارض ، وتثبت الايات فشل ابليس فى هذا الابتلاء برفضه السجود ، كما نجد أن من الجن من فشل ومنهم من نجح فى ابتلائه ، وكذلك من الانس من هذا الفريق وذاك ، وبذلك أصبح لله أولياء فى الارض من الانس والجن ، وللشيطان أولياء منهما كذلك (الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا ــ النساء ٧٦) • وكذلك يقول سبحانه وتعالى (••• ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا ــ النساء ١١٧) • وكذلك من أبناء آدم من يتحول نتيجة لابتلائه واختباره الى حزب ابليس الشيطان (وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن ــ الانعام ١١٥) وبدليل قوله كذلك (ان المبذرين كانوا اخوان الشياطين •• الاسراء ٢٧) • وقوله أيضا (••• الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس ــ الناس ٥ ــ ٦) • أما دليل تحول الجن باختيارهم نتيجة ابتلائهم الى الهدى والحق فكثير فى سورة الجن وسبق ذكره • أما دليل اسلام بعض الشياطين ، أو امكانية اسلامهم وتوبتهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم للسيدة عائشة رضى الله عنها بعد أن سألته قائلة (أو لك شيطان) فرد عليها قائلا (نعم الا أن الله أعاننى عليه فأسلم) (١)

ثانيا ــ ان ابليس بعصيانه لامر ربه التشريعى التخييرى ، قد اختار الدنيا وآثرها على الاخرة • فالابتلاء بالنسبة للانسان ــ

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه •

والذى يعنى أنه تخيير للعبد بين الدنيا والاخرة ــ هو عين الابتــلاء بالنسبة لابليس أو الجن بعامة حيث يخيرون فى ابتلاءاتهم أيضــا بين الدنيا والاخرة ، وفى الابتــلاء الاول الذى تعــرض له ابليس فرفض السجود لادم ، اختــار الدنيا وطلبهــا صراحة من ربه ، مصرا على المعصية فطلب أن ينظره الى يوم يبعثون فأعطاها له •

ثالثا ــ وهو تكفل ابليس بغواية الانسان واضلاله وافساد فطرته حتى يكون مصيره العذاب مثــله ومحاولة منه اثبــات عدم جدارته وأهليته للخــلافة • وقــد اذن له الله بأمر كونى بذلك ، وأعطــاه من الوسائل والإمكانيات ما يمكنه من الوسوسة والغواية ، دون التأثــير الملزم ، للناس وللجن • وذلك عدل منه تعالى حتى يتم ابتــلاء الانس بالجن ، والجــن بالانس ، كما ابتــلى ابليس بآدم ، وآدم بابليس من قبــل •

رابعا ــ أن خروج ابليس من الوجودالجبرى وتركه صفوف الملائكة وسائر المخلوقات الكائنة بالامر الكونى الى الوجود الابتلائى الحر ، قد تم باختياره وحريته ، وذلك حــين رفض السجود لادم غير مجبر ولا مضطر حيث كان يستطيع أن يسجد منفذا أمر الله ، متعاملا معه باعتباره أمرا كونيا واجب النفاذ منه ، كما تعاملت الملائكة معه ، ولكن تلقيه هذا الامر باعتباره أمرا تخييريا لا كونيــا ، ثم رفضه الطــاعة واقدامه على المعصية اختيار دون مانع آخر للسجود ، يعنى دخــوله عالم الحرية والابتلاء اختيار أيضا ، وذلك يقابل قبول الانسان للامانة باختيــــاره •

ونخلص بهذه النتائج الى نتيجة هامة وواضحة عن حقيقة الشيطان وبالتالى عن مصدر الشر فى العالم فان ما أثبته لنــا الكتاب الكــريم والسنة الشريفة أنه ليس هناك نوع من المخــلوقات اسمه الشيطان ، بمعنى أن الله لم يخلق الشيطان شيطانا وانما الحقيقــة التى يثبتها

القرآن أن الله سبحانه وتعالى خلق أنواعا عابدة بمقتضى جبلتها وهى السماوات والارض والجبال والملائكة ، كما خلق نوعين آخرين للابتلاء والاختبار والامتحان وهما : الجن والانس ، وأفراد هذين النوعين كائنات قابلة للخير والشر على السواء • فهم ليسوا بمقتضى خلقهم ملائكة أى بطبيعة كلها خير محض ، كما أنهم ليسوا بمقتضاها أيضا شياطين أى بطبيعة كلها شر محض • فمن يمكن أن نسميه شيطانا لا يولد شيطانا ، وا نما هو مولود على الفطرة التى فطر الله الخلق عليها من الجن والانس سواء ، ولذلك قال فى الحديث القدسى (أنى خلقت عبادى كلهم حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم) [1]

وذلك يعنى أن عباد الله من الانس والجن سواء مخلوقون حنفاء على الفطرة ، وأما الشياطين الذين جاءتهم فى حياتهم لتجتالهم عن دينهم، فهم أفراد الانس والجن الذين فشلوا فى ابتلاءاتهم ، واختاروا طريق الشر والمعصية ، متبعين زعيمهم ابليس ، أول من شق هذا الطريق لاتباعه من الجن والانس سواء •

وأفراد الجن الذين يمكن أن نسميهم شياطين ممن يعيشون مخالفين مخالفة تامة ، أو على الاغلب ، لاوامر الله التشريعية أثناء حياتهم الابتلائية ، قابلين للعودة بالتوبة الى سواء فطرتهم الخيرة ، الموحدة التقية ، اذا تابوا ورجعوا الى الحياة بأوامر الله التشريعية ، منفذين أوامره ومنتهين عن نواهيه ــ ذلك أنهم فى حياتهم الدنيا قادرون على التوبة والايمان كما أنهم قادرون على اكتساب المعصية والكفر سواء • وابليس « الشيطان الاول » واحد من الجن حيث كان موحدا لله أيضا بسواء فطرته التى خلقه الله عليها قبل فشله فى الابتلاء الاول الذى عصى فيه الله فأفسد به فطرته •

---

(1) رواه مسلم فى صحيحه عن عياض بن حمار عن النبى صلى الله عليه وسلم •

أن الخاسرين فى ابتلاءاتهم على الارض ، المختارين للمعصية والشر على الخير والطاعة لله ، المؤثرين للدنيا على الاخرة قد كونــوا حزبا على الارض ، هو حزب الشــيطان ومن ثم فموقف الانســان فى هذا العالم بين حزبين : حزب الله ، وحزب الشيطان (الا ان حزب الله هم المفلحون ــ المجادلة ٢٢) و (الا أن حزب الشيطان هم الخاسرون ــ المجادلة ١٩) • وما ذلك الموقف الا نتيجة وتحقيقــا للحكمة التى من أجلها خلق الله السماوات والارض وما عليها وجعل الانسان خليفــة وهى الابتــلاء •

السماء والارض والخــلافة :

بقى أن نعرف علاقة الانسان بالسماء ، وعلاقته بالارض كمخلوقات ضخمة يحيا فيها وبها ، ومن ثم فانه ينبغى علينا معــرفة مفهومات لفظ السماء ولفظ الارض كما يستعملها القرآن الكريم حتى تتبين لنــا العلاقة بينه وبينها ، ويتحدد لنا معنى جعله « فى الارض خليفة » •

فمما لا شك فيه أن قوله تعالى « فى الارض » فى آية الخلافة يعنى أن الارض هى حدود الملك الانسانى المؤقت الذى استخلفه اللــه فيه ليبتليه • فكونه خليفة فى الارض يعنى أن حدود هيمنته وسيطرته هى هذا الكوكب الذى نعيش فيه • بيد أنه ينبغى علينا أن نعرف المفهــوم الصحيح للارض فى القرآن أولا •

يحدثنا القرآن الكريم عن السماء والسماوات السبع • والسماوات السبع كون مخلوق كل سماء فوق الاخرى ، طباقا بعضها فــوق بعض (ألم يروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا ــ نوح ١٥) • وجعلهن مبنيات مشيدات (وبنينا فوقكم سبعا شدادا ــ عم ١٢) • وبناء الله سبحانه السماوات السبع تم بعد خلقه للارض وذلك حيث يقول تعالى (هو الذى خلــق لكم ما فى الارض جميعــا ثم استوى الى الســماء

فسواهن سبع سماوات وهو بكل شى عليم ـ البقرة ٢٩) • وجعل الله سبحانه وتعالى لكل سماء أمرها الذى تسير به وناموسها الذى تقوم به ، وبين لنا السماء الدنيا ـ وهى السماء الاولى بالنسبة لنا نحن البشر على الارض ـ بين أنها مزينة ، قد زينها بمصابيح وهى النجوم والكواكب والشموس وجعلها رجوما للشياطين • وذلك حيث يقول (••• فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ـ فصلت ١٢) •

فالسماء اذا بهذا المعنى كون علوى غيبى ، تسكنه الملائكة ويتم فيه من الامور ـ التى لا يستطيع الفكر البشرى الاحاطة بكيفياتها وتفاصيلها ـ بمشيئة الله ما يتم • وهى بهذا المعنى غيب ، حيث أن السماء الاولى بالنسبة لنا هى السماء الدنيا المتمثلة فى الفضاء الكونى المحيط بالارض ، فعالم الغيب يتمثل فى السموات الست الغيبية من الثانية حتى السابعة ، أما عالم الشهادة فيتمثل فى السماء الدنيا بما تشمله من مجرات ونجوم واجرام •

ولكن لفظ السماء يرد فى آيات أخرى كثيرة أيضا بغير الدلالة ، وذلك حيث يقول (وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم ، فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ـ البقرة ٢٢) •

ومن ثم يكون معنى السماء هو الفضاء المحيط القريب بالكرة الارضية الذى يسير فيه السحاب والمعروف عند علماء الطبيعة بالغلاف الجوى• ومثلها قوله تعالى (وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم ـ الانعام ٦) • والسماء هنا تعنى السحب المدرة للمطر ، ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى (ان فى خلق السماوات والارض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها ، وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء

والأرض لايات لأولى الالباب ـ البقرة ١٦٤) • ففى هذه الايات وجدنا السحاب الماء الذي ينزل من السماء ، وذلك يحتم علينا الوصول الى المفهوم الدقيق للفظ « السماء » فى القرآن الكريم • فما ذكرناه من الايات حول هذا المفهوم يبين لنا أن السماء فى القرآن مرة تكون عالم غيبى فوق عالمنا الارضى ، ومرة أخرى تعنى الفضاء الذى يعلونا حيث ينزل منه المطر ويساق فيه السحاب ، ومرة ثالثة وجدناها ما يعلو السحاب حيث السحاب مسخر بينها وبين الارض • فاذا ذكرنا قوله تعالى (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والاخرة ، فليمدد بسبب الى السماء ، ثم ليقطع فلينظر ، هل يذهبن كيده ما يغيظ ـ الحج ١٥) • حيث لفظ السماء فى هذه الاية يعنى السقف ومن ثم يكون القاسم المشترك بين ماصدقات مفهوم «السماء» فى القرآن هو العلو وتلك هى دلالة اللفظ اللغوية ، اذ السماء فى اللغة هى ما سما أى علا • فكل ما يعلو الانسان فهو سماء من أول السقف حتى السماء السابعة بل ان السماء سقف كما أن السقف سماء ، وذلك حيث يقول تعالى (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتنا معرضون ـ الانبياء ٣٢) والمقصود بالسماء هنا منتهى الغلاف الجوى الذى يعلو الارض ويحيط بها •

ومن ثم يمكن القول أن الانسان لكونه خليفة فى الارض ، أى يمكنه السيطرة والهيمنة عليها ، فانه ليس فى مقدوره تحقيق خلافته فى سواها أى فى السماوات ، وتكون بذلك معنى السماء فى القرآن هو العالم أو الكون الخارج عن حدود خلافة الانسان وسيطرته وهيمنته وحكمه واستغلاله أى الذى يعلو عليه بالمفهوم المعنوى والمادى للعلو •

أما مفهوم الارض فيأخذ فى القرآن الكريم أكثر من معنى واستعمال ومن ثم يندرج تحته « ما صدقات » كثيرة بعضها طبيعى والاخر غيبى فيأتى فى القرآن الكريم بمعنى الكوكب السيار ، مثل كواكب السماء

الاخرى وذلك حيث يقول تعالى (وسع كرسيه السماوات والارض ولا يؤوده حفظهما ، وهو العلى العظيم ــ البقرة ٢٥٥) • وأصلها الكونى والمادى مشترك مع أصل السماء الدنيا حيث يقول (أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والارض كانتا رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حى ، أفلا يؤمنون ــ الانبياء ٣٠) • ويثبت كذلك أنها جرم من أجرام الفضاء قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والارض بعد ذلك دحاها ــ النازعات ٢٧) •

كما وردت كلمة الارض بمعنى التربة الزراعية وذلك حيث يقول تعالى حاكيا عن طلب بنى اسرائيل من موسى (فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وعدسها وبصلها ــ البقرة ٦١) • كما يطلق لفظ الارض على الموضع من التربة حيث يقول (فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ــ المائدة ٣١) وقوله (فخسفنا به وبداره الارض ــ القصص ٨١) • ويطلق كذلك على الاقليم من الارض مثل قوله قاصا على لسان كبير الاسباط من اخوة يوسف (فلن أبرح الارض حتى يأذن لى أبى ، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين ــ يوسف ٨٠) • ومثل قوله تعالى (يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ــ المائدة ٢١) • أما قوله تعالى (انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض ــ المائدة ٣٣) ، فنجد فيه معنى الارض فى قوله (ويسعون فى الارض فسادا) تعنى أرض الاسلام والمسلمين بدليل قوله (أو ينفوا من الارض) أى من أرض الاسلام الى أى أرض أخرى •

ولكن هذه المفهومات للارض لا تحمل دلالات غيبية لمفهوم الارض كمجال للخلافة والنيابة لله • أن مفهوم الارض ككوكب هو مجال

لخلافته . وحدوده هى حدود هذه الخلافة • وشاهد ذلك قوله تعالى للبشر جميعا • (ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ــ الاعراف ١٠) • فملكية الانسان للارض وسيادته عليها، انما هى بمشيئته وقدرته تعالى (أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الارض ؟ أإله مع الله ؟! قليلا ما تذكرون ــ النمل ٦٢) • وتمكين الله للانسان فى الارض لابتلائه ، ومده بمقومات الخلافة انما يتم جيلا بعد جيل لبنى آدم حتى آخر الزمان (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الارض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين ــ الانعام ٦) • ولذلك فموقف ابليس من آدم انما كان حقدا عليه لتمكين الله للانسان فى الارض وجعله خليفة فيها (قال رب بما أغويتنى لازينن لهم فى الارض ولاغوينهم أجمعين ، الا عبادك منهم المخلصين ــ الحجر ٣٩)• وذلك لان حدود ومجال سيادة الانسان هى حدود ومجال الارض وما فيها من مخلوقات ، ومن ثم كان عمل ابليس وغوايته للانسان مرتبطا أيضا بحدود ومجال الارض • واذا كان الانسان فى الحياة مخير بين الدنيا والاخرة للابتلاء ، فان الارض كدار للابتلاء هى الدنيا ، أى دنيا البشر منذ آدم الى آخر عهدهم وشاهد ذلك قوله (تلك الدار الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ــ القصص ٨٣) • فلا شك أن المقصود بقوله (علوا فى الارض) أى فى الدنيا •

ولقد جمع نبى الله داود عليه السلام وكذلك سليمان من بعده ، بين الملك فى الدنيا والنبوة ، ومن ثم تحققت بهما وتمثلت فيهما الخلافة لله فى الارض ، حيث حكما الارض بشرع الله ودينه فكان الانسان بذلك فى عصرهما نائبا لله سبحانه فى ملكه محققا للخلافة الحقيقية لله (يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض ، فاحكم بين الناس بالحق ،

لا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ــ ص ٢٦) • وذلك يذكرنا بعهود الاسلام الاولى ، حيث تحققت خلافة الله فى الارض على أيدى الصحابة والتابعين بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم • وتتمثل خلافة الارض أكثر ما تتمثل فى أئمة البشر وعلمائهم وحكامهم حيث أنهم المكلفون بتنفيذ أحكام الله سبحانه وتعالى وشرعه فى الناس • ومن ثم أورثها سبحانه لاصلحهم وأصبرهم وأثبتهم على الحق والخير (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ، ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الارض ــ القصص ٥ ــ ٦) •

فالخلافة اذا محدودة بالوجود الارضى للانسان كنوع • وهذا يعنى أن الخلافة مؤقتة ومرتبطة بالوجود البشرى على الارض ، وليست دائمة خالدة ، ومن ثم فالساعة فى القرآن الكريم هى نهاية هذا العالم الارضى وانتهاء الخلافة البشرية المؤقتة فى الارض (فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ــ الرحمن ٣٧) (وفتحت السماء فكانت أبوابا وسيرت الجبال فكانت سرابا ــ النبأ ١٩ ، ٢٠) • (وترى الارض بارزة وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا ــ الكهف ٤٧) • فاذا حدث ذلك وغيره ، مما يقصه علينا القران الكريم من أحداث الساعة ، ووقوع الواقعة ، فان هذا يعنى انتهاء ابتلاء البشرية ودورهم كخلفاء لله فى الارض •

ومن ثم يمكن القول أن القاسم المشترك بين الاستعمالات المتعددة لمفهوم القرآن الكريم « الارض » هو الكون الخاضع والعالم المحكوم بالسيادة البشرية فى حالة خلافة الانسان عليها ، بخلاف مفهوم السماء حيث هى العالم الخارج عن سيادة الانسان وسيطرته وهيمنته • وفوقية السماء هنا فوقية نسبية بالنسبة للانسان ، والعلو علو عن الخضوع له ، والتسخير لقواه وقدراته وامكاناته التى أعطاها الله له ، لتحقيق الخلافة ، وبالمثل فان تحتية الارض وسفليتها انما هى تحتية بالنسبة

اليه أيضا ، حيث أنها خاضعة لقواه وقدراته وسيطرته وهيمنته وسيادته لابتلائه بتحقيق خلافة الله فيها .

ومن ثم فان كل ما يمكن ان يسيطر عليه الانسان ويسخره بقواه لحياته ويخضعه لسيادته ، فهو داخل فى نطاق الارض حتى لو كان ذلك خارج عن مكانيتها كالريح أو السحاب أو القمر [1] ، لان مشيئة

---

(1) قد يعترض أحد على ذلك بقوله ان الانسان وضع قدميه على القمر وهو ليس من الارض والرد على ذلك ان الانسان وضع قدميه على القمر ولكنه لم يستطع ان يخرج من الارض لان خروجه منها يؤدى الى موته على الفور . ولو لم يمكن الله عز وجل الانسان بسلطان العلم والتقنية من صنع البدلة الفضائية لما استطاع النفاد من الغلاف الجوى الارضى الى الفضاء الخارجى او النزول الى سطح القمر . وذلك لان المفهوم العلمى للارض ككوكب يشمل الغلاف الجوى المحيط بالارض وهو يحتوى على نسب محددة من عناصر معينة لا تصلح حياة الانسان الا بها من أكسيجين وماء ودرجة حرارة ودرجة ضغط معينة وجاذبية محددة وغير ذلك . هذه الظروف العامة للحياة اذا اختلت أو فارق الانسان بعضها أو كلها مات على الفور . والذى صنعه الانسان هو اقتطاع هذا الغلاف الجوى الارضى وانتقاله من خلاله الى القمر بما اسماه البدلة الفضائية بدلة أرضية مائة فى مائة ومن ثم اذا جاز لنا القول بأن الانسان نجح فى وضع قدميه على القمر فاننا يجب تصحيحا للتعبير ان نقول ومع ذلك فهو لم يخرج من الارض . ومن ثم فالانسان لم ولن يستطيع ان يخرج من الارض وان كان مستطيعا على النفاذ بغلافه الجوى من أقطار الفضاء الخارجى .

وفى هذا دلالة واضحة على دقة التعبير القرآنى المعجز حيث حدد الله عز وجل مجال خلافة الانسان بالارض . ويدل على أن الانسان يعيش فى الغلاف الجوى المحيط بالارض وبه قول الله عزوجل « انى جاعل فى الارض خليفة » وليس قوله « انى جاعل على الارض خليفة » وهذا يعنى ان مفهوم القرآن للارض ككوكب يؤيد المفهوم العلمى الحديث الذى يجعل الغلاف الجوى المحيط بالارض جزءا لا يتجزأ منها

كذلك لا يستطيع أحد القول بأن القمر من حدود الخلافة لان الانسان لا يستطيع الحياة فوق سطحه ومفهوم الخلافة يتضمن الاقامة والاستغلال والتسخير وليس مجرد الزيارة .

الله سبحانه هو أن يكون الانسان خليفـة فى الارض ، ومن ثـم فلن يستطيع الانسان تحقيق سيطرته على غير الأرض • وبالمثل فان من الاشياء والامور مالا يمكن للانسان السيطرة عليها ، والتحكم فيها أو معرفتها وتسخيرها لمصلحته ، مع شمول مكانية الارض لها وذلك مثل الروح (ويسالونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتـم من العلم الا قليلا ــ الاسراء ٨٥) •

ولكن معنى الارض لا يستقيم باعتباره هذا الكوكب فقط أو كمجال لعالم الخلافه الاختياريه المؤقتـه ، حيث يوجـد معنى غيبى للارض يخالف مفهومها الخاص بعالم الشهادة ، وذلك لوجود ايات أخـرى تشتمل على مفهوم واستعمال غيبى آخـر للفظ « الارض » • وهذا المفهوم لا يستقيم مع تفسيرها بانها العالم الخاضع للانسان مؤقتا ، حيث نجد أن الارض لا تفنى ولا تزول بقيام الساعه ولا تنعدم بانتهاء الابتلاء وخلافة الانسان الاختياريه المؤقته فى الحياة الدنيا • وشاهد ذلك قوله تعالى عن الكافرين يوم الحساب (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول ، لو تسوى بهم الارض ولا يكتمـون الله حديثا ــ النساء ٤٢) • فالارض اذا ستكون موجـودة وهذا لا يتعـارض مع مشاهد القيامة ومع قوله تعـالى (كلا ، اذا دكت الارض دكا دكا ــ الفجر ٢١) • وانما هو متوافق معه ، اذ أن الارض ستبدل غير الارض كما ستبدل السماوات بسماوات أخرى كذلك (ولا تحسبن الله مخلف وعده رسله ، ان الله عـزيز ذو انتقام ، يوم تبـدل الارض غـير الارض والسماوات • وبرزوا لله الواحد القهار ــ الزمر ٦٧) • وقد يتبادر الى الذهن نتيجة لهذا الاستعمال الجـديد للفظ الارض فى الاخـرة باعتبارها ستوجد فى عالم غير ابتلائى أن ما وصلنا اليه من مفهوم عام وشامل للارض غير صحيح ، فلا يصح اعتبـار كون الارض ولا يكون هى العالم الخاضع للانسان القابل لسيادته عليـه ، من حيث أنه فى الاخرة ستكون هناك الارض ولا يكون ابتلاء ولا اختبار ولا خلافة •

ولكن هذا غير صحيح بـل ان هذا الاستعمال الغيبى الجـديد للفظ الارض يعتبر دليلا يؤيد هذا المفهوم الذى يتمثـل فى أن الارض هى عالم النيابة والخلافة لله ، فالناس والجن يوم القيامة فريقان : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، وكون الارض هى العالم الصالح للامتلاك – والذى يسمح بوجود ملك لها ذى مشيئة حرة – من العوالم الكثيرة التى خلقها الله ، والتى تقوم بأمره وملكه وسيطرته هو دون سواه ، يعنى أن آل الجنة سيكونون الملاك الحقيقيون لهـا بأمر الله ومشيئته وعطـائه .

ومن ثم يتضح لنا الان أن عطاء الله سبحانه للانسان ملك الدنيـا الارضى ليقيم فيه الخـلافة ، انما هو مجـرد ملك مؤقت للاختبـار والامتحان . وذلك هو معنى الابتلاء وبذلك يكون الانسان فى الارض نائبا لله تحت الاختبار ، أو خليفة له تحت الاختبار ، فهى ليست نيابة مؤقته ستزول نهائيا ، كما أنها ليست خلافة مؤكدة خالدة باقية لجميع أفراد النوع البشرى . لان كونه خليفة تحت الاختبار والتجربة يعنى احتمال صلاحيته ليكون خليفة أو لا يكون ، كما يعنى احتمـال اهليته ليكون نائبا لله ، أو مستبدا بهواه وحكمه ورأيه ، ويتضح لنـا بذلك معنى قوله تعالى (انى جاعل فى الارض خليفة) . فالارض هنا تعنى الارض بالمعنى العام الشامل ، الذى يندرج تحته كل عالـم وكل كون يمكن أن يحكمه الانسان ويتملكه سواء كان ذلك فى الحياة الدنيا أو فى الاخرة . فالملك المعطى من الله للانسان انما هو ملك أبدى خالد دائم عظيم ، وهو الجنة ، بيد أن الله شـاء أن يعطى هذا الملك لمـن يثبت جدارته وأهليته بدخوله فى عبوديته لله اختيارا ومن ثم كانت الحيـاة الدنيا دار ابتـلاء ، وكانت الارض التى نعيش عليها الان هى عـالم الخلافة المؤقت ، الذى يؤدى الى عالم النيابة والملك الدائم ودليـل مشيئة الله بالملك الابدى للانسان اسكانه آدم وزوجته الجنة بادىء ذى بدء ، ثم اخراجهما منها بعد المعصية لثبوت عدم جدارتهما للحياة

فيها على أساس العودة اليها مع أبنائهما ، اذا هم حققوا لله فى أرض الحياة الدنيا خلافتهم ونيابتهم له (ولقد عهدنا الى آدم من قبل ، فنسى ولم نجد له عزما ، واذ قلنا للملائكة : اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس ابى ، فقلنا : يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك، فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ـ طه ١١٥ ، ١١٧) ٠

والجنة هى الملك الذى يعيش فيه آدم وزوجه حيث قال له (ان لك الا تجوع فيها ولا تعرى ، وانك لا تظمأ فيها ولا تضحى ـ طه ١١٨ ، ١١٩) ٠ ولكن آدم كان يحيا ساكنا الجنة ، وبين طياته خوف شديد من الخروج منها ، وفقد هذا الملك الواسع ، لان الله سبحانه وتعالى يبين له امكانية الخروج واحتماله ، وحذره من وقوعه اذا هو استجاب لعدوه ، وزاد من خوفه واشفاقه على نفسه من ذلك ، ان ربه جل وعلا بين له ان الخروج منها شقاء ، وبالرغم من ذلك فان ابليس استطاع من خلال خوف آدم من فقد هذا الملك ان يغريه ويغرره ويمنيه كذبا وزورا ، بان الاكل من هذه الشجرة التى حرمها الله عليه ، هو الذى سيعطيه الدوام والخلود والتملك الحقيقى للجنة ، حيث لا يفقدها أبدا (فوسوس اليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى ـ طه ١٢٠) ، ويتضح لنامن هذه الاية ان تمنية ابليس بدوام الملك لآدم يعنى ان هذا الملك هو الجنة بعينها وليست ملكا آخر ، لانه فى الجنة فى ملك عظيم أعطاه الله اياه ، ولكن الذى يجعله ملكا حقيقيا ، هو احتمال الخروج من هذا الملك أو احتمال الموت ، فالذى كان يقصده ابليس بالملك هو الجنة ، وما كان يفهمه آدم من الملك الذى يمنيه به هو الجنة ، والطمع من آدم هو دوام الملك وأبديته ، والخداع من ابليس هو وعده بذلك اذا أكل من الشجرة ، ويوضح ذلك ويثبته قوله (٠٠٠ قال : ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين، أو تكونا من الخالدين ـ الاعراف ٢٣)

فوضح هنا أن ما كان يقصده من الملك الذى لا يبلى هو امتلاك الجنة للحياة فيها ، ولكن كالملكين لا يجوز عليهما الموت أى امتلاكا حقيقيا لا يجوز معه الخروج منها • فوعد ابليس لم يكن وعدا بملك جديد ، وانما كان وعدا ــ بدليل هذه الاية ــ بدوام ما هما فيه من الملك وأبديته ، ومن ثم يمكن القول ان قوله تعالى (انى جاعل فى الارض خليفة) يعنى فى الجنة أولا وأخيرا • ولا يقدح فى ذلك قول الملائكة (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) باعتبار أن الارض الخاصة بالحياة الدنيا داخلة فى المفهوم العام للارض ، وأنهم نظروا الى الشرور التى سيحدثها الانسان فى مرحلة الخلافة الاختيارية دون المرحلة النهائية للملك الدائم الخالد •

وخير برهان على هذا القول السابق أن الله سبحانه بعد أن قال للملائكة (انى جاعل فى الارض خليفة) أسكن آدم وزوجه الجنة فليس بين قوله ذلك ، وبين اسكانهما الجنة أية تعارض باعتبار المفهوم العام الشامل للارض •

وبنزول آدم وأبنائه على الارض نتيجة فشله فى الابتلاء الاول ، تبدأ مرحلة ابتلائية جديدة حيث يترك الانسان فى الارض حرا مالكا لها أيضا ، ولكن ملكه للارض كملك أبيه آدم للجنة على سبيل الاختبار والابتلاء والامتحان وليس على سبيل الجزاء والدوام • ومن ثم فقوله (انى جاعل فى الارض خليفة) يعنى جاعل فى الارض بالمعنى العام اى الجزء الذى وهبه الله من ملكه الكبير لمخلوق حر يملكه اياه ملكا حقيقيا ، يكون فيه هذا المخلوق حرا ، ترتكز حريته على الاختيار والاستطاعة والعلم •

فلما ابتلى آدم بالشجرة فقد الملك ، ولكن هذا الفقد ليس نهائيا بل أنزله الله الى الارض الدنيا لاتمام الابتلاء ، وهكذا نحن على

الارض نبتلى للعودة مرة ثانية الى الملك الحقيقى ، ولموطننا الاصلى الذى أوجد الله فيه الانسان ابتداء وهو الجنة .

فملكية الانسان للارض فى هذه الدنيا ليست ملكية حقيقية ، من حيث أنه نائب للملك الحقيقى وخليفته . فالناس فى الارض (لا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ـ الفرقان ٣) . والملك حقيقة لله يعطيه لمن يشاء وينزعه ممن يشاء (قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ـ آل عمران ٢٦) . والبشر جميعا فى الارض مستخلفون على كل ما ولاهم الله عليه من نعم (أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ـ يس ٧١) . وملكيته لكل ما يمتلكه انما هى ملكية استخلاف (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ـ الحديد ٧) . ولا يعنى وجود ملك فى الارض ذى مشيئة واستطاعة وعلم اشتراكه مع الله فى الملك، فهو الملك الواحد لا شريك له ، وهذا المخلوق ليس الا نائبا للملك الحقيقى (فتعالى الله الملك الحق ـ طه ١١٤) (فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء واليه ترجعون ـ يس ٨٣) .

ولا شك أن وحدانية الله وانفراده بالملك والالوهية والربوبية فى الوجود المخلوق ومنه الارض ، يجعل القول بوجود مشيئة حرة على الارض مع مشيئته المطلقة فى حاجة الى تفسير وايضاح ، لما يبدو فى ذلك من تعارض وتلك هى مشكلة القضاء والقدر أو الجبر والاختيار، التى سنتعرض لها تفصيلا فى ثنايا البحث .

ولكن ما نود اثباته الان ، هو أن معنى الارض فى القرآن الكريم وما يمكن أن نحدد به هذا اللفظ هو أنها جزء محدود من العالم المخلوق ، جعله الله سبحانه وتعالى مملوكا لبعض خلقه ، اما على سبيل الاختبار والابتلاء ، ملكية مؤقتة وتلك هى أرض الحياة الدنيا وكل ما يمكن للانسان أن يمتلكه أو يسخره لنفسه أو يدخل فى مجال

علمه واستطاعته ، واما مملوكا لهم تمليكا دائما حقيقيا خالدا على سبيل الجزاء والعطاء والمنة من الله سبحانه لهم ، وهى جنة الله سبحانة وتعالى فى الاخرة • فالوجود الانسانى الاخروى الدائم فى الجنة انما هو فى الارض أيضا ، بمعنى أنه ملك حقيقى وعطاء دائم من الله للبشر الفائزين فى ابتلاءاتهم، ودوامه مرتبط بدوام السماوات والارض فى الجنة باذن الله (فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق ، خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك ، ان ربك فعال لما يريد • وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ — هود ١٠٧ — ١٠٨) • والشاهد القوى من آيات الله سبحانه وتعالى على هذا التحديد السابق لمعنى الارض باعتبارها عالم السيادة للانسان والجان سواء فى الدنيا أو الاخرة ، هو قول أهل الجنة فيما يخبرنا الله عنهم (وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده ، وأورثنا الارض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين — الزمر ٧٤) • وذلك لان السعداء بدخولهم الجنة قد ورثوا الارض بمعناها العام الشامل وهو العالم الخاضع للمخلوق فى ملك الله الخاضع له وحده • ولذلك فان ما ورد فى القرآن الكريم والاثار النبوية الصحيحة عن الوجود الانسانى فى الجنة ، ايدل دلالة واضحة صريحة على أن أهلها ليسوا سوى ملوكا حقيقيين باذن ربهم ، ونكتفى من هذا الكثير بقوله تبارك وتعالى فى وصفهم (واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا — الانسان ٢٠) • بينما نجد فى الجانب الاخر الخاسرين فى ابتلاءاتهم ، فريق السعير ، قد خسروا أرضهم أى ملكهم الذى كان قد أعده الله لهم فى حالة نجاحهم ، بل خسروا أنفسهم أيضا وأصبحوا مملوكين معذبين لا مالكين (ونادوا يا مالك ، ليقض علينا ربك ، قال : انكم ماكثون — الزخرف ٧٧) • وما يبدو واضحا هو ما فى اسم خازن النار من دلالة على حال أصحابها ، الذى أصبحوا فيه مملوكين ماكثين فى العذاب المهين ، وهو

عكس حال أصحاب النعيم والملك ، ذوى المشيئة الحرة الذين قال فى حالهم ربهم (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد ــ ق٣٥)

المفاهيم القرآنية الاربعة : الفطرة والامانة والخلافة والابتلاء :

ومن ثم فانه من الواضح وجود التداخل الشديد بين مفهومات المصطلحات القرآنية الاربعة والترابط القوى بينهم ، ونعنى بها الابتلاء والامانة والخلافة والفطرة ، ومفهوم الحرية الذى لا يمكن معرفته بدون تحديد هذه المفاهيم ، حيث انها تمثل الجذور العميقة للحرية الانسانية ، أو تعتبر ــ بحق ــ الاسس العقيدية الحرية .

الابتلاء هو الحكمة القصوى والنهائية التى من أجلها خلق الله السماوات والارض والانس والجن فى الحياة الدنيا .

والامانة هى موضوع هذا الابتلاء ، وخاصية الانسان التى تفرده عن بقية الكائنات وتميزه بالخلافة عليها ، وهى النفخة الالهية الكريمة المتلابسة بالطين .

والخلافة هى النموذج المثالى للوجود الانسانى فى الحياة الدنيا والذى يجب على البشر تحقيقه أفرادا وجماعات .

والفطرة هى امكانية تحقيق هذا النموذج ، والبذور الكامنة فى أعماق النفس البشرية للخير ومن ثم فالتكليف هو التعليمات والنصائح التى اذا نفذها الانسان حقق الخلافة وأدى الامانة .

والذات الانسانية العالمة ، والمريدة باختيار ، والمستطيعة هى أثر النفخة الالهية الكريمة فى الوجود البشرى . والحرية هى وسيلة هذه الذات لتحقيق الخلافة .

وآية الخلافة السابقة الذكر ، يكمن فيها كل مقومات الخلافة ، وبتعبير آخر كل مقومات الحرية لدى الانسان ، فقول الملائكة لله (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) يعنى فعل الانسان

الشر ، وهذا لازم من لوازم الحرية ، ذلك أن معنى الاية هو ان الله سبحانه سيجعل على الارض مخلوقا يكون من أعماله سفك الدماء والفساد ، وليس كل أعماله ذلك .

فمعلوم بالضرورة والواقع ان الانسان يفعل الخير بجانب ارتكابه الشر ، وهذا دليل الاختيار ، ، فالاختيار اذا ، هو المقوم الاول من مقومات الحرية الانسانية ، والمقوم الثانى هو الاستطاعة على اتمام الفعل الذى يختاره الانسان ، وهذا ثابت ولازم من لوازم الخلافة ، ذلك ان خلافة الانسان لله فى الارض على ما دونه من الكائنات ، تعنى تسخير هذه الكائنات وتطويعها لقبول فعل الانسان وتأثيره فيها ، ثم أن قولهم (من يفسد فيها ويسفك الدماء) يعنى نسبة الفعل اليه حقيقة وهذا اثبات للاستطاعة والقدرة الانسانية على الفعل بالتسخير المذكور بجانب الفاعلية البشرية .

أما المقوم الثالث من مقومات الحرية ، المتضمن فى معنى الخلافة ، فهو المعرفة الانسانية ، وهذا ثابت فى قوله (وعلم آدم الاسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا ، أنك انت العليم الحكيم ـ البقرة ٣١) . والاسماء تعنى الاشياء والكائنات والطبائع والماهيات والنواميس والقوانين وكل ما يلزم للانسان معرفته والعلم به لتحقيق خلافته واستمرار حياته على الارض .

هذه المقومات الثلاثة للحرية الانسانية فى القرآن ، تقوم بحقيقة ضخمة هائلة منتشرة ومتخللة بين آياته من أولها الى آخرها ، بها يبرز الكيان البشرى على الارض واضحا جليا مفهوما ، محدد الجوانب ، واضح السمات ، معقول المقومات والنتائج ، أعنى بها حقيقة الابتلاء .

فحقيقة الابتلاء هى التى تقدم لنا معنى الخلافة، ومفهوم الحرية، بمقوماتها الثلاث : الاختيار والاستطاعة والعلم ، بلا تناقض ولا اختلاف بينها وبين بعضها من ناحية ، وبينها وبين المشيئة الالهية والخلق الالهى والعلم الالهى من ناحية أخرى ، كل ذلك فى بناء محكم متكامل متناسق متوازن •

ولخطورة هذه الحقيقة وأهميتها ولتحديد موقف الانسان وتوضيح مفهوم الحرية عنده ، سنحاول ذكرها بشىء من التفصيل وهذا هو موضوع الفصل القادم باذن الله تعالى •

الفصل الثالث

لماذا خلق الله العالم ؟
ولماذا خلق الله الانسان ؟

هذان سؤالان يتحتم على كل نسق فلسفى أو دينى ــ أيا كان اتجاهه وصبغته وسمته ومنهجه وعصره ــ ان يجيب عليهما • بل انهما ليعتبران ــ بحق ــ من أخطر الاسئلة التى ينبغى أن يناقشها ويقدم الاجابة المقنعة عنها • ذلك ان الاجابة على هذين السؤالين ، انما تشكل المحور الاساسى الذى تدور حوله الانساق الفلسفية والتصورات الوجودية • ان موضوع السؤال هو علاقة الله بالخلق ، وهذه العلاقة هى نقطة الارتكاز فى كل فكر أو دين ، حيث هى التى تعلل السابق من الافعال والاحداث الكونية ، وتحدد اللاحق من تلك الافعال • انها حلقة الاتصال بين القديم والمحدث ، وهمزة وصل الازل بالابد •

وفى مجال الفكر الاسلامى وقف المتكلمون فريقين متقابلين ، يقابلهما الفلاسفة الاسلاميون كفريق ثالث حيال الاجابة على هذا السؤال • فأثبتت الفرقة الاولى من المتكلمين الغاية من الخلق والغرض من وجود العالم[1] فجوزوا للانسان سؤاله عن هذا الغرض وتلك الغاية ، وأباحوا مناقشة هذه القضية • ثم قدموا الاجابة على السؤالين دون أن يثبتوا لله الحاجة من الخلق ، حيث هو عندهم ليس بذى غاية لذاته فيتناهى ، فأثبتوا لفعله تعالى الغرض العائد على العباد والخير والنفع المطلوب لهم ، أما هو فقد تنزه عن الغرض وجلب النفع ودفع الضرر •

---

(١) هم المعتزلة وسيأتى الحديث عن مذهبهم فى الحرية والقضاء والقدر تفصيلا فى الجزء الثانى باذن الله تعالى •

والفـرقة الثـانية رفضت أن تعلل وجود الخلق بعـلة من دون المشيئة الالهية المطلقة (١) اعتمادا على أنه تعالى فعال لمـا يريد ، ولا يسأل عما يفعل ، وغيره يسأل عن فعله • وقالوا ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن • وذلك لانهم فى المجال الفيزيقى رفضـوا أن يكون لكل فعل ولكل حركة غاية وسبب حيث أنهم ينكرون وجوب المعلول عن العلة ، وذلك حتى لا ينسب الى الله تعالى (اللمية الزائدة) (٢) فأثبتوا لله القدرة والمشيئة ووقوع أفعاله دون مرجـح أو داع من دونه • ومن ثم رفضوا باتـا الاجابة على السؤال المطـروح ومناقشة هذه القضـية •

أما الفريق الثالث فى الفكر الاسلامى ، فهم الذين يسمون أنفسهم بالحكماء أو فلاسفة الاسلام • وهؤلاء رفضوا قول الفـرقة الثانية من المتكلمين ، وذهبوا مع الفرقة الاولى الى أنه يتعـين البحث عن اجابة لهذين السؤالين، حيث أنه لا يوجد موجود الا وله غاية عندهم• فأوجبوا حدوث المعلول عن علته فى الطبيعة ، ولكنهم اختلفـوا مع هذا الفريق من المتكلمين بالنسبة للغرض والغـاية من الخلق ـ أى مع الفريق الاول ـ فنفوا أن يكون لله فى فعـله غرض سواه • بيد أنهم سلبوا الفاعليـة عن الاله حتى لا ينسبوا اليه غرض أو هدف ، وقالوا انه علة غائية وليس علة فاعلية • ومن ثم قالوا بقدم العـالم وعدم عناية الاله به • أى أن الفلاسفة يقولون أن ذاتـه هى غرض الاغراض وغاية الغايات ونهاية الطلبـات والاشواق ، لكـونه علة العلل • بمعنى أنهم يثبتـون للموجودات الجزئية أغراضـا وغايات وكمالات تترتب وتنتهى اليه سبحانه وتعالى • فخالفوا الفريق الثانى

---

(١) هم الاشاعرة ويتضمن الجزء الثانى بابا عن مذهبهم ومنهجهم الفكـرى •

(٢) أى السؤال عن فعـله « بلم » ، صـدر الدين الشيرازى / الاسفار الاربعة ص ٦٢٣ طبعة حجرية نسـخة مكتبة بلدية الاسكندرية •

من المتكلمين الذى رفض باب التعليل مطلقا بشىء سوى المشيئة والقدرة كما خالفوا أيضا الفريق الاول حيث جعلوا العلة غاية غير ذاته . (١)

ذلك هو قول الناس فى هذه المسألة . ولكنا نتناسى ذلك تماما . ونقبل على كتاب الله سبحانه نستلهمه الاجابة على السؤالين المذكورين حسب منهجنا فى البحث فيه .

ان القرآن الكريم لا يثبت عالما واحدا أو كونا واحدا . وانما يثبت وجود عالمين وكونين ، الاول هو عالم الغيب والثانى هو عالم الشهادة . كما أنه بالنسبة للوجود البشرى يثبت وجودين وحياتين . الأولى : الحياة الدنيا ، والثانية الحياة الاخرة . ومن ثم ينبغى أن نجد الاجابة التى تعلل وجود العالمين والحياتين . وقبل أن نجيب على ذلك يجب أن نحاول معرفة جواز طرح هذا السؤال من عدمه .

الحقيقة أننا اذا تساءلنا عن سبب خلق الله سبحانه للمخلوقات ؟ نكون قد أخطأنا أو تجاوزنا حدودنا كبشر وعبيد لله سبحانه . تلك هى النظرة القرآنية فى المسألة بل ان القرآن يدعونا للتفكر فى هذا السؤال . وذلك عن طريق التأمل الصحيح فى مخلوقات الله وما عليه الكون من دقة واتقان ونظام . مما يجعل الانسان العاقل يوقن بأن وراء هذا الكون العظيم المنظم حكمة فى وجوده ، وأنه لم يخلق عبثا .

حقيقة أن الله فعال لما يريد ، وانه لا يسأل عما يفعل ، وحقيقة أن القرآن يثبت لله تلك المشيئة المطلقة النافذة فى الكون . ولكن مجرد طرح هذا السؤال بنية البحث عن الحكمة النافعة لنا نحن البشر —

---

(١) المصدر السابق ص ٦٢٣ ، ٦٢٤ .

وليس على سبيل الاعتراض على فعل الله ومشيئته ــ جائز ولا غبار عليه . بل هو من الواجب على الانسان فعله (ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات لاولى الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ــ آل عمران ١٩١). ان العالم المخلوق بنظامه وجماله ودقته وهوله وعظمته ليدل دلالة قاطعة على أنه لم يخلق باطلا . وما كان وجوده غير باطل فان لوجوده حكمه ، هى عين الحق والعدل . بل ان الله سبحانه يخبرنا أيضا أن السماوات والارض لم يخلقهما من قبيل اللهو ، فقد تنزه عن ذلك . وانما خلقهما لامر جد وليس بالهزل . (وما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثر الناس لا يعلمون ــ الدخان ٣٨ ــ ٣٩) . ويؤكد ذلك قوله أيضا (ما خلقنا السماوات والارض وما بينهما لاعبين ، لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين ــ الانبياء ١٦ ــ ١٧) .

للخلق اذا حكمة فى علمه سبحانه ، ومشيئته ــ وان كانت مطلقة ــ الا أنه لا يشاء بها خلق الشيء عبثا وانما يخلقه لحكمة وأمر جد . وهذا الامر الجد البعيد عن اللهو والعبث من أجله خلق سبحانه الحياتين : الحياة الدنيا والحياة الاخرة . فليس الوجود هو هذا الوجود البشرى الحالى فقط ، والا أصبح وجودا ناقصا لا معنى له . ومن ثم كان هنالك وجود آخر بعد هذه الحياة الدنيا (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون ؟ . فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم ــ المؤمنون ١١٥ ــ ١١٦) .

كل ذلك يجوز لنا البحث عن الحكمة من خلق الدارين . الاولى والثانية ... فما هى الحكمة كما يثبتها القرآن الكريم ... ؟

لا شك أن لهذا العالم وعلى قمته الانسان غاية يسير اليها ، كما يمكن القول أن غاية العالم التى تتحقق فى نهاية مرحلته الوجودية الاخيرة . هى الحكمة التى من اجلها خلق الله الخلق جميعا .

ان الخلق كفعل لله سبحنه وتعالى انما يدلنا على صفاته العلية . كما أن صفات الله التى أخبرنا عنها الوحى تدلنا كذلك على الخلق والحكمة منه . ان الله سبحانه قد أخبرنا فى هذه الايات الكريمة السابقة أنه تنزه عن اللهو والعبث وذلك لان من صفاته تعالى الحكمة . فما دام الله حكيم فلابد أن تكون أفعاله كلها لحكمة ، ومن ثم فهناك حكمة من خلق العالم . ان صفات الله سبحانه هى الدالة لنا على سبب الخلق بعامة وعلة وجود الانسان بخاصة . لقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى بصفاته لندرك ذلك ولكى نستشعر عظمته وعلمه وعظيم سلطانه وقوته وجبروته ورحمته فيكون تعاملنا معه من خلال صفاته العلية فنرهبه وندعوه ونخافه ونحسن الظن به وغير ذلك ، تلك هى الحكمة من اخبارنا بصفاته ، ندرك بها علة الخلق وغاية العالم ، والحكمة من ايجاده ، فيمدنا كل ذلك بالتصور الصحيح عن الوجود . كما نستشعر الرهبة من عذابه ونستبشر بالامال فى رحمته وغفرانه ، فيكون ذلك مقوما لسلوكنا وافعالنا .

أما متكلمو الاسلام ، فقد ضلوا الطريق ، حين استهدفوا صفات الله بالبحث فى علاقتها مع ذاته ، فطرقوا بابا مغلقا ، وطريقا مسدودا ومنهجا وعرا . يجادلون فى الله وهو شديد المحال . ولم يصلوا بذلك الى نتيجة مجدية أو ذات تأثير على سلوك الانسان أو محققه لهدفه فى الوجود الدنيوى والاخروى . فوق انهم خسروا الحكمة والفائدة التى من اجلها اخبرنا الله بصفاته فى القرآن . وقد جعل المتكلمون بذلك الله موضوعا لبحثهم ، وأنى للعقل البشرى ان يصل الى حقيقة خالقه ، تعالى الله وتنزه عن أن يكون موضوع بحث يطرح امام العقل البشرى .

والصفة الالهية الاولى التى تحدد بها علاقة الله سبحانه بالمخلوقات هى صفة العطاء ، فمن أسمائه الحسنى : العاطى والمعطى •

ولقد أخبرنا الله فى كتابه انه كريـــم ، جواد ، وكرم الله وجوده ـــ كسائر صفاته ـــ يتناسب مع عظيم سلطانه ، وجلال وجهه •

ان علاقة الله سبحانه وتعالى بخلقه جميعـــا تتمثل أول ما تتمثل فى العطاء ، وتتمثل آخر ما تتمثل ، فى العطاء أيضا • ولقد حاول فرعون أن ينتهج نهجا فكريا خاطئا ، لتضليل من حوله ، فسأل موسى وهارون (قال : فمن ربكما يا موسى ـــ طه ٤٩) وذلك سؤال من فرعـــون عن الله وكأنه يسأل عن ذاته فما كان من موسى الا أن أجاب اجابة توضح العلاقة بين الله وخلقه معرضا عما طلب فـــرعون لانه ليس فى طـــاقة مخلوق من البشر أو غير البشر (قال : ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ـــ طه ٥٠) • ومن ثم يمكن القول أن الله اعطى لكل شىء ماهيته ، وهداه الى فعله ؛ فوجود الشىء المخلوق وفعله وتأثيره عطـــاء من الله عز وجل ، والانسان شىء مخـــلوق ، ولكنه تميز عن ســـائر المخلوقات بعطاء الهى خاص ، لقد أعطى الله عز وجل لكل مخلوق وجوده وماهيته ، ولكنه سبحانه وتعالى أعطى للانسان وكرمه بأكثر من الوجود وبما هو فوق وأعلى من ماهيته البشرية •

ان صفاته سبحانه مطلقة ومن ثم يكون عطـــاؤه بدون حد أو نهاية فى كمه وكيفه • وقد سبق القول منذ قليل أن الغاية من وجود العـــالم أو الحكمة التى من أجلها خلقه الله تعـــالى ، انما تتمثل فى العـــلاقة الاخيرة بين الخالق والمخلوق • أعنى الفعل النهـــائى الذى يمد الله به العالم ، فاذا استعرضنا القرآن الكريم بمنهج احصائى شامل ، وجدنا تلك الايات الدالة بوضوح وجلاء على الفعـــل الالهى الاخـــير الدائم للعالم المخلوق حيث يقول سبحانه (ان فى ذلك لاية لمـــن خاف عذاب الاخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود • وما نؤخـــره

ألا لأجل معدود • يوم يأت لا تكلم نفس الا بأذنه ، فمنهم شقى وسعيد • فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق • خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض الا ماشاء ربك ان ربك فعال لما يريد • وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والارض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ــ هود ١٠٣ ــ ١٠٨) •

وهكذا يثبت القرآن أن العالم سينتهى على عطاء من الله، غير مجذوذ أو مقطوع ، لعباده المؤمنين من الانس والجن • ويؤكد هذه النتيجة العديد من الايات التى تتحدث عن خلود أهل الجنة فى النعيم والملك الدائم الابدى ، ولكننا آثرنا ذكر هذه الايات السابقة لانها تبين فعل الله سبحانه الاخير الدائم الخالد لعباده • انه العطاء اللا نهائى كما وكيفا • ولكن لا يعنى ذلك أن العطاء الالهى لا يكون الا فى الاخرة ، ذلك أن العطاء من الله منذ بدء الخلق ، بيد أن العطاء فى الدنيا يختلف عن العطاء فى الاخرة بان الاول محدود مجذوذ كما وكيفا •

فالحياة الدنيا تختلف عن الوجود الاخروى الخالد من حيث أنها مؤقته وفانية ومليئة بالشر والظلم والالم ، مما يجعلنا تحت وقع سؤال ملح وحتمى وهو أنه اذا كان الله سبحانه وتعالى جواد عطاء ، واذا كان الله كما يخبرنا عن صفاته فى القرآن غنى لا تنفد خزائنه ، قادر بل على كل شىء قدير ، رحيم رؤوف رحمن فلم جعل الاولى والاخرة ؟ ولم لم يخلق الانسان بادىء ذى بدء فى جنته الخالدة ، وعلاقته النهائية به حيث العطاء الدائم ؟ •

ولكى نعرف اجابة هذا السؤال الهام ، ينبغى علينا أن نعود مرة ثانية لمعرفة صفاته والنظر اليها جميعا فى آن واحد، اذا أردنا أن نعرف الحكمة التى من أجلها شاء الله أن يوجد الانسان فى دارين ، وما هى علة وجود الدار الاولى وغايتها التى تسير لتحقيقها ؟

ان الله سبحانه يخبرنا أنه فعال لما يريد ، فمشيئته مطلقة ، وذلك حق • بيد أنه تعالى أيضا حكيم ، ومن ثم فانه اذا شاء شيئا ، فانما

يشاؤه لحكمة • وقد علمنا أن الله خلق الوجود المخلوق أوله وآخره اجمالا لانه كريم جواد عطاء معطى ، فما الحكمة من وجود هذه الحياة لنيا ؟ •

لقد شاء الله حقا أن يعطى لأنه كريم ، ولكن لان الله عادل ، فقد شاء أن يكون عطاؤه قائما على العدل ، وذلك لان صفاته تعالى تفسير لنا خلقه كما أن خلقه سبحانه يهدينا الى صفاته • وهو سبحانه عندما يعطى بعض خلقه ملكا ونعيما ، فانما يملكه على البعض الاخر من خلقه ، ذلك لان الجنة بما فيها من أنهار وغرف وحور عين وفواكه وأشجار وما الى ذلك انما هى خلق من خلق الله ، فلو خلق الله الانسان والجان وأسكنهما الجنة وسخر لمتعتهما بقية المخلوقات ، لتعارض ذلك الفعل مع صفة من صفاته تعالى ونعنى بها العدل • حقا ان الله فعال لما يريد ولا راد لمشيئته ولكنه تعالى لا يشاء الا ما هو حكيم من الافعال كما أنه لا يفعل الا ما هو عدل ، وقد أخبرنا سبحانه فى الحديث القدسى (يا عبادى : انى حرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ، فلا تظالموا ...) (١) •

ومن ثم عرض الله سبحانه الامانة على السموات والارض والجبال ، أى أنه عرض عليهم سر ومؤهل الملك الخالد لمن يريده • الا أنه جعل للحصول على هذا الملك شرطا ، وهو الدخول فى امتحان أو مسابقة أو منافسة أو تجربة ابتلائية ينال الفائز فيها هذا الملك على أن يعذب فى جهنم اذا خسر المسابقة • لقد شاء الله ألا يكون الحصول على هذا الملك العظيم الخالد الا بحمل سر الخلود ، أى النفخة الالهية الكريمة ، حيث هى المؤهل لذلك الملك الدائم ومن ثم عرضها على جميع المخلوقات فمن قبلها منهم صار انسانا كما مر بنا • وخلق لذلك الحياة الدنيا دارا للابتلاء يختبر فيها الانسان فاذا بدد الامانة حرم من الملك الخالد بفقده

---

(١) رواه مسلم عن ابى ذر عن النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل •

لمؤهل ذلك الملك • واذا صانها وعاد بها كما هي أستحقه جزاء وفاقا من ربه وعطاء حسابا ولكن بين العطاء الاول ، ونعنى به اعطاء الوجود للمخلوقات واخراجها من العدم ، وبين العطاء الاخير وهو هبة الملك الخالد الابدى لمن يثبت بالتجربة الابتلائية استحقاقه لهذا الملك ، نقول: بين العطائين يوجد عطاء وسط وهو عطاء الدنيا، يعطى الله عز وجل فيها لكل شىء مخلوق ما هيته وفعله الذى حدده الله له ، ويعطى للانسان ماهيته وفعله الذى يختاره هو — أى الانسان — ويتحدد على اساسه مصيره الاخروى •

وعطاء الدنيا يختلف عن عطاء الاخرة ، وذلك لان الحكمة من خلق الدنيا تختلف عن الحكمة من خلق الاخرة كما تختلف عن الحكمة من خلق العالمين ابتداء • فبينما يعطى فى الاخرة لانه كريم جواد ، فانه عز وجل يعطى فى الدنيا تحقيقا للحكمة من خلقها وهى الابتلاء ، ومن ثم يعطى الخير وامكانية فعل الخير لمن يختار الخير طلبا للاخرة وسعيا لها ، كما أنه عز وجل يعطى امكانية فعل الشر والمعصية لمن يريد الشر ويختار المعصية طلبا للدنيا ، يقول الله عز وجل (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا • ومن أراد الأخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا • كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا — الاسراء ١٨ — ٢٠) •

ان كرم الله سبحانه استوجب منه العطاء الخالد • وعدله استوجب منه اجراء الابتلاء بين من يريد دخول المسابقة • أى أنه خلق الخلق من أوله الى آخره بداريه لانه كريم ولكنه جعل الاخرة مترتبة على الاولى لانه عادل • فبعدله خلق النار ، لان المنافسة بين العباد والابتلاء لهم يستلزم أن يختلف الناس (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين — هود

١١٨ ــ ١١٩) • أى أن الله خلقهم فى الدنيا للابتلاء ممـــا يستلزم الا يكونوا أمة واحدة ، وأن يكونوا مختلفين ، فريق مع الحـــق وفريق مع الباطل بأنواعه ، ومن ثم خلق الله النار جزاء وفاقا لهم •

ان النار ــ كما يصورها لنا القرآن ــ أنسب دار للعذاب ــ حيث جعلها الله بطبيعتها ونواميسها وطبيعة أهلها على أفضل وجه ممكن لتحقيق غايتها • فاذا احترقت جلودهم بدلهم جلودا غيرها ، واذا جاعوا وتعذبوا بالجوع أطعمهم من شجرة الزقوم ليتعذبوا أيضا بالشبع • واذا عطشوا وتعذبوا بالعطش ، سقاهم من ماء الحميم يغلى فى بطونهـــم ليتعذبوا أيضا بالسقاء ، وهم لا يموتون فيها ولا يحيون • لان الموت يريحهـــم من العذاب والحياة أفضل مما هم فيه •

ان الله سبحانه يخلق النار أو الجنة أو العالم أو الشىء الجزئى ــ محققا كأفضل ما يكون التحقيق ــ للحكمة التى خلق من أجلها الشىء ولذلك فان الجنة أفضل دار ممكنـــة للنعيم ، والنار أنسب دار ممكنـــة للعـــذاب •

وكذلك الحياة الدنيا لابد أن تكون أفضل دار ممكنة لتحقيق الغـــاية من وجودها والحكمة التى شاء الله أن يوجدها من أجلها •

ان الحكمة هى الابتلاء والحياة الدنيا بسماواتها وأرضها وانســها وجنها هى أفضل دار ممكنة لتحقيق الابتلاء للانس والجن ، وليس ذلك تأويلا منا أو استنتاجا من كتاب الله ، ولكن ذلك ما تحدثنا به الايات المحكمـــات •

ان الحكمة القصوى والاخيرة من خلق الكون بعامة ، وخلق الاخرة بخاصة هى العطاء أما الحكمة الاولى من خلق الكون بعـــامة ، وخلق الحياة الدنيا بخاصة فهى الابتلاء (وهو الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على المـــاء ، ليبلوكم أيكم أحسن عمـــلا ــ هود ٧) • والانســـان هو الكائن المبتلى الذى من أجـــله جعلت دار

الابتلاء ابتداء (هل أتى على الانســان حين من الدهر لم يكن شــيئا مذكورا ، أنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعا بصيرا ـ الانسان ١ ـ ٢) • ومن ثم اتفقت غاية وجــود السماوات والارض مع غاية الوجود الانسانى ، فجاءت كيفية الحياة فى الارض بالنسبة للبشر ولبقية الاحياء ، كما جاءت ماهيــات الاشياء ونواميس العالم محققة لهذه الغاية •

فعلاقة الانسان بالزمن المتمثلة فى مراحله الوجودية التى يعبر فيها موتين وحياتين ، ووجود الموت والحياة على الارض ، وما يستتبع ذلك من كيفيات معينة فى تركيبها ، وفى ماهية البشر ، وتكوينهم الجسدى ، انما هو التحقيق هذه الغاية (تبارك الذى بيــده الملك وهو على شيء قدير • الذى خلق الموت والحيــاة ليبلوكم أيكم أحسن عمــلا • وهو العزيز الغفور ـ الملك ١ ـ ٢) •

كما تعلل ايضا حقيقة الابتلاء وجود عالم الغيب وعالم الشــهادة بالنسبة للانسان فوجود عالم مغيب عن الانسان يعنى أنه يحيا تحت غطاء كونى يحجب عنه ما حــوله وما فوقه من عوالم غيبيــة وكائنات خارجة عن مجال احساسه ومداركه وقواه • وهذا الغطاء الكونى هو الذى يحدد ماهية الانسان أثناء وجوده البشرى على الارض ، ويفسر قصور أجهزة الادراك التى يمتلكها، فهو ان كان مخلوقا عارفا ومدركا ، الا أن اداركه العلمى اليقينى قاصر على العالم المحسوس فقط ، وما ذلك الا تحقيقا لحكمة الابتــلاء أيضا •

فالابتلاء بمعنى الامتحان والاختبار يقتضى وجــود عالم غائب عن الانسان • فليس من المعقول أن يكون على الارض ابتلاء ، والانسان المبتلى يســتطيع أن يــرى النار وعذابهــا أو يحسها أو يســمع صراخ المعذبين فى القبور ، وليس ذلك قاصرا على الانسان فقط بل انه يشمل الجان أيضا باعتباره المخلوق المبتلى مع الانســان فى الارض •

وبرهان ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان العبد اذا وضع فى قبره ، وتولى عنه أصحابه ، وأنه ليسمع قرع نعالهم • أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت تقول فى هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم • فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : أنظر الى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، فيراها جميعا قال قتاده : وذكر لنا أنه يفسح فى قبره • ثم رجع الى حديث أنس فقال : وأما المنافق والكافر فيقال له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ، فيقول : لا أدرى كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال : لادريت ولا تليت ، ويضرب بمطارق من حديد فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين) (١) • والشاهد فى هذا الحديث ، أن كل الكائنات الحية على الارض تسمع صيحة المعذب ، الا الانس والجن ، لانهما المخلوقان المبتليان على الارض ، أما ما عداهما من الاحياء فليسوا واقعين تحت الابتلاء ، ولم يخلقوا له ، ومن ثم فانهم يعيشون بغير هذا الغطاء الكونى الذى يمنع عن الثقلين معرفةالامور الغيبية التى تقع فى الارض، كصراخ المعذبين فى القبور ، وكرؤية الملائكة المحيطة بالانسان ورؤية الشياطين الملتفة حوله لانه لو حدث ذلك للانس والجن لامنوا جميعا ، وما كان هناك فضل منهم ولا مبادرة ولا اجتهاد لمجتهد يستحق عليه الثواب ، ولما تبين الظالم من المحسن حيث سيكون ايمانهم جميعا كنتيجةمباشرة لاطلاعهم علىهذه الامور الغيبية• ولذلك فانهذا الغطاء يرفع عن الانسان بمجرد انتهاء فترة الابتلاء الخاصة بالمخلوق المبتلى فيقال له حين ذاك (لقد كنت فى غفلة عن هذا ، فكشفنا عنك غطاءك ، فبصرك اليوم حديد — ق ٢٢) • كذلك لم يكن الله سبحانه وتعالى ليرسل ملائكة للبشر كمنذرين ومبشرين ومعلمين لهذا السبب أيضا فأرسل سبحانه اليهم بشرا • حيث أن الملائكة منعالم الغيب وظهورهم للبشر يتعارض مع حقيقة الغطاء الكونى التى جعلها الله للابتلاء

(١) البخاري — الصحيح — كتاب الجنائز باب ٨٩ .

(وقالوا : لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا ، لقضى الامر ثم لا ينظرون • ولو جعلناه ملكا ، لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم مايلبسون — الانعام ٨ — ٩) • فلكى يتم الابتلاء ، ولكى يختبر الله سبحانه وتعالى البشر بالرسل ، لابد أن يكون الرسل بشرا مثلهم ، يعرضون عليهم حقائق الغيب والاخرة ، ويطلبون منهم أن يؤمنوا بربهم وبهذه الحقائق • أما اذا أرسل اليهم ملكا من السماء ، لا نتفى الابتلاء ، واستحال قيامة ولذلك قال (ولو جعلناه ملكا ، لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليهم ما يلبسون) • أى أن الله اذا شاء أن ينزل اليهم ملكا رسولا لانزله فى صورة البشر وللبس عليهم حقيقته تحقيقا للابتلاء •

وفى هذا المعنى يقول أيضا سبحانه وتعالى فى موضع آخر (وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟ قل : لو كان فى الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا — الاسراء ٩٤ — ٩٥) • أى أنه يلزم تحقيقا للابتلاء أن يكون الرسل من نوع المرسلين اليهم •

وقصور العلم البشرى عن ادراك المستقبل من لوازم الابتلاء ، كما يفسر الغطاء الكونى هذا القصور ويعلله (ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى — طه ١٥) • ومنها اخفاء أجل وانتهاء حياة العبد (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت — لقمان ٣٤) •

ولكن أجهزة الادراك البشرية — وان كانت قاصرة عن ادراك عالم الغيب — الا أنها مهيأة ومكيفة لادراك عالم الشهادة ومعرفته معرفة تكاد تكون يقينية • ان ما منحه الله للانسان من امكانات المعرفة وأجهزة الادراك ، انما هو للابتلاء أيضا (ولا تقف ما ليس لك به علم، ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا — الاسراء ٣٦)• كما يقول أيضا مبينا أن الله جعل الانسان سميعا بصيرا تحقيقا للابتلاء

(انا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعا بصيرا — الانسان ٢) .

كما جعل الله سبحانه وتعالى الجوانب العاطفية والشهوية والميول والاهواء والرغبات ، وحب الاموال والقوة والجاه والسلطان ، وكل ما يجلب السراء والمتع والبهجة جعل كل ذلك للانسان من جانب ، جعل فى الطبيعة من المخلوقات المسخرة لتحقيق هذه المباهج والمتع ، وجعل كل ذلك لاقامة الابتلاء على الارض . كما جعل الله فى طبيعة الانسان كذلك الالم والشقاء والمرض والجوع والحزن والخوف من جانب ، وجعل فى الجانب الاخر من الحياة فى الارض ومن أحداثها وناموسها ما يسبب له ذلك كله ، وذلك للابتلاء أيضا ، أما عن طبيعة البشر وماهيتهم التى جعلها الله بهذه الكيفية حيث يؤدى كل ذلك الى قيام هذه الحقيقة الكبرى فيخبر عنها القرآن بقوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب — آل عمران ١٤) . كما يقول أيضا (واعلمو انما أموالكم وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم — الانفال ٢٨) . وأما عن طبيعة الارض وما عليها وكونها مخلوقة لتتوافق مع طبيعة البشر فى تحقيق ابتلائهم فيقول الحكيم العليم (انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا — الكهف ٧) . كما تفسر لنا حقيقة الابتلاء الحكمة التى من أجلها زودت النفس البشرية بالميل الى الشر والخير سواء (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها — الشمس ٧ — ١٠) ومن ثم فحياة الانسان من أولها الى آخرها تهدف فى جزئياتها وكلياتها للابتلاء وتؤدى اليه (لقد خلقنا الانسان فى كبد — البلد ٥) .

ولقد كانت مشكلة الشر ، هى المشكلة العويصة المستعصية أمام كل نسق فلسفى فى أى فكر بشرى ، وما رأينا نسقا من هذه الانساق

يقدم لنا الحل المقنع والنهائى مثل النسق القرآنى القائم على حقيقة الابتلاء • فوجود الخير والشر فى الحياةالدنيا يعترضان سبيل الانسان، انما هو بأمر الله وقدره ومشيئته ، تحقيقا لهذه الحكمة أيضا (ونبلوكم بالخير والشر فتنة • والينا ترجعون ــ الانبياء ٣٥) • ذلك ان وجود الشيطان ــ سواء شيطان الانس أو الجن ــ كداعى للشر فى الحياة ، فوق أنه كان كذلك نتيجة فشله فى ابتلائه ، فقد جعله الله كذلك ومكنه من الوسوسة والايعاز بالشر للفتنــة والابتلاء أيضا ودليل ذلك قوله (ليجعل ما يلقى الشيطان فتنــة للذين فى قلوبهــم مرض والقاســية قلوبهم ، وان الظالمين لفى شقاق بعيد ــ الحج ٥٣) • والفتنــة هى الابتلاء الشديد ، أى أن الله سبحانه مكن الشيطان من وسوسته وايعازه بالشر فى قلوب الناس جميعا حتى يتبين الذين فى قلوبهم مرض ويتبين المؤمنــون • اما الذيــن فى قلوبهــم مرض فيفتنهــم الشــيطان بايعازه ووسوسته وأما الذين آمنوا فليس للشياطين عليهم سلطان • بدليل قوله تعالى (ولقد صدق عليهم ابليس ظنه ، فاتبعوه الا فريقــا من المؤمنين ، وما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالاخرة ممن هو منها فى شك ، وربك على كل شىء حفيظ ــ سبأ ٢٠ ــ ٢١) • أى أن ما جعله الله من امكانات للشيطان انما جعله له لابتلاء الناس والجن ، حتى يستبين المؤمن من الكافــر • ومن ثم ذكر الله فى آخــر الاية أنه على كل شىء حفيظ لان ما أعطاه للكافر أو الشيطان من قوة وسلطان انما هو بأمره تحقيقا للابتلاء ، وذلك يؤكد ما سبق أن ذكرناه عن حقيقة الشــيطان من أنه صار كذلك نتيجة لابتــلائه ، كما أن الله شاء ذلك للابتلاء به •

فاذا تساءلنا عن الحكمة التى من أجلها جعل الله الانسان خليفــة وجدناها أيضــا الابتلاء • (وهو الذى جعــلكم خــلائف الارض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ، ليبلوكم فيما آتاكم ان ربك سريع العقاب ، وانه لغفور رحيم ــ الانعام ١٦٥) • كما يقول أيضا (ثــم

جعلناكم خلائف فى الارض من بعدهم لننظر كيف تعلمون ـ يونس ١٤) • فبين أن توارث السلطان وامامة البشرية وخلافة الله فيها انما هو الابتلاء حيث ينظر الله كيف يعملون حيال ذلك •

كما تعلل حقيقة الابتلاء أيضا كون الانس والجن أحرارا • فاذا تساءلنا عن الحكمة التى من أجلها جعل الله السلوك الخلقى نابعا من ذات الفاعل ، وجدنا أن ذلك أيضا الابتلاء • فالابتلاء بمعنى الامتحان والتمحيص هو دخول الانسان موقفا معينا من شأنه أن تكون نتيجته فعلا خلقيا اختياريا للكائن المبتلى ، حتى يتحمل الجزاء المترتب على سلوكه وعلى الاثار الناجمة عن موقفه الحر من التجربة الابتلائية •

وكما أن ذات الانسان الفرد مخلوقة بماهية تسمح بقيام حقيقة الابتلاء وسريانها عليه فى حياته كلها ، وذلك باعتبارها الغاية القصوى لوجوده فيها ، فان وجوده الاسرى والاجتماعى والدولى والحضارى يؤدى الى ذلك أيضا • فالظواهر والنظم الاجتماعية القائمة بين الناس وبهم فى مجتمعاتهم ، ترجع أسبابها وعللها الى مشيئة الله فى قيام حقيقة الابتلاء بالانسان ،وقيام وجوده البشرى بها (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ، ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟! ـ الانعام ٥٣) • ومن ثم خلق الله الناس مختلفين آجالا وأرزاقا وجاها وسلطانا وجمالا وذكاء وحكمة وقوة وأبناء (وهو الذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ، ان ربك سريع الحساب وانه لغفور رحيم ـ الانعام ١٦٥) • فبين أن وجود الفوارق والدرجات بين الناس فى كل شىء انما هو للابتلاء • وقد جعل الله الانسان كائنا اجتماعيا ليبتلى الناس بالناس حيث أن العلاقات القائمة بينهم على اختلافها ، وما يترتب عليها من حقوق وواجبات تشكل مواقف وتجارب حقيقيةلابتلائهم بعضهم ببعض• فيبتلى الرسل بأممهم والامم بالرسل • ويبتلى الحاكم بالمحكوم

والمحكوم بالحاكم • ويبتلى القوى بالضعيف والضعيف بالقوى والزوج بالزوجة والاباء بالابناء وهكذا ، يقول الله تعالى (وما أرسلنا قبلك من المرسلين ، الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الاسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة •• أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا — الفرقان ٢٠) • ونقرأ كذلك فى كتابة الحكيم (أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا • ورحمة ربك خير مما يجمعون — الزخرف ٣٢) • فاختلاف مستويات المعيشة بين الناس فى المجتمع الواحد ، الناجم عن اختلاف قدراتهم العقلية والحسية والجسدية الموروثة ، قد شاءها الله تحقيقا للحكمة التى شاء أن يخلق العالم والانسان لها • لقد شاء الله سبحانه أن يعيش الناس فى أمم وشعوب وقبائل (يا أيها الناس : انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا — الحجرات ١٣) • كما بين سبحانه أنه لم يشأ ان يكون الناس أمة واحدة ، بل زودهم بما يجعلهم مختلفين فى السلوك كنتيجة مستلزمة من حقيقة الابتلاء ، كما جعلهم مختلفين ألوانا ، ولغة، وأرضا ، وعادات وتقاليد • كل ذلك شاءه سبحانه للابتلاء (•• ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم — المائدة ٤٨) • فبين أن ما ركب فى طبيعة البشر حتى صاروا أجناسا مختلفين انما هو للابتلاء • فهذا الاختلاف بينهم فى الامور الجبرية التى خلقهم الله عليها وأمدهم بها أولا ، ثم فى السلوك الخلقى الاختيارى لهم هو الذى جعلهم أمما مختلفين (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين • الا من رحم ربك ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين — هود ١١٨ — ١١٩) •

ذلك هو أساس المجتمع البشرى المحلى والعالمى على الارض يرتكز على حقيقة الابتلاء ، فبالنسبة لحياة المجتمع الواحد والذى يقوم

أساسا على أساس صفة الاجتماعية فى الانسان الفرد بحيث تستحيل عليه الحياة الانفرادية ، وما يستتبع ذلك من ظواهر ونظم اجتماعية ، فانه يؤدى أيضا لقيام حقيقة الابتلاء بين أفراده وجماعاته من ناحية ، ثم بينه وبين بقية المجتمعات الاخرى على الارض من ناحية أخرى •

ومن ثم يمكن القول أن المجتمع البشرى كما يريده الله سبحانه — حسب النظرة القرآنية وتحقيقا لغاية الحياة البشرية — لابد ان تتفاوت فيه مستويات الناس فى كل شىء • فهو قائم على درجات بين الناس فى لارزاق والقدرات بأنواعها ، ولكنه لا يقوم على الطبقات حيث الجميع من أصل واحد ، ولكن هذه الفروق انما جعلها الله تعالى للابتلاء • فالقرآن الكريم يثبت هنا حتمية استمرار هذه الفروق واستحالة الغائها استحالة مطلقة • ان الغاء الفوارق بين مستويات الناس الغاء تاما ، بحيث يكون دخل كل منهم كدخل الاخر ، ومسكن كل منهم كمسكن الاخر ، وملبسه كمبلس الاخر ، وغير ذلك مجرد أحلام وأوهام لا يمكن أن تتحقق على الارض لانها دار ابتلاء ، وهى ان تحققت خرجت عن الخط المرسوم لها لتحقيق غايتها • ان هذه الاحلام لا تتحقق الا فى دار النعيم ، وأى مذهب يتحدث عن ذلك ويحاول أن يثبت امكانية تحقيقه فهو مذهب مخادع مخاتل ، وفلسفته لا تقوم على أسس حقيقية واقعية من طبائع البشر والحياة •

ان الاسلام بتشريعه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى انما يحاول ان يقلل من هذه الدرجات والفوارق بين مستويات الناس الى أقل حد ممكن ، حتى ينال كل انسان حقه الذى قدره له الله ليحيى حياة كريمة تتناسب مع كونه خليفة لله • وذلك لا يتحقق الا باقامة خلافة الله فى الارض بتطبيق شرعه الذى شرعه لاناس • ولكن الغاء الفوارق تماما مستحيل لان البشر يولدون بها وقد شاء الله ذلك للابتلاء ، فمن الذى يمنع نفاذ مشيئته ؟؟ •

ان حقيقة الابتلاء حقيقة كبرى ، تمـلا جوانب الكتـاب الكريم من أوله الى آخره ، وتتخلل آياته وسوره ، كما تتناولها السنة فى عديد من الاحاديث • وهى حقيقة هامة وخطيرة ، بل أنها أخطـر الحقائق التى يتحدد بها موقف الانسان من الكون ، وتثبت أبعاده وأهدافه ومراميه، فيها يزول كل ابهام أو غموض حول حقيقة الانسان ، وتنمحى بها كل شبهه حول علاقته بربه • وهى الحلقـة الوسطى التى تربط وجودية الغيبيين بالوجود البشرى الحالى حيث تجعل رحلة الانسان الوجودية، منذ خلقه الى خلوده فى الاخرة ، متصـلة مترابطة معقولة ، ويعـلل سابقها لاحقها ويفسر غائبها شاهدها • هذه الحقيقة التى من أجلهـا خلق الله الكون والانسان ، وجعل الحياة والموت، تعلل الوجود الانسانى الارضى ، وكيفية هذا الوجود ، كما أنها تحدد مصير الانسان الابدى، وكيفية هذا المصير• وعلى أساس هذه الحقيقة الكبرى أنشأ الله سبحانه وتعالى الحياة وخلق الانسان بما عليهما • ان الحيـاة البشرية ليست الا عديدا من التجارب الابتلائية تتولد الواحدة من سـابقتها وتولد فى نفس الوقت لاحقتها ، فالحياة فى النهاية ليست سوى تجربة ابتلائية كبيرة يجتازها الفرد والجمـاعة والمجتمع والجيل والامة خـلال أجل كل منهـم •

التجربة الابتلائية : الابتلاء لغة هو الامتحان والتمحيص والاختبار، وحقيقته كما تثبتها الايات القرآنية أن الله سبحانه وتعالى يجرى على العباد أمورا وأحداثا وأفعالا هى فى حقيقتها أفعال جبرية ليس للعبد فيها أدنى اختيار ، وذلك ليبتليهم • فدخول العبد التجربة الابتلائية ، لا يمكن الا أن يكون جبريا • ومن ثم فالتجربة الابتلائية التى يمر بها العبد ، وحقيقة الابتـلاء القائمة بالانسان عمـوما تتضمن حقيقتين كبيرتين عن الفعل الانسانى والفعـل الالهى • ويتضح ذلك جليـا من معرفة حقيقة الابتلاء ، وكيف يبتـلى الله سبحانه وتعالى العبـاد • فالابتلاء بمعنى الاختبار والامتحان مثل (ولنبلونكم بشىء من الخوف

والجوع ونقص فى الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين — البقــرة ١٥٥) • وفى قوله أيضــا (لتبــلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين اوتوا الكتــاب من قبلكم ، ومن الذين أشركو أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا ، فان ذلك من عــزم الامور — آل عمران ١٨٦) • فهاتان الاياتان تثبتان الابتلاء بالالام : الجوع والفقر والموت والمصائب والاذى من الظالمين واضطهاد الكافرين للمؤمنين المستضعفين والتنكيل بهم ، كما تثبتان كل ما يجلب الالم للانسان كما تثبتان حدوث هذه الامور له حدوثا اضطراريا ليس للانسان حياله دفعا أو اختيارا ، فهو سبحانه الذي يبتلى المؤمنين بالالام كنتيجة لافعال الظالمين الذين ابتلاهم أيضا بالسلطان والقوة لينظر هل يصبر المؤمنون أم يجزعون ودليل ذلك قوله (وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ••• أتصبرون) وقــوله فى الاية السابقة (وبشر الصابرين) كما يقول الله تعــالى فى الحديث القدسى (ما لعبدى المؤمن عندى جزاء ، اذا قبضــت صفيه من أهل الدنيا ، ثم احتسبه ، الا الجنة) [1] •

وكما يبتلى الله بالالام ، يبتلى أيضا بالمتعة والنعيم وكل ما يجلب الرفاهية للانسان فاذا كان (المال والبنون زينة الحياة الدنيا — الكهف ٤٦) فما جعلهما الله كذلك الا ابتلاء للناس (انمــا أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم — الانفال ٢٨) •

ان الصابرين على ما يمرون به من تجارب ابتلائية مؤلمة ، أو الشاكرين على ما يصيبهم من تجارب ابتلائية ممتعة ، انما يثبتون أنهم مؤمنون حقيقة وفعلا لا قولا ورياء ، كما أنهم يرتفعون فى الدرجات والمقامات عند الله • ودليــل البلاء للرفعــة والترقى الى أقصى درجات ومراتب الكمال البشرى المقــدر للانسان على الارض ما رواه مصعب بن سعد

---

(١) صحيح البخارى من حديث أبى هريرة

عن أبيه قال (قلت يا رسول الله : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الانبياء ثم الامثل فالامثل ، فيبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان صلبا اشتد بلاؤه ، وان كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه . فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى ماعليه خطيئة)(١)، وفى هذا المعنى ماروته السيدة عائشة رضى الله عنها قالت (ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم) (٢) . فالبلاء رفعة للمؤمن لانه يتدرج مع المرء صعودا كلما نجح فى تجربة ابتلائية زيد له فى التى تليها من حيث الشدة والنوع وهكذا ، كما تزيد العلوم على الدارس فى معهده من حيث العمق والصعوبة والتعقيد والكم كلما نجح فى مرحلة دراسية وانتقل الى أخرى.ومن ثم فان الكمال الانسانى يرتبط ارتباطا وثيقا بالحكمة من خلق الانسان وهى الابتلاء .

وكما يكون البلاء للتمحيص والتثبيت والرفعة ، يكون أيضا للتطهير، بل ان التطهير هو الوسيلة التى يرتفع بها المؤمن فى الدرجات فقول الرسول عليه الصلاة والسلام فى الحديث السابق (فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى ما عليه خطيئة) خير برهان على ذلك كما قال عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عنه ابو هريرة (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة فى نفسه وولده وماله ، حتى يلقى الله وما عليه خطيئة) (٣)

وكما يكون الابتلاء ، سواء بالالام أو بالنعيم ،تثبيتا ورفعه وتطهيرا من الذنوب المؤمنين، يكون لسواهم علاجا وتوجيها واعذارا وانذارا (ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ـ الانعام ٤٤) . فبين أن الله يصيبهم بالبأس ليعودوا اليه (فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ماكانوا يعملون ـ الانعام ٤٣) . (ما أرسلنا فى قرية من نبى الا أخذنا أهلها

---

(١) الشيخ منصور على ناصف / التاج الجامع للاصول ج ٥ ص ١٦٨.

(٢) رواه الامام احمد فى مسنده

(٣) التاج الجامع للاصول ج ٥ ص ١٩٨

بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ــ الاعراف ٩٤) • فاذا لم يستجيبوا ولم يتضرعوا بالبأساء والضراء ابتلاهم الله بالمتع والنعيم لعلهم يشكرون أو يرجعون (فلما نسوا ما ذكروا به ، فتحنا عليهم أبواب كل شيء ، حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ــ الانعام ٤٤) ذلك أن فشلهم فى ابتلائهم بالسراء بعد الضراء لعلاجهم ، يستوجب عليهم عذاب الاستئصال •

فالنعمة من الله سبحانه وتعالى على الناس ابتلاء •

والنقمة أيضا اذا أصابتهم ابتلاء •

(فأما الانسان ، اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول: ربى أكرمن• وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول : ربى أهانن ــ الفجر ١٥ ــ ١٦) •

ومن ثم فحياة الانسان من أولها الى آخرها ، مواقف متعددة مطردة من الابتلاءات لا يكاد المرء يفرغ من موقف أو تجربة حتى يدخل أخرى ، وهى تختلف شدة ولينا وعسرا ويسرا وقوة وضعفا ، حتى تصبح كل كلمة وكل حركة وكل خلجة نفس ، وكل تصرف وسلوك صغر أم كبر تجربة ابتلائية يحصيها الله على العبد ويحاسبه عليها (انا نحن نحيي الموتى ونكتب ماقدموا وآثارهم وكلشيء أحصيناه فى امام مبين ــ يس ١٢) • فمن أمثلة الابتلاء بالسلوك قوله تعالى (ان الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ــ الحجرات ٣) •

وتختلف التجربة الابتلائية من حيث الشدة واليسر ــ سواء كانت ابتلاء بالسراء ام ابتلاء بالضراء ــ فيقول الله عز وجل للمؤمنين منبها فيها اياهم عن ابتلائهم بالنعيم والسراء ابتلاء يسيرا (يا أيها الذين

آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ، ليعلم من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ـ المائدة ٩٤) •

كما يمكن النظر الى التكاليف الشرعية ـ سواء أكانت شعائر تعبدية كالصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها من السنن والنوافل ، أم كانت شرائع تنظيمية للحياة والمجتمع ـ على أنها اختبارات وبلاءات متعددة ومتنوعة ومختلفة ، بل هى السلوك الواجب على الانسان اتباعه حيال تجاربه الابتلائية فى حياته اليومية •

وباختصار فان الله سبحانه وتعالى يبتلى بالالام كما يبتلى بالنعيم، وكما أن المطلوب من العبد حيال الابتلاء بالالام الصبر والرضى بالقضاء ، فالمطلوب منه حيال الابتلاء بالنعيم الشكر لله ، والاعتراف بفضله عليه • فالصبر والشكر حالتان أو وجهان لحقيقة الايمان ، حيث أن الايمان هو دخول العبد اختياريا فى عبوديته لله وتحقيق ذلك بتنفيذه كل ما يطلبه منه الشرع من أوامر والامتناع عن كل ما ينهاه عنه من نواهى ، سواء كانت هذه التكاليف ممتعة له أو مضنية • فالمؤمن يصبر على المعصية ، كما يصبر على الطاعة ويصابر على الجهاد ومشقته وعنائه شاكرا لله توفيقه فى ذلك كله حامدا اياه على الضراء كما يحمده على السراء حيث لا يحمد على مكروه سواه• وهو أيضا يحمده ويشكره على ما رزقه من أسباب العز والسلطان والجاه والرفاهية صابرا على ذلك كله باعتباره مدعاة للانزلاق الى هاوية الغرور والكبر والظلم • فهما اذا وجهان للايمان ولذلك جاء فى الاثر ان (الصبر نصف الايمان) على أن الشكر هو النصف الاخر كما جاء فى الحديث الشريف (عجبا لامر المؤمن ان أمره كله له خير : ان اصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا له• وليس ذلك لاحد الا للمؤمن)(١)

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الزاهد •

فالصبر والشكر هما السلوكان الاختياريان المطلوبان من العبد حيال ما يعترضه من مواقف وتجارب ابتلائية ، أو بتعبير اخر القيام بما كلفه الله به ازاء هذه المواقف •

وحياة الرسل والانبياء ليست سوى النماذج البشرية السامية لهذا السلوك الابتلائى الحر فى التجارب الابتلائية ، والمثل الناجحة ، فكل رسول وكل نبى يخوض فى حياته مختلف الانواع من التجارب الابتلائية الممتعة والمؤلمة ، شأنه فى ذلك شأن البشر أجمعين ، علاوة على أنه يتخصص فى نوع معين من الابتلاءات يصبح فيه النموذج ولمثال العظيم وفى هذا تطبيق وتوضيح لقول الرسول بأنهم أشد الناس بلاء •

فاذا كان ابراهيم الخليل أبا للمسلمين حيث قال الله فيه (••• وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم ابراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل •• ــ الحج ٧٨) • كما أنه ــ بنصوص قرآنية ــ أبو الانبياء، قدرزقه الله ابنيه اسماعيل واسحق على الكبر ، ومن ثم فان أشد ما ابتلاه الله به انما كان فى عاطفة الابوة لديه ؛ تلك التى وسعت أمة بأسرها •فصاربذلك مثلا للاباء على طاعة الله فى الابناء ، باعتبار أنهم من فتن الحياة الدنيا وابتلاءاتها كما أخبر الله بذلك ، وذلك حين أمره الله بذبح ابنه اسماعيل الذى رزقه الله به على الكبر (فلما بلغ معه السعى قال : يا بنى انى أرى فى المنام انى أذبحك ، فانظر ماذا ترى • قال : يا أبت افعل ما تؤمر ، ستجدنى ان شاء الله من الصابرين • فلما أسلما وتله للجبين • وناديناه أن يا ابراهيم • قد صدقت الرؤيا ، انا كذلك نجزى المحسنين • ان هذا لهو البلاء المبين وفديناه بذبح عظيم ــ الصافات ١٠٢ ــ ١٠٧) •

كما يمكن اعتبار اسماعيل عليه السلام بطاعته لله ولابيه مثالا ونموذجا رائعا فى الاسلام لله وفى طاعة وبر الوالدين •

أما يوسف عليه السلام فقد تميز بالأبتلاء بالجمال الأخاذ الذى عرضه لفتنة الشهوة من امرأة العزيز (وراودته التى هو فى بيتهـا عن نفسه ، وغلقت الابواب ، وقالت : هيت لك ، قال : معاذ الله ، انه ربى أحسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون • ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه ، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين – يوسف ٢٣ – ٢٤) • ومهما قيل فى معنى قوله تعالى « وهم بها » فان السلوك الاختيارى الذى كان من يوسف والمتمثل فى قوله لها حين دعته الى نفسها « معاذ الله » هو السلوك النموذجى الناجح فى مثل هذه المواقف الجنسية التى تعترض كافة البشر فى حياتهم وبخاصة الشبان والشابات •

كما يمكن اعتبار صبر بنى اسرائيل وعلى رأسهم موسى عليه السلام حيال ظلم فرعون لهم نموذجا للسلوك الناجح حيال اضطهاد أصحاب السلطان الجائرين للمؤمنين المستضعفين (واذ نجيناكم من آل فرعون، يسومونكم سوء العذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم – البقرة ٤٩) •

أما داود وسليمان فيمكن أن ننظر اليهما على أنهما قد تميزا بالابتلاء بالخلافة فى الارض والحكم والقوة والملك ، حيث صارا النموذج الناجح والسامى فى هذا الابتلاء • وقد أخبرنا الله فى القرآن الكريم بالفتنة التى اختبر بها داود ليعلمه أصول الحكم بين الناس قبل أن يوليه خلافة الارض فقال مخاطبا رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم (اصبر على ما يقولون ، واذكر عبدنا داود ، ذا الايد انه أواب ، انا سخرنا الجبال معه ، يسبحن بالعشى والاشراق والطير محشورة ، كل له أواب • وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب • وهل أتاك *نبأ الخصم اذ تسوروا المحراب ؟ • اذ دخلوا على داود ففزع منهم ،* قالوا : لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق

ولا تشطط واهدنا الى سواء الصراط • ان هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها وعزنى فى الخطاب • قال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه ، وان كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه ، وخر راكعا وأناب ، فغفرنا له ذلك ، وان له عندنا لزلفى وحسن مآب • يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ص ١٧ ــ ٢٦) • والشاهد فى هذه الايات أن الخصم الذين تسوروا المحراب ، مرسلون من الله لاختبار داود فى معرفة أصول الحكم وقواعد القضاء بين الناس ، حيث تسرع وأصدر الحكم قبل سماع أقوال الطرف الثانى فى القضية • ولكنه سرعان ما أدرك ذلك فخر راكعا لله وأناب فغفر له ربه وجعله خليفة فى الارض •

والسلوك الاختيارى المطلوب ممن يؤتيه الله بالخلافة والملك ، هو الحكم بين الناس بشرع الله ، والشكر له ، ومن ثم قال (اعملوا آل داود شكرا ، وقليل من عبادى الشكور ــ سبأ ١٣) •

ويبدو لنا سليمان عليه السلام أشد ابتلاء بالملك من أبيه • فلم يكن مفهومه للملك فى الدنيا سوى أنه فتنة واختبار من الله له • فهو مجرد سؤال عملى وتجربة ابتلائية اجتازها سليمان ونجح فيها بالشكر لله ، وليكون مثالا للملك الناجح فى ابتلائه وشاهدا يوم القيامة على أمثاله من الملوك والاغنياء • فلقد طلب سليمان من ربه ملكا لا ينبغى لاحد من بعده ــ لا حبا فى الملك ــ فقد كان نبيا ملكا حيث ورث أباه داود ، ولكنه طلب أن يعطيه الله هذا الملك للابتلاء ، وذلك لان سليمان وقد فشل فى ابتلاء يسير من ابتلاءات النعمة ، حيث فتنته الخيل والتمتع بها فنسى ذكر ربه ، فعز عليه ذلك وهو النبى ، فتاب الى الله وطلب

منه أن يدخله تجربة ابتلائية أقسى وأشد مما هو فيه ومن ثم سأله الملك الذي لا ينبغي لاحد من بعده ، تكفيرا لذنبه الذى ارتكبه بفشله فى الابتلاء اليسير وتطهيرا وارتفاعا فى الدرجات عند الله ، وذلك برجائه أن ينجح فى هذا الابتلاء الكبير (ووهبنا لداود سليمان ، نعم العبد ، انه أواب ، اذ عرض عليه بالعشى الصافنات الجياد • فقال : انى أحببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب • ردوها على ، فطفق مسحا بالسوق والاعناق • ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب • قال : رب اغفر لى ، وهب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى انك انت الوهاب • فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب • والشياطين كل بناء وغواص • وآخرين مقرنين فى الاصفاد • هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب • وان له عندنا لزلفى وحسن مآب — ص ٣٠ — ٤٠) (ولقد آتينا داود وسليمان علما ، وقالا : الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين • وورث سليمان داود ، وقال : يا أيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء ، ان هذا لهو الفضل المبين • وحشر لسليمان جنوده من الجن والانس والطير فهم يوزعون • حتى اذا أتوا على وادى النمل ، قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ، لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون • فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى ، وأن أعمل صالحا ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين • وتفقد الطير فقال : ما لى لا أرى الهدهد ، أم كان من الغائبين لاعذبنه عذابا شديدا أو لاذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين • فمكث غير بعيد فقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنبأ يقين • انى وجدت امرأة تملكهم واوتيت من كل شىء ولها عرش عظيم • وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون • ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السماوات والارض ويعلم ما تخفون وما تعلنون • الله لا اله الا هو رب العرش العظيم • قال :

سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ــ النمل ١٥ ــ ٢٧) فلما طلب سليمان من ملئه ان يحضروا له عرشها (قال عفريت من الجن : أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وانى عليه لقوى أمين • قال الذى عنده علم من الكتاب : أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال : هذا من فضل ربى ، ليبلونى أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فانما يشكر لنفسه ، ومن كفر فان ربى غنى كريم ــ النمل ٣٩ ــ ٤٠)• وهكذا فهم سليمان ملكيته وسيطرته على الجن والانس والطير وتسخير قدراتهم له بأمر الله ، فهم ذلك كله على انه بلاء من الله له ، وأن السلوك الاختيارى المطلوب منه حياله هو الرجوع بالفضل فى ذلك الى الله والشكر له •

أما أيوب فهو مثال البشرية فى الصبر ، والشاهد على الناس يوم القيامة والحجة الدامغة على الفاشلين فى ابتلاءاتهم المؤلمة ، ذلك أنه قد تميز بالابتلاء بالضر والالم (واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب • أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له زوجه ومثلهم معهم ، رحمة منا وذكرى لاولى الالباب • وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث ، انا وجدناه صابرا نعم العبد ، انه أواب ــ ص ٤١ــ٤٤)فقدم لنا الصبر باعتباره السلوك الاختيارى الناجح حيال هذا النوع من الابتلاء فصار اماما للصابرين من البشر والانبياء حيث قال عنه الله (وأيوب اذ نادى ربه: انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين • فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين• واسماعيل وادريس وذا الكفل ، كل من الصابرين • وأدخلناهم فى رحمتنا ، انهم من الصالحين ــ الانبياء ٨٣ ــ ٨٦) •

وبذلك يكون الرسل والانبياء شهداء على أممهم وشعوبهم ، حيث يصبحون يوم القيامة حجة بسلوكهم الخلقى الاختيارى حيال شتى أنواع الابتلاءات ، على الناس (ونزعنا من كل أمة شهيدا ، فقلنا :

هاتوا برهانكم ، فعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ــ القصص ٧٥) • أما خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد تعرض لجميع أنواع الابتلاءات التى يمكن أن يتعرض لها انسان فى هذه الحياة والتى تعرض لها الرسل جميعا : اليتم ، وفقد الابناء ، والمرض والفقر ، والجوع ، وأذى الناس وتكذيبهم له ، وهوانه عليهم، كما ابتلى بالقوة والجاه والسلطان والمتعة والغنى والحكم وسائر متع الحياة الدنيا ، وقدم حيال كل ذلك السلوك الخلقى القويم كنموذج يحتذى فى كل موقف من مواقف الابتلاء • لقد كانت حياة الرسول عليه الصلاة والسلام حياة بشرية واقعية ، حيث جاء للبشرية فى طورها الاخير ، معلما وهاديا وشهيدا عليهم ومن ثم كان كل رسول شهيدا على أمته وهو شهيد على الرسل جميعا باعتبار ان كلا منهم تميز بنوع معين من الابتلاءات وهو قد تميز بها جميعا ، ولذلك كانت رسالته جامعة فوصل بالسلوك الخلقى والاجتماعى للبشر الى مستوى الكمال المقدر لهم على الارض (ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء ــ النحل ٨٩) •

كما ضرب الله لنا مثلا فى القرآن الكريم بالناجحات فى ابتلاءاتهن كنماذج وامثلة السلوك الاختيارى الناجح بالنسبة للنساء (وضرب الله مثلا للذين آمنو امرأة فرعون اذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين ، ومريم ابنة عمران التى أحصنت فرجها ، فنفخنا فيه من روحنا ، وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين ــ التحريم ١١ ــ ١٢) •

فكانت امرأة فرعون حجة وشاهدة على كل امرأة كفرت بالله لمجرد ان زوجها واهلها ومجتمعها كافرون ، ذلك لان فرعون كان ــ علاوة على كونه زوجا لها ــ ملكا متألها ، وطاغية متجبرا ، واهلها ومجتمعها كانوا كافرين ، وبالرغم من ذلك كله آمنت بالله واليوم الاخر ، فهل

بعد امرأة فرعون حجة للنساء الكافرات يبررن بها كفرهن بالله واليوم الاخر ، سواء كانت الحجــة وقوعهن تحت سيطرة الزوج الكافــر او الاسرة الكافرة او المجتمع الكافر او الحاكم الكافر ؟ ! .

وكذلك كانت مريم ابنة عمران مثالا للطهــر والعفاف وحجة قائمــة يوم القيامة على كل انثى تفرط فى طهرها وعفافها ، وذلك ان الزنا كان متفشيا ، والمادية كانت طاغية فى المجتمع الذى نشأت فيه مريم عليها السلام ، ومن ثم كان طهرها وعفافها حجــة على الزانية فى كل بيئــة وحضارة بما فى ذلك نساء الحضــارة الغربية المعاصرة اللاتى يندر ــ بل لا يكاد يوجد ــ بينهن عفيفــة واحدة ، كما هو معــلوم بالضرورة للجميع فى وقتنا الحاضر .

أما بالنسبة للفــريق الاخر الذين ضلوا الاختيــار الصحيح ازاء ما تعرضوا له من ابتلاءات النعيم أو من الابتلاء بالمصــائب والالام ، فقد قدم لنا القرآن نماذج شتى فيما حكاه لنا عن الامم السابقة . كما عرض لنا نماذج فردية وجماعية وقومية كثيرة . نأخذ منها على سبيل المثال ما قصه علينا من أمر فرعــون كمثل للانسان المبتــلى بالحكم ، الذى كفر بنعمة ربه عليه ولم يشكره على ما آتاه ، كما حكم بين الناس بهواه ،وتمادي وطغى حتى ادعى الربوبيــة والالوهية . فكان مثــلا يضرب للحاكم الظالم (ان فرعون علا فى الارض وجعل اهلهــا شيعا يستضيف طائفة منهــم يذبح أبناءهم ويستحى نســاءهم ، انه كان من المفسدين ــ القصص ٤) . فأجرى الله سبحانه وتعــالى عليه وعلى قومه الضالين سنته فى ابتلاء أمثالهم ابتلاء للتذكير والانذار (ولقــد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمــرات لعلهم يذكــرون فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه ، وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، ألا انما طائــرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمــون . وقالوا : مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين ، فأرسلنا عليهم

الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين ــ الاعراف ۳۰ ــ ۱۳۳) •

فما كان صراع موسى عليه السلام مع فرعون الا ابتلاء له وفتنــة حتى تقوم عليه الحجة (ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون ، وجاءهم رسول كريم ــ الدخان ۱۷) • بيد أنه أصر على طغيانه (وقال فرعون : يأأيها الملأ ما علمت لكم من اله غيرى ، فاوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا لعلى اطلع الى اله موسى، وانى لاظنه من الكاذبين• واستكبر هو وجنوده فى الارض بغــير الحق وظنوا أنهم الينــا لا يرجعون ــ القصص ۳۸ ــ ۳۹) •

كما ضرب الله مثلا الرجل الغنى الذى اتاه الله مالا كثيرا للابتلاء به فلم يحمد الله عليه ونسب الفضل لنفسه بقارون (ان قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما ان مفاتحه لتنوء بالعصبة اولى القوة ، اذ قال له قومه : لا تفــرح ، ان الله لا يحب الفرحين • وابتغ فيما آتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفســاد فى الارض ان اللــه لا يحب المفسدين قال : انما أوتيته على علم عندى ، أو لم يعلم ان الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوه وأكثر جمعا ، ولا يســأل عن ذنوبهم المجرمون ــ القصص ٧٦ ــ ٧٨) •

أما مثل الذى فشل حيال الابتلاء بالالم فيقول الله فيه (ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فان اصابه خير اطمأن به ، وان أصابته فتنــة انقلب على وجهه خسر الدنيا والاخــرة ذلك هو الخسران المبــين ــ الحج ١١) •

نخلص من ذلك كله الى أن حدوث الابتلاء يجرى على العبد اجباريا، الا أنه مطالب حيال هذا الفعل الاجبارى بسلوك خلقى معين ، نابع من

ارادته وواقع باختياره وفاعليته فالابتــلاء بمعنى الامتحان والاختبار والتمحيص يعنى دخول العبد فى الموقف الابتلائى دخــولا اضطراريا جبريا ، يواجه العبد بسلوكين متضادين ، عليه أن يختار واحدا منهــا فهو حيال الابتــلاء بالالام والشدائد والمحن والحــرمان يجد امامه سلوكين : اما الصبر والرضى بقضاء الله وقــدره ، وهذا هو السلوك الناجح ، واما الجزع والاعتراض والسخط وذلك هو ســبيل الكافرين ازاء هذه المواقف • وحيال الابتلاء بالنعيم والمتعة يستطيع العبــد أن يسلك واحدا من اثنين : اما الشكر لله بالقلب واللسان والجوارح بآداء حق النعمة ، والقيام بما كلفه الله من تشريعات مالية واقتصادية حيال الاخرين ، واما الغرور والتأله والبخل ونسبة الفضل الى نفسه كمــا فعل فــرعون وقارون • فنحن اذا أمام ضربين من ضروب الافعــال البشرية • فدخول موقف الابتلاء ، ووضع الانسان امام هذا الموقف من خلق للظروف والاحوال والاحداث والطبائع والماهيات التى تؤدى الى الوضع الذى يجد المرء فيه نفسه أمام سلوكين متضادين ، انمــا يتم هذا كله بطريقة جبرية ليس للانسان فيها أدنى اختيار • وان كان يبدو فى الظاهر وكأنه أعمال ارادية للعبد • ثم تأتى المرحلة الثانية من افعال التجربة الابتــلائية ، وتتمثل فى تحــرك ارادة العبد لاختيــار احد السلوكين أو الفعلين المتضادين ، او للاختيار بين الفعــل والترك • ثم قيام الاستطاعة البشرية بتنفيذ ما تم اختياره • ومن ثم يكون الفعل الواقع باختيار العبد واستطاعته سلوكا خلقيا حقيقيا بمعنى أنه نابع من ذات الانسان الحرة المختــارة ، وليس يوجد مرجع لاختيــار هذا الفعل دون ذلك ، أو لاختيار الفعل دون الترك أو العكس ، سوى ارادة العبد الحرة المختارة وعلى ذلك فهو مسئول مسئولية كاملة عن اختيار فعله والقيام بتنفيذه ، ومحاسب عليه •

ان م انخلص اليه عن حقيقة الابتلاء والافعال البشرية المتضمنة فيها هو : ان مؤديات التجربة الابتلائية أو مقدمات الموقف الابتلائى جبــر على الانسان ، بيد أن سلوكه حيالها فعل اختيارى •

ويتمثل الجانب الجبرى فى حياة الانسان ، والذى يمكن التماسه بوضوح فى مقدمات ومؤديات المواقف والتجارب الابتلائية ، فى الموروثات التى تكون نفسية العبد وشخصيته او تشترك فى تكوينها ، من ذكاء وطباع ومزاج وغرائز وعواطف ومواهب وقدرات بالاضافة الى الشكل العام للجسد وقوته . هذه الموروثات ـ كما هو مسلم به ـ ليس للعبد اختيار فيها وكذلك المكتسبات الناتجة عن تفاعل الموروثات ببيئة الفرد مثل العادات والتقاليد والانماط السلوكية والحضارية لكل مجتمع ولكل عصر وما الى ذلك ، وهذه أيضا ليس للعبد اختيار فيها . اذ أن البيئة والموروثات والقانون الذى يعمل به هذا التفاعل بينهما ، كل ذلك مفروض عليه .

وليست هذه الموروثات والمكتسبات المفروضة على العبد هى التى تحدد وحدها شخصيته وتبرز اتجاهه وعقيدته وأسلوبه الخلقى فى الحياة ، ومصيره فى الاخرة . حيث أنها تمثل الجانب الجبرى الضرورى لقيام التجربة الوجودية ، دون الجانب الاختيارى اما الجانب الاختيارى من حياة الانسان ، فانه يتكون من مجموع اختياراته حيال التجارب الابتلائية التى يجتازها فى حياته كلها . ومن مجموع الجانبين ـ الجبرى والاختيارى ـ وامتزاجهما تنتج لنا شخصية الفرد واضحة جلية محددة الاتجاه والمصير . فالانسان ليس فى نهاية حياته سوى عمله الذى اختاره ونفذه ومات عليه (ونادى نوح ربه فقال : رب ان ابنى من أهلى وان وعدك الحق ، وانت أحكم الحاكمين . قال يا نوح انه ليس من أهلك ، انه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم، انى أعظك أن تكون من الجاهلين ـ هود ٤٥ ـ ٤٦) .

اذن فالانسان ساعة موته ليس سوى عمل صالح او عمل غير صالح.

فالجانب الاختيارى فى حياة الانسان بعامة والذى يتبدى لنا فى التجربة الوجودية الابتلائية ، انما هو نتيجة حتمية للجانب الجبرى

المتمثل فى مؤديات التجربة • فمقدمة التجربة جبر ، ونتيجتها اختيار • وقد تكون المقدمة الجبرية للتجربة بارادة المبتلى ، او بدون ارادته ولكن اخص ما يميزها هو ما تحمله فى طياتها من ضرورة ملجئة للاختيار ، فهى تؤدى بالضرورة الى نتيجة التجربة المتمثله فى الفعل الاختيارى ، فالانسان — فى الموقف الابتلائى — لا يملك أن يهرب من الاختيار او يتحاشاه ، ذلك لانه يواجه بممكنات من الافعال لا يستطيع أن يمتنع عن اختيار واحدة منها • بل انه اذا كان هناك فرصة للامتناع، فان هذا الامتناع عن الاختيار يعتبر فى حد ذاته اختيارا بين الفعل والترك، والترك فعل اختيارى ، فالانسان اذا فى التجربة الابتلائية ملزم بالاختيار بين ممكنات متعددة لاوجه الفعل الواحد ، أو مضطر للاختيار بين الفعل والترك ، وليس ثمة ثالث لهذين الاحتمالين •

والقدر الالهى الصارم هو هذا الجانب الجبرى فى حياة الانسان المتبدى لنا فى مقدمات التجارب الابتلائية الملجئة للاختيار ، كما أن الاختيار الحر الواقع بارادة البشر وفاعليتهم لا يخرج عن القدر ايضا • ومن ثم فان وجه الضرورة فى القدر والمتمثل فى التجربة الابتلائية الزمنية هو اجبار والجاء الانسان فى موقف معين لاتخاذ قرار حر لفعل معين ، أو اتخاذ قرار بالفعل أو الترك ، وهذا وذاك اختيار • ومن ثم يمكن القول أن القدر فى التجربة الوجودية الجزئية التى يبتلى فيها العبد هو اجباره على الاختيار ، أو هو الضرورة التى تلجئه فتجعله فى حالة لا يستطيع معها الا أن يختار •

ولكن قد يقول قائل : أليس الله بأعلم بالشاكر من الكافر ، وبالصابر من غير الصابر منذ الازل ، فلماذا يبتليهم اذا ؟!

أما عن علم الله سبحانه الازلى بالفائزين والخاسرين فى ابتلاءاتهم ، فحق يثبته قوله تعالى (فلا تزكوا أنفسكم ، هو أعلم بمن اتقى — النجم ٣٢) وقوله أيضا (ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو

اعلم بمن اهتدى ــ النجم ٣٠) وقوله (ولقد خلقنا الانسان ، ونعلم ما توسوس بهنفسه ــ ق ١٦) وقوله كذلك (ربكم أعلم بكم ان يشأ يرحمكم ،وان يشا يعذبكم ــ الاسراء ٥٤) • هذه الايات وغيرها الكثير اللائى يتحدثن عن حقيقة الالوهية وخصائصها مثبتة لله العـلم بكل شىء كليا كان أو جزئيا ، صغيرا كان أو كبيرا ، خافيا أو ظاهرا ، فيعلم ما فى نفس العبد من شر وخير ، كما يعلم ما سيقع منه ، بل كتبه قبل خلق السماوات والارض ، حيث أمر الله سبحانه القلم فكتب مقـادير كل شىء حتى تقوم الساعة ، ومنها اختيارات العباد وأفعالهم الحرة • ومع ذلك فقد شاء أن يبتليهم ويختبرهم •• فما الحكمة ؟ •

يقول جل وعلا (وما أصابكم يوم التقى الجمعان ، فبـاذن الله ، وليعلم المؤمنين ، وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا : لو نعلم قتالا لاتبعناهم ، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للايمان ، يقـولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم والله أعلم بمـا يكتمون ــ آل عمران ١٦٦ ــ ١٦٧) • فالايتان تتحدثان عن غزوة أحد فتثبتان أن هذا الحدث كان ابتلاء من الله ، ليعلم المؤمنين من المنافقين• ومع أنه يقول فى نهاية الاية « والله أعلم بما يكتمون » الا انه سبحانه وتعالى يجرى هذه الاحداث والافعال على الناس لحكمة سامية • ذلك أن دخول العبد التجربة الابتلائية ووقوفه أمام ضدين من السـلوك والافعال ، ثم تحرك ارادته لاختيـار أحدهما دون الاخـر ، يعنى أن الحدث تجربة وجودية ذاتيـة اجبارية واختيـارية للانسان • حيث يمارس وجوده وحيـاته من خلال مجموع الاختيـارات التى يزاولها فيها • وشخصية الانسان الفرد أو ماهيته النهائية انما تتكون وتتشكل وتنمو نتيجة لمواقف البلاء التى بها العبد منحيث الشدة واليسر والعسر ومن حيث نوع هذه البلاءات كما وكيفـا ، بجانب اختيارات الانسان وسلوكه حيالها كذلك ، ولما كان اختيار الانسان لاى فعل من الضدين انما يكون اما للدنيا واما للاخرة ، فان شخصية الانسان وماهيته تتحدد

وتنمو – صعودا نحو الكمال أو تسفلا وبعدا عنه – نتيجة هذه الاختيارات ليصير اما من أهل الدنيا ، واما من اهل الاخرة أى اما ان يكون مؤمنا بالله أو كافرا به •

ومن ثم فالتجربة الوجودية التى يتم للعبد فيها الاختيار الحر ، بل يضطر فيها الاى الاختيار الحر ، انه هى تجربة ذاتية تنبع من باطنه ، وليس لها مصدر سوى ارداته الحرة المختارة ، حيث يتجسد فيها على العبد بسلوكه ، ما فى قلبه وضميره ، ويتحدد بها اتجاهه ، ويتضح طريقه الذى ارتضاه لنفسه ، وذلك واضح من التعقيب القرآنى على غزوة أحد حيث يقول الله تعالى (ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وتلك الايام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين امنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين – آل عمران ١٤٠) • ويقول أيضا (وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ، أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ؟! – آل عمران – ١٤١ – ١٤٢) • فوقوع الحرب بين المؤمنين والمشركين بأذن الله وتقديره ، لابتلاء بعضهم ببعض وذلك حيث يقول (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما منا بعد واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض• والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم – محمد ٤) كما أن هزيمة المؤمنين أو نصرهم ابتلاء لهم بالنصر أو الهزيمة • وقد بين سبحانه أن ما حدث لهم فى موقعة أحد انما أرادة الله وقدره ، لبعض أخطاء وذنوب وقعت من بعض المؤمنين ، كما أراده تعالى ليعلم الصابرين والمؤمنين والمجاهدين من المنافقين والكافرين فى صفوفهم ، وذلك بالرغم من أن الله يعلم أحوالهم جميعا قبل خلقهم ، ولكن الله يجرى هذا الابتلاء وهذه التجربة الذاتية الوجودية لكل مخلوق من البشر حتى يدخل الجنة من يدخل عن بينه ويدخل النار من يدخل عن بينة وحق ، فتقوم الحجة عليهم جميعا ، ومن ثم قال « وليمحص الله

الذين امنوا » فالتمحيص هو الاختبار العملى الذى يدين الانسان امام نفسه وأمام الاخرين ، فالاية تبين أنه لابد لكى يدخل الانسان الجنة ويفوز بالملك الأبدى أن يمر بهذه التجربة الوجودية والتى تثبت ايمانه وصبره وشكره لله ، ويؤكد ذلك قوله فى موضع آخر من السورة (وليبتلى الله ما فى صدوركم ، وليمحص ما فى قلوبكم ، والله عليم بذات الصدور آل عمران ١٥٤)• حيث أخبر سبحانه أنه عليم بالصدور قبل تمحيصها وابتلائها ، ولكن العلم المطلوب هنا ليس العلم بمعنى المعرفة أو الاخبار فقط ، ولكنه العلم العملى الذى تكون نتيجته تحديد ذاتية الفرد ، واضحة جلية ، ليستحق جزاءه عن عمله ، وليثبت العدل الالهى المطلق حيث لا يفوز بالملك الاخروى الخالد الامن عانى التجربة وكابدها ونجح فى ابتلائه • فدخول العبد هذه التجارب دخولا جبريا هو الذى يحقق الحكمة من خلق هذه الحياة والغاية من وجودها ، ذلك أن الايمان اذا كان مجرد كلام فهو أمر سهل يدعيه الجميع ، أما وقد جعله الله صعبا ومشقا ومستلزما للمكابدة والمجاهدة للنفس والناس ، فقد جعله كذلك ليميز المؤمن الحقيقى من الدعى (ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب — آل عمران ١٧٩) • كما يقول أيضا (ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض — الانفال ٣٧) •

فالتجارب الابتلائية تجرى على العباد وبهم ليتميزوا بعدها — نتيجة اختيارهم — الى فريقين (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ونبلو أخباركم — محمد ٣١) •

فالامور الجبرية لتجربة الابتلائية ضرورية وهامة حتى يصح الاختيار • ذلك أن للاختيار شروطا لكى يكون صحيحا ، ولا يمكن أن يتحقق الاختيار الحر بغير هذه الشروط أو باغفال شرط منها• والقدر الالهى الصارم ليس الا تحقيقا لهذه الشروط التى تؤدى

لصحة الاختيار بجانبه تقدير الاختيار للعبد أيضا . فالضرورة هنا هى اجبار العبد على الاختيـــار وتمكينه منه ، أى أن الجبريه الالهية هى اجبار على الحريه والزام بالاختيـــار الحر حيث يلجئنى الله كعبد فى موقف ابتـــلائى الى الاختيار وذلك بـــأن يمدنى بشروطه وامكانياته الضروريه والصحيحة ، فلا استطيع حيال ذلك كله الا أن اختار .

فلابد لكى يكون الفعـــل منسوبا الى فاعليتى ، ونابعـــا من ضميرى وذاتى ، معبرا تعبيرا صحيحا عنه ومطابقا لها ، لابد أن أعيش التجربة الوجوديه كامله . وان أحيا فى أعماقها وجودا حيا نابضا ، متحققا فيه كامل الملابسات والظروف والاحوال والشروط الابتلائية التى تجعـــل الارادة فى حاله الاستواء اللازمه لصحة الاختيار ، والكينونه الحرة . ان هذه الظروف والملابسات والاحوال الجبرية للتجربة الابتلائية هى اعمق التجربه الوجودية البشرية التى يكون الانسان بهـــا كائنا حرا ، والتى يصح اختياره ولا تتحقق فاعليته الا بها . فاذا انعدم شرط من هذه الشروط ، أو كاد يخـــرج الانسان عن اطار التجربة الابتـــلائية بالوشوك على الموت أو الغرق مثلا ، انعدم حينئـــذ الاستواء اللازم لصحة الاختيار ، لعدم وجود الشروط كاملة (فاذا ركبو فى الفلك دعوا الله مخلصـــين له الدين فلما أنجـــاهم الى البر اذا هـــم يشركون ـــ العنكبوت ٦٥) . ذلك ان التوجه الى الله بالدعاء مفردين اياه بالقدرة على الاستجابة وهم مهددون بالغرق ، بينمـــا كانوا غير ذلك فى البر وبينما سيكونوا أيضا غير ذلك اذا رجعوا اليه ، انما هو بفعل الفطرة ولا يحتسب ذلك لهم ايمانا اختيـــاريا لانه تم منهم فى غير الظـــروف الصحيحة للتجربة الابتلائية ، ومن ثم لم يكن باختيارهم ، ولكنهـــم بعودتهم الى البر تتحقق الظروف الصحيحة للاختيار ومن ثم تختلف اختياراتهم وأعمالهم ودرجاتهم فى الايمان والكفر (واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر، فمنهم مقتصد، وما يجحد بآياتنا الا كل ختار كفور ـــ لقمان ٣٢) وذلك لانهم عادوا

فى البر الىعمق التجربة الابتلائية حيث الاحوال الصالحة ، والمجال العادل الذى يتواجد فيه الاستواء المحقق للاختيار الحر •

وقول الكافرين أمام النار ورد الله سبحانه وتعالى عليهم شاهد قوى على ما نذكر حيث يقول مخبرا عنهم (ولو ترى اذ وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدى لهم ما كانوا يخفون من قبل ، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ، وانهم لكاذبون ـــ الانعام ٢٧ ـــ ٢٨) لانهم لو ردوا ، فسيردون بنفس الظروف والاحوال والطبائع والكيفيات التى كانوا بها فى الدنيا ، والتى لابد منها لقيام حقيقة الابتلاء ، كما أن الله عز وجل سينزع من ذاكرتهم النار التى شاهدوها ، وسيعيدهم الى الدنيا بالعطاء الكونى الذى يحجب عنهم معرفة الغيب وتذكره ، ثم انهم لابد أن يدخلوا المواقف الابتلائية التى مروا بها أيضا أو مثلها ، ومن ثم ستكون النتيجة حتما نفس النتيجة ، وسيكون اختيارهم نفس الاختيار الذى ارتضوه لانفسهم من قبل •

ومن ثم فان الله سبحانه يجرى الابتلاء على العباد لادانتهم بأعمالهم • فاذا قال العبد كلمة الايمان بلسانه ، وشهد شهادة الحق به ، فان الله لن يتركه حتى يقيم عليه الدليل ، ويثبت له صدقه أو كذبه فيما تلفظ به من الشهادة وذلك بادخاله فى التجارب الابتلائية التمحيصية • فالتجربة الابتلائية الشخصية لا تكون الا لمن يشهد بالايمان قولا • أى ان البلاء للتمحيص كحقيقة وجودية تقوم فى حياة البشر ليست لكل الناس ، بل هى للذين يقولون آمنا بالله واليوم الاخر وملائكته وكتبه ورسله • أى الذين يعتنقون العقيدة التصورية للاسلام المتمثلة فى النطق بالشهادتين • فعندما ما ينطق الانسان بالشهادتين ، لا يتركه الله فى حياته دون أن يعرضه للابتلاء والفتنة التى يتمحص بها ايمانه ويتبين بها اخلاصه وجديته فى هذا الايمان

(الم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين — العنكبوت ١ : ٣) ، وهذا من شأن الله وحده .

أما الكافر أو الذى لم يسلم لله بعد ، فلن يفتن هذه الفتنة ، ولن يمحص قلبه او ايمانه لانه أعلن صراحة خلوه منه . فلا يوجد فى حياته ما يعرضه لسنة الابتلاء من النوع الذى يتعرض له المؤمنون ، ومصداق ذلك ما رواه ابو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (مثل المؤمن كمثل الزرع ، لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء ، ومثل الكافر كمثل شجرة الارز لا تهتز حتى تستحصد) [1] . والشاهد فى قول الرسول عليه السلام أن المؤمن يتعرض للابتلاء والفتنة الممحصة والمطهرة ، وان الكافر لا يحدث له ذلك الابتلاء بمعنى التمحيص والتطهير والرفعة .

وليس يعنى ذلك ان الكافر لا يبتلى ، ذلك لان الابتلاء لا ينفك عن الانسان طيلة حياته ، لما قد ثبت من أنه غاية الحياة البشرية . لكن الكافر — سواء كان فرد أو جماعة أو مجتمعا — ابتلاء من نوع آخر حيث تكون الغاية منه العلاج والتوجيه والاعذار والانذار وذلك بالضراء ، فان لم يستجيبوا ، فبالسراء فان لم يستجيبوا فتح الله عليهم أبواب كل شيء توطئة لاهلاكهم (ولقد ارسلنا الى أمم من قبلك ، فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قسمت قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به ، فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما أوتوا اخذناهم بغتة ، فاذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا ، والحمد لله رب العالمين — الانعام ٤٢ — ٤٥) .

---

(١) رواه الشيخان والترمذى .

فابتلاء الكافرين بالبأساء والضراء تنبيه وانذار لهم لعلهم يرجعون، وابتلاؤهم بالسراء استدراج لهم حتى يعلم منهم مدى استعداد نفوسهم ومستوى الدرك الهابط الذى يسمحون لانفسهم باختيارهم التسفل اليه فهو أى ابتلاء الاستدراج للكافر — املاء من الله للكافر يتمكن به من الفسق والفجور وارتكاب المظالم حتى يتحدد بذلك كله فى النهاية درجة العذاب الذى يستحقه فى جهنم حيث يستقر كل كافر بذلك فى دركه اللائق بعمله واختياره قال تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم ان كيدى متين — القلم ٤٣) ٠

حقيقة الابتلاء وفلسفة التاريخ :

تلك اذا حقيقة خطيرة ٠ يمكننا بعد ما تقدم القول انها العلة الحقيقية للاحداث الطبيعية والبشرية التاريخية منها والاجتماعية فى الارض ٠ انها العلة البعيدة لطبائع الاشياء والانسان والسبب الحقيقى لوجود الشر ومصادره من الانس والجن سواء ٠

ولقد عمد مؤرخو الاحداث البشرية على الارض الى رصد وتسجيل تواريخ الامم الغابرة والحاضرة ، محاولين فى النهاية استخراج القانون الذى يحكم سير هذه الاحداث ، بيد أن كل تفسير للتاريخ لا يقوم على حقيقة الابتلاء فهو تفسير ناقص ، ومن ثم خاطىء ٠ وكل نظرية لفلسفة التاريخ تغفل هذه الحقيقة ، فهى نظرية قاصرة ٠

وكثير من النظريات التى قامت لتفسير أحداث التاريخ وتعليلها قائمة على أفعال الانسان فقط بينما الحقيقة التى يقدمها لنا القرآن الكريم تخالف ذلك تماما ، حيث أن حقيقة الابتلاء تتضمن — كما مر بنا — أساسا هاما للتاريخ البشرى على الارض ، وهو أن الاحداث الفردية والجماعية والدولية التى تقع بين المجتمعات والامم والقوميات ، كل ذلك واقع بين الله والانسان ، اى واقع بالفاعلية الالهية المتمثلة فى

القدر الالهى أولا وأخيرا ، حيث يحرك الله الانســان ويوجهه جبرا تحقيقا للابتلاء ، ثم تأتى بعد ذلك العبادة البشرية المتمثلة فى الاختيار فى مرحلة التجربة الابتلائية الاخيرة •

فأساس التاريخ البشرى — حسب حقائق القرآن — يقــوم على حقيقة الابتلاء اولا واخيرا • ذلك لان القدر الالهى النازل جبرا على الانسان الفرد والجمــاعة والمجتمع والنوع بأسره ، انمــا يتنزل من السماء بنــاء على اختيــارات سابقة ولاجراء ابتــلاءات جديدة اما للتمحيص والتثبيت والتطهير والرفعة اذا كان الواقع عليهــم الابتلاء مؤمنين ، واما للعلاج والاعذار والانذاروالاستدراج اذا كانوا كافرين• ومن ثم فحقيقة الابتــلاء هى التى تفسر تفسيرا واضحا علاقة الفعل الالهى بالفعل البشرى • فبينما تصعد الافعال البشرية الاختيارية الى السماء ، تتنزل الاقدار الجبــرية من السماء الى الارض على الانسان لالجائه لموقف معين يتعين عليه الاختيار فيه ، ثم يتبــع ذلك الاختيار فعل الهى جبرى بناء على اختياره السابق •

فالعلاقة بين الله والانسان اذا المتمثلة فى حقيقة الابتــلاء ، علاقة حية نابضة متحركة • والتاريخ البشرى يقوم على هذه الحقيقة ، حيث ان المواقف الابتــلائية ، لا تقوم بالسلوك الفــردى فقط كأســاس لفلسفة الاخلاق القرآنية ، ولكنها أيضا تتمثل فى الظواهر الاجتماعية والاحداث الانسانية المتبدية فى علاقة المجتمعات بعضها ببعض •

ومن ثم يعرض لنا لقرآن الكريم نماذج خلقية من سلوك الافــراد الاختيارية حيال ما يقع عليهم جبرا من تجارب ابتلائية ، فضرب لنــا مثلا برجلين ابتلى احدهما بالثراء وكثرة الاولاد وآخربالفقر والحرمان (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل ، وجعلنا بينهما زرعا • كلتا الجنتين آتت أكلهــا ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا ، وكان له ثمر ، فقال لصاحبه وهو يحاوره :

أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ، ودخل جنته وهو ظــالم لنفسه ، قال : مأظن ان تبيد هذه ابدا • وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربى لاجدن خيرا منها منقلبا • قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ، ثم من نطفة ، ثم سواك رجلا • لكنا هو الله ربى ، ولا أشرك بربى احدا ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله ،ان‌ترن أنا أقل منــك مالا وولدا فعسى ربى أن يؤتين خــيرا من جنتك ، ويرسل عليها حســبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقــا • أو يصبح ماؤها غورا ، فلن تستطيع له طلبا • وأحيط بثمــره ، فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ، ويقول ياليتنى لم اشرك بربى احدا ــ الكهف ٣٢ ــ ٤٢) • والنتيجة التى نخرج بها من هذه الايات ، أن صاحب الجنتين اختارا القبيح بالنسبة لابتــلائه بالنعمة حيث نسب الفضل لنفسه وأنكر البعث • بينما الاخــر اختار الفعل الحسن فلم يحقد عليه ولم ينظر الى ما فضــله الله به عليه من رزق شاكرا لله حاله ، راضيا بقضائه صابرا عليه ، وذلك هو النجاح حيال ابتلاء الله له بالفقر والحرمان • والنتيجة الثانية التى تقدمها لنا الايات هى أن اختيار الرجل الغنى للفعل القبيــح استتبع من الله ــ حسب سنته ــ ابتلائه بالضراء بعد ابتلائه بالسراء ، لعــله يعود الى ربه ويتضرع اليه • وذلك هو الابتلاء العلاجى والتوجيهى • فأفقــده الله جنتيه • وذلك موقف ابتلائى جبرى جديد يواجه به الرجل بنــاء على موقفه الاختيــارى من التجربة الابتــلائية الاولى ، ويبــدو انه استجاب فى هذه المرة واختار الفعل الحسن وعاد الى ربه ونــدم على ما كان منه فقال (ياليتنى لم اشرك بربى احدا) اما الرجل الاخــر ، حسب سنة الله فى ان يبدل ابتلاءه من الضراء الى السراء (فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك) •

كما ضرب لنا مثلا بفعــل جماعى اختيارى لاسرة حيــال ابتلائهم بالنعمة فقال (انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ، اذ أقسموا ليصرمنها

مصبحين • ولا يستثنون • فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون • فأصبحت كالصريم • فتنادوا مصبحين ان اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين • فانطلقوا وهم يتخافتون • ان لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين وغدوا على حرد قادرين • فلما رأوها قالوا: انا لضالون• بل نحن محرمون • قال اوسطهم : ألم أقل لكم لولا تسبحون • قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين • فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا : ياويلنا انا كنا طاغين • عسى ربنا يبدلنا خيرا منها ، انا الى ربنا راغبون — القلم ١٧ — ٣٢) • فبين سبحانه أنهم لما اختاروا الفعل القبيح من الفعلين المعروضين امام ارادتهم الحرة فى موقفهم الابتلائى بالسراء وذلك بحرمانهم المسكين والفقير حقه الذى فرضه الله له فى ثمارهم ، بين أنهم لما فعلوا ذلك حقت عليهم مشيئة الله فى ابتلائه عباده بالضراء بعد فشلهم فى الابتلاء بالسراء ، فافقدهم ثمارهم ، كموقف ابتلائى مترتب على فعل اختيارى سابق • ولكنهم فى هذه المرة اختاروا الفعل الحسن ، فعادوا الى الله سبحانه وتضرعوا اليه وندموا على ما كان منهم من الظلم وقالوا « انا الى ربنا راغبون » •

ومن ثم يمكن القول أن السنة التى يبتلى بها الله الجماعة الصغيرة كالاسرة هى نفس السنة التى يبتلى بها الفرد •

وبالنسبة للمجتمع الصغير فى حجم القرية ، بين سبحانه وتعالى أن الحلقة التى تربط القدر الالهى الجبرى بالافعال البشرية الاجتماعية هى ايضا حقيقة الابتلاء ، فهى الوعاء الذى يجمع بين الجبر والاختيار فى حياة الانسان فردا كان أو اسرة أو مجتمعا صغيرا • وناخذ مثلا على ذلك أصحاب السبت من بنى اسرائيل (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ، اذ يعدون فى السبت ، اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون — الاعراف ١٦٣) • ويوضح قوله تعالى « كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » أن هذا المجتمع الصغير ، كان قد تمادى فى الفسق

كما كان قد سبق علاجه واعذاره وانذاره بشتى الابتلاءات ولكنــه لم يستجب وتمادى فى فسقه ، فابتــلاهم الله بهذا الابتلاء بمــا كانوا يفسقون أى أن هذه التجربة الابتلائية التى اختبرهم بها كانت نتيجة لافعال اختيارية قبيحة سابقة عليهــا • ولقد فشلوا فى هذا الابتــلاء الاخير أيضا ، فاستأصل الله بمشيئته وقدره ، بناء على هذا الفشل ــ ــ شأفتهم من البشرية حيث أخبر عنهم مخاطبا قومهم منبنى اسرائيل (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم : كونوا قــردة خاسئين • فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظــة للمتقين ــ البقرة ٦٥ ــ ٦٦) • والشــاهد فى قوله تعــالى لهم « كونوا قــردة خاسئين » ان الامر الالهى الكونى انما ينفذ فى البشر بقدرته تعــالى بناء على اختياراتهم فى ابتلاءاتهم الســابقة ومن ثم يمكن القــول أن هذه الايات تضيف الى ما سبق نتيجــة جديدة وهى أن الله ســبحانه يستدرج الكافرين او الفاسقين بالابتلاء ، أى كلما فشلوا فى تجربة أو موقف ، اختبرهم بآخر نزولا بهم وتســفلا واستدراجا • حتى اذا وصلوا الى درجة معينة من الكفر استأصل شأفة ذلك المجتمع كما فعل مع اصحاب السبت اذ جعلهم قردة خاسئين ، مستبعدا اياهم من قائمة البشرية فى الدنيا بناء على اختيارات لهم فى تجارب ابتــلائية سابقة • وذلك يبين أيضا أن سنته سبحانه فى ابتلاء الفرد والجمــاعة والمجتمع الصغير واحدة • ويتعامل الله سبحانه وتعالى مع الامة الكبــيرة حين يبتليها بنفس السنة التى شاءها سبحانه للتعامل مع الفــرد والجماعة والمجتمــع الصــغير •

نأخذ لذلك بنى اسرائيل • اذ يقول لهم الله مذكرا اياهم بما حدث من فرعون (واذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العــذاب ، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ــ البقرة ٤٩) • فبين أن ما حدث من فرعون من مظالم وأذى لهم انمــا كان بأمره تعالى تحقيقا للابتلاء • فلمــا صبروا أرسل فيهــم موسى

وهارون حيث شاء الله بعد نجاحهم فى هذا الابتلاء ، أن يبتليهم بالسراء بعد الضراء فاختارهم لامامة الارض ووراثة خلافتهـا من آل فرعون (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين • ونمكن لهم فى الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ـ القصص ٥ ـ ٦) • فتنـاولتهم سنة الابتـلاء للرفعة والتطهير والرقى فى درجات الايمان، ولكنهم تعثروا فلم يختاروا الحسن فى كل تجاربهم الابتلائية فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة فتلكأوا، ثم ذبحوها (وما كادوا يفعلون ـ البقرة ٧١) • وحيث عبدوا العجل أثناء غياب موسى عنهم • وحيث لم يأخـذوا ما آتاهم الله من الكتاب والشرع الا بالقـوة • وحيث رفضوا أن يدخلوا مـع موسى الارض المقدسة محاربين (واذا قال موسى لقومه : يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم ، اذ جعل فيكم انبياء ، وجعلكم ملوكا ، واتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين • يا قـوم ادخلوا الارض المقدسـة التى كتب الله لكم ، ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين • قالوا ياموسى ان فيهـا قوما جبارين • وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون • قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما : ادخلوا عليهم الباب ، فاذا دخلتموه فانكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين • قالوا يا موسى : انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيهـا ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، انا هاهنا قاعدون • قال رب انى لا أملك الا نفسى وأخى ، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين • قال : فانهـا محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الارض ، فلا تأس على القـوم الفاسـقين ـ المائدة ٢٠ ـ ٢٦) • والشاهد فى هذه الايات انهم لما فشلوا فى ابتلائهم الاخير ورفضوا الاستجابة للجهـاد ابتلاهم الله بالتيـه فى الارض ، وذلك حسب سنته تعالى بالابتلاء بالشدة للعلاج والتوجيه اذ فشلوا قبل ذلك فى الابتلاء بالسراء • ولكن يبدوا أن ابتلاءهم بالتيه أربعين سنة للتوجيه والعلاج قد أجدى معهم (ألم تر الى الملأمن بنى اسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبى لهم : ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله ،

قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتـــال الا تقاتلوا قالوا : وما لنـــا الا نقاتل فى سبيل الله ، وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ، فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم ، والله عليم بالظالمين • وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا ــ البقـــرة ٢٤٦ ــ ٢٤٧) • ومن ثم كتب عليهم القتال بقيادة طالوت تمحيصا لما فى قلوبهم ، بعد ان أبدوا الندم وصرحوا بالرغبة فى الجهـــاد لدخول الارض المقدســـة ، وذلك موقف ابتلائى جبرى أدخلهم الله فيه بناء على اختيار سابق ، ليتبين الصادق من الكاذب فيهم • ومن ثم ابتـــلى الله الخارجين مع طالوت للجهـــاد (فلما فصل طالوت بالجنود قال : ان الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمـــه فانه منى ، الا من اغترف غرفة بيـــده ، فشربوا منـــه الا قليلا منهم ، فلمـــا جاوزه هو والذين آمنوا معه ؛ قالوا : لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، قال الذين يظنون انهـــم ملاقوا الله : كم من فئـــة قليلة غلبت فئة كثـــيرة باذن الله ، والله مع الصابرين • ولما برزوا لجالوت وجنوده ، قالوا : ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القـــوم الكافرين • فهزموهم باذن الله ، وقتل داود جالوت ، واتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضـــل على العالمين ــ البقرة ٢٤٩ ــ ٢٥١) • فالابتلاء بالنهر للجنود وهم فى شـــدة من العطش ، انما هو ابتـــلاء تمحيص يتميـــز بعـــده المؤمن من سواه • ثم كان الابتلاء الحقيقى فى النزال وملاقاة العدو حيث لم يثبت الا الفئة المؤمنة حقيقة •

وما نخرج به من نتائج حيال سنة الله سبحانه فى تسيير الاحداث البشرية على الارض بالنسبة للمجتمع الكبير او الشعب او الامة تماما مع سنته فى ابتلاء الفرد والجماعة والمجتمع الصغير •

بيد أن المثال السابق انما يصلح أيضا لبيان أساس القانون الذى يحكم به الله أحداث البشرية العـــالمية أو ما يمكن تسميته بالاحداث

الدولية ، والتى تتمثل فى احتكاك الدول وتعاملها وتدافعها بعضها ببعض • وذلك ما حدث بين بنى اسرائيل وآل فرعون من ناحية ، وبين بنى اسرائيل والقوم الجبارين بقيادة جالوت من ناحية أخرى حيث كانت الاحداث التى دفع الله بها بعضهم ببعض ابتلاءات للجميع انتهت بفوز بنى اسرائيل فيها ، ومن ثم ورثوا الارض على أثرها ، وجعلهم الله خلفاءها وأئمتها فى عهد داود وسليمان (١) •

والنتيجة التى يمكن ان نضيفها كعلة لتفسير الاحداث البشرية على الارض ، وكأساس لفلسفة التاريخ فى القرآن وخاصة فى الامور الدولية العالمية ، هى أن الله سبحانه وتعالى يقيم هذه الاحداث بين المجتمعات والدول لاجراء المواقف الابتلائية الجماعية والاجتماعية جبرا عليهم تحقيقا للابتلاء بجانب كون هذه الاحداث ضرورية لحفظ الحياة على الارض وبقاء للخير والسلام • ومن ثم فان الجوانب الجبرية من حياة البشر أفرادا وجماعات ومجتمعات وشعوبا وأقواما وأمما انما تؤدى الى الابتلاء حيث يبتلى الله الفرد بالفرد والجماعة بالجماعة ، والمجتمع بالمجتمع ، والشعب بالشعب والامة بالامة ، والاقوام بعضهم ببعض • وفى نفس الوقت يحفظ الله — بهذه الجوانب الجبرية والاحداث الحتمية — الحياة على الارض ، ويبقى على الخير والسلام فيها • وذلك معنى قوله تعقيبا على انتقال الامامة فى الارض الى أيدى بنى اسرائيل فى عهد داود (•• ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين — البقرة ٢٥١) كما نقرأ كذلك تأكيدا لهذه النتيجة قوله تعالى يشير الى بداية انتقال امامة البشرية ، وخلافة الارض الى أيدى المسلمين فى صدر الاسلام (ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يحب كل خوان كفور •

(١) أى عندما كانوا مسلمين مقيمين لحكم الله ، اما بعد ان ضلوا وافسدوا فى الارض فقد لعنهم الله وهم الان اشد اعداء الله فى الارض المفسدون فيها وموالاتهم كفر بالله واتباع وعبادة للشيطان •

اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير • الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولو ربنا الله • ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا • ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز • الذين ان مكناهم فى الارض ، أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور ــ الحج٤٠ــ٤١)
أى أن الله يدفع الناس بعضهم ببعض ، ذلك الدفع الذى يبلغ ذروته فى الشدة فى الحروب بين الشعوب والامم حيث تكون النتيجة عزل أمة عن القيادة والعلو فى الارض وتولية آخرى ، وذلك بناء على فشل الامة المعزولة فى ابتلاءاتها بالسراء والحكم ، وشتى أنواع الابتلاءات العلاجية والتوجيهية والانذارية من ناحية ، وبناء على نجاح الامة التى ستتولى زمام الامور فى الارض من بعدها فى ابتلاءاتها بالضراء والالام والشدة • وذلك ما حدث حيث تولى المسلمون من جميع الاجناس والالوان بقيادة المهاجرين من قريش امامة البشرية ، حيث كان لهم النصيب الاوفر ، دون كل الامم والشعوب على سير الاحداث البشرية حتى مطلع القرن العشرين • (ان خلافة الارض وامامة الناس ووراثة الحكم ، ابتلاء من الله لمن يستخلفهم على البشر ، ونجاح ذلك النوع من الابتلاء قد نصتعايه الايتان السابقتان حيث يقول الله (الذين ان مكناهم فى الارض ، أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور) أما وقد تخلى المسلمون فى آخر عهدهم عن ذلك وفشلوا فى ابتلائهم ، فقد استوجب ذلك ــ حسب سنة الله فى الناس ــ عزلهم عن الخلافة ، حتى يمكن القول ــ بناء على الاحداث المعاصرة التى يمر بها المسلمون فى جميع انحاء العالم أفرادا وجماعات ومجتمعات وشعوبا ــ انها قد خرجت من أيديهم وتلقفتها أمم أخرى • وما كان ذلك الابناء على اختياراتهم السابقة فيما ابتلاهم الله به للعلاج والتوجيه والانذار، حيث لم يستجيبوا له ولم يتضرعوا، ولم يعودوا الى شرعه ومنهاجه • (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ،

ولن تجد لسنة الله تبديلا ــ الاحزاب ٦٢) • الله سبحانه لايحابى أحدا من خلقه ، وانما يعاملهم جميعا معاملة واحدة حسب احوالهم الاختيارية (••• فهل ينظرون الا سنة الاولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا • أو لم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الارض ، انه كان عليما قديرا ــ فاطر ٤٣ ــ ٤٤) •

وكما جعل الله لكل فرد آجل جعل لكل مجتمع اجل ، كما جعل لكل شعب وكل أمة أجل • وما نقصده من حياة الشعب أو الامة هو وجود افرادها وجودا مترابطا أو متماسكا حيا كحياة الكائن الحى • ومن ثم يمكن أن نفهم قوله تعالى (قل : لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا الا ما شاء الله ، لكل أمة أجل ، اذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ــ يونس ٤٩) • بمعنى أن انتهاء الاجل انما هو بانتهاء حياتهم الجماعية كأمة واحدة أو بانتهاء امامتهم لسائر الشعوب مع بقائهم كأفراد مبعثرين مشتتين ، كما حدث لبنى اسرائيل •

الحقب التاريخية فى القرآن الكريم :

يقدم لنا القرآن الاساس الجماعى لتقسيم البشرية على مدار تاريخها الطويل منذ آدم حتى قيام الساعة ، حيث يجعل اساس هذا التقسيم الحقبة او الفترة الزمنية الكبيرة التى تضم حياة عدد من الامم والشعوب ، تتناوب كل أمة فيها امامة البشرية حتى يثبت عدم صلاحيتها لذلك ، فتعزل وتتولى غيرها • وينقسم تاريخ البشرية ــ كما يعرضه لنا القرآن ــ الى أربع حقب أو أربع فترات :

الاولى ــ وتبدأ من آدم عليه السلام الى نوح وهى تضم أمما وشعوبا توارثوا قيادة البشرية فى فترتهم حتى نوح وذلك حتى حق

عليهم الاستئصال من الارض واستخلاف غيرهم نتيجة لفشــل جميع الفروع فى هؤلاء القوم لامامة الناس وللخلافة فى الارض حيث أصبحوا خطرا على الانسان وذلك لتسببهم فى انتفاء الاستواء اللازم لصحة الاختيار البشرى بشمول الفساد والظـلام فى البر والبحر بما كسبت أيديهم ، وذلك بعد أن ارسل الله اليهم الانبياء الكثيرين فلم يستجيبوا لهم (ولكل أمة رسول ، فاذا جاء رسولهم قضى بينهــم بالقسط وهم لا يظلمون ــ يونس ٤٧) • أى أنه يمكن القــول ان لكل فترة رسول نذير ، يرسله الله كانذار اخــير للاستئصال وابتلاء نهــائى لهم (انا أرسلنا نوحا الى قومه ، أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال ياقوم انى لكم نذير مبــين أن اعبدوا الله واتقــوه وأطيعون ــ نوح ١ ــ ٣) • فلما لم يستجيبوا للنــذير (وأوحى الى نوح انه لن يؤمن من قومك الا من قد آمن ــ هود ٣٦) • حتى أصبح ذلك المجتمع بغلبة الكفر فيه ، غير صالح لقيام التجارب الابتلائية لافراده وجماعاته حيث انتفت فيه ظروف وأحوال وملابسات التجربة الابتــلائية التى تحدثنا عنها والتى تؤدى الى الاختيار الحــر الصحيح ، ومن ثم دعا نوح ربه بافنائهم ، لان من سيولد منهم سوف لا يكون الا كافرا لانتفاء الاستواء اللازم لقيام الاختيار البشرى الحر (وقال نوح : رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا • انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا الا فاجرا كفارا ــ نوح ٢٦ ــ ٢٧) • وذلك يعنى أن الله يغــير مابقوم بناء على اختياراتهم فى تجاربهم الابتلائية ، كما أن هذا التغيير ، أو الاستئصال لهم من الارض انما يكون للمحافظــة على ظروف وأحوال التجربة الابتلائية التى تحقق للناس الحرية باقامة الاختيار الصحيح ، ومن ثم فان دفع الله الناس بعضهم ببعض يعنى استئصال البعض او تشتيتهم أو انتهائهم كأمة وتوريث الاخرين الحكــم والامامة محافظة على هذه الظروف ، وابقاء على الحرية البشرية •

والثانية ــ وتبدأ من بعد طوفان نوح الى هود عليهما السلام ، وهم قوم عاد ، الذين استخلفهم الله فى الارض بعد نــوح فازدادوا عدادا وعدة وتحضروا وتمكنوا فى الارض وجرت عليهم سنه الله فى الانسان فارسل اليهم الرسل والانبياء ، وعالج فيهم الامامة ونقلهــا من فرع الى آخر ، حتى اذا فسدت جميــع الفروع أرسل اليهــم هودا نذيرا أخيرا ورسولا أخيرا لهم (فان تولوا فقد ابلغتكم ما أرسلت به اليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، ان ربى على كل شيء حفيظ • ولما جاء أمرنا نجينــا هودا والذين آمنوا معه برحمة منــا ، ونجيناهم من عذاب غليظ • وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصو رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد • واتبعوا فى هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة، الا أن عادا كفروا ربهم ، الا بعدا لعــاد قوم هود ٥٧ ــ ٦٠) فبــين سبحانه هنا أنه قد أرسل اليهــم رسلا كان آخرهم هود وذلك يثبت ما ذكرناه من أن القوم أصحاب الحقبــة الواحدة من تاريخ البشرية يتناوبون الامامة حقبتهم وفترتهم أمة بعد أمة وشعبا بعد شعب •

والثالثة ــ وتبدأ من بعد اهلاك عاد الى عهد صالح ، وهم ثمود ، حيث ورثو الارض بعد عاد ، وجرت عليهم سنة الله فى ابتــلاء الخلق بالضراء ثم السراء وبانتقال الامامة من فرع الى فرع فى القــوم حتى عم الفساد فلم يبق فيهم شعب أو أمة صــالحة للامامة وقيادة الناس الى الخير أرسل اليهم صالحا نذيرا أخيرا ، وابتلاء عاما نهائيــا لهم حيث استدرجهم الله بالابتلاء الاخير بالناقة فظهر منهم ــ حين عقروها ــ الشر والكفر الذى يخل بالتوازن والاستواء الضروريين لقيام الاختيار الحر بين الاجيــال المتعاقبة فيهم ، ومن ثم حق عليهــم الاستئصال (ويا قــوم هذه ناقــة الله لكم آية ، فذروها تأكــل فى ارض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذنكم عذاب قريب • فعقروها ، فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ، ذلــك وعد غير مكذوب فلمــا جاء أمرنا ، نجينا صالحا والذين آمنو معه برحمة منا ، ومن خزى يومئذ • ان ربــك هو

القوى العزيز • وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين • كأن لم يغنوا فيها ، الا ان ثمود كفروا ربهم الا بعدا لثمود – هود ٦٤ – ٦٨) •

والرابعة – هى التى نعيشها الان ، بدأت بابراهيم عليه السلام وتنتهى بقيام الساعة ومن ثم يحدثنا االله عنها فى القرآن تفصيلا ، بينم يحدثنا عن الفترات السابقة اجمالا فيقص علينا من أنباء أممها وشعوبها وابتلاءات كل أمة وكل شعب بشتى صنوف الابتلاءات العلاجية والتمحيصية ، فبين سبحانه أنه جعل ابراهيم اماما للناس بعد نجاحه فى ابتلاته بكلمات (واذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال :انى جاعلك للناس اماما ، قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين – البقرة ١٢٤) • وذلك يؤكد ما ذكرناه أن الامامة تنتقل من فرع الى فرع فى القوم بناء على فسادهم وظلمهم • وذلك ما حدث ، حيث جعل الله الامامة أولا فى فرع اسحق من ذرية ابراهيم فحكموا الارض فى عهد داود وسليمان ، ولكنهم ما لبثوا بطول العهد أن ضلوا وافسدوا فى الارض ، فعالجهم الله بالرسل ولانبياء حتى اخر نبى منهم وهو عيسى عليه السلام ، فلما لم يستجيبوا له ويرجعون الى شريعة التوراة نقل الله الامامة منهم الى الفرع الاخر من ذرية ابراهيم وذلك ببعث محمد صلى الله عليه وسلم من ذرية اسماعيل ، وجعله نذيرا أخيرا لتلك الفترة الاخيرة من حياة البشرية على الارض ومن ثم كان خاتم الانبياء والمرسلين جميعا • فتولى منذ بعثه عليه الصلاة والسلام ، المسلمون امامة البشرية ، وما زالت الابتلاءات بالسراء والضراء تترى على هذا الفرع علاجا وتقويما لهم حتى انتزعت الامامة من أيديهم فى مطلع هذا القرن لما أصبحوا ظالمين ، وذلك بانتهاء الخلافة الاسلامية الاخيرة فى تاريخ أمة الاسلام بسقوط الخلافة العثمانية •

ومعنى ذلك ان امامة البشرية لا يمكن أن تخرج عن أبنـــاء ابراهيم الى غيرهم والبنوة هنا ليست بنـــوة نسلية عصبية فقط ، وانمـــا هى تشمل ، علاوة على الذرية ، الحنفاء الذين هم على دينـــه ولا يرغبون عن ملته ، فهو أبو المسلمين الى يوم القيامة (ملة أبيكـم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) .

فالاحق دائما بالامامة فى الارض هم المسلمون لانهم أهـل الحق والعـــدل بدليـــل ان الله عز وجل قال لابراهيـــم عليه السلام عنـــدما ســـأله أن يجعـــل الامامة فى ذريتـــه (لا ينـــال عهـــدى الظـــالمين) ومعناه ان الله تعـــالى استجاب لابراهيم دعوته فى جعـــل الامامة فى ذريته ، لكن باستثناء الظالمين منهم ، فالحكام من نســـله والامامة فى المسلمين ولذلك نجد انه عندما سقطت عصا الحكم فى الارض من أيدى المسلمين ــ بسبب غلبة الظلم والمعاصى على افعالهم وبسبب تركهـــم لكتاب الله عز وجل كمنهاج للحكم والحياة تلقفها على الفـــور أبنـــاء الفرع الاخر وأتباعهـــم وهم اليهود والنصارى على اختـــلاف شديد بينهـــم .

وليس فى هذا تعارض مع الاية الســـابقة التى تنص على الا ينـــال عهد الله الظالمين من ابناء وذرية ابراهيم ، لان حكم اليهـــود للارض وعلوهم عليها يقوم بسنة أخرى غير السنة التى يتولى بهـــا المسلمون امامة الارض ، فبينما يتولى المسلمون الامامة بالحق والعدل والخير ، فان اليهود والنصارى المشركين لا يتولون الامامة الا بالافســـاد حيث قدم الله افسادهم فى الارض على علوهم فيها والعـــلة تسبق المعلول أو السبب يسبق النتيجة فى الحدوث وذلك بدليل قوله تعالى (وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفســـدن فى الارض مرتين ولتعلن عـــلوا كبيرا ــ الاسراء ٣) . كما أن هذا العـــلو مرتبط بقضاء ســـابق وهو استثناء من حالة الذل والمســـكنة التى ضربت عليهم منذ تفرقهـــم فى الارض ، حيث اخبرنا الله تعـــالى ان الحالة الوحيـــدة التى يمكن أن

يستعلى فيها اليهود فى الارض هى بحبل من الله ، وحبل من الناس • وذلك بناء على أهمال أهل الحق لما تحت ايديهم من الحق وبعدهم عنه (ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا لا بحبـــل من الله وحبل من الناس — آل عمـــران ١١٢) •

ولعل المرة الثانية التى وصلوا فيها الى العـــلو فى الارض بالافساد تتمثل فى الحركة الصهيونية الحديثة والمعاصرة ، حيث تســـلم اليهود مقاليـــد الامور فى الارض ، السياســـية والاقتصـــادية والاعلاميـــة والتعليمية والشبابية والنسائية والنقابية وذلك بما يملكونه وينظمونه من منظمات سرية وعلنية كالماسونية والروتارى والاتحادات العالميـــة للشباب والنساء • وقد تم لهم التمكن بالقدر الذى أتاحه الله عز وجل لاهل الشر فى الارض بعـــد سقوط الخـــلافة العثمانية وبعد الحـــرب العالمية الثانية ومن ثم تمت لهم السيطرة علنـــا على البلاد الامريكيـــة والاوربية وسرا على البلاد الاسلامية والعربية وذلك بنشر وتدعيـــم المذاهب والمبادىء والمنظمـــات والمؤسسات والاجهـــزة الهدامة للدين والاخلاق والاعراف والتقاليد الطيبـــة لاحلال الفساد وسوء الخـــلق والكفر والفتن فى المجتمعات ولكن مع ذلك لم تتم لهـــم السيطرة على العالم الاسلامى بالشكل الصريح العلنى كما تم لهم ذلك فى العـــالم الغربى ، ذلك أن الشعوب الصليبية تخلت عن عقيدتها تمـــاما وتركت دينها على الاغلب فعزلوا الدين عن الحياة واصبحت الدول الغـــربية دولا علمانية وبذلك تم لليهود الوصول ، وهم أقلية دينية ، الى مقاعد الحكم الرئيسية ، وتوغـــلوا فى شتى نشاطات ومجـــالات وقيادات وريادات الحيـــاة الاجتماعية والسياسية والاقتصـــادية والتعليمية ، سواء عن طريق افراد يهود او اتبـــاع لهم فى منظماتهم • أما العـــالم الاسلامى فان افراده مازالوا متمسكين بدينهـــم وعقيدتهم وان كان الاستعمار الصليبى والماسونية قد نجحا فى جعـــل الدول الاسلامية غير اسلامية من حيث انظمة الحكم والتشريع وعادات وتقاليد ومفاهيم

شعوبها الا انها لم تستطع ان تحول المجتمعات الاسلامية تماما الى مجتمعات كافرة أو جاهلية مائة فى المائة ، ولا ندخل فى تفاصيل اسباب ذلك ، ولكن مهما تعددت هذه الاسباب فانها ترجع فى النهاية الى مشيئة الله بحفظ دينه ورسالته الاخيرة الى الانسان ، حتى ان الرجل الغربى اذا اراد اليوم ان يعود الى ربه فانه لا يجد الطريق الصحيح ــ الا اذا اكرمه الله ومن عليه بمعرفة الاسلام ــ بينما العرب والمسلمون يستطيعون ــ بفضل الله عز وجل ــ العودة الى دينهم ليجدوه فى انتظارهم صالحا لكل زمان ومكان وحضارة وثقافة وكل جيل ايضا .

ومع اشتداد الهجمة الصهيونية الخبيثة الكافرة على العالم الاسلامى ، وبالرغم من مجىء هذه الغارة الصهيونية ممتطية الصليبية حضارة وثقافة وتقدما مدنيا وتكنولوجيا ، مما يجعل الحليم حيرانا ، بالرغم من ذلك فان طلائعا جديدة من شباب المسلمين بدأت تصف اقدامها صفوفا متراصة فى مواجهة هذه الهجمة وهذا الغزو الشيطانى الخبيث اللئيم للعالم الاسلامى بقيادة بنى اسرائيل .

وبنو اسرائيل اليوم هم شياطين الانس وهم الاسباب الحقيقية والمباشرة وغير المباشرة لشقاء الشعوب وضلالها ، وهم المدبرون لمعظم الحروب والمخططون لكل المشاكل السياسية والاقتصادية العالمية والقائمة بين الدول المجاورة بما فى ذلك البلاد العربية والاسلامية . وهم المحاربون لكل نهضة اسلامية ولكل دعوة الى الله وهم وراء التنكيل بالدعاة وتعذيبهم وقتلهم . فهم اعداء الله وأعداء المؤمنين (... لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ... المائدة ٨٢) (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم .. البقرة ١٢٠) .

ان أمة الاسلام هى أمة الحق واليهود والنصارى هم قادة أمم الباطل ، وسنة الله النافذة التى لا يمكن لاحد أن يوقفها او يعطلها تقضى بداوم الصراع بين امة الحق وامة الباطل او أمم الباطل .

هذا الصراع القائم الى يوم القيامة بين الحق الباطل لا يمكن أن يتوقف كسنة عامة ، لكنه يمكن ان يتوقف لحظة من الزمان بالنسبة لمجتمع ما او لفرد ما اذا ترك الفرد موقعه من جيش الحق او تركت الدولة او الامة موقعها من جيش الحق وتخلت عن الحق لكى تصبح من امم الباطل ، ومن ثم لا يكون هذا التوقف مستمرا ونهائيا ولكنه توقف لمدة لحظة تاريخية واحدة حتى تأخذ هذه الدولة او هذا الفرد موقعة الجديد داخل جيوش الباطل ، وهذا لا يكون بالنسبة للمسلم الا بالكفر او الارتداد عن دينه .

وعلى ذلك فان الحرب بين المسلمين المؤمنين وبين قادة الشر فى العالم قائمة ومستمرة حتى يقضى أحد الفريقين على الاخر ، وقد نبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم انه ستكون مقتلة عظيمة بين المسلمين واليهود حتى يقول الحجر والشجر يا مؤمن ورائى يهودى فاقتله وسيكون خلاص البشرية من اليهود على ايدى المسلمين . (١)

وما نود ان ننتهى اليه هو أن الصراع دائر ولا يزال دائرا ، وان يتوقف بين المسلمين واعداء الاسلام ، وان كانوا امما وفرقا متعددة الا انهم يتحدون ضد المسلمين لان الباطل يجمعهم ، والباطل وان

---

(١) لا يمكن فهم هذا النبا الا فى ظل أحداث الصراع الدائر الان بين أهل الحق فى المسلمين والصهيونية حيث تقم لليهود دولة الا فى هذا العصر .

اختلف ، فان من شأنه ان يتحد ضد الحق واهله ، اما فريق الحق فلا يمكن ان يتحد مع اى فريق مخالف له لان كل مخالف للحق باطل ولا يمكن لاهل الحق ان يتحدوا او يتجاوبوا أو يتصادقوا مع اهل الباطل الا بتخليهم عن الحق فاذا فعلوا ذلك اصبحوا منهم أى اصبحوا من اهل الباطل •

بالرغم من ضعف المسلمين الان وتأخرهم المادى والحضارى عن امم الباطل الا انهم مع ذلك اقوى واقدر على الصمود على حلبة الصراع الحضارى وسر قوتهم تكمن فى الحق الذى معهم والحق فى كتاب الله • فهم يملكون السبيل الاقوم للنصر يقول الله عز وجل (ان هذا القرآن يهدى للتى هى اقوم) فلا مناص امام المسلمين ولا سبيل امامهم سوى العودة الى القرآن الكريم نظاما ومنهاجا وبناءا اجتماعيا لحياتنا •

وسنة الله من التاريخ البشرى تشير الى انه لابد من عودة الاسلام ومن ثم عودة المسلمين الى التقاط عصا الحكم والامامة فى الارض ، كل الارض ، مرة ثانية • ذلك امر حتمى تقضى به مشيئة الله ورحمته وعنايته للبشرية وتدل على هذه الحتمية طبيعة الحياة والناس التى تتقلب بين نهار وليل وهكذا وبين ايمان وكفر ثم ايمان وهكذا • ويؤكد ذلك اشتداد الظلام بما يوحى بقرب انتهاء الليل ، وقد بدت فى الافق بوادر النور الالهى معلنة بدء نهار اسلامى جديد يطل على البشرية لتسعد به قرونا الى ان يشاء الله • وتتمثل بوادر النور هذه فى طلائع الاجيال الجديدة من شباب ربانى يقبض على دينه كما يقبض على الجمر بعزيمة قوية يقاوم بها الشر ودعاته المحيطين به من كل مكان فى البيت والطريق والجامعة والبر والبحر والجو • وكانى بهذا الشباب – الذى تتمثل فيه امل امة الاسلام – يصدق عليه حديث رسول الله

صلى الله عليه وسلم الذى يقول فيه (من تمسك بسنتى عند فساد أمتى فله اجر مائة شهيد

ان الحرب سجال بين الحق والباطل ، جولة للحق وجولة للباطل كشأن الليل والنهار لو استقر احدهما دون الاخر لفسدت الحياة وقد خلق الله الدنيا والانسان للابتلاء فلو استقرت البشرية على الايمان والحق كلها فلن يصح الابتلاء ولن يقوم ، وكذلك لو استقرت البشرية كلها على الكفر والفساد فلن يصح الابتلاء ولن يقوم ولما كانت مشيئة الله النافذة ان يبتلى العباد بالعباد فانه شاء الا يستقر الامر للباطل وفى هذه السنة والمشيئة الالهية النافذة تكمن حتمية عودة الاسلام للبشرية وعودة المسلمين الى الامامة مرة اخرى •

لقد شاء الله أن يداول الايام بين الناس (••• وتلك الايام نداولها بين الناس آل عمران / ١٤١) حتى لا يظل باطلا محضا دائما ولاحقا محضا دائما والصراع بين الحق والباطل سواء كان فكريا او عسكريا فقد شاءه الله للابتلاء فهو قادر على القضاء تماما على الكافرين والشياطين ولكنه سمح لهم بالكفر وبايعازهم الناس بالشر لابتلاء الناس يقول الله عز وجل مبينا الحكمة من امر المؤمنين بقتال الكافرين (••• ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض — سورة محمد ٤) •

لقد شاء الله ان يكون الناس احرارا للابتلاء ومن شأن الاحرار أن يختلفوا ومن شأن المختلفين ان يتصارعوا ومن شأن المتصارعين ، فى الصراع الدائم ، ان تكون الحرب سجالا بينهم • وكل ذلك للابتلاء ، فالحق المحض والايمان المحض يعنى ان الناس أصبحوا ملائكة ولقد شاء الله ان يكونوا بشرا لا ملائكة • والباطل المحض والشر المطبق

والظلام المستمر يعنى ايضا استحالة تحقيق الابتلاء حيث ينعدم الاستواء الضرورى لتحقيقه ومن ثم اخبرنا الله عز وجل بان الناس (... لا يزالون مختلفين) وفى هذا دليل على استمرار الصراع بين فريق الحق وفريق الباطل الى آخر عمر البشرية تحقيقا للابتلاء .

وبهذه السنة ستقوم الساعة باذن الله . ذلك أنه اذا حدث من الناس وباختيارهم غلبة الباطل عليهم وانتهاء الحق من بينهم وطال عليهم الامد فى باطلهم واجمعوا كلهم على ذلك حتى لم يعد امل فى عودتهم مرة ثانية الى الحق وبحيث لم تعد الحياة الانسانية صالحة للابتلاء بانعدام الاستواء الضرورى المحقق للابتلاء مما يكون نتيجته أنه لن يولد من اصلاب البشر الموجودين الا كافر ، عند ذلك تقوم الساعة وتفنى البشرية بسبب انعدام الظروف والاحوال المحققة للابتلاء الذى هو الحكمة التى من اجلها خلق الله الدنيا والناس . ومن ثم يقضى الله على الدنيا والناس فيستأصل الله عز وجل برحمته البشرية ذاتها بقيام الساعة حيث تقوم الساعة بامر الله وتقديره بناء على افعال البشر الاختيارية وحسب سنته فى استئصال الامم والشعوب لكن هذه المرة الاخيرة سوف تستأصل البشرية كلها لاجماعها على الكفر وبعد فقد الامل فى ان يخرج من اصلابهم من يوحد الله .

وما دامت الارض والسماوات والحياة الدنيا جميعا مخلوقة للانسان ، فان استئصال الانسان من هذا العالم يعنى انه لاضرورة بعد ذلك لبقاء العالم .فيبدل الله السماوات بسماوات اخرى والارض بارض اخرى . حيث يقوم هذا العالم الجديد للجزاء كنتيجة حتمية للابتلاء .

ولقد أرسل الله رسوله الاخير الى البشرية لكافتهم ، ومن ثم فانه اذا عم الشر والفساد فى الارض حتى ينتفى الاستواء اللازم لقيام الارادة الحرة المختارة واستيئس من كل فروعها وأممها وشعوبها ،

وحتى لم يعد هناك أمل فى الخير جرت عليها وعلى أهلهـا سنة الله فى الذين خلوا من الاقوام السابقين (انما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، فاختلط به نبات الارض مما يأكل الناس والانعام ، حتى اذا أخذت الارض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهـم قادرون عليها ، أتاها امرنا ليلا أو نهارا ، فجعلنـاها حصيدا كأن لم تغـن بالامس ، كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون ــ يونس ٢٤) .

نخرج من ذلك كله أن فلسفة التاريخ البشرى فى القرآن الكـريم تقوم أساسا على حقيقة الابتلاء حيث تتنزل الاقدار الحتمية بناء على الافعال الاختيارية للبشر ، وحيث يسير الله الاحداث بالتدافـع بين الامم والشعوب لحفظ الحياة البشرية الحـرة على الارض ، بتوليته أصلحهم الخلافتها . ومن ثم يمكن القول ان التغيير الجبرى فى حيـاة البشر النازل من السماء انما يكون بناء على التغيير الاختيارى النفسى الصاعد من الارض ، وبناء على ما يتفق مع مصلحتهم وحفظ حيـاتهم الحرة واستمرارها وذلك ما يقرره قوله تعالى (كد أب آل فـرعون ، والذين من قبلهم كفروا بايات الله ، فاخذهم الله بذنوبهم ، ان الله قوى شديد العقـاب . ذلك بأن الله لم يكن مغيرا نعمـة أنعمها على قـوم ، حتى يغيروا ما بأنفسـهم وأن الله سميع عليم ــ الانفـال ٥٢ ــ ٥٣) وبين سبحانه أن هذه هى الاسس التى شاء ان يعامل بها جميع خلقـه من البشر على اختـلاف أقوامهم وأممهم وشـعوبهم وأفرادهم فقال (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مابانفسهم واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال ــ الرعد ١١) .

ان افعال العباد عامل حاسم من العوامل الحاسمة فى تحديد سـير تاريخ أمة من الامم او مجتمع اما العامل الحاسم الاخر فهـو قدر الله ومشيئته وأهمية العامل البشرى تكمن فى ان اقدار الله عز وجل تتنزل

بناء على التغيير الذى يحدثه الناس فى انفسهم من خير الى شر او من شر الى خـــير •

كما يقرر سبحانه الاساس الثانى الذى يتحدد بحسبه سير التاريخ البشرى (••• ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين ـ البقرة ٢٥١) وقـــوله أيضا (••• ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيـــع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ـ الحج ٤٠) •

والمستنبط من هذه الايات ان الله عز وجل يسير الاحداث التارخية ويحرك الصراع البشرى حسب قانون او سنة شاءها ، ترتبط فى النهاية بمشيئته فى ابتلاء العباد • فقد شاء الله ان يتدخل فى الصراع بالدفع ـ اى بدفع حركة التاريخ وبدفع الامم والمجتمعات والجيوش بعضهم ببعض حتى لا يكـــون ظلام تام مطبـــق ، بحيث تصبح الحيـــاة غير صـــالحة للابتـــلاء •

وهكذا فسرت لنا حقيقة الابتلاء ما بدا متعارضـــا فى اذهان بعض الناس من الجوانب الجبرية والاختيارية فى حيـــاة البشر وتكوينهم • وقدمت لنا الاجابات المنقولة والمعقولة عن كل ما يختـــلج فى نفوسهم من شـــبهات •

وقد عنى القـــرآن الكريم بتوضيح الجـــانب الجبـــرى والجانب الاختيارى فى الانسان مما جعل كثيرا من مفكرى الاسلام قديما وحديثا يظنون وجود تعارض قائم بين آيات القرآن التى تتحدث عن الجانبين من ناحية، وبينها وبين آيات المشيئة الالهية المطلقة من ناحية أخرى وبين آيات الفعل الانسانى وآيات الخلق الالهى كذلك • ولكن هذا التعارض لا اساس له ، وليس له وجـــود اطلاقا سواء فى الظـــاهر أو على وجه

http://al-maktabeh.com

http://al-maktabeh.com

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

http://al-maktabeh.com

القبيح ، والاخر يهتف ويهيب بها أن تفعل الحسن • والتقوى والهوى فى ذات النفس الانسانية هما النازعان المقابلان لهذين الهاتفين من حيث اتفاق الهـــوى فى النفس مع داعى الشر خارجها ، واتفـــاق التقوى مع هاتف الخير خارجها • والشيطان هو هاتف الشر الذى يحرض الانسان عليه ويدعوه الى ارتكابه ، والملك هو هاتف الخير الذى ينهـــاه عن الشر ويدعوه الى فعل الخير ، ولكل منهما ــ الشيطان أو الملك ــ فى النفس البشرية سلاحه الذى يستخدمه لذلك ، فللشيطان الهوى ، وللملك الفطرة المؤمنة • وليس لاى هاتف منهما الزام أو اجبار للارادة على اختيـــار هذا الجانب دون ذلك • فليس أحدهما مرجحا لفعل دون فعل ، وانمـــا هما هاتفان فقط أو داعيان ، ويثبت ذلك قوله تعالى (وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحـــق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى انى كفرت بما أشركتمونى من قبل ان الظالمين لهم عذاب أليم ــ أبراهيم ٢٢) • كما أن لمة الملك التى نص عليها الحديث الشريف ليست الا ايعاذا بالخير دون الالجاء اليه وذلك حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فايعاذ بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاذ بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله تعالى ، فليحمد الله ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان) • وليس الشيطان أو الملك هما فقط هاتفى الشر والخير ، وانما الانسان كذلك ، فمن الناس من هو من جنود ابليس والشر ، ومنهم من هو داع للخير والحق (قـــل أعوذ برب الناس ملـــك الناس اله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس ــ سورة الناس) •

ومن ثم فهذه الايات السابقة تثبت هاتف الشر ووعده الكاذب من ناحية ، وهاتف الخير ووعد الله الحق من ناحية أخرى • كما أنها تثبت

رفع أى سلطان أو قهر عن الانسان لحظة الاجابة ، الا سلطان ارادته حيث يقول الله عز وجل يخبرنا عن قــول الشيطان يوم القيامة (وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى) فالاستجابة هنا نابعة من العبد ، وكذلك ليس هنــا بالضرورة على العبد لحظــة الاستجابة لداعى الخير أى اكراه أو الزام أو قهر من الله لاستجابة العبد للخير دون استجابته للشر ، ذلك لان قدرة الله مطلقــة ومشيئته نافذة ، فلو أراد سبحانه أن يستجيب الناس كلهم للخير دون الشر ، لكان الناس كلهم أخيارا وامة واحدة • ولو أراد أن يكون له سبحانه سلطان وقهر والزام للارادة الانسانية لاختيار الشر دون الخير لكان لناس كلهم أشرارا • ولكنه سبحانه وتعالى لم يرد لهم هذا ولاذاك ، وانما أراد لهم أن يكونوا أحرارا وخلقهم أحــرارا كما أثبتنا ذلك فى معرض الكلام عن حقيقة الخلافة وعرض الامانة وحقيقة الابتــلاء • ومن ثم فالنتيجة الحتمية لوجــود ملايين من البشر الاحرار أن يكون بعضهم خيرا ، والبعض الاخر شريرا •

ومادمنا قد ذكرنا الارادة الالهية المطلقة • فلابد أن نذكــر تفصيلا العلاقة بينها وبين الارادة الانســانية الحادثة • وتلك هى الركيــزة الخامسة للاختيار فى القرآن ، وهى أهم الركائز وأخطرها • فالمشيئة الالهية المطلقــة تعنى أنه لا شىء يحدث فى هذا الكــون الا بأمر الله وقضائه وقدره ، فيتبادر الى الذهن لاول وهلة أن ما يفعله العبد أو حتى ما يختاره انمــا هو نتيجة لهذا القضاء وأنه يتم قهــرا بالمشيئة المطلقة ، وهذا ، وان كان من الحق الذى لا مراء فيه ، الا أنه لايستتبع بالضرورة عدم وجــود وقيام الاختيار الحــر لدى الانسان • أى أن المشيئة الالهية لا تجبر العبد وتلزمه باختيار هذا الفعــل دون ذلك ، وان كان الفعل يتم حتما فى نطاقها وتابعا لها وموافقا • واذا قلنا سوى ذلك فهو عين الخطأ ، ومصدره عدم التعمق فى فهم العلاقة بين المشيئة الالهية والارادة الانسانية •

فالابتلاء كحقيقة كونية وكتجربة وجودية انسانية انما تتضمن هذا الجانب وذاك • فالتجربة تدفع الانســـان أن يواجه فى نهايتها ضدين لابد أن يختـــار أحدهما ، أى أن التجربة البـــلائية تتضمن نوعين من الافعال الانسانية : الاول مؤديات ومقـــدما تـالتجربة وهى عبارة عن تلاقى عدة أسباب وعلل ليست فى الحقيقة سوى نتائج لافعال بشرية وطبيعية تكافت جميعا على انسان ما ، لتشكل عليه فعلا جبريا ، تكون نتيجته أن يجد هذا الانسان فيه نفسه مواجها بضدين ، عليه أن يختار أحدهما بارادته الحرة وبما أهله الله به من ركائز الاختيار الصحيح،ثم يبادر باستخدام استطاعته الحادثة لاتمام الفعل ، وهذا هو الجانب الاختيارى فى التجربة • على ذلك نستطيع أن نقول بتعبير آخـــر أن التجربة تحوى نوعين من الفعل البشرى : النوع الاول هو فعل جبرى لا يحمل أى صفة خلقية ولا يحاسب عليـــه الانسان ، وليس مسئولا عنه البتـــة • والنوع الثانى وهو الفعل الاختيارى وهو يتصف بصفات السلوك الخلقى ، ويحمل ســـماته ، ويتضمن ، كل مقومات العمـــل الخلقى ، ومن ثم ففاعـــله مسئول مسئولية كاملة عنه • ومما يجـــدر ذكره ، أن هذه الافعال الاختيارية التى يحاسب عليها الانسان ، انمـــا تدرج جميعا تحت نوعين متضادين للفعـــل الاختيارى هما : أفعـــال الضلال وأفعال الهدى • أو ثواب الدنيـــا وثواب الاخرة أو الكفـــر والايمان وما فى هذا المعنى ، فالانســـان اذا عندما يختار أى فعـــل اختيارى ، لابد أنه يختار بين أحد هذين النوعين أو أن هذا الاختيار يدل على اختيار العبد ورغبته وحرصه على أحدهما •

فان قيل ان فى القرآن آيات كثيرة تثبت جبرية من نوع آخـــر غير الجبرية التى سبق الحديث عنهـــا • حيث هى تمس موقف الانســـان ومصيره من الاخرة • وحيث تقع على اختياره بين الهدى والضلال • أى أن هذه الايات تثبت أن اختيار الانسان ليس حرا ، وأن الفعـــل البشرى الخلقى الذى يحاســـب عليه انما يتم بمشـــيئة الله وارادته

المطلقة • بمعنى ان هذه المشيئة الالهية هى المرجح لاختيار الارادة الانسانية لهذا الفعل دون ذاك ، وبذلك ينتفى الاختيار الحر ، بل تنتفى الحرية بانتفاء أحدى ركائزها ، بل أخطر تلك الركائز ، والايات الدالة على ذلك كثيرة نذكر منها (سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل : لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ـ البقرة ١٤٢) • وقوله (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء ، وما تنفقوا من خير يوف اليكم ، وأنتم لا تظلمون البقرة ٢٧٢) وقوله (لله ما فى السماوات والارض وان تبدوا ما فى انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ، ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير ـ البقرة ٢٨٤) وقوله (يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ـ آل عمان ٧٤) وقوله للرسول (ليس لك من الامر شىء ، أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون ، ولله ما فى السماوات وما فى الارض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ـ آل عمران ١٢٨ ـ ١٢٩) • وقوله عن المنافقين (فما لكم فى المنافقين فئتين والله اركسهم بما كسبوا ، أتريدون أن تهدوا من أضل الله ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ـ النساء ٨٨) وقوله (ان المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى ، يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا ، مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا ـ النساء ١٤٢ ـ ١٤٣) وقوله أيضا (وقالت اليهود والنصارى : نحن أبناء الله وأحباؤه • قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والارض وما بينهما واليه المصير ـ المائدة ١٨) • ومثلها (ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والارض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شىء قدير ـ المائدة ٤٠) •

وهكذا تثبت هذه الايات السابقة جميعا أن الله يختار من يشاء من عباده للرحمةويختار من يشاء منهم للعذاب وكذلك للهدى وللضلال والايات الاتية أيضا تؤكد هذا المعنى بوضوح وجلاء لا يقبلان التأويل • فيقول (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ــ الانعام ٣٩) • ويقول (ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوا يعملون ــ الانعام ٨٨) ويقول (والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراطمستقيم ــ يونس ٢٥) • كما يقول سبحانه وتعالى أيضا (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ، فيضل من يشاء ويهدى من يشاء ، وهو العزيز الحكيم ــ ابراهيم ٤) ويقول (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسئلن عما كنتم تعملون ــ النحل ٩٣) • وقوله (فمن يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل ، فلن تجد له وليا مرشدا ــ الكهف ١٧) • ويقول (وكذلك انزلناه آيات بينات وان الله يهدى من يريد ــ الحج١٦) ويقول (لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ــ النور ٤٦) ويقول (انك لا تهدى من أحببت ؛ ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ــ القصص ٥٦) ويقول (يعذب من يشاء ويرحم من يشاء واليه تقلبون ــ العنكبوت ٢١) •

فمرجع الهدى والضلال الى الله تعالى فى النهاية ، والقول بان الله عز وجل يعود اليه الامر فى اختيار بعض الناس للهدى والبعض للضلال ، او انتهاء مصير البعض للعذاب والبعض للرحمة والمغفرة ، يعتبر بحق من أخص خصائص الالوهية ، ولا يمكن نفى ذلك بحال طلبا لاثبات وتقرير العدل الالهى •• مادام يمكن اثبات وتقرير العدل الالهى مع اثبات انطلاقه مشيئته سبحانه • فمشيئته هى المرجع الاول ، لان الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يجعل نوعا من الخلق أحرارا ، وجعل الحرية منحة يأخذها من خلقه من يريدها ويقبلها ويحملها بمحض اختياره ، كما

سبق أن ذكرنا ذلك فى معرض الكلام عن عملية عرض الامانة وحقيقـة الخلافة ، ومن ثم فقـد شاء الله أن يكون الناس احـرارا كما شاء أن يختاروا هم هذه الحرية وليس يفرضها عليهم ، قسرا أو جبرا أو قهرا • وقد مر بنا أن معنى الحرية أو مجالها عند الانسان : هو أن يكون مخيرا بين الدنيا والاخرة ، أو بين الهدى والضلال • ومن ثم فقد بين الله لنـا كيف يختار سبحانه بمشيئته المطلقة البعض لهدايته ورحمتـه ، وكيف يختار الله البعض الاخر للضلال والعذاب • فلكى نفهم كيف يهدى الله البعض دون البعض ، لابد أن نعيد ذكـر الايات التى تتحدث عن ارادة الانسان المختـارة •

فبينما تتحدث الايات السابقة عن الارادة الالهية المطلقـة ، تتحدث هذه الايات أيضا عن ارادة الانسان المخيرة بين الدنيا والاخرة ، أو أمور الدنيا وسبيلها وأمور الاخرة وسبيلها (منكم من يريد الدنيا ، ومنكـم من يريد الاخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ــ آل عمران ١٥٢) ويقـول (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجـلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منهـا ، ومن يـرد ثواب الاخـرة نؤته منهـا وسنجزى الدنيا الشاكرين ــ آلعمران ١٤٥) • ويقول أيضا (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها ، نوف اليهم أعمالهم فيها وهم لايبخسون ــ أولئك ليس فى الاخرة الا النـار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانـوا يعملون ــ هود ١٥ ، ١٦) • ويقول (من كان يريد العاجـلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ، ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن ، فأولئك كان سعيهم مشكورا • كلا نمـد هؤلاء وهؤلاء من عطـاء ربك وما كان عطاء ربك محظـورا ــ الاسراء ١٩ ، ٢٠) • كما يقول (من كان يريد حرث الاخرة نزد له فى حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيـا نؤته منها ، وما له فى الاخـرة من نصيب ــ الشورى ١٩٤) • فهذه الايات السابقة كما سبق أن تحدثنا عنها فى معرض الحديث عن الارادة الانسانية المختارة ، تضع الارادة الحادثة

أمام ضدين من الافعال ، أحدهما يؤدى فعله الى الحصول على الدنيا ، والاخر نتيجته الفوز بالاخرة • فاذا نحن وضعنا هذه الايات التى تثبت تخيير الله سبحانه للارادة البشرية بين الضدين ، بجانب آيات المشيئة الالهية المطلقة ، فهمنا كيف تعمل هذه المشيئة فى حياة البشر ، وكيف تختار بعض الناس للهدى والبعض الاخر الضلال •

ان الله يهدى من يشاء وقد شاء سبحانه وتعالى بنص آيات الارادة أن يهدى من يختار الاخرة • وهو يضل من يشاء كما تنص على ذلك آيات المشيئة المطلقة ، وقد شاء سبحانه أن الذى يختاره الله من الناس للضلال ــ كما هو واضح صريح بنص آيات الارادة الانسانية المخيرة ــ هم الذين يريدون الدنيا وزينتها وحرثها وثوابها • كما قال أيضا سبحانه وتعالى مبينا الذين يختارهم للهدى ويمدهم به (ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شىء عليم ــ التغابن ١١) أى أن الهدى الالهى لا يمد الله به الا من يختار الايمان كما لا يمنع الله الهدى الا عن الكافرين من الناس وذلك حيث يقول (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ــ البقرة ٦ ، ٧) فبين هنا أن الختم على القلوب لا يجعله الله الا للذين اختاروا الكفر على الايمان كما قال أيضا (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ، ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ــ الاعراف ١٤٦) • فأثبت فى هذه الاية أن الصرف عن آيات الله أو الختم على القلب أو الامداد بالضلال انما يتنزل على العبد بناء على اختياره حيث بين أن الصرف عن آياته وعن الحق انما يتنزل على العبد نتيجة لاختياراته فى مواقف الابتلاء حيث تكبر فى الارض بغير الحق ، وحيث اختار سبيل الغى وترك سبيل الرشد ،كما قال تعالى أيضا فى بنى اسرائيل (فبما نقضهم

ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا • وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما ــ النساء ١٥٥ ، ١٥٦) وذلك يثبت ما سبق ان ذكرناه من أن الاضلال أو الهدى والختم والطبع انما يطبعه على قلوب العباد بكفرهم ، وقد يظن البعض فى هذه الايات السابقة شبهة الجبر ، وذلك ناتج من عدم فهم سنة الله فى معاملة العباد ، والتى تحدثنا عنها فى الفصل السابق حيث تبين لنا أن الاقدار الجبرية تنزل بناء على اختيارهم ، وشبهة الجبرية الناجمة فى اذهان البعض عن هذه الايات السابقة نتيجة ظنهم أن الكفر والضلال انما نتج عن الطبع والختم والصرف الالهى عن الحق ولكن الايات تثبت صراحة أن الطبع والختم والصرف لا تصيب الا الذين بدأوا باختيار الكفر والضلال والتكبر فى الارض بغير الحق ، وذلك يعنى أن أفعال الله النفسية فيهم والتى عبر عنها بالطبع والختم والصرف عن الحق ليست سوى الامداد الالهى بما يختار الانسان لنفسه ، وحيث أن هؤلاء قد اختاروا سبيل الغى وتركوا سبيل الرشد أو اختاروا الكفر وتركوا الايمان فان الله حسب سنته قد أمدهم بما يطلبون من ثواب الدنيا وحرمهم من ثواب الاخرة وذلك بالطبع والختم على قلوبهم وصرفهم عن آياته • ومن ثم تكون هذه الايات دليلا قويا على الاختيار بل أنها الضمان الالهى الذى لا يخيب ، وذلك أن سنة الله فى امداد العبد بما يريد من خير أو شر حسب اختياره هو الاساس الاول للحرية الانسانية الذى ينجيه من طائلة أية ضرورة أو جبرية سواء كانت طبيعية أو بيولوجية او نفسية او حتى جبرية الهية •

ومن ثم فليس بين المجموعتين : مجموعة آيات المشيئة الالهية ومجموعة آيات الارادة الانسانية أدنى تعارض أو تناف • ولذلك فقد جمع الله فى آية واحدة عمل ارادة الانسان المتمشية والمتناسقة والداخلة فى المجال اللامحدود لارادته سبحانه وذلك حيث يقول، جل وعلا (كلا انها

تذكرة ، فمن شاء ذكره ، وما يذكرون الا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ــ المدثر ٥٤ ، ٥٦) • ويقول أيضا (ان هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ الى ربه سبيلا ، وما تشاءون الا أن يشــاء الله ، ان الله كان عليما حكيما • يدخل من يشاء فى رحمته والظالمين أعد لهم عذابا اليما ــ الانسان ٢٩ ، ٣١) كما يقول (ان هو الا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين ــ التكوير ٢٧ ، ٢٩)• فهذه المجموعة من الايات تثبت للانسان ارادته ومشيئته الحرة المختارة، ولكنها تؤكد انطوائها ، ككل شىء فى الوجود تحت مشيئته سبحانه ، مع كون المشيئة الانسانية حرة• ومن ثم نجد أننا يجب علينا أن نرجع الى هذه الايات جميعا ، وليس الى بعضها لكى نعرف الحقيقة كاملة • كمـا أن هذه الايات تتحدث أيضا عن سنة الله التى شـاءها سبحانه لهداية البشر واضلالهم ، أى أنه سـبحانه كما سن السنن والنواميس التى لا تتبدل ولا تتحول بشأن خلق مخلوقاته واعطائها فطرها وماهياتها ، أى السنن التى تحكم المخلوقات غير المختارة وكذلك الجـانب الجبرى فى المخلوقات الحرة ، فانه عز وجــل قد سن الناموس الذى يسـير عليه الجانب الحر المختار فى المخلوقين المبتليين : الانس والجن ، وبين لنـا بهذه الايات أن الهدى والضلال بأمره ومشيئته ذلك لان الناموس الذى يتم به اختيار البعض للهدى والبعض للضلال فوق أنه بمشيئته سبحانه فانه جعل الهدى لمن يريد الهدى من الناس وجعل الضلال لمن يختار منهم الضــلال • أى أن الله سبحانه ، تخيـيرا للعباد ، جعل امداده لهـم بالضلال أو بالهدى بناء على اختيار العبد نفسه • وهذه السنة انما هى صادرة بالمشيئة الالهية المطلقة ، وبذلك يكون الاضلال والهدى مع كونه نابع من اختيار العبد بارادته الذاتية ، فهو أيضا بمشيئة الله وقدره • فالارادة الانسانية حرة تماما، ولكنها أيا ما اختارات فى الموقف الابتلائى فهو بمشيئة الله وقدره ، ليس هناك اختيار للانسان خارج عن قدر الله•

واذا جاز لنا أن نضرب مثلا يوضح العلاقة بين المشيئة المطلقة والارادة الانسانية الحادثة • ولله المثل الاعلى •• نقول : ان المجرة تحوى عديدا

من المجموعات الشمسية وكل مجمـوعة تحوى عديدا من الكواكب ، وكل كوكب يدور فى فلكه الخاص دورة خاصـه به حول شمسه ، ثـم تدور باكملها دورة جماعية داخـل المجرة فى نفس الوقت الذى يحدث فيـه دوران كل كوكب الخاص به فى فلكه ، ثم نجد المجرة ـ بكامل مجموعتها الشمسيه وبما تحويه كل مجموعة ـ تدور دورتها الخاصة فى الفضاء •• فحركه الكوكب الذى يدور داخل المجرة حول شمسه لا تتعارض اطلاقا مع حركه شمسه او حركه المجرة بل انها متضمنه فيها ومتمشية معهـا بتناسق وتوازن واحكام • كذلـك مشيئة الله ـ ولله المثـل الاعلى ـ ومشيئة العبد حيث أن مشيئه العبد تتحرك حركة ذاتية نابعـة من ذات العبد ولكن فى المجال الذى حدده لهـا سبحانه بمشيئته المطلقـة • وفى لحظات اختيارية معينة يستجيب فيها العبد لمواقف البـلاء والتجارب البلائية كما سبق • وبما أن الله سبحانه هو الذى حدد مجـال حركة الارادة المختارة ، وسمح لها بأن تتحرك فى هذا المجال اختيـارا حرا ، فهى اذا لا تتعارض ولا تتنافى مع مشيئته وانما تتمشى معها مع كونهـا حرة ، لانها أياما اختارت فهى من قدر الله ومشيئته •

٣ ـ **القرآن والجبريون :** يثبت البعض تناقضا فى القـول بوجود ارادتين حرتين ، وهذا ليس صحيحا ، فليس ثمة تعارض بين ارادتين حرتين اذا كانت احداهمـا مطلقة والاخرى محدودة تنحصر حريتها فى الاختيار فقط ، ومن ثم لا يمتنع عقلا القول بانطواء الارادة المحدودة تحت المشيئة المطلقـة •

ان القول بوجود ارادتين حرتين مطلقتين فى الكون هو القول الذى يرفضه العقل ولا يقبله المنطق، وليس ثمة مشيئة مطلقة الا لله وحده فى هذا الكـون •

أما القول بوجود ارادة مطلقة واحدة هى ارادة الله وحده مع وجود ارادات أخرى محدودة او مختارة فى لحظات محدودة ومواقف معينة سلفا ومحسوبة مسبقا فهو فى الحقيقة قول لا ينطوى على أى تعارض،

ما دام وجود الارادات المختارة ولحظات اختيارها المحدودة المحسوبة واقعا كله بمقتضى المشيئة الالهيــة المطلقة ، كما أن الاختيــار امام الارادات المخلوقة ليس مطلقا ، ولكنه محدود بطريقين ، ومقدر سلفا بفعلين فقط • وهذا التحديد والتقدير هو بفعل المشيئة المطلقــة • ومن ثم يكون الاختيار الواقع بفعل الارادة الحادثة لاحد الطريقين أو الفعلين انما هو ــ مع أنه اختيار حر وصريح ــ بفعــل المشيئة المطلقــة وغير خارج عنها ، فأى شيء فى الكون يقع خارج المشيئة المطلقــة ؟! لا شيء اطـــلاقا ! •

وذلك لان كونهــا مطلقة يمنع وجود اى مجــال خارج مجالها ، لان مجالها مطلق والمطلق لا متناهى واللا متنــاهى ليس له حدود ، ومن ثم ليس له ما هو خارجه ، ومن ثم ليس يوجــد ما يقــع خارجه لانه ليس ثمــة خارج له•

فكل شيء وكل فعل واقــع بامر الله عز وجل ، حتى افعــال العباد الاختيارية وليس ثمة شيء فى هذا القول او لبس أو غموض بعد ذلك ، الا ان يكون بفعل مجادل مراء لا يبغى الحق فى هذه المسألة بقدر بغيته التلبيس والخداع والمخــاتلة • وذلك هو موقف الكافرين والفاســقين الذين يحاولون التعلل والتمحل بالقدر والمشيئة الالهية تملصا وتخلصا ــ لا يجديهم ــ من ذنوبهم ومعاصيهم وكفرهم وشركهم فيزعمون انهم فعلوا هذه الافعال مسيرين غير مخيرين ، فيقررون الجبرية المحضــة • هؤلاء نجد القرآن الكريم حيالهم موقفا خاصا •

سبق ان تحدثنا عن ركائز الاختيار الخمسة فى القرآن الكريم وذلك أن القرآن يتحدث عن الاختيار البشرى كحقيقة ثابته قائمة بين البشر لها نتائجها المباشرة الفعالة فى حياتهم ومماتهم • بل أنه ليقــدم الادلة على رفع الجبر والقهر عن سلوكهم الخلقى حيال الرد على من يحتــج بقهر الله عليهم من المشركين ، حيث يعرض منطــق المشركين المغــالط ،

حينما يحاولون التنصل من مسئولية الاختيار بتجاهل الارادة الانسانية وفاعليتها ، مستندين فى ذلـك للى قولة حق يريدون بهـا باطلا ، وهى الرجوع بكل شيء ، وكل حادث ، وكل فعل الى المشيئة الالهية كعلة اولى ووحيدة ومباشرة لشركهم وكفرهم • وهذا ، كما علمنا وان كان حقـا ، الا انه لا يتعارض ولا يتنافى مع اثبـات الارادة الانسانية وفاعليتهـا باعتبارها ارادة مختارة ، حيث أن هذه الارادة ومدى فاعليتها وحدود عملها ومجال اختيـارها ، كل ذلك بمشيئة الله واذنه وقدره وحيث أن الله سبحانه هو الذى أضلهم ولكن بناء على اختيارهم للضلال وايثارهم منهم للدنيا على الاخرة قال تعالى (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ، ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقـو بأسنا • قـل هل عنـدكم من علـم فتخرجـوه لنـا ؟ ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصـون ــ الانعـام ١٤٨) • فاعتبار علة شركهم بالله هى المشيئة الالهية فقط ، مع تجـاهل ارادتهم واختيارهم لهذا الشرك ، اتباع لاظن ومجافاة للحقيقة التامة الكاملة • كما يقول أيضا عنهم (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون ــ الزخرف ٢٠) • ويقول أيضا (وقـال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولاحرمنا من دونه من شيء ، كذلك فعـل الذين من قبلهم • فهـل على الرسول الا البلاغ المبين ؟ ! ــ النحـل ٣٥) •

والملاحظ فى رد الله سبحانه وتعالى على قول المشركين الذين يحتجون بالجبر ، أنه يصفهم بالجهل والكذب • ومن ثم فنفى الارادة الانسانية المختارة بين الدنيا والاخرة أو بين الايمان بالله والكفر به يتعـارض مع آيات القرآن الكريم المحكمات •

فمما يثبت أن مشيئة الله المطلقة شاءت أن يكون للانسان ارادة حرة مختارة ، مما يجعل الانسان فريقين وأمتين وأن الله خلق الانسان حرا

مختارا ، وان كان اختيــارا محدودا وليس مطلقا ، وحــرية محدودة جزئية فى ظروف معينة ، ولحظات محسوبة ، مقــدرة مسبقا ، ومن ثم فالنتيجة الحتمية لهذه الحرية وهذا الاختيــار ، أن يكون البعض على الهدى والبعض على ضلال ، حسب اختيار كل منهم ، وان يفترق الناس الى حزبين : حزب الله وحزب الشيطان ٠

وما يثبت ذلك كله قول رب العزة ردا على هؤلاء المنكرين للحــرية والاختيار (قــل فلله الحجة البالغة ، فلــو شاء لهداكم أجمعــين ــ الانعــام ١٤٩) ٠ ومعنى أن للــه الحجــة البالغــة ، أن الناس لن يستطيعوا يوم القيامة الاحتجاج بالجبر ، حيث ان الله قد عرض عليهم الامانة عرضا اختياريا ، وقبلوها قبولا اختياريا ، ثم أنزلهم الى الارض للابتــلاء ، مزودين بجميع مقومات الحــرية ٠ ولذلك قال (فلــو شاء لهداكم أجمعين) ومعناها : أنه لو شاء لخلق البشر ، كما خلق الملائكة ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعــلون ما يؤمرون حيث أنهم لم يعطــوا الحــرية ، ولم يوهبوا الاختيار ، لرفضــهم الامانة ٠ وفى هذا يقــول الرسول الكريم فيما يرويه عنه الامام مسلم فى صحيحه (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم) [1] كمــا قال ايضا عليه الصــلاة والسلام (كل ابن آدم خطاء وخــير الخطائين التوابون) [2] ٠ فالذنب والخطيئة والمعصية من خصــائص الطبيعة البشرية وما هية الانسان ٠ أى ان أفعــال الانسان وسلوكه ليست ذات اتجــاه واحد ، بل هى ذات اتجاهين متضــادين أحدهما بالضرورة خطأ أو شر أو معصية والاخر بالضرورة صواب وخير وطاعة لله تعالى ٠ وهذا دليل الحرية والاختيار ٠ ولذلك يقول الله (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا

---

(١) رواه الترمذى ــ القيامة ــ حديث ٤٩ ٠

(٢) رواه مســلم فى التــوبة حديث ٩ ، ١١ كمــا رواه الترمذى

مؤمنين — يونس ٩٩) . أى أن الله شاء أن يكون الانسان حرا مختارا مريدا مما كانت نتيجته بالضرورة أن يكون من الناس مؤمن وكافر ، فهو الذى خلقهم فمنهم كافر ومنهم مؤمن . ولو شاء الله لجعل الناس كالملائكة غير مختارين ، ولو شاء لجعلهم جميعا مؤمنين بالجبر والضرورة والاكراه ولذلك قال (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) فاذا كان ربهم وخالقهم لم يكرههم على شىء من السبيلين ، حتى ولو كان على الهدى فمن يكرههم على شىء . وقد تفهم هذه الايه بمعنى ان الله سبحانه وتعالى شاء ان يكون البعض على الهدى والبعض على الضلال ، وهذا حق ، لكن اساس هداية الله للفريق الاول ، واضلال الله للفريق الثانى هو الاختيار الحر لكل فريق . ولذلك نقول توضيحا للاية ان الله سبحانه وتعالى لم يشأ للانسان ، بالنسبة للهدى والضلال ، الا حسب ما يختاره هو — اى الانسان — بارادته الحرة .

ومن ثم فالاختلاف بين الناس فى المذاهب والعقائد والاديان ومناهج الحياة ، انما هو نتيجة لماهيتهم وجبلتهم التى اختصهم بها الله من دون جميع مخلوقاته وفى هذا يقول (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين — هود ١١٨ ، ١١٩). فلو شاء الله لخلق الناس بطبيعة وافعال ذات أتجاه واحد فلا يكون الاختلاف ، ولكنه سبحانه شاء أن يخلقهم بما هية وفطرة يكون من لوازمها الاختلاف ، وهذا هو مفهوم الحرية ، فحرية الافراد تؤدى الى الاختلاف ، ولا تتكون فيهم الفرق والاحزاب ، ولا تتعدد الاراء والمذاهب والعقائد الا فى ظل الحرية ، ونتيجة حتمية لها ، كما تبين هذه الاية الكريمة كذلك ان الله خلق الناس لكىيكونوا أحرارا مختارين حيث يقول (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) ولقد علمنا من آيات البلاء أن الله خلق الناس ليبتليهم ، وهذه

الحنيفة تتفق مع ما تثبته هذه الاية التى نحن بصددها • اذ أن نتيجة البلاء الحتمية اختلاف الناس حيث أنهم يستجيبون للتجربة البلائية استجابة حرة ، ومن ثم يكون معنى قوله تعالى (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين) هو نفاذ مشيئة الله المطلقة التى شاء بها ان يكون من مخلوقاته من هو حر مختار يكون منهم من يختار الدنيا ، ومنهم من يختار الاخرة وبذلك تمتلىء جهنم من الجنة والناس الذين يختارون الدنيا • ومثل ذلك قوله أيضا (ولو شئنا لاتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى : لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا ، انا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون — السجدة ١٣ ، ١٤) فخلودهم فى العذاب انما حق عليهم بما كانوا يعملون وبما اختاروه وأرادوه بارادتهم الذاتية المستقلة التى شاء الله أن يمنحها لهم ، ويجعلهم بها خلفاء الارض ، وان يترك كل نفس وما تختاره ، وما تريده ، حتى ولو كان الكفر والضلال ، وان كان الله قادر أن يهدى كل النفوس ان شاء ، لكنه شاء كما أخبرنا أن يهدى من يختار الهدى وأن يضل من يختار الضلالة • ولعل هذا المعنى أوضح ما يكون فى سورة النحل حيث يقول (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون — النحل ٩٣) • فهذه الاية لابد من وضعها بجانب مجموعة آيات الارادة الانسانية التى سبق ذكرها حتى يمكن فهمها فهما صحيحا • فقد شاء الله سبحانه أن يكون الناس أمما مختلفين فى العقائد والمذاهب والاديان ومناهج الحياة والسلوك الخلقى ، ولم يشأ الله أن يكون الناس أمة واحدة • ومعنى ذلك بالرجوع الى آيات الارادة التى خيرت الناس بين الدنيا والاخرة أن الله يعذب من يشاء • وقد أخبرنا أنه يعذب من يختار الكفر والشر ، ويهدى ويرحم من يشاء ، وقد أخبرنا أنه يرحم من يختار حرث الاخرة ، فمن يختار الدنيا على الاخرة أو من يعمل سوءا ويعصى ربه ليس خارجا عن قضائه وقدره ، وان كان مخالفا لامره وشرعه ، فالله

لا يعصى مكرها ولا مغلوبا ، كما أنه عز وجل لا يطاع من عبيده مجبرا ولا قاهرا • وانما يختـار الانسان معصية الله بقدره ويختـار طاعته أيضا بقدره وذلك حيث يقـول (وقل للذين لا يؤمنون : اعمـلوا على مكانتكم ، انا عاملون ، وانتظروا انا منتظرون ـ هود ١٢١) • ويقول أيضا (ان الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا ، أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى امنا يوم القيامة ؟ اعمـلوا ما شئتم انه بما تعمـلون بصير ـ فصلت ٤٠) ويقول (وما منع الناس أن يؤمنـوا اذ جاءهم الهدى ـ الاسراء ٩٤) ويقـول لابليس بعد معصيته (ما منعـك الا تسجد اذ أمرتك ـ الاعراف ١٢) • فليس بعد قوله «اعملوا ماشئتم» و « وما منع الناس أن يؤمنوا » دليل على الاختيار والمشيئة الانسانية التى أيا ماختارت وأيا ماعملت فهى باذنه وبموافقة مشيئته المطلقة •

٤ ـ جوهر الاختيار البشرى فى القرآن الكريم :

فليس من شك الان فى قيام الاختيار البشرى : المقوم الاول للحرية الانسانية فى القرآن الكريم • ولكن ينبغى علينا لكى نعرف مجال هذا الاختيار وحدوده أن نعود الى حقيقة الابتلاء أو الى نتيجة هامة لهذه الحقيقة وهى أن العبد يجد نفسه ازاء التجربة الابتـلائية فى موقف عليه أن يختار بين أحد سلوكين كلاهما ضد للاخر ، هذه الافعـال أو الاعمال أو مجرد الاختيارات والنيات التى يختارها العبد ، تصبح بعد اختياره وبعـد تلبسها بارادته ، ووقوعهـا منه فى الواقـع ، تصبح مكتسبة اما للشر واما للخير ، أى أما حرام واما حلال ، أى اما موافقة للشرع وأمر الله ورسوله ، واما مخالفة له ، وبتعبير جامع اما للدنيا واما للاخرة • فالانسان الذى يحرص على الدنيا فقط دون الاخـرة ، مستعد أن يرتكب بالضرورة فى سـبيلها كل موبقـة ورذيلة وحرام ، ذلك أن رفضه للاخرة ، وتركه لها وعدم ايمانه بالحساب واليوم الاخر ، كل ذلك يعطيه حرية تامة فى العمل للحصول على الدنيا ، بمعنى حرية العمل فى مجال الرذائل كما فى مجال الفضائل ، أى السـبل أدت الى

حصوله عليها اجتازها • أما الانسان الذى يختار الاخرة ويفضلها على الدنيا ، فستكون جميع اختياراته واجتيازاته لمواقف الابتلاء ، متمشية مع أمر ربه وشرعه ، لان هذا هو طريق الاخرة •

فمجموع اختيارات انسان ما ، أو بتعبير آخر نتائج التجارب الابتلائية لانسان ما ، تضعه فى موضعه الذى يستحقه ، ومصيره فى الاخرة ، وتبين فى حياته اتجاهه وعقيدته ودينه ومنهجه فهو واحد من ثلاثة : اما أن يكون اختياره دائما ، أو على الاكثر موافقا لشرع الله وأمره ، فهو اذا يريد الاخرة ويسعى لها • واما أن يكون اختياره دائما أو على الاغلب منافيا لشرع الله وأمره ، فهو اذا يريد الدنيا • والثالث هو الذى تكون اختياراته وسطا بين المعصية والطاعة ، أى أنه قد خلط عملا سيئا بآخر حسن ، وهذا الاخير أجره الى ربه ، يزن اعماله يوم القيامة ليتحدد مصيره بالعدل والرحمة •

كما حدد القرآن مجال الاختيار وحدوده ، فانه أيضا بين حقيقته ووضحها جلية حيث يجعل هذا الاختيار عملية تجارة واستبدال وتفضيل واستحباب شىء على آخر وذلك حيث يقول عن المنافقين واختيارهم للدنيا (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ــ البقرة ١٦) • كما يقول عن بنى اسرائيل (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالاخرة ــ البقرة ٨٦) • ويحدد الاختيار بأنه استبدال الكفر المكتسب بالايمان الفطرى بقوله (ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل ــ البقرة ١٠٨) • كما يبين أن شراء الدنيا بالاخرة انما يكون بشراء الضلالة المكتسبة بالهدى الفطرى فيقول (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ــ البقرة ١٧٥) • فالانسان باختياره للكفر والضلالة والدنيا، انما يبدد فطرته ، وينقض عهد الله الذى أخذه عليه عندما أشهد الناس على أنفسهم قبل خلقهم (ان الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الاخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر

اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم ـ ال عمران ٧٧) • (ان الذين اشتروا الكفر بالايمان ، لن يضروا الله شيئا ولهم عذاب اليم ـ آل عمران ١٧٧) • وبين أنهم يكتمون آيات الله والنور النازل اليهم عن الناس ليصدوا عن سبيل الله لقاء الثمن القليل وهو الدنيا فقال (اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، فصدوا عن سبيله ، انهم ساء ما كانوا يعملون ـ التوبة ١٩) •

أما عن شرط الرضا والقبول عن طواعيه لصحة الاختيار فيقول فيه (ان الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ـ يونس ٨٧) • ويثبت ذلك القبول بقوله أيضا (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الاخرة ويصدون عن سبيل الله ، ويبغونها عوجا ، أولئك فى ضلال بعيد ـ ابراهيم ٣) والاستحباب يعنى ما هو أكثر من الرضا (ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الاخرة ، وأن الله لا يهدى القوم الكافرين ـ النحل ١٠٧) •

كما يبين لنا حقيقة الاختيار البشرى باعتبار انه ايثار لشىء على شىء ، وذلك بقوله تعالى (فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فان الجحيم هى المأوى ـ النازعات ٣٧ ، ٣٩) • ومثلها قوله تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيا والاخرة خير وأبقى ـ الاعلى ١٦ ، ١٧) • وذلك حبا منهم فى الدنيا واستعجالا لشهواتهم وملذاتهم والحياة وفق هواهم (ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا ـ الانسان ٢٧) •

ومن ثم فان مفهوم الاختيار فى القرآن هو شراء شىء بشىء ضده ، أو استبدال شىء بشىء ، أو استحباب شىء عن شىء ، أو ايثار شىء على شىء ، وكلها بمعنى واحد تقريبا وهو يعنى الاستغناء عن حياة فى سبيل الاخرى • فالمؤمن يضحى بالدنيا فى سبيل الحصول على الاخرة ،

والكافر يضحى بالاخرة ويتناساها أو يغفلها استغناء عنهـا لحصوله على الدنيا وهذا هو عين الاختيار فى القرآن •

ومن ثم فالاختيـار البشرى ، كفعل نفسى محض للانسـان ، هو تحرك الارادة البشرية الحـرة فى الموقف الابتلائى لتوجيه النيـة ، وتصويب القصد ، وتحـديد العزم ، نحو فعل دون آخـر ، أو نحو الفعل دون الترك ، أو العكس •

ولا يعنى الاختيار بهذا المعنى ترك المؤمن للدنيا ، واهمالها والسلبية حيالها ، وحرصه على الاخرة والايجابية نحوها فقط • والا كان هذا المفهوم الخاطىء وازعا ودافعا ومشرعا للخروج من الدنيا بالانتحار ، أوالتخلص من الجسد المادى تخلصا مؤقتا بالفناء وبالشطحات الروحية سبيل الصوفية فى ذلك • ولكن ذلك كله متعارض مع حقائق القرآن الكونية والانسانية • فقد سبق أن علمنا أن الحيـاة والموت والرزق والجـاه والسلطان وغير ذلك انما هى من الامور الجبرية ، وليست من الامور الاختيارية فحقيقة الاختيار البشرى فى القرآن ، لا تعنى الاختيار بين الحياة الدنيا والاخرة ، بمعنى الاختيار بين الحيـاة والموت ، أو بين الحياة والانعزال عنها والسلبية حيـالها ، وانما يعنى الاختيـار فى القرآن أنه اختيار بين الحرية فى الدنيا ، وبين الحـرية فى الاخرة • فالاختيار البشرى ، اختيار بين حريتين • ومن ثم يكون معنى ايثـار العبد للدنيا على الاخرة ، هو أنه فضل أن يكون حـرا فى الدنيا ومن ثم فقـوله تعالى (بل تؤثرون الحياة الدنيـا ، وتذرون وراءكم يوما ثقيـلا)يعنى أن هؤلاء القوم المخاطبين انما رفضوا أن يكونوا عبيدا لله سبحانه وتعـالى مقيمين بما كلفهم به فى حيـاتهم ، مؤثرين أن يعيشوا باختيارهم وحريتهم فى الدنيا ، مفرطـين فى حريتهم وملكهم الاخروى فى الجنـة • والعكس ايضـا ، فان المؤمن برفضـه الدنيا وحرصه على الاخرة انما يرفض الحياة فى الدنيا وفق شهواته ونزواته واهوائه ، داخلا فى عبوديته لله سبحانه وتعـالى وان كان دخـولا

اختياريا ، وفى ذك يقول الله عز وجل (ما كان لمؤمن ولا مؤمنة ــ اذا قضى الله ورســوله أمرا ــ أن يكــون لهم الخــيرة من أمرهــم ــ الاحزاب ٣٦) • فالمؤمن هو الذى يسلم قيادته ووجهه واردته لله ، وذلك وان كان فقدا للاختيار بمعنى تمام العبودية لله ، الا انه يحقق تمام الحرية الانسانية حيث لا حرية حقة للانسان الا على ما دونه من الكائنات فى الارض ، وحيث أن ذلك هو المؤهل الذى سيكون به حــرا فى الاخرة فى جنة الخلد والنعيــم لانه اختار الحرية الاخــروية على الحرية الدنيوية وذلك باختياره الافعال الموافقة للتكليف الالهى وذلك لا يكون الا بتمام الفاعلية للمبــادرة والجهاد لاقامة خــلافة الله فى الارض •

الفصل الخامس

الاستطاعة

وكما يتبع المقوم الاول للحرية الانسانية فى القرآن وينبثق من حقيقة الخلافة كذلك ينبثق المقوم الثانى منها ونعنى به الاستطاعة فالاستطاعة او القدرة البشرية على تنفيذ الفعل الذى يختاره الفرد هى الدعامة الثانية للحرية الانسانية والمؤهل الثانى الذى يؤهله لتحقيق الخلافة والشرط المهم والخطر لقيام حقيقة الابتلاء •

ولقد فهمت الملائكة قول الله لهم (انى جاعل فى الارض خليفة) على ان هذا الخليفة سوف يكون حتما قادرا على الفعل وعلى اتمام ما يختاره من افعال ودليل ذلك قولهم لربهم (اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) • حيث نسبت الافساد وسفك الدماء له اصالة ولعل الافساد وسفك الدماء هما الذان اجدر بالذكر من دون افعاله كلها — التى تشمل كما هو معلوم بالضرورة من واقع الحياة البشرية انواعا اخرى من الشرور بجانب انوع كثيرة من افعال الخير — نقول انها اجدر بالذكر لغلبتها وخطورتها •

فلفظ الخلافة يتضمن فيه معنى النيابة والوراثة فاستخلاف على زيدا فى ماله وولده يعنى ان عليا اناب زيدا فى ماله وتربية ولده بوصاية وشروط معينة كما انه يعنى تربيته وتوريثه السلطة والامكانيات اللازمة لتحقيق ذلك فهو اذا قد استخلفه على شىء مختصا اياه بهذا الاستخلاف دون غيره من الناس لما أنسه فيه من علم وحكمة ورأى ، ومواهب وقدرات تؤهله جميعا للقيام بما كلفه به • فالاستخلاف اذا يتضمن لازمين :

الاول : ان الخلافة تكون على اشياء دون مستوى الخليفة فى الدرجة الوجودية ومن هذا اللازم يشتق منها معنى السلطة والولاية والحكم •

الثانى : ان الخليفة مؤهل بمؤهلات الخلافة ، أى أن المستخلف يستخلف المستخلف على ما استخلفه عليه بما يتميز به من خصائص تفرده عن غيره تجعله أهلا لهذه الخلافة من دون الاخرين ، وذلك يستتبع أن يكون الخليفة مكلفا من قبل مستخلفه بأمور خاصة •

وبتطبيق هذا المفهوم للخلافة على حقيقة الخلافة الانسانية نقول : ان الله سبحانه وتعالى استخلف الانسان فى الارض ، وهذا يعنى علوه وسيطرته وهيمنته وتسلطه على ما دونه من المخلوقات فيها ، وكلها دونه وذلك بما أهله به من مقومات ومؤهلات الخلافة وما يسمح لقيام حقيقة الابتلاء • فالاستطاعة تنبثق من حقيقة الخلافة انبثاقا مباشرا كالاختيار ، حيث أنها تقوم على ركيزتين ليستا فى الحقيقة سوى لازمين من لوازم الخلافة •

الاولى : ركيزة خارج النفس البشرية ، وتكمن فى طبيعة وماهية الكائنات والمخلوقات المستخلف عليها الانسان فى الارض ، وفى السنن والنواميس التى تسير عليها هذه المخلوقات •

الثانية : ركيزة داخلية وتكمن فى النفس البشرية ذاتها ، وهى الاستطاعة الذاتية للانسان على الفعل •

أما عن الركيزة الاولى ، فالله سبحانه وتعالى خلق المخلوقات جميعا خاضعة مسخرة للانسان كما أقام النواميس الكونية الطبيعية وقوانينها التى تسير عليها بحيث تسمح بقبول فعل الانسان وتأثيره فيها • بل أن كل ما على الارض خلقه الله للانسان (هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ــ البقرة ٢٩) وكل ما فيها تحت سيطرته

وخضوعة لتحقيق الخلافة (ولقد مكناكم فى الارض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ـ الاعراف ١٠) وتفصيل ذلك فى سورة النحل حيث يقول الله (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغية الا بشق الانفس ان ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات ان فى ذلك لاية لقوم يتفكرون ، وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لايات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم فى الارض مختلفا ألوانه ان فى ذلك لاية لقوم يذكرون ، وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ، وألقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون ، وعلامات وبالنجم هم يهتدون ، أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟ وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ان الله لغفور رحيم ـ النحل ٥ ـ ١٨) .

فالنبات والحيوان والجبال والانهار والارض والبحار حتى الشمس والقمر والنجوم كلها من أجل الانسان ومسخرة لاستمرار حياته . ومن ثم فقد منحه الله وأعطاه كل ما يحتاج اليه وكل ما هو نافع وضرورى وكمالى لتحقيق خلافته (وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ـ ابراهيم ٣٤) .

وهكذا خلق الله هذه المخلوقات جميعا من أجله وله . ولا معنى لوجودها بجانب كونها عبيدا لله ـ سوى أنها مسخرة وخاضعة ومخلوقة لخدمة الانسان وتحقيق سيادته وسيطرته وخلافته عليها ،

لابتلائه واختياره فالله يقول (ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى ــ النحل ٦١) • وقوله ما ترك عليها من دابة يعنى أن زوال الانسان يستتبع زوال بقية المخلوقات وهذا معلوم من مشاهد القيامة فى القرآن الكريم حيث تفنى كل المخلوقات على الارض بفنائه • وليس أدل على علو الانسان ورفعته على ما دونه من الكائنات فى الارض من قوله (ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ــ الاسراء ٧٠) •

فتسخير الكائنات للناس يعنى تطويعها وخلقها بماهية تسمح بقبول تأثير الانسان فيها ومن ثم فليس أمام استطاعة الانسان لاحداث الفعل فى نفسه وفى غيره من المنفعلات أية عوائق أو موانع ، مادام يعمل وفق السنن والنواميس الكونية الثابتة التى تحكم وتحدد العلاقة بين قدرته الحادثة وبين بقية المخلوقات على الارض •

أما الركيزة الثانية للاستطاعة البشرية ، فهى ذاتية ، بمعنى أنها تقوم أساسا فى النفس البشرية ، ونعنى بها الاستطاعة على الفعل ، ومن ثم فالسؤال الان هو :

هل يثبت القرآن للانسان قدرة أو استطاعة على الفعل ؟ وما هو مجال هذه القدرة أو تلك الاستطاعة فيه ؟ وما مدى أصالتها فى النفس البشرية ؟ ثم أخيرا ما هى العلاقة بين القدرة الالهية المطلقة وبين ما ينسبه القرآن للانسان من قدرة واستطاعة على الفعل ؟ !

فاذا رجعنا الى القرآن الكريم بمنهج احصائى شامل ، متتبعين قواعد المنهج الصحيح فى البحث فيه وجدنا أن مادة « قدر » وردت مشتقاتها فى القرآن الكريم منسوبة الى الله عز وجل وحده فى جميع المواضع والاستعمالات تقريبا ، فوردت لفظة « قادر » مقصورة عليه

سبحانه فى سبع آيات منها (أو ليس الذى خلق السماوات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم ، بلى وهو الخلاق العليم — يس ٨١) • وليست هناك آية واحدة تحمل هذا اللفظ على غير الله •

أما جمعه فى حالة الرفع « قادرون » فقد وردت كلها منسوبة أيضا لله سبحانه فى خمسة مواضع منها (فقدرنا فنعم القادرون — المرسلات ٢٢) • وهذه الاية وان كانت تجعل مع الله قادرين الا ان قوله (فنعم القادرون) يفرد الله سبحانه وتعالى بقدرته ، بل يقصر عليه القدرة دون سواه وهذا واضح من سياق الايات القليلة السابقة على هذه الاية ، حيث يقول السياق (الم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين ، الى قدر معلوم ، فقدرنا فنعم القادرون) • فالتفصيل هنا ليس بين قادرين على مستوى متقارب من القدرة • بل افراد القادر بقدرة ممنوعة على غيره ، حيث أنه خاص بخلق للبشر الذى ليس من فعل أحد سواه • ولعل الاية الثانية التى ورد فيها قادرون منسوبا للانسان تنفى فى الحقيقة القدرة عنه • فقوله (حتى أخذت الارض زخرفها ، وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا او نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالامس كذلك نفصل الايات لقوم يتفكرون — يونس ٢٤) • والواضح من قوله (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) ان هذه القدرة وهم وخيال واحساس باطل ، وليست حقيقة قائمة بهم • ومن ثم فالاية تنفى القدرة عن الانسان فى الحقيقة •

ويؤيد هذ المعنى هذه الايات التى ورد فيها لفظ « قادرين » مرة واحدة منسوبة أيضا للانسان • حيث يقول الله (انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، أن اغدوا على حرثكم ان كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم

يتخافتون ، آن لا يدخلنها اليــوم عليكم مسكين ، وغدوا على حــرد قادرين ، فلما رأوها قالوا انا لضالون ، بل نحن محرومون ــ ١٧ ، ٢٧ سورة القلم) •

والواضح الجلى من سياق الايات ان قوله تعالى (وغدوا على حرد قادرين) بينما قد أخبرنا قبل ذلك أن جنتهم أصبحت كالصريم دون علمهم ، انما هو استهزاء منهم وتصوير لاحساسهم ووهمهم الخادع بقدرتهم على منع الفقير والمسكين ، أى أن ملكيتهم للجنة ليست ملكية على الحقيقه ، وكذلك قدرتهم على الانتفاع بها وجنى ثمارها أو نباتها ثم حرمان الفقير والمسكين منها ليست قدرة ذاتية نابعة من نفوسهم ، فالقدرة تعنى الملــك والسيطرة والاســتطاعة التامة على المحــافظة والتصرف فيم يملك الانسان مع التمكن من احدث ما يريده من ابداع وافناء وتغيير وتحويل فى المقدور ، ومن ثم فهى بهذا المفهــوم ليست ذاتيــة عند الانسان •

اما لفظ « قــدير » وهى نسبة الصــفة بصيغة المبالغــة على وزن « فعيل » فقد وردت فى خمس وأربعين آية منسوبة كلهــا لله وحده سبحانه ، وتفرده بهذه الصفة ، وتفيد جميعها قدرته تعــالى على كل شىء ، خلقا وابداعا وفعلا وملكا وتدبيرا ، وعلوا وسيطرة ، ومن ذلك قوله على سبيل المثال (لله ملك السموات والارض وما فيهــن ، وهو على كل شىء قدير ــ المائدة ١٢٠) • وقوله (وما كان الله ليعجزه من شىء فى السماوات ولا فى الارض انه كان عليما قديرا ــ فاطرا ٤٤) • وقوله (يخلق ما يشاء والله على كل شىء قدير ــ المائدة ١٧) •

وعلى ذلك فالقرآن يثبت القدرة لله وحده وينفيها عمن سواه •

وكما أن مشيئة الله سبحانه مطلقة ، فقدرته كذلك مطلقــة • وهذا يعنى أنه لا يوجد او يتم شىء فى هذا الكون او لا يتم دون ان يكون

مقدروا له فكل شيء امام القدرة الالهية ممكن وليس أمامها مستحيل وأول وأخطر أفعال القدرة الخلق ، فالله سبحانه وتعالى منفرد بالخلق لا يشاركه فيه أحد وكل ما سواه مخلوق له ، وبالنظرة الاستقرائية التامة فى آيات القرآن الكريم نجد أنه قد ورد لفظ « خلق » فى أربع وستين آية حيث تنسب جميعها فعل الخلق لله وحده ، ونورد على سبيل المثال (هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ـ البقرة ٢٩) • كما ورد لفظ « خلقكم » فى ست عشرة آية منها قوله (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم ، لعلكم تتقون ـ البقرة ٢١) ولعل أصرح وأوضح الايات وأهمها فى هذا المجال تلك التى تثبت صراحة خلق كل شيء لله وحده ، يقول الله (بديع السماوات والارض ، أنى يكون له ولد ، ولم يكن له صاحبه • وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم • ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء • فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل الانعام ١٠١ ـ ١٠٢) فالاية الاولى تثبت أنه خلق كل شيء قد تم خلقه ، والثانية تثبت أنه لا يزال يخلق كل شيء جار خلقه فى الزمان ومثلها قوله (الذى له ملك السموات والارض ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شيء فقدره تقديرا ، واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لانفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا ـ الفرقان ٢ ـ ٣) • ومثلها قوله سبحانه (أفمن يخلق كمن لا يخلق ، أفلا تذكرون ـ النحل ١٧) وهذه الاية تثبت الخلق له وحده وتنفيه عمن سواه كالاية السابقة عليها حيث يقول فيها «واتخذوا من دونه آلهه لايخلقون شيئا» ويعنىمن دونه، كل ماسوى الله من جن وانس ومائكة وحيوان وجماد أى كل حادث ، ومعلوم ان المشركين عبدوا الجن والملائكة • وعيسى عليه السلام والحجارة والحيوان فصح هنا نفى الخلق عن الجن والملائكة والانسان •

ان خلق الله تابــع لمشيئته سبحانه (لله ملك الســماوات والارض يخلق ما يشاء ــ الروم ٦٤) وانفراده سبحانه بالرزق مرتبط ومتوافق مع انفراده بالخــلق (هل من خالــق غير الله يرزقكم من الســماء والارض ؟ ! ــ فاطر ٣) •

وتدبير الله عز وجل لكل شيء مرتبط ومتوافق ايضا مع خلقــه لكل شيء (الله خالق كل شيء ، وهو على شيء وكيل ــ الزمر ٦٢) •

ومن ثم فافراد الله بالخلق مرتبط أوثق ارتباط بافراده بالالوهية ، حيث الخلق من خصائص الالوهيه ، وهي من الخصائص والصــفات التي لا يشاركه فيها غيره سبحانه لا باسم الصفة ولا بجنسها ، (ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو ــ غافر ٦٢) • فالاقرار بخلق الله لكل شيء ولكل فعل يعني تفرده وحده بكونه الخالق واقــرار بأن ما سواه مخلوق ولا يمكن ان يكون المخلوق خالقا • فافراد الله بالخلق من لوازم التوحيد ، وهذا يستتبع بالضرورة القول بأن أفعال العبــاد مخلوقه لله تعــالى •

وبالرغم من ذلك ــ أي بالرغم من افراد الله بالقدرة والخلق ، حتى لافعال العباد ــ فان القرآن يثبت للانسان استطاعة يفعل بها ويعمل • أما دليل وجود الاستطاعة للانسان ، فهو ورود عدة آيات بهــا مادة « استطاع » ومشتقاتها منسوبة للانسان ما عدا آية واحدة ، منسوبة لله جل وعلا فيقول (ولله على الناس حــج البيت لمن اســتطاع اليه سبيلا ــ آل عمران ٩٧) • فمعنى الاستطاعة في هذه الاية هو التملك والتمكن من الحصول على الاسباب التى يتم بها الحج ، وهذا واضح من قوله « سبيلا » أي سببا • كما ورد لفظ استطاعوا في أربعة مواضع نذكر منها قوله تعالى (وفي ثمــود ، اذ قيل لهم تمتعــوا حتى حين ، فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين ــ الذاريات ٤٣ ــ ٤٥) • ويذكر ابن كثير

فى قوله فأخذتهم الصاعقة انهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام ، وجاءهم فى اليوم الرابع ، بعد أن سلبوا الاستطاعة على القيام . فالانسان اذا فى أحواله العادية له استطاعة وهذا واضح بين من قول شعيب عليه السلام لقومه (ان أريد الا الاصلاح ما استطعت ، وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه انيب — هود ٨٨) . ولعل الاية التى تثبت الاستطاعة للانس والجن صراحة هى (يامعشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا ، الا تنفذون الا بسلطان — الرحمن ٣٣) . ومهما قيل فى تفسير هذه الاية من اختلافات وآراء فالشىء المؤكد انها تثبت استطاعته للانس والجن يحاولان بها النفاذ من اقطار السماوات والارض ، بسبب أو سلطان ما . وان كانت الايات قد سجلت فشل هذه المحاولة فى النهاية . أما كلمة « استطعتم » فقد وردت فى خمس آيات دلت على وجود استطاعة للبشر . ونذكر منها على سبيل المثال هذه الاية التى توضح معنى الاستطاعة وتثبت وجوده اثباتا جليا واضحا ضروريا لقيام الابتلاء ، ولتحقيق الخلافة (يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ، وقد كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون — القلم ٤٢ — ٤٣) . ويذكر ابن كثير فى معنى قوله يوم يكشف عن ساق ، يعنى يوم القيامة ، فى أشده كربا حيث يسجد لله كل مؤمن ومؤمنة ، الا الكفار والمنافقين ، الذين لا يستطيعون يومها بعكس حالهم فى الدنيا اذ كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون مستطيعون القيام به . وهذا اثبات ودليل واضح على وجود استطاعة للانسان ينفذ بها افعاله التى يختارها فى دار الابتلاء .

أما الاية الوحيدة التى نسبت فيها الاستطاعة الى الله سبحانه ، قوله تعالى (اذ قال الحواريون : ياعيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين — المائدة ١٢٢) . وقول الحواريين « هل يستطيع ربك » يعنى : هل

تستطيع أن تدعــو ربك ؟هذه القراءة تنسب الاستطاعة للانسان ، على أن اللائق به تعالى الذى ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه هو القدرة. ولا شك ان الحواريين قد أساءوا التعبير وأخطــأوا صياغة السؤال ، ذلك لان الاستفهام كان حول استطاعة الله انزال المــائدة من عدمه فاستغرب منهم عيسى عليه السلام ذلك وقال لهم (.. اتقــوا الله ان كنتم مؤمنين) . فالاستطاعة اذن تعبير عن القدرة عندما تكون فى محل شك وضعف ، بينمــا القدرة هى القوة الفــاعلة المؤكدة . ولذلك لم ينسب الله عز وجل القدرة فى القرآن الكريم الاله وحده ، كما أنه لم ينسب لنفسه عزوجل الاستطاعة مرة واحدة ، ولم ينسبها الا لغيره .

ومن ثم لا يجوز لنا شرعا أن ننسب الاستطاعة لله كما لا يجوز ان ننسب القدرة للانسان او لغــير الله . ومن تمام وكمال توحيــده ألا نصفه الا بما وصف به نفسه .

واذا كان القرآن الكريم ينسب للانسان استطاعة ويثبتها له ، فمــا هو مقدور هذه الاستطاعة فيه ؟ وبالنظرة الاستقرائية التامة بين آياته نجد أن القرآن الكريم يثبت للانســان عملا وفعلا ، فقــد ورد لفظ « عمل » فى تسع عشرة آية مثل (من آمن بالله واليوم الاخر ، وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ــ البقــرة ٦٢) . ولفظ « عملت » فى خمس مواضع مثل (يوم تجد كل نفس ما عملت من خــير محضرا ــ آل عمران ٣٠) فنسب فيها العمل الى النفس كنتيجة أو مفعول ومقدور للاستطاعة التى سبق أن أثبتها لها . وكذلك نسب العمل الى الجماعة أو الفئة أو الامة حيث ورد لفظ « عملوا » فى ثلاث وسبعين آية منهــا مثلا (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الانهار ــ البقــرة ٢٥) . ويؤكد ذلك ورود لفــظ « تعملــون » لمخاطبة الجماعة فى ثلاث وثمانين آية مثل (وما الله بغافل عما تعملون

ـ البقرة ٧٤) • ويؤكده أيضا ورود لفظ « يعملون » منسوبا للجمع الغائب فى ست وخمسين آية منها على سبيل المثال (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ـ البقرة ١٣٤) • ويضيف العمل الى الانسان الفرد المخاطب اضافة ملكية حيث يقول (لئن أشركت ليحبطن عملك ، ولتكونن من الخاسرين ـ الزمر ٦٥) • كما يضيف العمل الى الجماعة مثل (وقل أعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ـ التوبة ١٠٥) • وذلك فى أربعة مواضع • ويقول أيضا فى هذا المعنى أى أضافة الاعمال الى الجماعة (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ـ الشورى ١٥) •

وكما ينسب القرآن الفعل لله سبحانه وتعالى مثل قوله « فعال لما يريد » ينسب الفعل أيضا للانسان فى عديد من المواقع بمشتقات مختلفة له • وفى ذلك يقول (أفتهلكنا بما فعل السفهاء ـ الاعراف ١٩٧) • ويقول (وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى ـ المائدة ١٩٧) • ويقول (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون ـ المائدة ٧٩) [1] •

••• فينسب القرآن الكريم الفاعلية لله والانسان ، وهذا اشتراك فى اسم الصفة دون حقيقتها حيث تختلف الفاعلية الالهيــة المطلقة عن فاعلية الانسان المحدودة القاصرة

---

(١) رجعنا فى هذه النظرة الاستقرائية للالفاظ السابقة الى المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم وضع محمد فؤاد عبد الباقى ط كتاب الشعب القاهرة ١٣٧٨ هـ .

والسؤال الان هو : اذا كان للانسان استطاعة تفعل الفعل وتتم العمل فما هى امكانية ومدى وحدود هذه الاستطاعة فى اتمام العمل والفعل ؟ ثم ما هو الفعل البشرى وكيف تعمل الاستطاعة ؟ وما علاقة الفعل البشرى بالخلق الالهى ؟

أما عن الخلق الالهى والفعل البشرى فاننا نخرج مما سبق عرضه للنظرة الاستقرائية فى آيات القدرة الالهية والاستطاعة البشرية الفاعلة ان :

أولا : القدرة المطلقة لله من اخص خصائص الالوهية ، كما ان من أخص خصائص الربوبية الخلق والتدبير ، أى امداد المخلوقات بما يفيد استمرار وجودها بعد ايجادها فى الزمان وذلك الى أجل معلوم له باذنه ومشيئته •

ثانيا : يثبت القرآن للانسان استطاعة عملة فاعلة لاعماله وأفعاله •

ومن ثم فان أول ما يتبادر الى الذهن أن أفعال العباد مخلوقه لله ، حيث أنها لا تعدو ان تكون شيئا أو لا شىء ، فان كانت شيئا فهى مخلوقة لله بنص الايات سابقة الذكر ، حيث أن الشىء لا يعدو أن يكون جوهرا أو عرضا وسواء كان الفعل والعمل البشرى عرضا أى حركة زمنية أو جوهرا أى صنعة مادية ، فهو شىء وعلى ذلك فهو مخلوق لله •

ويؤكد القرآن هذه النتيجة المنطقية حيث يثبت أن الفعل والعمل شىء وذلك بنص الاية (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم — البقرة ٢١٦) • فالقتال فعل وقد اعتبره شيئا فى قوله « وعسى أن تكرهوا شيئا » وعلى ذلك فالفعل مخلوق لله سبحانه بنص القرآن الذى يؤيد المنطق • وهذا يتفق تماما مع قول الله الصريح الواضح

(والله خلقكم وما تعملون ـ الصافات ٩٦) • والمقصود بما «تعملون» فى الاية الاصنام التى يصنعونها ثم يعبدونها وهذا واضح جلى من سياق الايات السابقة عليها • ولكن الاية دليل واضح أيضا على أن الله يصنع كل صانع وصنعته ، وفعله الحركى • وذلك لما رواه الامام البخارى منسوبا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (ان الله يصنع كل صانع وصنعته) [1] • كما ذكر البخارى أيضا عن عن طاوس قال (أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقولون كل شىء بقدر حتى العجز والكيس » [2] • كما ذكر مسلم فى صحيحه عن طاووس (قال سمعت عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل شىء بقدر حتى العجز والكيس » وروى البخارى (وقال ليث عن طاووس عن ابن عباس انا كل شىء خلقناه بقدر حتى العجز والكيس قال سمعت عبيد الله بن سعيد يقول سمعت يحيى بن سعيد يقول مازلت أسمع أصحابنا يقولون أفعال العباد مخلوقة قال البخارى « حركاتهم واصواتهم وأكسابهم وكتابتهم مخلوقة » •

يلزم من كل ما تقدم القول بأن أفعال الانسان مخلوقة لله تعالى

ولا شك أن هذا هو الذى دعا من قالوا بالجبر الى مذهبهم هذا ، حتى لا يكون هناك مع الله فاعل ، فنفوا استطاعة الانسان على الفعل والعمل للقول بخلق الله لافعالهم وانتهوا الى جعل الانسان كالقلم لا يقال يكتب على الحقيقة ، وانما هو يفعل مجازا • فقالوا بذلك وينفى الارادة والاختيار الانسانى ـ كما سبق ذكره ـ أى بالجبر المطلق

---

(١) البخارى : خلق افعال العباد ص ٩ من الطبعة الهندية وتقابل ص ١٣٧ ، ١٣٨ من كتاب عقائد السلف تحقيق دكتور النشار وعمار طالبى المصدر السابق ص ٩ •

(٢) المصدر السابق ص ٩

مستندين الى ضرورة اطلاق المشيئة والقدرة لله لتمام التوحيد • فانبرى لهم القدريون يثبتون للانسان ارادة مستقلة وقدرة خالقة قائمة بذات الانسان • محتجين بضرورة ذلك اثباتا وتمشيا مع القول بالعدل المطلق لله ، ونهيه سبحانه عن الظلم ، حيث كلف العباد ويحاسبهم على أعمالهم وأفعالهم ، مما يلزم أن تكون باختيارهم ومخلوقة باستطاعتهم مع نفى تدبير الله وقدرة السابق على الفعل • ومن ثم فقد انتهوا الى نسبة ما لا يليق به سبحانه وبصفاته ، ونقضوا عرى التوحيد من ناحية الخلق والقدرة والعلم •

فالقول بقدرة الله سبحانه وتعالى المطلقة التى لا يتم شىء صغر أم كبر فى هذ الكون بقدرة سواه حتى أفعال العباد • يعتبر من أخص خصائص الالوهية والربوبية ولا يمكن نفى ذلك بحال طلبا لاثبات وتقرير العدل الالهى ومسئولية الانسان عن أفعاله • ما دام يمكن اثبات وتقرير العدل الالهى مع اثبات وتقرير خلق كل شىء له وبقدرته، أى مادام يمكن اثبات وتقرير المسئولية الفردية والجماعية عن أعمال وأفعال الانسان ووجوب محاسبتهم عليها ، مع اثبات وتقرير خلق الله الها متنزها عما يفعله العباد من المعاصى •

والقرآن الكريم يقدم لنا ذلك فى تناسق وتوافق وتوازن واحكام معجز •

اذا كان المعلوم بالضرورة أن الفعل البشرى يتم بأعضاء الانسان ، السمع والبصر والقلب والعقل واليدين والرجلين وبقية أعضاء الجسد، بجانب استخدامه لبعض الادوات المادية الخارجية يصنعها لنفسه فكيف يكون الفعل وهو واحد مخلوقا لله سبحانه بينما يتم بالاستطاعة البشرية فى نفس الوقت ؟ !

ان القرآن الكريم يذكر آيات الارادة البشرية التى سبق ذكرها والتى سنوردها الان أيضا لبيان دلالتها على كيفية خلق الله للفعل البشرى وحدود عمل الاستطاعة البشرية فالله يقول (وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الاخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين — آل عمران ١٤٥) • ويقول أيضا (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون أولئك ليس لهم فى الاخرة الا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ماكانوا يعملون — هود ١٥ ، ١٦)• ويقول أيضا (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ، ومن أراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ، كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وماكان عطاء ربك محظورا — الاسراء ١٨، ٢٠)• كما يقول سبحانه (من كان يريد حرث الاخرة نزد له فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الاخرة من نصيب — الشورى ١٩٤) •

فهذه الايات كما سبق ، تثبت الارادة الانسانية المختارة أصيلة ذاتية فى النفس البشرية ، فى حين أنها تثبت شيئا آخر للقدرة الانسانية الحادثة • فبينما يقول « من يرد » « ومن كان يريد » ناسبا الارادة للانسان نجده يقرر عن الفعل البشرى الذى يتبع الاختيار لحصول الانسان على ما يختاره ، يقرر سبحانه أنه هو الذى يؤتى العبد ما يختاره فهو عز وجل يقول فى الاية الاولى ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها «ومن يرد ثواب الاخرة نؤته منها» وفى الثانية يقول سبحانه « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم أعمالهم فيها » وكذلك «من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها» وهذا دليل قاطع على ان الانسان يريد ويختار والله يعطيه ويمده ويؤتيه بما يريد باذنه ومشيئته • ولذلك قال « كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا » •

فتبعد ان خير الناس بين الدنيا والاخرة مرة وبين ثواب الدنيا وثواب الاخرة مرة وبين حــرث الدنيا وحرث الاخرة مرة قــرر سبحانه هذه الحقيقة الهامة الخطيرة عن الفعل البشرى وعمل الانسان وهى انه هو الذى يمد كل فريق بما اختار من عطائه غير المحظور ، فما هو عطــاؤه وما الذى يمد به العبــد ؟

بينما ذكر ان التخيير بين الدنيا والاخرة فى آية ذكر فى أخرى أنه بين ثواب الدنيا وثواب الاخرة ، ومعلوم ان الثواب هو نتيجة العمــل وغاية الفعل كما أنه ذكــر فى الايتين الاخيرتين ان التخــيير بين حرث الدنيــا وحرث الاخرة .

وينبغى علينا ان نقف قليلا متأملين فى استعمال لفظ « حرث » فمما لا شك فيه ان كل لفظ فى القرآن موضوع بحكمة ودقة بالغتين فمــا هو المقصود من استعمال لفظ « حرث » مضافا الى الدنيا او الاخرة ؟ فالحرث لغة : هو تهيئة الارض لاستقبال البذور قبل الانبــات فهــو من مقدمات الزراعة وعللهــا وأسبابها أو أهم أســباب الزراعة فكأن الاية تعنى أن حصول الانسان على الدنيا لا يتم الا بأخذه بالاسباب التى تجعله يحصل على المسببات والعلل كما أن الزراع لابد أن يحرث حتى يجنى الثمار . ولكن هل الحصول على السبب أو احداث العــلة كاف لاحداث المعلول والحصول عليه ؟ وبصيغة أكثر دقة نقول : هل استطاعة الانســان على احداث العــلة يلزم منه بالضرورة احــداث المعلول ؟ اما فى المثال الذى يشبه به الله عمل الانسان بالحرث ، فانه فى موضع آخر ينفى استطاعة الانسان على الزراعة نتيجة استطاعته على الحرث فيقــول (أفرأيتم ما تحرثون أأنتــم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟! ــ الواقعة ٦٤) فالاية تثبت الحرث للانسان ولكن الزرع والانبات مخلوقان لله تعالى ، وكذلك الحال فى الفعــل البشرى فالله يخلق الفعل والمنفعل . ولعل اطراد العلة والمعلول هو الذى جعل بعض

المفكرين والفلاسفة يقولون بضرورة حدوث المعلول بحدوث العلة وإنتفاء المعلول بانتفاء العلة ويعتبرون الفعل السابق على المعلول أى العلة هى أساس وجود المعلول وسببه • وما دام الانسان قادرا على الاخذ بالاسباب والعلل ، فهو اذا ، قادر ومستطيع على المعلول ، وقد أدى هذا الى قول بعضهم بخلق الانسان لافعاله ، ولكن هذه القضية غير صحيحة ، ذلك لان حدوث المعلول نتيجة لاحداث العلة ليس ضروريا — وان كان له اساسه الطبيعى او الفيزيئى — كما أن دعوى تمكن الانسان من العلل والاسباب تمكنا مطلقا يرفضها القرآن الكريم رفضا قاطعا •

أما القول بضرورة حدوث المعلول بحدوث العلة ، فهو يتنافى مع القول بخلق كل شىء لله خلقا مباشرا • حيث ان القول بذلك يعنى ان هناك ضرورة على الله سبحانه تلزمه بكيفية الخلق ، وهذا محال • أما فكرة اطراد العلة والمعلول فناشىء عن حدوث ذلك فى الواقع فعلا ، وتكونت لدى الانسان نتيجة الملاحظة والتجربة المستمرة ، وأساسها المركوز فى الطبيعة هو ثبات السنن الكونية والنواميس الطبيعية ، فلقد شاء الله سبحانه وتعالى ان يعطى لكل مخلوق خلقه او طبيعته أو ماهيته التى يعمل بها ووفقها (قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى — طه ٥٠) ثم جعل العلاقة بين ماهيات هذه المخلوقات وأفعالها ثابتة ، بحيث يمكن للإنسان بالتجربة ان يصل الى القواعد والقوانين التى تسير عليها العناصر والاحياء والافلاك ، والقواعد التى تحكم أفعال وتأثير كل منها فى الاخرى •

هذه القوانين المخلوقة لله والقائمة بمشيئته المطلقة متبدية ومتجلية فى سنن ونواميس ثابتة — لا تتعارض مع المشيئة المطلقة ولا تتنافى معها بل هى نتيجة المشيئة فلقد شاءت الارادة الالهية ان تتبدى للناس عادة فى صورة نواميس مطردة ، وسنن جارية يملكون ان يرقبوها

ويدركوها ويقننوها • والقرآن يثبت ثبات السنن واطراد النواميس حيث يقول على لسان ابرهيم (قال ابراهيم : فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر – البقرة ٢٥٨) • ويقول ايضا (لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار – يس ٤٠) وكما تفعل المشيئة والقدرة الالهية حسب قانون ثابت فى الخلائق العادية ، كذلك تعمل فى الانسان وأفعاله (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا – الاحزاب ٦٢) (قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين – آل عمران ١٢٧) •

ولكن بالرغم من ثبات السنن واطراد النواميس ، فالمشيئة الالهية طليقة لا يرد عليها قيد ما ، مما يخطر على فكر البشر البعيد عن أصول التوحيد الاسلامى وهو سبحانه يبدع كل شىء ويخلقه بمجرد توجه مشيئته الى ابداعه وخلقه ، فليس هناك قاعدة ملزمة ولا قالب مفروض ملزم للمشيئة الالهية فى الفعل ، فهو عز وجل يفعل ما يشاء كيف يشاء حين يشاء •

فلا يعنى اطراد العلة والمعلول فى عالم الواقع حدوث شىء ما أو فعل ما خارج عن المشيئة أو القدرة سوى مشيئته وقدرته تعالى • ومما يثبت ذلك حدوث معلولات بدون عللها المعلومة، وحدوث علل لم تستتبع معلولاتها المتوقعة أيضا أما عن حدوث معلولات دون عللها المعروفة فيثبت ذلك قوله تعالى (قال : كذلك الله يفعل ما يشاء – آل عمران ٤٠) وذلك ردا على زكريا عليه السلام عندما بشره الله بيحيى وقد بلغه الكبر وامرأته عاقر ومن ثم انقطعت به الاسباب وعلل الانجاب التى سنها الله بين البشر ، أى أن الله يفعل ما يشاء كيف يشاء ، سواء بالسنن والنواميس التى شاءها وسواء بغيرها ، وأكثر من هذا المثل وضوحا مثل عيسى حيث شاء الله أن يخالف بميلاده السنه الجارية

بمشيئته فى خلق الانسان من أب وأم ، فلما بشر به أمه (قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟! قال : كذلك الله يخلق ما يشاء، اذا قضى أمرا فانما يقول له : كن فيكون ــ آل عمران ٤٧) • فبين هنا أن الله سبحانه لا يحتاج الى ايجاد العلة لايجاد المعلول وانما هو اذا أراد شيئا توجهت اليه مشيئته مباشرة فأبدعه بقوله له : كن ، فيكون سواء كان ذلك الشيء مقترنابعلته ، أو مجردا عنها ، كذلك يثبت ذلك كل ما أجراه الله سبحانه وتعالى على أيدى الانبياء من معجزات مخالفة لاسنن الطبيعيــة ، وهى معجزات فقط بالنسبة للاســتطاعة البشرية ولكنها فعل عادي وممكنات بالنسبة للقدرة الالهيــة ، فكل شيء ممكن بالنسبة لقدرة الله تعالى الى حيث لا يعجزه تصور ولا خيال ولا شيء فى السماء والارض •

نأخذ مثلا منها ما أجراه الله على يد عيسى عليه الســلام حيث قال عنه (ورسولا الى بنى اسرائيل أنى قــد جئتكم بآية من ربكم : أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير ، فأنفخ فيــه فيكون طيرا باذن الله ، وأبرىء الاكمة والابرص وأحيى الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخــرون فى بيوتكم ان فى ذلــك لاية لكم ان كنتــم مؤمنين ــ آل عمران ٤٩) • فخلق الطير من الطين وابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى على يدى عيسى عليه السلام باذن الله انما هى جميعا معلولات بدون عللها المادية •

أما عن حدوث العلة مع تخلف المعلول فنذكر منها على سبيل المثال أيضا وليس على سبيل الحصر ، ما حدث لابراهيم عليه السلام حين (قالوا : حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين • قلنا : يانار كونى بردا وسلاما على ابراهيم • وأرادو به كيدا فجعلناهم الاخسرين ــ الانبياء ٦٨،٧٠)• فالنار حسب السنة الطبيعية علة للاحراق فأصبحت هنا علة للبرد والسلام وكما أن النار لم تحرق فان الماء فيما حدث لموسى وقومه ــ لم يغرق (فلما

تراءى الجمعان قال أصحاب موسى : انا لمدركون • قال : كلا ان معى ربى سيهدين فأوحينا الى موسى أن أضرب بعصاك البحر ، فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم — الشعراء ٦١ — ٦٣) •

وكذلك الامر فى واقعة شق البحر بالعصا ووقوف المياه كالجدران انصبة بحيث سار بينها موسي وقومه • ان هذا الحدث مخالف لطبيعة الماء ، وضرب الماء بالعصا فى كل حالة لا ينتج هذا الحدث ، وان بدا أمام بنى اسرائيل أنه علة لانشقاق البحر ، لان الانشقاق حدث بعد أن ضرب موسى البحر بعصاه مباشرة لكن موسي لم يكن ليضربه الا بأمر الله (فأوحينا الى موسى أن اضرب بعصاك البحر ، فانفلق ، فكان كل فرق كالطود العظيم — الشعراء ٦٢) • اذن ، فأمر الله تعالى لموسى بضرب البحر بالعصا انما كان لان الله سبحانه وتعالى شاء أن ينجى موسى وقومه من فرعون وجنوده ، وكل شىء ممكن أمام القدرة الالهية (••• ان الله على شىء قدير — البقرة ١٩) • وكان من الممكن لو شاء الله عز وجل ان يفلق البحر دون ان يضربه موسى بالعصا اى بمجرد توجه ارادة الله له بأن يفلق ، ولكن الله عز وجل وقت وعلق انفلاق البحر بضرب موسى له بعصاه ، ومن ثم أمره بذلك لانه عز وجل أمر البحر بالانفلاق ليس بمجرد صدور الامر له ولكن بمجرد ضرب موسى له بالعصا فلما ضربه موسى بعصاه (انفلق فكان كل فرق كالطود العظيم) فالفاعل هنا هو الله عز وجل وحده ، وما فعل موسى بضربه البحر بعصاه شيئا له من التأثير الحقيقى ما يجعل البحر فى هذه الهيئة المخالفة لطبيعة الماء اجمالا •

وعلى ذلك فالعلة ليست محدثة ولامنتجة للمعلول انما الله عز وجل هو الخالق للعلة والمعلول معا ، لان شأن العلة الطبيعية مع معلولها كشأن ضرب البحر بعصا موسى مع انفلاقه انما هو امر الله بالانفلاق مع التوقيت والتعليق على ضرب موسى البحر بعصاه وكذلك الامر بالنسبة

للعلل الطبيعية مع معلولاتها، ان الله عز وجل أمر بأمر كوني وسنه ثابتة أن تنبت البذور اذا وضعت فى تربة معينة ومناخ معين ورويت ، أمرها ان تنمو وتصبح شجرة بصفات معينة وثمار معينة فالفاعل هنا هو الله وحده ولكنه عز وجل وقت فعله وعلقه بحدوث هذه الشروط والظروف كما وقت وعلق انفلاق البحر على ضرب موسى له بعصاه ، وكما أن ضرب البحر بالعصا ليس فيه من قوة الفاعلية ما ينفلق البحر له فكذلك ليس فى وضع البذور فى التربة الصالحة وريها من الفاعلية ما يخلق شجرة منها وانما الفاعلية لله وحده لا شريك له . وكذلك ليس فى الدواء من القوة والتأثير ما يشفى ، انما الله هو الذى يشفى ولكن الشفاء قد علقه الله حسب سنته ومشيئته الكونية - على تناول المريض الدواء الصحيح له وهكذا ....

ولا شك ان كل مسلم يؤمن بالله واليوم الاخر وبالقرآن الكريم لا شك لحظة فى ان انفلاق البحر بعصا موسى حدث فعلا ، وأنه حدث بقدرة الله تعالى وليس باستطاعة موسى ، لكن الامر الذى يتحتم علينا توضيحه فى هذه المقام هو أنه يجب على كل مسلم - لكي يكون توحيده كاملا وصحيحا - أن يؤمن أيضا بان عدم انشقاق البحر واستمرار المخلوقات فى وجودها وفى تأثيرها بعضها فى بعض حسب قوانين ثابته وسنن مستمرة انما هو بامر الله تعالى ومشيئته وقدرته دون شريك معه فى ذلك ، فالفاعلية له وحده .

فكما ان البحر انفلق ولم يغرق بأمر الله وقدرته وليس بعصا موسى فانه أيضا يغرق ويقبض ويهدأ ويهيج وغير ذلك من أحواله الطبيعية بأمر الله وقدرته وفاعليته وحده ، وليس بقوة وقدرة طبيعية خاصة به ومستقلة عن الفاعلية الالهية .

وكما أن النار لم تحرق ابراهيم عليه السلام بامر الله وقدرته وأصبحت بردا وسلاما عليه بامره وفاعليته أيضا ، فانها عندما تحرق

أى شىء فانما يحدث الاحراق منها بامر الله وقدرته ومشيئته وحده، وليس له فى هذا الفعل شريك طبيعى يتمثل فى قـوة احراق مستقلة للنار • فليس فى النار قوة طبيعية من شأنها الاحراق آليا وبالضرورة بحيث يحدث منها الاحراق مستقلا عن الارادة الالهية انمـا الاحراق يحدث فى كل مرة لان الله عز وجـل اراده وأمر به • كذلك يصـدر تاثير كل شىء وفعله ، بفاعليـة الله ولان لله عز وجل اراده وليس بفاعلية خاصة مستقلة للشىء عن الفاعليه الالهية لذلك وجدنا النـار تحرق احيانا وتنتج بردا وسلاما أحيانا وفى كل حين يكون ذلك بأمر الله تعـالى •

ومن ثم ننتهى الى القول بان الايمان بالله خالقا لكل شىء وفاعلا لكل شىء يجعل المعجـزات امورا عاديه • فالمؤمن من يرى فى العـالم الطبيعى حوله وفى القـوانين التى تحكم اجزاءه وتحكمـه ككل آية عظيمة من ايات الله ودلالة بالغه على القـدرة المطلقة ، فاذا حدثت معجزة مخالفة للسنن امام المؤمن ، فان ذلك لا يثير عجبه او دهشته بقدر ما يثير فيه دلاله على الشعور بعظمة الله عز وجل ويرى فيـه دلالة على القدرة المطلقه كما يرى فى الامور التى تحدث حسب سنن الله الجارية ، وفى كلا الحالين تكون النتيجة انه يزداد ايمانا ويقينا •

ولذلك لم يقدم الانبياء المعجزات للمؤمنين ، بل هى دائما تقـدم للكافرين المكذبين ، والمعجزة هى فى الحقيقه بهذا المفهوم — لا تعدو ان تكون آية من آيات الله الكونية وآيات الله الكونية كثيرة ومتكررة فى كل يوم وكل آن • الا ان معجزات الانبياء غير متكررة ومخـالفة للسنن الثابتـة الدائمـة ويحررها ويجريها الله عـز وجل على يد الرسول لاثبات انه مرسل من الله الى القوم الذين تحدث امامهـم المعجزة يؤكد ذلك ان القرآن الكريم لم يستخدم كلمة معجزة للدلالة على ما جاء به الانبياء والرسل من آيات وبراهين على صـدقهم بل استخدم كلمة الايـة •

والايات الكونية متكررة مثـل شروق الشمس وغروبها وانتظـام حركات الفلك واحياء الارض بعد موتها والفصول الاربعة وخلق الاجنة فى الارحام وما الى ذلك ، وهذه الايات الكونية المتكررة هى معجزات مشهودة للمؤمنين فى كل يوم وآيات يتفكرون فيها فيزدادوا ايمـانا ويقينا (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكـرون فى خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنـا عذاب النار • آل عمران ١٩٠) •

اما المشرك فانه يظن ان القوانين الطبيعية تعلو على القدرة الالهية، وشركه وكفره يكمن أساسا فى اعتقاده الجاهلى غير الحق فى الله بانه ان اراد أن يفعـل فأن فعـله لابـد ان يكـون موافقـا للسـنن ، فيجعل الاله خاضعا فى فعـله للسنن وذلك بالنسـبة للمشترك ، أما بالنسبة للكافر فانه احيانا ينسب الفاعلية للاشياء والاحيـاء لصالة وعلى وجه الحقيقة ، وليس لله عز وجل حيث يعزى الكافر الفاعلية للقوانين والسنن الطبيعيه وذلك نتيجة للالفة وللتكرار وتتابع المعلول للعلة دائمـا على الاغلب حيث ان الاحداث الطبيعيـة تتم بالحركات الدائرية للرتيبة والمتكـررة مما يوحى الى الذهن آن فى الطبيعة قـوة مستقلة فاعلة ، وانها تنتج معلولها دائمـا وبالضرورة ومن ثم تكـون المعجزة تنبيها له الى خطأ اعتقاده هذا •

أما المؤمن بالله وبرسله الموحد الذى يفرد الله عز وجل بالفاعلية فى هذا الكون فليس فى حاجـة الى معجزة لانه يـرى فى آيات الله الكونية معجزة دائمة متكررة ثابته ، ومن ثم اذا رأى آية خارجة عن السنن الجارية فانه لا يندهش ولا يرى فيها مثيرا للعجب ولكن لانه يرجع كل شىء الى فاعلية الله وحده ويؤمن بأن الله فعال لكل شىء وقادر على كل شىء فانه يسـتقبل الاية الخـارقة كالاية الجـارية المتكررة ، ومن هنا استقبل ابو بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه خبر الاسراء والمعراج بهدوء واطمئنان وتصديق تام دون تعجب او

دهشة كما حدث من مشركى مكة لانه آمن من قبل بالله قادرا على كل شيء وصدق ان فاعلية الله المطلقة هي العـلة الحقيقيـة لكل حدث صغير او كبير وانه عز وجل هو الفاعل الحقيقي لكل شيء ولكل فعل سواء كان موافقا للسنن او مخالفا لهـا ، ومن ثم فالايه الخـارقة للعاده والموافقه بها عنده سواء • ولذلك لم يندهش ولم يتعجب ولم يتردد فى تصديق الرسـول صلى الله عليه وسـلم فى خبر الاسراء والمعراج وقال ان كان قال فقد صدق •

ننتهى من ذلك كله الى القول بان الاصل فى فعل الله عز وجل هو الخلق بكن الالهيه وهذا هو الذى يمكن ان نتفهمه من قوله تعـالى (••• انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون — يس ٨١) • فقوله عز وجل « انما امره » اى انما شانه فى الفعل اذا اراد سبحانه ان يفعل او يخلق او يوجد شيئا من العدم ان يقول له كن وذلك دون ان تكون هناك ادنى ضرورة لوجود سبب او علة لهذا الشيء فكلمـه كن الالهية هي العله الحقيقيه لحدوث الشيء او الحى او الحدث • وهذا هو الاصل فى الفعـل الالهى ، أما حدوث الشيء بالفاعليه الالهيـة بسبب وعلة او سلسلة من العلل والمعلولات كما هو الحال فى الامور الطبيعية فان ذلك استثناء فى الفاعلية الالهية • اى انه عز وجل اتخذ من العلل والمعـلولات او من قانون العلية حجـابا يستر به الفاعلية المطلقة الفاعلة فى الاصل بدون علل •

أما فعل الله عز وجل للشيء بعـلله وخلق الحى بعـلله فان هذا استثناء وليس اصلا فى فاعليته ، وذلك فى الحياة الدنيا فقط وقد شاء الله عز وجل هذا الاستثناء للابتلاء ، ذلك أن فعـل الله عز وجـل تابع لمشيئته ، فهو فعال لما يريد وقد شاء الله عز وجل ان يخلق الدنيا للابتلاء — كماعلمنا — ومن ثمفان فعلهفيها جاءمحتجبا بالعللالطبيعية حتى يصح الابتلاء ويتم ، لانه لا يعقل ان يمتحن الانسان ويخيره بين الايمان بالله بالغيب والكفر به ثم هو يرى فعل الله بكلمـة كن

المباشرة حوله فانه بلا شك سيتحول الناس الى ملائكة كلهم مؤمنين وقد شاء الله ان يكون الناس احرارا مختارين وقابلين صالحين للابتلاء ، ومن ثم حجب عنهم الغيب وفعل الله بكلمة كن الالهية او بتعبير آخر الاصل فى الفاعلية الالهية جعله الله غيبا عن الانسان وحجبه خلف ستار العلل والمعلولات الطبيعية للابتلاء .

ان خلق الله وفعله تابع لمشيئته اى ان الله عز وجل يفعل مايشاء متى يشاء وقد شاء الله عز وجل ان يعطى لكل شيء ولكل حى تأثيرا ثبتا دائما (... قال ربنا الذى اعطى كل شيء خلقه ثم هدى — طه ٤٩) .

ومن ثم فان قولنا أن الاصل فى فعله تعالى هو قوله للشيء كن فان ذلك يعنى انه ليس ثمة سبب لفعله او لخلقه سوى توجه ارادته تعالى لحدوثه ، ومن ثم يمكن القول بان الكلمة الالهية كن هى علة حدوث الخلق من أشياء واحياء واحداث فاذا أضفنا الى هذا ما أثبتناه من قبل أمن ان النار عندما تحرق ، فهى تحرق بأمر الله وبفاعليته وليس بقوة ذاتية مستقلة فيها ، وان كل شيء لا يؤثر فى غيره الا بقدرة الله وفاعليته وحسب امره ومشيئته وليس بطبيعة فاعلة مستقلة فيه ، فانه عندما يحترق شيء أو احد بالنار فان عقيدة التوحيد الاسلامية الخالصة تقتضى منا القول والاعتقاد بأن الله هو الذى يحرق بالنار ويغرق بالماء وينمى الزرع بالحرث ويخلق الجنين بالزواج وينزل الماء من السحاب بعوامله وهكذا فهو وحده الفاعل على الحقيقة أما العلل البادية لنا والتى كثيرا ما تلهينا وتنسينا الفاعلية الالهية فنعزو اليها ، خطأ وجهلا الفعل ، فانها ليست سوى سوابق لهذه الافعال شاء الله عز وجل ان يخلق النتائج او اللواحق بعد هذه لسوابق حسب سنن ثابتة اى انه شاء عز وجل ان يكون تتابع السوابق واللواحق من الافعال ثابتا ، حتى لا يستطيع المراقب

لذلك كله الان يتوقع حدوث اللاحق اذا شاهدحدوث السابق وانيسلم بحدوث السابق اذا ثبت لديه وجود اللاحق فعنـدما يرى محروقا يدرك ان ثمة نار أحرقته وعندما يرى غريقا يدرك انه غرق فى البحر وعندما يرى مذبوحا يقول لابد من سكين او سيف استخدم فى ذبحه وعندما نرى نباتا يانعا تنصرف أذهاننا البشرية الى كفاءة صاحبه فى الحرث وخبرته فى أعمـال الزراعة ولكن ذلك خطـأ حسب عقيـدة التوحيد ، حيث الموحـد الحق لا ينسى ـ عندما يرى المعـلول ـ أن الفاعل الحقيقى هو الله عز وجل ، وأن هذه الامور حدثت بعد سوابقها من العلل ، وليست مخلوقة لهذه السوابق • لان الله هو خـالق العلل والمعلولات معا • فالعلل ليست خالقة لمعلولاتها او محدثة لهـا ، لان المخلوق لا يخلق ، وليست العلل سوى المناسبات والشروط والظروف والاحوال التى يتحتم على الفاعل أن يكتنفها حتى يكتسب المعـلول الذى يخلقـه الله له حسب سـنته الدائمـة الثابتـه التى يعرفهـا الانسان بالتجربة ، فالمؤمن يعتقد أن فاعل السابق واللاحـق هو الله وحده ، لذلك قال لنا الله عز وجل (••• افرأيتـم ما تحرثون أ أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ الواقعة ٦٢) •

هذه السوابق واللواحق تسمى عللا ومعلولات ، وقد ضل كثير من الناس والمفكرين بسبب اطراد حدوث اللاحق بعد السابق فى الزمن كما هو متوقع دائما فى الامور الطبيعية والبشرية مما جعلهم يظنون ان السابق هو علة اللاحق • أى أنه هو الذى يحدثه ويخلقه ويفعله ، فتناسوا او تجاهلوا وجهلوا القدرة الالهية المطلقة التى يرجع اليهـا كل شىء وكل خلق وكل فعل فى العالمين ، وهذا هو باب الشرك والكفر الذى ولجته معظم الامم المشركة والكافرة •

ان ثبات هذه السنة التى يقوم عليها ما يسمونه بقانون العلية ، والتى ارادها الله لابتلاء الناس واختبارهم هو مكمن الخطر الذى ادى بكثير من الامم الى الشرك والكفر بالله أى انها ابتلاء للناس وامتحان لهم وقل من البشر من ينجو منه ولا يفوز الا الموحدون .

ولا شك ان مبحث العلية من المباحث الرئيسية فى الفكر الفلسفى وفى الفكر القائم على الرسالات السماوية جميعا .

ولقد أدلى مفكروا الاسلام بدلوهم فى هذا المبحث الخطير الذى يدخل فى صلب عقيدة التوحيد ويشكل فيها زاوية هامة وخطيرة ، وقد لا يستقيم توحيد المسلم بدون فهم حقيقة العلاقة بين العلة والمعلول كما تتفق مع مبادىء الاسلام القائمة على التوحيد القرآنى الخالص .

ولقد وقف متكلموا الاسلام من مبحث العلية او مبحث العله الطبيعية ، مواقف متعارضة حيث نادت جماعة منهم بالوجوب الضرورى للمعلول عن العلة ، واقترانهما فى الوجود والعدم بالضرورة فاثبتوا بذلك استطاعة ذاتية للعلة تنتج بها المعلول . بينما انكرت الفرقة المقابلة لها ان تكون العلاقة بين العلة والمعلول قائمة على هذا الوجوب الضرورى ، والاقتران الحتمى بينهما وجودا وعدما ، وذلك حتى لا يكون هناك استقلال للطبيعة فى فعلها عن الفاعلية الالهية ، ومن ثم تتعدد الفاعليات فى الوجود ولان ذلك — أى اذا اثبتنا استقلال الفاعلية الطبيعية — يستتبع فرض ضرورة على الله سبحانه وتعالى فى فعله وذلك يعنى أن فاعليته وقدرته ومشيئته غير مطلقة .

ولقد مرت بنا الايات التى تطلق الفاعلية الالهية ، فعلمنا منها ان الله سبحانه وتعالى يفعل حسب الناموس والسنن التى شاءها لتسير عليها الطبيعة ويحيا بها الانسان ، كما يفعل اذا شاء بخلافها . كما مرت بنا الايات التى تثبت وتؤكد دوام هذه السنن والنواميس

وعدم تحولها او تبدلها مما يوحى الى ان العلاقة بين العلة والمعلول ثابته ومستمرة ومطردة ، ودائمــة بدوام الكون واستمراراه وتتمثل فى التلازم الضرورى والحتمى فى الوجود والعدم . ومن ثم يبدو الامر متضاربا او متناقضا . ولذلك كان موقف كل جماعة منهما حيال هذا الامر متعارضا بالرغم من ان كلا منهما يستند على اسس قوية من القرآن ونصوص صريحة واضحة من السنة . والحقيقة ان كلا الفرقتين ، بالرغم من ان نظرة كل منهما ونتائجهما بالنســبة لمبحث العلية حق ، فانهمــا غير متناقضين ولا متعارضين وذلك مع وجود الاختلاف الواضح بينهما . وتكمن علة ذلك الاختلاف الرئيسية فى اغفالهما حقيقة خطيرة وعظيمة فى القرآن الكريم فى فكرهما ؟ ونعنى بها حقيقة الابتلاء ، وسبب آخر لهذا الاختلاف بينهمــا ، وهو ان كل جماعة نظــرت الى الحقيقة من زاويتها الخاصة فرأت جانبا واحدا منها ، ولم تستطع ادراك الحقيقة الكلية بالنظرة الشاملة العامة .

فالفرقة التى رفضــت التسليم باحداث العــلة للمعلول بالضرورة وجوزت حصول المسببات بأسبابها ، وغير اسبابها من الله سبحانه ، على حق . كما ان الثانية التى أحالت حدوث المسببات الا بأسبابها ، وجعلت العلاقة بين العلة والمعلول حتمية فى التلازم بين الوجود والعدم على حق ايضا .. وسبب الاختلاف بينهما مع كون كل منهما مصيب فى ناحية ان كلا منهما ينظر الى المسألة نظرة مخالفة للاخرى .

فجماعة تنظر الى العالم نظرة اجمالية ، فترى ان فى مقــدور الله سبحانه ان يخلق العالم على النواميس التى هو عليها أو على نواميس أخرى مخالفة اذا شاء هو سبحانه ذلك . بينما نجد ان الفرقة الاخرى تنظر الى العالم نظرة جزئية ، فتراه فى مجموع هذه الجزئيات الطبيعية والبشرية الموجودة كل على حدة ، وبماهية وطبيعة مستقلة ، ومن ثم

قالوا ان الله تعالى لا يفعل الا الاصلح والاكمل فلا يمكن ان يفعل العالم الاعلى صورته الحالية ٠

فالنظرة الاجمالية الشاملة التى يراها أصحاب المذهب الاول للعالم من خارجه هى التى تجعلهم يحاولون جاهدين التخلص من الضرورة فى خلق العالم بهذه الصورة التى هو عليها دون غيرها ، والا كانت هذه الضرورة حاكمة لله فى فعله وملازمة له ، وفارضة عليه قوالب معينة من صور الخلق دون الاخرى ٠

بينما نجد ان الفرقة الثانية التزمت كنتيجة لهذه النظرة الجزئية الداخلية للعالم ان يكون ذلك جائزا على الله فى فعله ، وعبروا عن ذلك بفكرة الصلاح والاصلح على الله سبحانه فجعلوا كيفية الخلق ضرورية ، وليست ممكنة من حيث انه لا يفعل الا الاصلح ولا يليق به الا الاحسن والافضل دائما ، فليس امام ارادته ممكنان اذا ٠ انما هو ممكن واحد وهو الاصلح وذلك من حيث ان الله هو الموجود الكامل ولا يصدر عنه الا مفعول تام وكامل ، وأفضل ما يمكن فى كل الاحوال ٠ وشعارهم : « ليس فى الامكان ، ابدع مما كان » ومذهبهم هذا ناتج عن نظرتهم الجزئية الى الاشياء الطبيعية والموجودات الجزئية حيث وجدوا العناية قد شملت كل شىء ، ورتبت هذه الموجودات ترتيبا بديعا بحيث يتحقق لكل موجود غايته ، فلمسوا الغائية فى الطبيعة وتحققها فى الطبيعة والعالم وبنوا على ذلك دليلهم على وجود الله القائم على العناية الالهية التى كانت نتيجتها ان يكون العالم على أفضل حال ممكن له ٠ ومن هنا كان واجبا على الله فى زعمهم ان يخلقه على هذه الصورة دون سواها ٠ ومن ثم قالوا بعالم محكوم بأسباب مؤثرة تنتج وتوجب مسبباتها بالضرورة من حيث ان ذلك يحقق لكل موجود وجوده وماهيته وكيانه ٠

أما الفريق الاخر فانه بارتفاعه عن العالم ، وخروجه عن نطـاقه ، وبحصوله على النظـرة الكلية الشاملة له من خارجه ، فقـد رأى ان المشيئة الالهية فقط هى علة العالم ككل ، كما انها علته كجزئيات متتالية ومنتظمة فى الزمان والمكان ومن ثم وصـلوا الى انه يجوز ان يبـدله الله من أساسه ، وان يجعله بنواميس وقوانين وسنن أخرى غير التى هو عليها الان • كما جوزوا عليه تعالى احداثه للاشـياء بدون تحقيق غاياتها ، او تحقيق هذه الغـايات بأشياء وماهيات وطبائع أخـرى او بدون مقدماتها اطلاقا • فليس عليه سبحانه ضرورة ملزمة فى خلقـه او فعله ، فخلقه نابع من مشيئته • ومن ثم رفضوا ان تكون للطبيعـة فاعلية مستقله ، ونسبوا كل فعل كلى او جزئى فيها لفاعليته تعالى ، ورفعوا شعارهم الشهير القائل « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » فى وجه شعار خصومهم الاخرين •

والقول بأن النظرتين صائبتان ونابعتان من القرآن ، وليس بينهما تعارض ولا اختلاف يتضح لنا جليا لو علمنا الموقع الذى يرى منه كل منهما الحقيقة التى ينادى بها ، فاذا كنا داخل العالم معتبرين أنفسنا جزءا منه ، والعالم أمامنا هو مجموع هذه الجزئيات المتمثلة لنـا فى الاجناس والانواع والافراد ، والطبيعة ليست الا ما هو ملموس لنا ، ومحسوس منها • ونظرنا الى الدقة والعناية فى الترتيب والتنظيم بين هذه الجزئيات بحيث نرى أن أفعال بعضـها مترتب على بعض ، ولن تأثيرات بعضها قائم على بعضها الاخر ، فنلمس ان الاسباب والعلل تعقبها المسـببات والنتائج بشـكل رتيب مطرد ودائـم بحيث يمكن مراقبتها وملاحظتها وتدوينها ، ثم معـرفة القوانين التى تسير عليها هذه الموجودات • ويمكننا الاطمئنان الى صحتها وسلامة توقعنا فى كل مرة لحدوث المعلولات اذا حدثت العلل ارتكازا على ثبات هذه السنن والقوانين ، هذه النظرة من داخل العالم ، تجعلنا نؤمن بوجوب حدوث

المعلول عن العلة ، وبوجوب العلاقة الثابتة بين العلة والمعلول فى العالم. وتلك نظـرة طبيعية ، داخليـة ، جزئية ، غائيـة ، سندها ما مر من نصوص تفيد دوام هذه السنن وثباتها بأمر الله ، فعلى اساس التجربة والملاحظة والمشاهدة فى العالم نصل الى وجوب تعاقب المعلول للعـلة الواقع فى الزمن ، وتتابع النتيجة كلما حدث المسبب ، وانتفائه كلمـا انتفى . فالعقل يميل الى افتراض وجـوب خروج المعلول عن العـلة وحدوث التأثير عن السبب لانتاج المسبب وان كان يفقد الدليل الحتمى القاطع بحدوث ذلك مستقبلا . ومن ثم فالامر هو توقع حدوث المعلول اذا حدثت العلة ، أكثر من الجزم والقطع بهذا الحدوث . ولكن ادلة السمع القائمة على ما مر بنا من آيات قرآنية كريمة تفيد دوام السنن والنواميس التى وضعها الله سـبحانه لتسيير هذا الكون المخـلوق ، الطبيعى منه والبشرى ، تعطينا الثقة والاطمئنان وتجعلنا على يقـين من حدوث المعلول بحدوث العلة الكاملة .

ولكن هذه الثقة وهذا العالم اليقين ليسامطلقين ، فليس ثمـة ما يثبت استمرار هذا الناموس فى العالم الى مالا نهاية . بل لدينـا من الخبر ما يؤكد توقف هذه النواميس وتبدلها بقيام الساعة .

ان دوام السنن والقوانين مرهون بمشيئة الله وقد شاء الله عز وجل ان تكون هذه الدنيا وجودا مؤقتا وليس أبديا ، وأخبرنا عز وجل ان هذا الوجود سينتهى بقيام الساعة ، ومن ثم يمكننا القـول بأن هذه السنن والنواميس والقوانين التى تحكم الاحيـاء والاشياء فى الارض هى خاصة بهذه الدنيا ـ وليست مطـلقة او ابدية حيث سيبدل الله الارض غير الارض والسموات غير السموات وستكون فى الجنة سنن للحياة والاحياء فيها تختلف تماما عن قوانين الحياة فى الارض كمـا ستكون فى النار قوانين للحياة والوجود تختلف تماما عن سنن الحياة فى الجنة وفى الحياة الدنيا معا .

ولكن الله عز وجل أخبرنا بدوام سنن وقوانين الارض حتى آخر الحياة الدنيا وهذا هو الذى يعطينا الثقة واليقين فى دوامها وبدون ذلك فليس ثمة ما يثبت ضرورة خروج المعلول عن علته . فالثقة واليقين فى خروج المعلول عن العلة مرهونان بمشيئة الله سبحانه وتعالى القاضية بدوام السنن الى قيام الساعة .

فمن اصول الايمان فى الاسلام الايمان باليوم الاخر ، وهذا يتضمن مبدأين هامين : الاول هو ان السنن ليست مطلقة وانما هى نسبية وخاصة بالحياة الدنيا ولها أجل ستنتهى بانتهائه .

والثانى: هو اخفاء الله عز وجل علم الساعة ووقت قيامها عن الناس ويترتب على ذلك اعدام الثقة والاطمئنان — الى حد ما — فى حدوث المعلول عن علته مع سلب صفة الاطلاق عن هذه الثقة وهذا اليقين فى خروج المعلول عن علته باعتبار أن المؤمن يتوقع حدوث الساعة ولا يستبعدها ومن‌ثم يترتب على هذين المبدأين الهامين شعور المؤمن دائما بأن الفاعل هو الله وانه لا ضرورة على الله فى فعله وليس ثمة ضرورة بمقتضاها يحدث المعلول عن علته .

ان عجز المفكرين والعلماء عن اثبات اليقين فى حدوث المعلول عن علته يعنى ان شروق الشمس من مشرقها أمر احتمالى وليس يقينا وكذا فى كل الظواهر الكونية والطبيعية اليومية وغير اليومية الاخرى ، وهذا وان لم يكن دليلا ماديا عمليا على ضرورة قيام الساعة فانه دليل علمي على احتمال قيامها .

وبهذا ينتفى اليقـين المطلق عند الانسان لحدوث المعـلول عن علته وبالتالى لاستمرار الحياة الدنيا الى الابد [1] بناء على التواتر السابق وان كان لا يمنع اليقين والثقة فى حدوثه فى المستقبل غير الابدى وذلك بناء على مشيئة الله فى استمرار العالم الى أجل محدود ٠

ومن هنا يأمر الاسلام العبـد أن يأخذ بالاسباب سـواء بالنسبة للامور العاجلة والمثمرة أو الاجـله انطلاقا من حقيقة الخـلافة التى تقتضى تعمير الارض واعتبـار العمل عبادة لله من ناحيـة ، واعتمادا على هذه الثقة وهذا اليقين فى حدوث المعلول بعد علته بخلق الله وأمره ومشيئته من ناحية أخرى ٠ فالثقة هنا نابعة أصلا من مشيئة الله عز وجل وليس من ضرورة فى العـلة يحدث بها المعـلول ومن ثم أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم (وأمر بالتـالى كل مسلم) أن يقول (ولا تقولن لشىء انى فاعـل ذلك غدا الا أن يشاء الله) فتتابع المعلول للعلة وحدوث النتيجة بعد حدوث السبب قائم فى العالم ، ويمكن ان نثبته بثقـة واطمئنان ما دمنـا معلقين ذلـك على مشيئة الله سبحانه وتعالى ٠

ومن ثم لا يمكن القول أن هذه العلة تعمل وتؤثر لانتاج معلولهـا باستقلال عن الفاعلية الالهية المطلقة وخارجة عنها ٠

وهذا هو ما تمسكت به الفـرقة الاخرى فسلبت من العـلة قوتها وامكانيتها التى أعطاها الله لهـا لاحداث المعلول وأفـردت الفاعلية الالهية المطلقة بفعل كل شىء ، وخلق كل شىء فى الوجـود المخلوق ٠ ولكى نفهم هذا المذهب المقابل وأسبابه نجد أنفسنا ملزمين بأن نخرج عن العالم ولو فكريا ، لكى نلقى عليه نظرة اجمالية كليـة من خارجه

(1) لان استمرارها الابدى يقتضى ضرورة تلاحق العلل لمعلولاتها تلاحقا أبديا ، أما وقد بطل اليقـين فى خروج المعلولات عن العلل فان هذا يجعل مستقبل الحيـاة الدنيا أمرا احتماليا وليس يقينيـا ٠

وسنعلم أن الله سبحانه خلق العالم بكيفيات وصفات معينة ، ولن القوانين التى تحكمه وتسيره انما هى من خلقه تعالى ، وكذلك فالعلل التى تؤثر فى المعلولات ، انما هى من خلقه وفعله ، كما ان المعلولات الحادثة تتابعا للعلل تتم بخلقه ومشيئته أيضا فليس لهذه السنن والنواميس وجودا مستقلا خارجا عن المشيئة الالهية والعلم الالهى والقدرة الالهية ، وليس الله سبحانه مضطرا أو مجبرا لخلق العالم بها أو بغيرها ، انما هو سبحانه قادر ومختار أن يفعل بها أو بغيرها أو أن يخلق العالم على هذا الحال أو على خلافه • ومن ثم فهو قادر اذا شاء أن يبدل هذا العالم من أساسه ويخلق غيره مخالفا ومغايرا عنه فى كل شىء • ذلك لان الضرورة التى تحكم العالم انما تحكمه من داخله فقط ، وهى صادرة اليه بارادة الله سبحانه وتعالى فالمشيئة الالهية هى مصدر الضرورة التى تحكم العالم من داخله كجزئيات ومن خارجه ككل ومن ثم فهذه الضرورة ليست متعدية الى الفعل الالهى ، وانما هى صادرة الى العالم بالفعل الالهى ، فليس على فعله وجوب أو ضرورة أو حتمية ولنما خلق العالم بمشيئته المطلقة فكل شىء واجب الحدوث اذا أراد سبحانه حدوثه ، وليس واجبا عليه حدوثه بماهية معينة •

أما الشعاران اللذان رفعهما الفريقان ، فانهما صحيحان وليسا متعارضين ، بل أن اللبس والغموض والاضطراب فى هذه الحقيقة ، يكمن فى أن كلا منهما يتمسك بشعاره ويرفض الاخر • وذلك حيث أن كل شعار من هذين الشعارين انما ينزه الله سبحانه وتعالى ويطلق مشيئته ويصف فعله بالكمال والتمام • وهذه صفاته التى وصف نفسه بها ووصف بها فعله سبحانه وتعالى • ومن ثم فان تمسك كل فرقة منهما بشعار دون الاخر جعل الواحدة تلزم الاخرى بوصف الله سبحانه بما لا يليق به بنتيجة اغفال كل واحدة شعار الفرقة الاخرى ، وتمسكها بشعارها فقط • فالقائلون « ليس فى الامكان أبدع مما كان »،

انما قالوا ذلك وآمنوا به تنزيها لله فى فعله عن أن يفعل ما هو قبيح أو ناقص أو معيب أو شر ، بل ورغبة منهم فى القول بأن الله سبحانه وتعالى بوصفه الموجود الكامل المطلق الواحد الاحد فى كماله لايخلق أو يفعل الا مخلوقا كاملا تاما أو فعلا حسنا وخيرا قال تعالى (الذى أحسن كل شىء خلقه) ، وقال تعالى (فتبارك الله أحسن الخالقين) •

ولكن ذلك يلزمهم بنفى الاختيار عن الله سبحانه لانه ما دام لايفعل ولا يخلق الا الاصلح ، فهو لا يختار بين ممكنات باعتبار أن الاصلح دائما واحد ، كما أنه يضيق مجال الفاعلية الالهية من حيث يجعل خلق العالم بهذه الكيفية التى هو عليها واجبا على الله وحتما عليه فى فعله كما يحد من القدرة ، حيث يجعل خلق غير العالم محال عليه كما يجعل فعل ما لا يحدث وما لم يحدث محال على قدرته كذلك • وهذا ماتأدى به مذهبهم فى الصلاح والاصلح ، ولكن ليس هذا نتيجة لهذا الشعار فقط وانما هو نتيجة اغفال الشعار الاخر واغفال حقيقة الابتلاء التى تربط بينهما فى احكام تام •

أما الشعار الاخر « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » فقد رفعه أصحابه ردا على الشعار الاول ، وذلك اطلاقا للمشيئة الالهية والقدرة • ووصفا للفاعلية الالهية بما يليق بها وهذا حق ولكن الاكتفاء بهذا الشعار ، والاقتصار عليه فقط يلزم بالزامات تتنافى مع خصائص الالوهية فى القرآن الكريم والسنة ذلك لان القول به وحده يلزم أصحابه بنسبة ما يقع فى العالم من شرور وقبائح وسيئات لله • وقد وجدنا أن ذلك واقع من الناس وبفعلهم وان كان بمشيئة الله وقدره والحقيقة التى نثبتها حيال هذا الامر هى أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ليس فى الامكان أبدع مما كان وليس بين القولين أدنى تعارض •

ان اغفال الحكمة التى من أجلها خلق الله العالم يجعل هذين الشعارين متعارضين تماما ، بينما ربطهما بهذه الحكمة يجعلهما متناسقين ومنفقين ومعبرين عن الحقيقة الكونية الكبرى .

فاغفال الغاية من وجود الشيء الجزئى فى الحقيقة يجعل من المستحيل علينا معرفته معرفة حقيقية ، كما يجعل فهم ماهيته وطبيعته التى هو عليها امرا مستحيلا كذلك ، لان الغاية من وجود الشيء الجزئى ، كالنبات مثلا ، هى التى تفسر وظائف اعضائه ، وتطور نموه ، كما أنه يستحيل على الذى ينظر الى السيارة أو الطائرة دون ان يعرف الغاية منها ان يفهم جزئياتها ويفسر تركيبها فاذا أغفل كونها للسير او الطيران والركوب للانتقال من مكان الى مكان بسرعة . فانه اذا نظر الى ما بها من مقاعد فسرها على انها استراحة فى الطريق من المطر او الشمس . واذا نظر الى مؤخرتها فسرها كمخزن لحفظ الاشياء ، واذا نظر الى عجلاتها فسرها على انها منزل متحرك . ثم اذا نظر الى آلاتها الداخلية ، عجز عن التفسير ، وكل ذلك لانه لم يضع فى اعتباره أو لم يخبر مقدما بانها وسيلة للانتقال والسفر بسرعة . فاذا وضع فى اعتباره الغاية من وجودها علم كل جزء منها ووظيفته من حيث أن كل مافيها من أجزاء انما جعل لغاية خاصة وجميع الغايات تؤدى للى الغاية الاولى من السيارة وهى نقل الانسان من مكان الى مكان بسرعة على الارض أو الطيران به بالنسبة للطائرة .

وحقيقة أن أصحاب النظرة الطبيعية الداخلية الجزئية الى العالم لاحظوا الغائية فيه[1] ولكن خطأهم يكمن فى أنهم لاحظوا الغائية للموجودات الجزئية المتشخصة فى الزمان ، وغفلوا عن غاية العالم ككل . أو عن الحكمة التى من أجلها خلقه الله تعالى ، ومن ثم لم يصلوا الى الحقيقة الكلية التامة عنه ، وجاء مذهبهم فى الفاعلية الطبيعية خاطئا .

---

(١) هم الفرقة الاولى ونعنى بهم المعتزلة .

كما أن الاخرين[1] قد أغفلوا الحكمة من خلق للعالم تماما بالرغم من أن نظرتهم له كانت كلية وعامة واجمالية من خارجه •

ولقد أخبرنا ربنا فى القرآن الكريم أنه خلق العالم للابتلاء لكى يكون على قمته مخلوقات تحيا فى الارض للابتلاء والامتحان ، لتفوز فى حالة نجاحها بالنعيم الخالد والملك المقيم ، او تتردى فى عذاب خالد مهين فى حالة الفشل ، فالحياة الدنيا بهذا الاعتبار ليست سوى دار ابتلاء • او هى تجربة خلافه ابتلائيه مطروحه على الناس من يحققها لله تعالى ينجح ومن يحققها لغيره يفشل •

ومن ثم فالضرورة التى تحكم العالم كلياته وجزئياته من داخله ، انما هى صادرة من الله سبحانه وتعالى لتحقيق ما أراده ، وهو الابتلاء للانس والجن على الارض • فجعل الله الجيه بكيفيات وكميات وأغراض معينة تحقيقا لهذه الحكمة ، كما جعل الموت كذلك بالصورة التى هو عليها تحقيقا لها أيضا • وجعل كل شيء وكل حدث ، وكل فعل مقدورا ومرتبا ومنظما تنظيما تسيطر عليه الضرورة التى أرادها الله وتهيمن عليه هيمنة تامة تحقيقا للحكمة التى شاءها الله من وجود العالم قبل خلق الخلق •

تلك الحكمة هى غاية وجود الكون المخلوق الطبيعى منه والبشرى والجنى • فهى بالنسبة لله سبحانه وتعالى حكمة ، وبالنسبة للعالم المخلوق غاية لابد أن تتحقق بمشيئته وقدرته تعالى •

ومن ثم يمكن القول أنه ما دامت هذه الحكمة ، وهى الابتلاء ، انما أرادها الله سبحانه بمشيئته المطلقة ، وما دامت الضرورة التى تحكم العالم ، والتى يقوم عليها قانون العلل والمعلولات ، والعلاقة الحتمية بينهما ، نقول : مادامت هذه الضرورة قائمة ، تحقيقا لهذه الحكمة وهى أيضا بمشيئته ، فان الضرورة التى تحكم العالم ، ومنها قانون العلية ،

---

(1) هم الفرقة الثانية ونعنى بهم الاشاعرة .

صادرة بمشيئته سبحانه وتعالى . فهى ضرورة منه ، وليست عليه وعلى ذلك يمكن القول بكل اطمئنان أن الله سبحانه وتعالى لو شاء أن تكون الحكمة من خلق العالم بكل ما فيه غير حقيقة الابتلاء ، لكان العـــالم بشكل وكيف وكم وماهيات وطبائع ، مخالفة لما هو عليه الان . ولكن الله شاء ان تكون الحكمه هى الابتـــلاء ، ومن ثم خلق وفعل العـــالم بالكيف الذى هو عليه ، والذى به تتحقق هذه الحكمـــة ، ومن ثم فان مقولة ليس فى الامكان أبـــدع مما كان ، صحيحة اذا قلنا ان للعـــالم الموجود الان هو أحسن عالم ممكن لتحقيق الابتلاء والامتحان للانس والجن . فهى اذا مقولة صحيحة ومتفقه مع حقائق القـــرآن وآياته ونابعه منها اذا لم نطلقها ، أى اذا قلنا أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان تحقيقا للابتلاء ، لان الله تعالى لو شاء حكمة أخرى غير حقيقـــة الابتلاء وخلق من أجلها العالم ، لكان هناك عالما آخر ، أفضل من هذا العالم وأنسب ، واصلح لتحقيق تلك الحكمة .

وهكذا يتحقق لنا أن الله سبحانه وتعالى خلق أفضـــل عالم ممكن تحقيقا للحكمة التى أرادها ولم يخلق أفضل عالم ممكن على الاطلاق . لان أفضل عالم ممكن على الاطـــلاق لا يحقق هذه الحكمـــة ويكون العالم الذى نعيشه الان ، أفضل منه ، وهذا محـــال . ذلك لانه من المحال أن يخلق الله خلقـــا بدون حكمة من هذا الخـــلق ، لانه حكيم . ومن ثم يكون لكل عالم مخلوق ، يخلقه الله فى الزمان غايتـــه ، وتكون أفضلية هذا العالم ، مرتبطة بغـــايته أوثق ارتباط ومن هنـــا كان عالم الاخرة أفضل بالنظر الى غايتـــه من عالم الدنيا ، كما أن عالم الدنيا ، افضل بالنظر الى غايته من عالم الاخرة فالجنة كدار للنعيـــم ليست صالحة للابتلاء ، والحياة الدنيا أفضل منها وأصلح كدار ابتلاء ، بـــل هى أصلح دار للابتلاء ممكنـــة ، وليست صالحة كدار للجـــزاء بينما الجنة والنار أفضل حالتين للجزاء والعدل . ومن ثم خـــرج آدم من الجنة الى الارض بعد أن ثبت اختياره ورغبته فى دخول عالم الابتلاء ،

باقدامه على المعصية الاولى • فالجنة أفضل عالم ممكن للجزاء والنعيم فقط والدنيا أفضل عالم ممكن للابتلاء •

ويرتبط شعار الاخرين ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، ويكمل شعار الفرقة الاولى باعتبار هذه الحقيقة الهامة كغاية لكون المخلوق • وذلك حيث أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يكون هناك ابتلاء ، فخلق العالم بمشيئته كأفضل وجود لتحقيق ما أراده الله كما خلق من أراد أن يبتليهم بمشيئته كأفضل ما يكون الكائن المبتلى المختبر ، فليس الانسان فى وجوده البشرى أفضل كائن على الاطلاق ، بل هو أفضل كائن للابتلاء ومن ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام (لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم آخرين يخطئون فيستغفرون فيغفر الله لهم) (١) • ذلك لان من لم يذنب ، أو من لم يستطع ارتكاب الذنب وفعل المعصية ليس أهلا للابتلاء ولا يصلح بطبيعته له • فالانسان أفضل كائن مبتلى وذلك أن الله خلقه بمشيئته بما عليه من طبيعة وما يملك من قوى واستعدادات تحقيقا للحكمة التى شاءها سبحانه بمشيئته كذلك • وكذلك فانه تعالى خلق العالم بالصورة والكيفية التى عليها تحقيقا لما اراد ، فكان ما أراد ولم يكن ما لم يرد ، فما شاء كان ومالم يشأ لم يكن• وكان ماأراده هو أفضل عالم ممكن تحقيقا للمراد•

وهكذا نجد ألا تعارض بين الحقيقتين ، من حيث أن العالم والمخلوقات جميعا هى أفضل عالم ممكن لتحقيق ما شاء الله سبحانه •

وبناء على ذلك نجد أن القوة المؤثرة التى أعطاها الله للعلة وثبات هذه القوة بحيث تنتج معلولا كلما حدثت العلة هى بأمر الله ، أولا وأخيرا ، وهى من خلق الله سبحانه علة ومعلولا ، وقد جعل الله عز وجل هذه النواميس والقوانين التى يسير عليها العالم

---

(١) صحيح مسلم — كتاب التوبة

بجزئياته وكلياته بانتظام تحقيقا وتيسيرا لسيطرة الانسان على الارض ولتحقيق الخلافة التى يبتليه الله بها •

ولو أراد الله تعالى خلافا لهذه الحكمة لكان العالم بارادته أيضا مخالفا لما هو هو عليه تحقيقا للمراد • فليس هناك تعارض بين النظرتين والشعارين ، وانما الحقيقة فى الجمع بينهما حيث ترى كل فرقة جزءا من الحقيقة غير الذى تراه الاخرى ، أما النظرة العامة الشاملة الكلية للحقيقة ، والتى لا نعرفها الا منه سبحانه وتعالى عن طريق وحيه قرآنا وسنة فانها تدلنا على أن الله سبحانه خلق الناموس الذى يسير عليه العالم والقائم على قانون العلية • وهذا الناموس الذى يشمل السنن الكونية فى الدنيا لا يصلح أساسا للفعل البشرى فى العالم الاخر • وهذا واضح من وصف الجنة والنار فى القرآن الكريم • ويثبت ذلك صراحة قوله (يوم تبدل الارض غير الارض والسماوات ، وبرزوا لله الواحد القهار — ابراهيم ٤٨) • ذلك يعنى تبديل هذه القوانين التى تحكم الحياة على الارض والتى يتم الفعل البشرى بحسبها • وأولها قانون العلية • فالالزام الحتمى فى المقارنة بين العلة والمعلول ، انما هو فى دار الابتلاء فقط ، تحقيقا للابتلاء • وقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى باستمراره حتى نهاية هذه الدنيا حيث تتبدل هذه القوانين بتغيير السماوات والارض ومنها قانون العلية ، وتحل محلها قوانين وسنن مغايرة تحقق جميعها للانسان النعيم فى الجنة ، والعذاب فى النار •

ومن ثم فالسنن والقوانين الحالية ليست علاقات حتمية خالدة ومستقلة عن الفاعلية الالهية فالانسان فى الجنة لا يزرع ليحصل على الثمار وانما تأتيه بمجرد ارادته لها (لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) وكذلك المعذب فى النار لا يحترق ويموت بل هو (لا يموت فيها ولا يحيا) وهذا مخالف لنواميس الدنيا التى تقوم على العلية • وذلك

لان نواميس الدنيا من صنع الله سبحانه وتعالى . فهى مخلوقة ومحدثة وفانية كأى مخلوق ولذلك صح أن الله يفعل به فى الدنيا وبغيرها ومثال ذلك فى الدنيا المعجزات والكرامات ، ومن ثم أخطأ القائلون بحتميه حدوث المعلول عن العلة ، حيث جعلوا تلك العلاقة حتمية ، حتى على الله فى فعله وخلقه ، كما جعلوها سارية فى الاخرة كما هى فى الدنيا سواء ، مما جعل الفرقة الاخرى تقول — كرد فعل لهذه المغالاة — برفض هذه الحتمية فى وقوع المعلول عن العله ، وانتفائه بانتفائها ، مفسرين تلك العلاقة بينهما بانها اقتران حدوث شىء عند شىء ، وتتابع زمنى فقط ، راجعين بالعله لله خلقا وفعلا •

والحقيقه فى ذلك الامر أن لله سبحانه هو الخالق للعلة والمعلول ، وانه يفعل حسب الناموس الذى خلقه ، ويفعل اذا شاء بخلافه • ولكنه سبحانه جعل هذا الناموس ثابتا دائما مستمرا ، وجعل العلاقة بين العلة والمعلول متلازمه الوقوع ، فليست العلة هى التى تحدث المعلول ، وانما يحدث الله المعلول بحدوث العلة وذلك تمكينا للانسان من السيطرة على الطبيعة والارض تحقيقا للخلافة ، ليبتليه •

والله سبحانه وتعالى يمكن العبد بذلك من تنفيذ ما يختاره العبد ، ويقدره على فعل ما يعزم عليه باكتساب سبب الفعل المراد أو علته ، فيحدث له الله المعلول والمسبب •

نخلص من كل ما تقدم أن الله سبحانه هو الخالق للعلة ومعلولها كما أن الله يؤتى الدنيا لمن يختار الدنيا وزينتها وحرثها ، وكذلك يؤتى الاخرة لطالبها • وحيث أنه سبحانه قد سن السنة الكونية الكبرى ، وهى أن كل شىء يحدث على الارض انما يحدث بسبب ، فانما يمده بالاسباب التى يحصل بها على الدنيا ، أى بالعلل التى يخلق الله له بها معلولاتها ، فتكون نتيجتها حصوله على ما أراده الله له من متع الدنيا وزينتها • واذا أراد العبد الاخرة وأرادها له الله

فانه يمده بالعلل التى تمكنه من السعى لها والحصول عليها ، وقد بين الله فى آيات كثيرة مرت علينا أن علة حصول العبد على الاخـرة هى الهدى والايمان والتقـوى وذلك هو معنى قوله (فـأما من أعطى ، واتقى ، وصـدق بالحسنى ، فسنيسره لليسـرى ، وأما من بخـل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ـ الليل ٥ ، ١٠) • فالتيسير هنا هو تمكين العبد من العلل التى يحصل بها على المعلولات حسب السنن الثابته ، أو تمكينه من المعلولات بدون عللهـا على عكس السنن الثابتـة اذا أراد الله له ذلك مثل المعجـزات والكرامات وهذا التمكين يكون للضدين من الافعال وهذا هو معنى الاستطاعة البشرية ومفهـومها •

حقيقـــة الفعـل البشرى :

واذا كان معنى الاستطاعة البشرية هو تمكين العبـد من اكتساب العلل التى بها يخلق الله المعلولات ، فما هو معنى الفعل البشرى اذا ؟

مما لا شك فيه أن أى فعل يقوم به الانسان يتم ـ كما هو معـلوم بالضرورة من الواقع ـ بأعضائه الجسدية وبالادوات الخارجية التى يستعين بها على اتمامه ، كما أنه من المعلوم أيضا أن أى فعـل ليس سوى مجموع عدة أفعال صغيرة ينتهى كل منها فى حقيقته الى حركات وسكنات ، سواء كانت حركات نفسـية أو جسدية أو طبيعيـة • هذه الحركات والسكنات التى تتم بالاسـتطاعة البشرية مستعينة احيـانا بالادوات ، تتشكل بالضرورة فى شكل معين بتوقيت معـلوم يفرضهما نوع الفعل نفسه الذى يتحدد بغايته ، لانه اذا كانت الافعال التى تتم بالاستطاعة البشرية لا تعدو جميعها أن تكون حركات وسكنات فـلا شك أن الذى يفرق بين فعل وفعـل ، انما هو اختلاف هذه الحـركات والسكنات كيفا وكما من فعل لاخر ، ولنضرب مثـلا على ذلك ، بوالد يؤدب ولده ضربا ، وآخر يربت على ولده ويحتضنه شـفقة وحنانا •

نجد أن كلا من الفعلين يقعان بين فاعل ومفعول ، يستخدم الفاعل فى كل منهما حركة جسده واحساسه لاستقبال حركة الفاعل • بينما تتخلل حركة كل من الفاعلين والمفعولين أيضا سكنات لا تكاد ترى ولا تحس نتيجة تلاصق وتدافع حركات الفعل بسرعة ، الا أنها موجودة بعد نهاية كل حركة وقبل بداية الحركة التى تليها ، فالفرق بين الفعلين — من حيث صورة الفعل الواقعية العادية وبصرف النظر عن الاختيار والغاية — ليس سوى اختلاف كل فعل عن الاخر من حيث عدد الحركات وكيفيتها [1] وعدد السكنات المتخللة للحركات وكيفية تخللهما كذلك •

ومن ثم فمجموع الحركات والسكنات ليست فى الحقيقة سوى علة لنتائج الفعل المراد وفى نفس الوقت فان كل حركة سابقة تصبح علة وسببا للحركة التالية المعلولة التى ما تلبث أن تصبح هى الاخرى علة لمعلولها الذى يليها وهكذا • حتى تاتى الحركة الاخيرة التى هى معلول وليست علة لشىء •

ونعنى بالحركة : الحركة الاولية التى لا تنقسم الى حركتين وكذلك السكون نعنى به الفترة بين انعدام الحركة وبداية أخرى • فالاب يتحرك فى اللحظة التى اختار فيها ضرب ولده حركة هى معلول أول للاختيار ، ولكنها علة لمعلول آخر ، وهو أخذ العصا • وأخذ العصا يصبح بعد تمامه علة لحركة أخرى حيث يتحرك الضارب بالعصا بحركات معلومة له مسبقا ، كما وكيفا يؤدى الى وقوع الضرب الذى يحدث الالم وهو الغاية للوبة من الفعل • وعلى ذلك فالفعل البشرى يبدأ من حالة نفسية للفاعل وينتهى بحالة نفسية لنفس الشخص أو لغيره من الناس فهو اما ينتهى محققا لذة وسرورا ومتعة ، أو محققا

---

(١) المقصود بكيفية الحركة هنا صفتها من حيث الرقة والعنف والسرعة والبطء .

ألما وضرا وبؤسا • فجميع الافعال الاختيارية للانسان الواقعة على الارض صادرة من نفس الى نفس أو من نفوس الى نفوس ، حقيقة أنها قد تمر بعدة وسائل أو وسائط مادية أو بشرية ، ولكن معاولها يقع ويتم فى نفس بشرية محدثا لهـا الالم أو اللذة •

ومن ثم فالفعل البشرى الاختيارى ليس سوى مجموعة علل ومعلولات تبدأ بعلة أولى وتنتهى بالمعلول الاخير الذى هو مقصد وغاية الفاعل المختار ، أما العلة الاولى للفعل البشرى الاختيارى فهى تحرك ارادة الانسان لاختيار هذا الفعل دون ضده ، وعلى ذلك فالفعل المختار للانسان نابع من نفسه وأساسه مركوز فى ارادته الحرة المختارة • أما المعلول الاخير للفعل فليس سوى الشىء المختار والمقصد الذى اراد الانسان اكتسابه وتحقيقه • ومن ثم فالعلة الاولى تدفع معلولها الذى يصبح علة يدفع معلولا آخر وهكذا حتى يتم وقوع المقصود والغاية من الفعل • حيث تنتهى الحركة الى سكون تام • والارادة البشرية المختارة تختار الحركات بالكيف والكم الذى يعلم الانسان أنهما يحققان فعله • وعلى ذلك فالارادة المختارة تتلبس بالفعل وتمتزج به من أوله الى آخره لتوجيهه وتحديده • فالانسان الذى يضرب ، يوجه حركاته وسكناته متمثلة فى أعضائه وأدواته بكيف وكم معينين يحققان غاية فعله المختار وعلى ذلك فيكون معنى خلق كل فعل لله هو خلق العلة والمعلول أى ايجاد المعلول بعد ايجاد العلة • ومن ثم يكون معنى الفعل البشرى وتعريفه هو اكتساب العلل المخلوقة لله التى يعلم الانسان الفاعل ، أن هذه العلل تكسبه معلولاتها التى تؤدى فى النهاية الى ما اختاره من الافعال • وبتعبير آخر : الفعل البشرى هو تجميع العلل والمعلولات المخلوقة لله بترتيب ونسب للكم والكيف معينين بحيث يؤدى هذا التجميع الى وقوع الفعل ، ولكن اذا كان الفعل فى حد ذاته مجموعة أفعال هى اكتساب علل لاكتساب

معلولات . فأين هى وحدة الفعل البشرى وما الذى يجعله فعلا واحدا وليس أفعالا متعددة ؟ .

أساس الوحدة فى الفعل البشرى :

للاجابة على هذا السؤال نقول أن الفعل البشرى يبدأ فى الحقيقة بتحريك الارادة المختارة لاختياره دون غيره . وهذا أوله ثم ينتهى بالغاية والمقصد الذى تحركت من أجله الارادة وهو معلول الفعل والارادة المختارة تظل مصاحبة للفعل ومتخللة فيه ومتلبسه بين حركاته وسكناته وموجهة لعلله ومعلولاته حتى يقع كما اختارت الارادة .

فالارادة البشرية أشبه بالخيط الذى ينظم الخرز أو حبات العقد ، بينما الاستطاعة هى حبات الخرز أو حبات العقد ، فهى لا تخلق من عدم ، ولا توجد من فراغ ولكنها تشكل وتتحدد وتعين ، وكما أن الخيط والخرز أو فصوص العقد موجودة أصلا وانما يقتصر دور الخيط على تجميع هذه الفصوص المتعددة والمختلفة بكيف وكم معلومين ومحددين بحيث تنتج فى النهاية شكلا معينا مرغوبا . كذلك دور الارادة والاستطاعة البشرية فى اتمام الفعل هو تجميع العلل والمعلولات وترتيبها بنسب معينة كما وكيفا بحيث يؤدى هذا التجميع المنظم حسب هذه النسب الى أفعال مرغوبة ومرادة للفاعل .

هذا عن الفعل الاختيارى للانسان الذى هونهاية التجربة الابتلائية، أما الفعل الجبرى الذى يقع على الفرد باستطاعته أو باستطاعة فرد آخر أو قوى طبيعية أو مادية أخرى . هذا الفعل يصبح الانسان فيه معلولا لا علة وينتهى الفعل عنده ولا يبدأ منه . فان العلل لهذا الفعل تكون صادرة إليه من آخرين دافعة اياه الى مواجهة موقف الابتلاء والدخول فى التجربة حيث يواجه بضدين من الافعال عليه أن يختار واحدا منهما ، وعندما تتحرك الارادة باختيار أحدهما ، يصبح هذا

التحرك الارادى علة أولى لفعل اختيارى نابع من نفس الشخص حيث يتصف هذا الفعل بصفة السلوك الخلقى اما خيرا أو شرا .

ونضرب لذلك مثلا لرجل يصوب بندقيته ليصطاد ، فاذا به يخطىء ويصيب انسانا آخر اصابة تؤدى الى بتر ساقه ، مثلا ، وهذه مصيبة حلت به جبرا حيث هو أصبح معلولا لنهاية فعل الصياد الخطأ . ولكن هذا الفعل الجبرى كمقدمة للتجربة الابتلائية ليس سوى علة تواجه المصاب بسلوكين قبيح وحسن ، فهو أما أن يصبر ويحتسب اصابته وعناءه وألمه عند الله كما يحتم عليه الايمان ، واما أن يجزع ويكفر ويسخط على القدر . فارادة هذا المصاب اذا ستتحرك حركة تحدد افعاله وتصبغها بصبغة جديدة أما الشكر لله والصبر على المصيبة . واما الجزع والتبرم والضيق .

ونضرب مثالا آخر برجل يمر بفقير بائس يشعر بحاجته الى الطعام فيعطيه صدقة ، فاعترض البائس طريق الرجل فعل جبرى لم يتم باختيار أحدهما ، وان كان نتيجة تلاقى علل أدت اليه منها الفعل الارادى بالمرور للرجل ، وللفعل الارادى للمتسول بالتسول ، ولكن تلاقى هاتين العلتين بحيث تؤديان الى مواجهة الفاعل والمفعول حيث يدخل الفاعل فى تجربة ابتلائية ، وهذا التلاقى هو من قدر الله وتدبيره ومشيئته المحضة ، وهو جبر مطلق عليها ، وذلك ليبتلى السائل والمسئول . فالمسئول يجد نفسه أمام سلوكين : اما أن يعطى وأما أن يبخل . فاذا اختار العطاء وتحركت ارادته لذلك ، فان الاستطاعة سوف تتحرك لاكتساب العلل المؤدية الى المعلولات التى تنتهى بتحقيق المعلول الاخير أو الفعل المطلوب وهو وضع الصدقة فى يد البائس . أما ابتلاء السائل فانه بعد أن يعطيه المحسن الصدقة فانه يجد أمامه فعلين : قبيح وحسن : أما القبيح فهو أن ينسى أن الله هو الرازق ويشعر بالحمد والمنة للمعطى العبد ، وأما الحسن فهو أن يشكر العبد على فعله ويحمد الله على ما رزقه .

فعمل الاستطاعة اذا ليس خلقا ، انما هو تجميع وترتيب العلل بحيث تؤدى فى النهاية الى الغاية المطلوبة . والفعل من أوله الى آخره مخلوق لله سبحانه وتعالى ، حيث كل علة وكل معلول مخلوق له . وحيث أن الاستطاعة والادوات والارادة الحرة المختارة من خلقه وعمله كذلك . ولكن ذاتية الانسان فى الفعل وليس فى الخلق وهى تتمثل فى تلبس الارادة بالعلل والمعلولات بحيث ينتج فى النهاية نظام وترتيب معين لها يؤدى الى اتمام الفعل المطلوب . ومن ثم يكون معنى قوله تعالى « فسنيسره لليسرى » هو خلق العلل ومعلولاتها التى يكسب بها الانسان اليسرى ، وكذلك من يبخل ييسره الله للعسرى ، بهذا المعنى .

الاستطاعة البشرية والشر :

مما تقدم يتبين لنا المصدر الاصيل للشر الواقع فى الحياة الدنيا ، فالشر ليس منسوبا لله سبحانه حيث هو راجع لاختيار العبد وذلك بقوله (فأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى) . فالبخل والاستغناء والتكذيب بالحسنى شر ، وهو أثر من عمل الفرد ، وان كان كله من خلق الله تعالى ، وكذلك قوله سبحانه وتعالى (يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ــ ٩٠ المائدة) .فهي كلها مخلوقة لله ، ولكنها من عمل الشيطان بمعنى أن الله خلقها أشياء مجردة ، وعللا ومعلولات ، ممكن جمعها بنظام وترتيب معين يؤدي الى خير ، أو بترتيب آخر يؤدى الى شر . فالخمر مثلا ، ما هى الا مواد سكرية ، مجموع اليها فعل التخمير ، والمادة السكرية فى ذاتها ليست مسكرة ، والتخمير فى ذاته ليس مسكرا ، وانما جمعهما معا بكم وكيف معينين هو الذى أنتج الخمر . وبذلك قال عنه الله « رجس من عمل الشيطان » .

وكذلك الميسر ، أصله عدة عناصر وأفعال غير محـرمة مخلوقة لله • مثل المباراة الشريفة ، والمنافسة الحرة بين متنافسين ، وعنصر آخـر مثل مجازاة وتشجيع الفـائز • ولكن الشيطان يجمـع هذه العناصر ويخلطها بنسب معينة ، فى الكم والكيف ، فينتج منها الميسر • فالفعل فى جملته وتفاصيله مخلوق لله ، ولكنه عمل للشيطان ، بمعنى التجميع بنسب معينة للكيف والكم • وهكذا ينتـج الشر عن الفعـل والعمل ، وليس عن خلق الفعل • أى أن الله سبحانه خلق الافعال مجردة تصلح للضدين ، ولكن الانسان بفعله لها على نحو معـين ، يتحدد بعده وبه موقف الفعل وقيمته الخلقية : اما حسنا واما قبيحا ، ومن ثم فيمكن القول بأن تلبس الارادة البشرية المختارة وأمتزاجها بالفعل من أوله الى آخره ، هو الذى جعله خيرا أو شرا •

فان قيل ان فى هذا القول اثبات يتعارض ايجاد ، او خلق صفة للفعل منسوبا للاستطاعة البشرية ، وهذا يتعـرض ويتنافى مع القـول بخلق الله لكل شىء ؟ نقـول : ان تلبس الارادة المختارة للفعـل وتعلقـه بالاستطاعة البشرية ، لا ينتج عنه أية اضافة جديدة للفعل ، حتى ولا الصفة ، فهذه الصفة لا توجدها الاستطاعة البشرية من عدم ، كما أنها لا تحدثها احداثا ، وذلك بالرغم من أن الافعال البشرية مخـلوقة لله مجردة عن هذه الصفة • ومن ثم فالصفة أثر من آثار الفعل البشرى ، وناتج عنه دون أن تكون مخلوقة له •

ولتوضيح ذلك واثباته نعود الى ما سبق أن ذكرناه ، من أن عمـل الاستطاعة البشرية ، هى اتمام الفعل البشرى • والفعل البشرى هـو تجميع للعلل والمعلولات المخلوقة بنظام وترتيب ونسب معينة ، تؤدى فى النهاية الى الفعل المراد • فالشر أو الخير الذى يتصف به الفعل فى النهاية ، ناتج عن اختلاف هذه النسب ، كما وكيفا ، فى علل ومعلولات الفعل ، التى هى فى النهـاية حركات وسكنات • ومن ثم فصـفة الشر

أو الخير ، ليست مخلوقة للاستطاعة ، وانما هى أثر للاختيار وللفعل البشريين • وذلك يتمشى وينبع من تعريف الاستطاعة بأنها تجميع للعلل المخلوقة لله والتى بها يحدث الله المعلولات • والعلل والمعلولات والنسب التى هى فى النهاية علة الصفة للفعل ، مخلوقون جميعا لله ، وان كانت صفة الفعل ناتجة عن الاستطاعة البشرية والاختيار مباشرة ولنضرب لذلك مثلا بالكيميائى أو الصيد لانى يمزج بعض العناصر الى بعض بنسب ومقادير معينة ، فينتج منها دواء ويضيف هذه العناصر بعينها الى بعضها بنسب مختلفة ، ومقادير مغايرة عن النسب والمقادير فى العملية الاولى فينتج عنها سما ، فالسم والدواء مكونان من عناصر واحدة ، ولكن هذا التباين الشديد بينهما ، انما يرجع الى تباين النسب والمقادير فى تجميع تلك العناصر بين العمليتين دون اضافة عنصر جديد • كذلك بالنسبة للفعل البشرى حيث أن عناصر الافعال البشرية جميعها ، حركات وسكنات تكتسبهما الاستطاعة البشرية بامداد من الله فتجمعهما بنسب معينة، فيصبح الفعل خيرا ، وتجمعهما بنسب أخرى فيصبح الفعل شرا •

فالاسباب والعلل التى يكتسب بها العبد المعلولات ، مخلوقة لله أسبابا ومسببات مجردة ، بمعنى أنها مخلوقة ، بحيث تصبح كل مجموعة منها فعلا مجردا عن للخير أو الشر ، وذلك واضح جلى بلا تأويل ولا تعسف من قوله (انا هديناه السبيل : اما شاكرا ، واما كفورا ــ الانسان ٢) • فقد ذكر السبيل هنا على وجه التجريد أولا عن الشكر والكفر ، ولكن هذا السبيل أصبح بعد ذلك وبعد اتصافه بالفعل البشرى ، أو بعد نسبته للانسان ، أصبح سبيل شكر أو سبيل كفر • وللسبيل لغة هى الطريق أو السبب ، وهديناه معناها اعطيناه • ودللناه وبينا له ووضحنا • ومن ثم فهو سبحانه يخلق الاسباب والعلل ومعلولاتها ، وكل ما يؤدى الى حصول الانسان على أفعاله

واكتسابها ، يخلقها مجردة ، ولكنها تتصف بالشكر أو الكفر بعد تلبسها بالارادة البشرية المختارة •

والفعل البشرى لا يعدو أن يحدث ، اما بالاستطاعة البشرية فقط ، وأما بالاستطاعة البشرية مستعينة ببعض الادوات الخارجية التى تصنعها لنفسها لاتمام الافعال ، أى أن الاستطاعة والادوات مجردان عن معنى السلوك الخلقى ، فالاشياء والادولت كالسكين والنار لا تحمل فى ذاتها معنى الخير أو الشر ، وانما هى صالحة لفعل الضدين ، والله سبحانه وتعالى هو الذى يخلق لها تأثير الفعل الذى تفعله ، فهو يعطى النار قوة الاحراق وتأثيرها كما يعطى كل شىء ماهيته وقوته ويهديه الى فعله (قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى) أى أعطاه ماهيته وجوهره الذى يصبح به هذا الشىء دون ذلك ، ثم يسر له فعله الخاص به ، وتأثيره فيما حوله ، والذى يميزه عن غيره ، كالاحراق للنار ، والقطع للسكين ، والضرب للدرة ، والحرث للمحرلث وهكذا • وهذه الافعال ليست شرا وليست خيرا ولكنها أفعال مجردة تجريدا تاما عن معنى السلوك الخلقى •

وللفعل المجرد عن معنى السلوك الخلقى ليس له وجود الا فى عالم الجماد والحيوان والملائكة • وأما أفعال الانسان والجان ، سواء التى نتم بالاستطاعة مع الادوات [1] ، أو بالاستطاعة وحدها ، فهى لابد أن تحمل معنى السلوك الخلقى • أى أن الفعل اما أن يكون حسنا أو قبيحا ، خيرا أو شرا ، طاعة أو معصية •

حقيقة الشر وأصله فى الحياة الدنيا :

والى هنا ونجد أنفسنا فى مواجهة سؤال خطير، طالما حاولت الانساق الفلسفية والعقائد الدينية أن تجيب عليه • ونعنى به السؤال عن

(١) يتساوى فى ذلك الوسائل والادوات البسيطة او المعقدة من السيف حتى القنبلة والصاروخ .

معنى الشر وماهيته وعلته ومصدره فى العالم •

مما لاشك فيه ، أن تأثير الاستطاعة البشرية والاشياء الطبيعية وأفعالهما المخلوقة لله ، كلها أفعال وتأثيرات احتمالية ، يتساوى بها جميعا وقوع الشر والخير • فالحرث يمكن أن يكون فى حالات شرا ، وفى حالات أخرى خيرا والكتابة كذلك ، والاحراق بالنار ، والقطع بالسكين كلها أفعال تتساوى فيها احتمالات الخير مع احتمالات الشر • ولكن هذه الافعال اذا وقعت اختيارية للانسان تصبح اما خيرا أو شرا، فما هو مرجح احتمال الشر عن الخير عند الانسان أو العكس ؟ •

ان حركة الافلاك والنجوم والشمس والقمر وسائر الاجرام ، حركة اضطرارية جبرية كما أرادها لها الله سبحانه ، فليس أمامها الا فعل واحد وحركة واحدة مطردة ينبىء ماضيها عن مستقبلها بدقة فائقة • وكذلك حركة الحيوان وفعله حيث يتحرك حركة اضطرارية ، ويفعل أفعالا غريزية ، يمكن التنبؤ بها مسبقا بناء على معرفة طبائعه وغرائزه اذا ألقى فى النار، والملائكة المكرمون لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون ، فأفعالهم ذات اتجاه واحد ولا يوجد حيالها سوى احتمال واحد •

أما الانسان ، فالواقع يثبت أنه ليس لاحد من الناس أن يتنبأ بفعل شخص ما ، تنبؤا علميا بمعنى التنبوء العلمى للعناصر المادية ، والافلاك أو سلوك ونمو النبات •

فالانسان فى كل موقف يبتلى فيه، يجد أمامه احتمالين عليه ان يختار ويفعل واحدا منهما ، ولا يمكن الجمع بينهما ، فهما دائما ضدان • والشىء الذى يحدث به الفعل ، سواء كان ذلك عضوا من أعضائه ، أو آلة خارجية ، أو الاثنين معا ، كلها أفعال مجردة عن معنى للسلوك الخلقى ولا تحمل فى ذاتها معنى الخير أو الشر ، حيث احتمال انتاج

الشر لها يتساوى مع احتمال انتاج الخير • ومن ثم فلابد من مرجح لاحد الاحتمالين على الاخر لوقوع السلوك الخلقى • وحيث أن الفعل الخلقى لا يحدث الا بالانسان فقط ، وحيث أن الانسان فقط دون سائر المخلوقات الكائنة فى مجال ادراكنا البشرى ، هو المكلف لكونه خليفة لله فى الارض ، حيث أن الخلافة تعنى الحرية والمسئولية الفردية والجماعية • والحرية مقومتها الاختيار والاستطاعة والعلم • والاستطاعة ليست استطاعة لفعل الشر ، كما أنها ليست استطاعة لفعل الخير فقط ، وانما هى استطاعة للضدين ، ومن ثم فلابد أن يكون المرجح هو الارادة الحرة المختارة للانسان •

فالانسان حر مختار ، من ذاته ينبع هذا الاختيار • والله سبحانه خالق له ولذاته الحرة وللاشياء وللافعال ، هذا لاشك فيه ، ولكن خلق الله سبحانه وتعالى لذات الانسان المختارة بين الخير والشر ، لا يعنى خلقه للشر الذى يختاره بعض الناس أو أكثرهم • لان الله خلق للانسان ارادة حرة ، وهذا يعنى أنه لم يخلقها مريدة للخير ، كما لم يخلقها مريدة للشر ، والا لما اصبحت حرة • وانما هى مخلوقة حرة ، بمعنى أنها قوة ذاتية للفرد ، يتساوى أمامها احتمال الرغبة فى الشر والقصد اليه ، والرغبة فى الخير والقصد اليه كذلك • وبهذه الارادة المختارة يتم العمل الانسانى الذى يجعله خليفة لله فى الارض أو خليفة لغير الله فعندما تتحرك هذه الارادة وتختار أحد الاحتمالين ، لا يكون هناك سبب لحركتها سوى ذاتها • فهى مرجح حدوث الفعل الى جانب الشر دون الخير وبالعكس • أما خلق الفعل البشرى فهو لله • ومن ثم فأصل الشر ومنبعه فى الارض هو الاختيار البشرى ، أو الحرية عند الانسان • والحسنة من الله بمعنى أن الله سبحانه وتعالى خلق الفعل والاداة للارادة الحرة المختارة والاستطاعة المكتسبة للفعل المختار ، وبين وشرع وهدى الانسان وأمره عن طريق الشرع بالحسنة ، أما السيئة فهى من الانسان ، بمعنى ان الله سبحانه

وتعالى خلق الاستطاعة عندالانسان للضدين والفعل للضدين، والارادة الحرة المختارة للضدين أيضا ، ثم نهى عن الشر والسيئة ، فخالف الانسان النهى ، واختار ما يتعارض مع أمر ربه ، فنبع من ذاته الشر والسيئة •

وتفسير ذلك ، هو أن القرآن الكريم يثبت فى وضوح وجلاء بالنصوص العديدة ، وجود وجهين لافعال البشر :

الاول — هو كون الفعل مخلوقا لله ومقدرا بمشيئته ، وواقعا ككل شيء فى الكون بفاعليته تعالى •

والثانى — وهو كون هذا الفعل — فى نفس الوقت — مختارا للعبد ومكتسبا باستطاعته ومفعولا بفاعليته •

والذا كان بعض مفكرى الاسلام قد رفضوا رفضا تاما وقوع أى فعل بأكثر من وجه ، كما رفضوا تعلق الفعل البشرى بأكثر من محدث وفاعل ، فان القرآن الكريم أثبت ذلك صراحة ، ويبدو أن خطأ هؤلاء المفكرين ، وما ألبس الامر على عقولهم ، مما جعلهم يرفضون هذه الحقيقة الهامة ، هو غفلتهم عن حقيقة الابتلاء ، التى هى غاية العالم المخلوق كله ، والحكمة التى خلقه الله من أجلها •

فالعمل البشرى ، اذا وقع باختيار وقصد الانسان مخالفا لشرع الله وأمره التخييرى فانه يصبح شرا • ووجه الشر هنا ليس منسوبا لله سبحانه لان الشر ليس سوى الفشل والرسوب فى تجربة ابتلائية ، لعبد ما باختياره المعصية بدلا من الطاعة • فليس ثمة شر مطلق فى الوجود ، أو شر قائم بذاته يصارع الخير ويغالبه ، وليس له موجد يفعله أو يحدثه مقابل أن يفعل الله الخير ويحدثه • وليس الشيطان محدثا للشر ، وليس العاصى من البشر ، أو بتعبير آخر ، شيطان البشر محدثا لما يقع منه من شر كذلك ، وان كان الاثنان يفعلانه نتيجة اختيارهما للمعصية فى لحظات الاختيار المقدرة فى المواقف الابتلائية•

فهو كفعل حادث مخلوق لله سبحانه وتعالى وهذا وجه من وجهى الفعل ، ولكن وجه المعصية فيه أو الشر راجع الى العبد لسوء اختياره وقصده ، وهذا هو الوجه الثانى للفعل •

فالله سبحانه وتعالى هو الخالق لكل شىء حتى معاصى العباد • وهو الذى أقدرهم على فعلها لانه شاء أن يبتليهم • والمعصية أو الشر يقع كل منهما من انسان على آخر، بمعنى أن كل ماهو معصية ، انما هو شر واقع من البشر على أنفسهم • فالقتل فعل مخلوق لله تعالى ، والعبد يقتل بمعنى أنه يكتسب هذا للفعل ، ولكنه لا يميت فالله وحده هو المحيى والمميت ومن ثم فالموت الواقع بفعل الفاعل فى المقتول انما هو من خلق الله تعالى• وهذا هو الوجه المتعلق بالله سبحانه من الافعال البشرية • ولكن هذا الفعل الذى قدره الله سبحانه كنهاية سيئة لموقف ابتلائى لانسان ما ، هو حكم من الله سبحانه على المفعول به وعلى أهله أى أنه اذا كان الوجه المكتسب من الفعل البشرى المنسوب للعبد ، يسمى معصية ، فان الوجه المخلوق المتعلق بالقدرة والمشيئة الالهية ، يسمى حكما • وهذا بدليل قوله تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم عن أفعال المشركين معه ، وتكذيبهم اياه (أم يريدون كيدا ، فالذين كفروا هم المكيدون ،أم لهم اله غير الله ، سبحان الله عما يشركون • وان يروا كسفا من السماء ساقطا ، يقولوا : سحاب مركوم • فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون • يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا ولا هم ينصرون • وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك ، ولكن أكثرهم لا يعلمون • واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا ، وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وادبار النجوم ــ الطور ٤٢ ، ٤٩) • فكل ما يقع على رسول الله صلى الله عليه وسلم من معاص المشركين وشرورهم ، انما هو بحكم الله سبحانه وتعالى • أى أنه عز وجل حكم بأن تكون أفعالهم واقعة على الرسول فى مكة والذين آمنوا معه ، يؤكد ذلك قوله تعالى (واصبر لحكم ربك فانك

بأعيننا) أى أن كل ما يفعلونه معه من أذى ، انمـا هو بتقديره وعلمه سبحانه • ومن ثم وجب عليه الصبر على أفعالهم ، لانه انمـا يتعامل معها من خلال الوجه الالهى لها ، وهو كونها حكما عليه وعلى المؤمنين من الله لابتـلائهم •

ومثلها قوله تعالى له أيضا (انا نحن نزلنا عليك القـرآن تنزيلا • فاصبر لحكم ربك ، ولا تطع منهم آثما أو كفورا ــ الانسان ٢٣ ، ٢٤)• فأمر الله سبحانه بالصبر ، انما هو مقرون بكـون هذا الصبر لحكـم الله ، وليس هو صبرا على الـذلة أو المسكنة أو تعذيب المشـركين له ولصحابته عن ضعف ، ولكن لان الله سبحانه وتعالى جعل هذا الفعل من المشركين ، واقعا باختيارهم من وجه وبحكم الله من وجه آخـر ، فهو فعل صادر بقدره ومشيئته وبخلقه • فأمره بالصبر على أفعالهم انما هو باعتبار الوجه المخلوق من الفعل وهو الحكم ، وليس باعتبـار الوجه البشرى المكتسب وهو المعصية ، بدليل أن الله سبحانه لم يأمر الرسول والصحابة بالصبر على اذى المشركين بعـد ذلك فى المدينة ، وانما أمر بالجهاد والحـرب ورد الاعتداء • فالامـر بالصبر فى مكة ، صبر لحكم الله تعالى وليس لمعصية المشركين •

ولعل نبى الله يونس عليه السلام لم يتعامل مع أفعـال قومه من خلال الوجه المخلوق لله والواقع بأمره منها ونظر اليها من خلال الوجه المفعول والمكتسب لاصحابها من البشر ، ومن ثم ذهب مغاضبا ونسى كونها مخلوقة لله وحكما منه ، ونظر اليها باعتبـارها معصية فقط من العباد • ومن ثم نبه الله سبحانه وتعالى رسوله محمدا عليه الصلاة والسلام فى موضع آخر الى ما كان من أخيه يونس فقـال له (فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت ، اذ نادى وهو مكظوم • لولا أن تداركه نعمة من ربه ، لنبذ بالعراء وهو مذموم • فاجتباه ربه فجعـله من الصالحين ــ القلم ٤٨ ، ٥٠) • والواضح الجلى من قوله تعـالى «فاصبر لحكم ربك ، ولا تكن كصاحب الحوت » ان صـاحب الحوت

وهو يونس عليه السلام لم يصبر لحكم ربه حيث تعامل مع آفعال قومه حين كذبوه وآذوه ، ورفضوا الاستجابة للحق من وجهها البشرى فقط باعتبارها معصية وشرا • فتركهم وذهب دون أن يأذن له الله بالذهاب والهجرة ، فلم يصبر على أذاهم لانه ظن ان الله لن يقدر عليه (1) وسيعوضه عنهم خيرا ، ونسى حقيقة الوجه الاخر للفعل البشرى المتمثلة فى كونه مخلوقا لله سبحانه ومقدرا منه وواقعا بمشيئته وحكمه • ولقد صبر كل الرسل على ما اصابهم من أفعال العباد ، باعتبار أن أفعالهم حكم من الله تعالى ،وعلى رأسهم جميعا كصابرين ، ومثالا لهذا الصبر ، يذكر الله تعالى أيوب (وأيوب اذ نادى ربه : انى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين • فاستجبنا له ، فكشفنا ما به من ضر ، وآتيناه أهله ومثلهم معهم، رحمة من عندنا وذكرى للعابدين• واسماعيل وادريس وذا الكفل ، كل من الصابرين • وأدخلناهم فى رحمتنا ، أنهم من الصالحين • وذا النون اذ ذهب مغاضبا ، فظن أن لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات: أن لا اله الا أنت سبحانك انى كنت من الظالمين فاستجبنا له ، ونجيناه من الغم ، وكذلك ننجى المؤمنين — الانبياء ٨٣ — ٨٨) • وهكذا بعد أن ذكر الله سبحانه بعض الصابرين من الانبياء ، بعد أن ذكر مثال الصابرين أيوب ، ذكر بعد ذلك ذا النون ، من الصابرين أيضا • وذلك أن ذهابه عن قومه مغاضبا منهم ، لم يكن عزوفا عن الصبر وتركا له ظنا منه أن الله تعالى سوف لا يضيق الارض عليه ، وسيرزقه بقوم آخرين يصدقونه ، ويستجيبون للحق • فالخطأ الذى وقع فيه يونس اذا هو عدم اعتبار الصبر على أذى قومه صبرا لحكم الله • فالصبر على أفعال العباد ومعاصيهم ما دام يتم بأمر الله الشرعى فهو صبر لحكمة ، ومن ثم فلا شك فى وجود وجهين للفعل البشرى •

---

(1) أى يضيق عليه الارض •

ولكن منكرى هذه الحكمة الهامة ، قــد أنكروها حتى لا ينسب لله سبحانه وتعالى الشر أو فعل القبيح ، وحتى لا تكون شبهة جبر على الانسان ، وذلك ــ كما قلنا من قبل ــ غفلة منهم أو اغفــالا لحقيقة الابتــلاء •

الله سبحانه وتعالى قد حكم بوقــوع أفعال الكافرين والظلمــة والاشرار والعصاة لامره على غيرهم من العباد • فهو يبتــلى الناس بالناس ، كما يبتلى للناس بالجان ، والجان بالناس ، كما ابتلى من قبل ابليس بآدم ، وآدم بآبليس • وليس هذا تفسيرا اجتهــاديا للوجه الالهى من الفعل الواقع من البشر ، بل انه تفسير قرآنى صريح •

وبيان ذلك أنه اذا كان من المعلوم يقينا بآيات كثيرة من القــرآن الكريم ، ان الله سبحانه وتعالى يهلك الامم أو القرى بقدرته مباشرة دون وسائط ، كما فى كثير من قصص الامم السابقة فانه يعذب الناس أيضا ويهلكهم بأفعال بعضهم ببعض ، وهذا واضح من قوله تعــالى (قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من أرجلكم أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض ، أنظر كيف نصرف الايات لعلهم يفقهون ــ الانعام ٦٥) • ولعل الذى يجب أن نفقهه هنا هو أن الوجه الالهى الذى قدر الله به الفعل البشرى وجعله منصبا وولقعــا على الاخــرين فيذيق بأس الفاعل بفعله للمفعــول به ، هو حكم الله الذى يجب على المؤمن فى مثل ظروف مكة ، الصبر عليه • أو لعل هذا مما يمكن فهمه من هذه الاية • ذلك لان الفعل الواقــع من العاصى أو الكافر على المؤمن فى هذه الحــالة ، انما هو من قــدر الله ومشيئته لابتلائه • فالوجه الالهى للفعل هو وجه ابتلائى والوجه البشرى وجه اختيارى • وذلك واضح صريح فى قوله تعــالى لبنى اسرائيل (واذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم ســوء العذاب : يقتلون ابنــاءكم ، ويستحيون نساءكم • وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ــ الاعراف ١٤١) •

فقتل الذكور والعذاب واقع من آل فرعون باختيـارهم ، ولكنه ككل شيء وكل فعل فى العالم واقع بقدر الله واذنه فهو واقع للابتلاء وذلك هو الوجه الالهى فيه . وذلك هو ما فهمه موسى عليه السـلام حيث قال لقومه (واذ قال موسى لقومه : اذكرو نعمة الله عليكم ، اذ أنجاكم من ال فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ــ ابراهيم ٦) . وهكذا نسب الفعل كمعصيه أصاله الى فاعليه آل فرعون ولكنه عقب بقـوله (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) وفى ذلكم ، أى فى هذه الافعال التى فعلها فيهم ال فرعون ، بلاء ، وليس هذا البـلاء من فاعل انفعل من البشر ، وانما هو « من ربكم » مع ان الفعل الواقع على بنى اسرائيل واحد ، ولكنه اذا انسب الى فاعله من البشر فهو شر ومعصية ، بينمـا بصفته مقدرا وواقعا بأمر الله الكونى ، ومخلوقا لله فهو ابتلاء من الله لهم .

وتلك هى سنة الله سبحانه وتعالى فى ابتلاء خلقه بالالام والشرور ، كما يبتليهم بالنعيم والسرور (كل نفس ذائقة الموت ونبلـوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون ــ الانبياء ٣٥) . ولكن الشر لا ينزل من السماء ، بل ان مصدره ومجاله الوحيد فى الكون هو عالم الابتـلاء حيث تقع الشرور أو المعاصى من الانس والجن كنتيجة اختيارية لهم فى تجاربهم الابتلائيـة ، ومن ثم فان هذا الشر الواقـع من البعض مدفوع ــ بأمر الله وحكمه ــ الى البعض الاخر وواقع عليهم لابتلائهم . بيد ان ما يقع للناس من ابتلاءات مسرة ومبهجة وممتعة كالرزق والولد والجاه والسلطان وغيره انما هو من الله سبحانه وتعالى تحقيقا للحكمة الاولى التى من أجلها خلق الحياة الدنيا . ولذلك فانه يخبرنا جل وعز بما جرى بين نوح وقـومه حيث قالوا (ان هو الا رجـل به جنـة فتربصوا به حتى حين . قال : رب أنصرنى بما كذبون . فأوحينا اليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، فاذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ، ولا تخاطبنى

فى الذين ظلموا ، انهم مغرقون • فاذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين • وقل : رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين • ان فى ذلك لايات ، وان كنا لمبتلين — المؤمنون ٢٥ ، ٣٠) • وهكذا بين الله سبحانه وتعالى أن هذه الاحداث التي حدثت بين نوح وقومه انما كانت للابتلاء • فوقوع الشر بمعنى الالم والمصيبة والفاجعة على الفرد انما هو من فعل غيره من الناس ، وهو مقدر من الله ، وواقع بخلقه ابتلاء لهم (فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربى أكرمن • وأما اذا ما ابتلاه ، فقدر عليه رزقه ، فيقول : ربى أهانن • كلا بل لا تكرمون اليتيم • ولا تحاضون على طعام المسكين • وتأكلوا التراث أكلا لما • وتحبون المال حبا جما — الفجر ١٥ ، ٢٠) • فمع أن وقوع الخير للانسان انما هو للفتنة والابتلاء ، الا أن الكثير من الناس يظن ذلك تكريما له ، بينما التكريم الحقيقى للانسان فى الجنة وليس فى الدنيا ، لان هذه الدنيا جعلت للابتلاء ولم تجعل للنعيم ، فقول الانسان المبتلى بالخير والنعمة « ربى أكرمن » وان كان حقا ، بمعنى انه ابتلاء بالنعيم يوجب عليه الشكر لله ، الا أن هذا المفهوم فيه لبس وخطأ من حيث أن الدنيا دار ابتلاء وليست دارا للنعيم لان نعيمها زائل • ومن ثم فالنعيم بالنسبة للمؤمن كرم حقيقى لانه نعيم فى الدنيا يستتبع نعيما فى الاخرة أيضا ، وذلك بشكره لله وآدائه حق النعمة ، أما الكافر الجاحد لنعمة ربه مثل قارون وفرعون فان النعيم بالنسبة له بلاء مهلك ، ولذلك يقول الله فى أمثالهم (فذرهم فى غمرتهم حتى حين ، أيحسبون انما نمدهم به من مال وبنين ، نسارع لهم فى الخيرات بل لايشعرون — المؤمنون ٥٤،٥٦)

ومن ثم فان من يضيق الله عليه رزقه انما هو أيضا ابتلاء له ، وليس اهانة له • ولذلك نفى قول الانسان « ربى أهانن » بقوله « كلا » • ذلك أن هذه الامور الجبرية الواقعة على العباد كالفقر والجوع ونقص الانفس وغير ذلك من الفواجع والمصائب ، هى أمور واقعة بأمر الله وقدره ابتلاء لهم • ولكنا ليست منسوبة الى الله بوجهها القبيح ، وذلك

لان فقر الفقير فى الدنيا ليس واقعا عليه بفعل الله سبحانه وتعالى المباشر لافقاره ، وان كان واقعا بحكمه تعالى وقدرة نتيجة لفعل بشر آخرين للمعصية . وبين ذلك أن الله سبحانه وتعالى — كما مر بنا فى موضع سابق — قدر فى الارض أقواتها وأقوات من عليها الى يوم الدين ، وأنزل من الاقوات والارزاق ما يكفى الاحياء فيها فى كل عصر وكل زمن وكل يوم ، ولكنه جعل هذه الارزاق والاقوات فى أيدى البعض ابتلاء لهم بالنعمة ، وشرع لهم الشرع والنهج الذى يوزعون به الارزاق على الناس فيأخذ كل ذى حق حقه . فاذا أكل هؤلاء الوكلاء على الثروة البشرية التراث أكلا لما ، وأحبوا المال حبا جما ، فلم يكرموا اليتيم ، ولم يحضوا على طعام المسكين وذلك بمخالفتهم للتشريع الالهى فى توزيع الارزاق ، اذا حدث ذلك أصبح على الارض من الناس فقراء ومساكين ، ومن ثم يكون تضييق الرزق على بعض الناس ليس منعا من الله الرزق عنهم ، وانما هو نتيجة استيلاء اخوانهم من البشر على حقهم فيما قسمه الله لهم ، وذلك فعل اختيارى لهم ، وهو فى نفس الوقت حكم جبرى على الاخرين ، أى أنه فعل مقدر من الله ممن يمنعون عن الناس ، فهو حكم منه لابتلاء الفقير بالرزق القليل وان كان معصية للغنى لانه لم ينفذ شرع الله فى أرزاق العباد التى استخلفه الله عليها . يوضح ذلك ويؤكده قوله تعالى « فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه » حيث ينسب الفعل الى الله سبحانه وتعالى بجميع وجوهه ، ولكنه فى الجانب الاخر من الابتلاء قال « وأما اذا ما ابتلاه ، فقدر عليه رزقه » نسب الفعل للى الله سبحانه وتعالى ولكن ليس كل الفعل ، بل الجانب الالهى الذى هو الحكم ، والذى هو للابتلاء . ولذلك قال « أما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه » مما يدعوا الى الظن أن قوله هذا يعنى نسبة تضييق الرزق ، وجعل الانسان جائعا كفعل الى الله كلية ، ولكن هذا خطأ لان قوله « أما اذا ما ابتلاه » يعنى نسبة الوجه الابتلائى فقط حيث قال بعد ذلك « كلا » . ومن ثم فهو ينفى كون تضييق الرزق برمته كفعل

منسوب لله بوجهه الابتلائى ووجهه القبيح معا • فقد أثبت نسبة الوجه القبيح الى العباد ، حيث فصل لنا بعد ذلك علة تضييق الرزق بفشل القائمين فى الارض على توزيع الارزاق ، حسب شرع الله فنتج عن ذلك وجود الفقراء والمساكين ، وذلك بقوله « كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين • وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما » •

واذا لم نأخذ فى الاعتبار الوجه الابتلائى الالهى للفعل والوجه القبيح الاختيارى البشرى له فلن نستطيع فهم قوله تعالى (أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة • وان تصبهم حسنة يقولوا: هذه من عند الله• وان تصبهم سيئة يقولوا: هذه من عندك •قل: كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا• ماأصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا ، وكفى بالله شهيدا ــ النساء ٧٨ ، ٧٩) فبعد أن بين أن الحسنة والسيئة من عند الله ، ووصف من يقول بغير ذلك بأنه لا يكاد يفقه حديثا • بين أن ما يصيب المرء من حسنة انما هو من الله وأن ما يصيبه من سيئة فهو من نفسه وهذا يبدو ــ فى أذهان البعض ــ متعارضا مما جعل كثيرا من مخالفى المسلمين قديما وحديثا يرمون القرآن بالتناقض ، كما جعل أحد مفكرى الاسلام[1] يذكر ذلك صراحة فيقول فى معرض حديثه عن القدر أن أدلة السمع فى ذلك متعارضة ويذكر من هذه الادلة الايتين السابقتين • كما انشق مفكروا المسلمين بعامة حيال هذا الامر الى فريقين :

الاول ــ الذين نظروا الى الوجه الابتلائى الالهى للفعل دون الوجه البشرى الاختيارى وهؤلاء تأدت بهم نظرتهم القاصرة الى القول بالجبر •

---

(١) هو ابن رشد فى كتابه « مناهج الادلة » .

الثانى – والفريق الثانى نظر الى الفعل البشرى من خلال وجهه الاختيارى القبيح أو الحسن فقط ، ومن ثم قالوا بنفى القدر وبقدرة الانسان على خلق فعله أى بالتفويض مع رفض القول بخلق الله للفعل البشرى .

أى أن البعض نسب الفعل الى الله باعتبار قوله تعالى « قل كل من عند الله » مع تأويله قوله « وما اصابك من سيئة فمن نفسك » . أما الاخرين فقد نسبوا الفعل الى الانسان باعتباره صادرا من نفسه مع تأويلهم قوله تعالى « قل كل من عند الله » . وكل ذلك الذى وقعوا فيه من تعارض وتضارب لايات الله بعضها ببعض انما جاء نتيجة لاغفالهم حقيقة وجهى الفعل البشرى وحقيقة الابتلاء التى تربط بينهما وتعللهما .

وما يمكن قوله فى تفسير هذا التعارض الظاهر أمام الذهن البشرى هو أن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن لا يغير ما بقوم من نعمة ، حتى يغيروا ما بأنفسهم . أى أن الامور الجبرية النازلة بهم ، انما تتنزل بناء على اختياراتهم ازاء ابتلاءاتهم ، فتتغير أحوالهم من سراء الى ضراء ، اذا غيروا اختيارهم من طاعة الى معصية ، وعكس ذلك صحيح ودليل ذلك قوله تعالى (واذا قيل لهم : تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ، ثم جاءوك يحلفون بالله: ان أردنا الا احسانا وتوفيقا – النساء ٦١ ، ٦٢) . فالمصيبة لا تصيب الانسان الا بما قدمت يداه ، أى أن ابتلاءهم بالالام ، انما يكون من مستلزمات ارتكابهم لمعاصى سابقة ، جزاء وانذارا وعلاجا لهم . كما أنه فى الوقت عينه يكون الابتلاء بالالام بأفعال الناس بعضهم ببعض ، أما ابتلاء الناس بالنعيم فانما هو لنجاحهم فى ابتلاء سابق ، فما يصيبهم من خير هو نتيجة لايمانهم وتوحيدهم لله وفعلهم الخير وتحقيقهم للخلافة

الارضية • وهو فى الوقت عينه ابتلاء لهم جديد ودليل ذلك قوله عز وجل (فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا • يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا نوح ١٠ ، ١٢) وقوله تعالى أيضا (والبلد الطيب يخرج نباته بأذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا ، كذلك نصرف الايات لقوم يشكرون ــ الاعراف ٥٨) فالخير النازل من الله على للعباد هو جزاء على اختيارات لهم محققة لعبوديتهم له • والشر الصاعد منهم اليه انما يرد الى آخرين يبتليهم به ، فليس ثمة مكان أو مجال للشر غير الارض فى هذا العالم •

ومن ثم فوجه المعصية المنسوب للقدرة والمشيئة الالهية والمخلوق لها ليس شرا ، وانما هو سيئة واقعة من العبد تصيب غيره • وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى (واذا أذقنا الناس رحمة ، فرحوا بها ، وان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم اذا هم يقنطون • أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ان فى ذلك لايات لقوم يؤمنون • فآت ذا لقربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون ــ الروم ٣٦ ، ٣٨) • فنسب الرحمة ، تصيب الناس ، له سبحانه وهى الحسنة يبتليهم بها وجعل ابتلائهم بالسيئة بسبب ما قدمت ايديهم • فهى اذا نازلة على البعض بفعل البعض الاختيارى من جهة ، وبسبب ما قدمت أيدى هؤلاء الذين أصابتهم المصيبة من جهة أخرى • ومن ثم تكون الحسنة من عند الله سبحانه وتعالى للناس فعلا وابتلاء ، أى أنها من عند الله بوجهيها • ذلك لانها اما ان تكون ابتلاء بالسراء فهى من فعل الله فى الناس ومن عنده تماما أى فعلا وخلقا ، واما أن تكون ابتلاء بالضراء فهى من فعل الناس بالناس فهى اذا من عنده خلقا ، ومنسوبة للناس فعلا ، ولكن الاولى من عند الله كلية لانها جاءت ــ باعتبارها طاعة من الناس لله ــ موافقة لامر الله التشريعى ، فهى واقعة بأمره الكونى خلقا

وأمره التشريعي التخييري للناس هداية ، فهى بتمامها من عند الله ذلك أن الفعل الصادر من العبد المؤمن، انما ينسب الى الله تعالى كلية باعتبار العبد المؤمن خاضع خضوعا تاما حقيقيا لله تعالى صدورا عن الجانب الاختياري فى حياته ، كالجانب الجبرى سواء بسواء • ومن ثم لا فرق بين حالة أثناء وقوع الطاعة منه وبين وقوع الفعل من الملائكة مثلا • فالقرآن يثبت أن الملائكة تقوم بأعمال شتى ، ولكن تلك الافعال ليست منسوبة لها البتة ، انما هى من فعل الله وحده ، ذلك أنهم جنود لله لا يفعلون الا ما يأمرهم به ربهم • فليست لهم فاعلية خاصة ، وانما هى الفاعلية الالهية تفعل بهم ، كما تفعل بغيرهم ، ومن ثم ينسب القرآن وقوع الفعل بهم مرة ، وينسب وقوع نفس الفعل بالفاعلية الالهية مرة أخرى ، وذلك حيث يقول فى وفاة الناس (والله خلقكم ثم يتوفاكم . ومنكم من يرد الى أرذل العمر لكى لا يعلم بعد علم شيئا ان الله عليم قدير النحل ٧٠) • فنسب الخلق والوفاة لله سبحانه وتعالى بينما يقول فى موضع آخر (قل : يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم الى ربكم ترجعون — السجدة ١١) • وليس معنى أن الملائكة تقوم بقبض الارواح أنها ذات فاعلية مستقلة عن الفاعلية الالهية ، وليس يعنى هذا تعارضا بين الايتين ، وذلك لان الملائكة لا تفعل الا ما يشاء الله ومن ثم فالفاعل هو الله ولكنه يفعل بهم • وليس الامر مقصورا على الوفاة فقط بل ان كثيرا من الامور تتم فى الخلق حسب مشيئته وقدره تعالى بالملائكة وهذه الافعال الواقعة بالملائكة منسوبة الى الله كلية لانها واقعة بأمره الكونى حيث لا معصية من الملائكة البته ، وحيث هو الذى خلقهم وجعل لكل منهم القدرة على ما كلفه به من أعمال • وهذا الحال ليس مقصورا على الملائكة فقط ، وانما هو حال كل مخلوق من أى نوع ، فالانس أو الجن اذا جاء فعل أى منهم موافقا لامر الله الشرعى ، فان حاله حينئذ كحال الملائكة حيث تلقى هذا المخلوق أمر الله الشرعى كأنه أمر كونى ، ولم يجعل له الخيرة من أمره فيه ومن ثم يكون حكم الفعل الصادر منه كحكم الفعل الصادر

من الملائكة حيث يصبح منسوبا له تعالى كلية • ومن ثم كانت الحسنة من عنـــد الله •

بينما نجد العاصى فى فعـــل السيئة انما يفعلها بالقدرة التى أمده الله بها لابتلائه ، فهى من هذا الوجه كالحســـنة من عند الله ، ومن ثم قال « قل كل من عند الله » • الا أنها جاءت مخالفة لارادة الله الشرعية صدورا عن نفس الفاعل باختياره الحر ، فنسبت اليه حيث قال « وما اصابك من سيئة فمن نفسك » • لانها واقعة كفعل حر بوجهها القبيح من الانسان • وتتفق آيات سورة الروم السابقة الذكر مع آيات سورة الفجر فى أنه عز وجل نسب الرزق فيهما جميعا الى الله سبحانه ، ثم جعل ذلك واقعا بأفعال الناس الاختيارية التى يمتنعون بها عن آداء حق السائل والمحروم والمسكين الذى فرضه الله لهم فى أموال الاغنياء •

أما قوله تعـــالى (من جاء بالحســـنة فله عشر أمثالهـــا ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الا مثلها وهم لا يظلمون ــ الانعام ١٦٠) • فنسب للحسنة لفاعلها كما نســـب السيئة ، وليس ثمة تعـــارض مع الايات السابقة ، لانه ينســـب الحسنة كالسيئة بوجههـــا البشرى المكتسب والمفعول باختيار الفاعل ، حيث يتحدث هنا عن الجزاء عن العمل وليس عن مصدر الفعل • ويبين أن وقوع الفعل ــ سواء المعصية أو الطاعة ــ انما هو باذنه لابتلاء الناس بعضهم ببعض لمعرفة الخبيث من الطيب وذلك حيث يقول (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتـــم أنى هذا ، قل : هو من عند أنفسكم ان الله على شىء قدير • وما أصابكم يوم التقى الجمعان فباذن الله وليعلم المؤمنين • وليعلم الذين نافقوا ، وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، قالوا لو نعلم قتـــالا لاتبعناكم ، هم للكفريومئذ أقرب منهم للايمان، يقولون بأفواههمماليس فى قلوبهم والله أعلم بما يكتمون ــ آل عمران ١٦٥ ــ ١٦٧) • وتثبت هذه الايات كون المعصية التي وقعت للمؤمنين فى غزوة أحد من عنـــد

أنفسهم بسبب أخطائهم ومعصيتهم للرسول أثناء القتال • ويدل تعقيبه بقوله تعالى «ان الله على كل شئ قدير» على أن هذه الهزيمة مرادة له تعالى ، ولكنه حسب سنته فى معاملة خلقه بناء على اختياراتهم ، قد شاء أن يهزموا لما ارتكبوه من معاصى فى الموقعة •

ولا شك أن قول الله سبحانه (ما أصاب من مصيبة فى الارض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير — الحديد ٢٢) • انما يعنى القدر السابق لوقوع الافعال الجبرية على الانسان ، بالرغم من أن هذه الاحداث المقدرة من قبل الخلق وقبل حدوثها انما هى بفعل البشر ومن اختيارهم ، فاذا كانت هناك مصيبة فى كتاب على أسرة من الاسر بفقد أحد أبنائها بالقتل مثلا ، فان هذه المصيبة من فعل القاتل ومن نفسه حيث قال تعالى فى قاتل أخيه من ابنى آدم (فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين — المائدة ٣٠) • فالوجه النابع من النفس البشرية للفعل البشرى القبيح هو وجه الشر المنسوب للعبد ، ولكن عين الفعل مقدر من الله فى كتاب قبل خلق السموات والارض ، والله سبحانه يوجد الفعل بتمكين العاصى منه بعد أن يعلم منه العزم والتصميم عليه ليبتلى به العباد •

وهكذا نجد أن اغفال حقيقة الابتلاء أثناء البحث فى جميع حقائق القرآن انما يؤدى الى الوهم بوجود تعارض بين آياته وحقائقه ، بينما ذكرها فى فهم كل حقيقة بل كل آية ، يفسر لنا كل شئ ويجعله معقولا ومقبولا للذهن البشرى ومتفقا مع العقل بلا تأويل ، حيث ترتبط المعانى وتصدق بعضها بعضا •

كما لا تصبح مصدرية الشر فى العالم مشكلة مستعصية كما هى عند سائر المذاهب والفلسفات الارضية • فليس للشر وجود حقيقى فى العالم حيث هو منسوب للعاصى لمخالفته أمر الله التشريعى ، وان كان وقوعه مقدرا ، ولكنه كفعل من الله سبحانه وواقع باذنه ومخلوق

بقدرته تعالى كأى شىء فى الكون ، انما هو مجرد اختبار وامتحان وابتلاء للناس حسب الحكمة من خلق الخلق • ولا شك أن الالام والمصائب الواقعة على العباد بأفعال العباد مهما كانت شديدة ، فانها ليست شرا — كفعل مقدر عليهم بابتلائهم — بل هى مجرد اختبار كالنعيم سواء بسواء ، وان كانت — كفعل منسوب لفاعله — شرا ، فانها — كأفعال مخلوقة لله — مجردة عن معنى الخير والشر ، أى ليست خيرا وليست شرا، ولكنها مجرد تجربة ابتلائية جبرية يدخل الله سبحانه العباد فيها ليعلم المؤمنين من الكافرين •

ومن ثم يمكن القول ان معنى الشر فى قوله تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) • هو ابتلاء الناس بشرور الناس •

ويمكن ان نقرر أن العبد بفعله الشر انما يفسق عن أمر ربه ولكنه لم يفسق عن قدر ربه ويخرج عنه • ولذلك قال « الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ، أى الامر الشرعى •

الشر والتجربة الابتلائية :

ويرتبط الشر ارتباطا وثيقا بالبلاء أو بمعنى ادق يرتبط بالتجربة الابتلائية الجزئية الواقعة فى الزمان ، فاذا كانت الحياة بالنسبة للانسان فردا كان أو أمة ، مجموعة مواقف متتالية وتجارب متتابعة متشابكة من الابتلاءات ، أولها علل وأسباب تؤدى الى آخرها ، وهكذا حتى نهاية عمر الفرد وأجل الجماعة وحياة البشرية ، فاذا كان ذلك كذلك ، فان تحديد وتعريف فعل الشر أو الخير يصبح نسبيا وخاصا جدا ، اذ أن فعل الخير أو الشر بالنسبة للانسان ، هو نجاحه فى هذا الموقف من البلاء الذى يمر به فى هذه اللحظة من وجوده • فبينما يكون سلوك انسان ما نتيجة تجربة بلائية خيرا ، نجد نفس السلوك لانسان آخر نتيجة تجربة أخرى شرا • وهذا ناتج عن عدم وجود فعل شر فى

ذاته وفعل خير فى ذاته ، حيث أن ظروف التجربة الابلائية وأحوالها التفصيلية ، هى التى تحدد نوع السلوك من حيث الخير والشر • ومن ثم فليس هناك حالات واقعية جزئية يمكن اعتبارها فضائل أو رذائل ، انما الفضائل معانى عامة كلية لمجموعات معينة من السلوك الخلقى ، وكذلك الرذائل ، أى أنه ليس هناك فعل جزئى واقعى معين هو فى ذاته فضيلة وليس هنك فعل هو فى ذاته رذيلة • فالقتل كفعل مجرد فى موضع رذيلة ، وفى موضع آخر فضيلة •

فالفضيلة أو الخير أو الحسن ، هو ما كان موافقا لامر الله الشرعى والشر او الرذيلة او القبيح هو ما كان مخالفا له • فالافعال فضيلة أو رذيلة وحسنة أو قبيحة وخير أو شر باقترانها لاختيار انسان معين لسلوك معين فى موقف معين • ومن ثم فالفضيلة معنى عام كلى ومقياس ثابت للخير يقوم به سلوك الفرد والجماعة بالنظر الى ظروف الفعل والفاعل وأحوال التجربة الابتلائية •

الافعال المجردة عن الخير والشر :

ونحن نجد لكل فعل من الافعال حالة يكون فيها الفعل مجردا لا يحمل أى معنى للسلوك الخلقى ، ولكنه بمجرد ما يتلبس بارادة الانسان واستطاعته نجده قد اتصف بالصفة الخلقية ، وأصبح سلوكا خلقيا يمكن تقييمه •

فالايمان مثلا فعل مجرد لا يمكن وصفه بالخير أو بالشر ، والله سبحانه قد خلق الايمان كفعل قبل أن يكتسبه الانسان مجردا • ولكن بمجرد أن تتحرك ارادة انسان ما واستطاعته لاكتساب هذا الفعل فانه — نظرا لانه فعل خلقى — يجد هذا الانسان أمامه ضدين وفعلين متقابلين عليه أن يختار أحدهما ، فهو اما أن يؤمن بالله واما أن يؤمن بغير الله : بالطاغوت ، بالشيطان ، بالهوى ، بأى شىء سوى الله • وكما علمنا ، أن الفعل البشرى الذي يتم بالاستطاعة البشرية ، هو

جمع علل ومعلولات بعضها الى بعض بنسب معينة ، بحيث تؤدى الى معلول وفعل معين هو مقصد الفاعل ومن ثم نقول فى فعل الايمان : أن الفاعل يجمع علة الايمان بتصور صحيح عن الالوهية بتوحيد الله فيصبح مؤمن به • واذا جمع علة الايمان بسواه أو بأحد معه ، يصبح مشركا ولذلك يصف الله سبحانه وتعالى المشركين بالايمان أيضا حيث يقول (ومايؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون — يوسف ١٠٦) • أى انه اذا آمن انسان مشركا بالله غيره أصبح الايمان شرا ، ولذا آمن بالله واحدا لا شريك له أصبح الايمان خيرا • ويؤيد ذلك أيضا قوله سبحانه وتعالى (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون — العنكبوت ٦٧) • فالايمان هنا شر ، والشر ناتج عن فعل البشر الذى هو جمع بين الايمان والباطل كما أن الكفر أيضا فى الاية شر لانه جمع بين الكفر ونعمة الله وكلاهما منهى عنهما الانسان • ومثلها قوله سبحانه (ألم تر ألى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا — النساء٥١) ومن ثم فالايمان — كفعل مخلوق — فعل مجرد ليس خيرا وليس شرا، والانسان باتمامه الفعل هو الذى يعطيه صفته دون أن يخلقها ، وكذلك الكفر ، ودليل ذلك قوله (قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين — غافر ٨٤) • فالكفر فى هذه الاية خير وتوحيد • ومثلها قوله على لسان ابراهيم والذين آمنوا معه يقولون لقومهم (انا برءاؤ منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده — الممتحنة ٤٠) • ومثلها قوله (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى — البقرة ٢٥٦) •• وأيضا قوله (يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به — النساء ٦٠) • وعلى ذلك فهناك كفر مجرد لا هو خير ولا هو شر وانما يتصف باحداهما بعد مزاولة العبد له •

والقتل كذلك كفعل مخلوق لله ، فعل مجرد عن صفة الخير أو الشر ، وتتحدد قيمته الخلقية بعد مزاولة العبد له فى موقف الابتلاء الذى مر به . وبالنظر الى ظروف الفعل والفاعل ونتائج الفعل ودوافعه . والايات ايضا تثبت ذلك (الذين يقاتلون فى سبيل الله — النساء ٧٦) . وهذا قتال محدد الظروف والنتائج والعلل فهو خير (والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت — النساء ٧٦) . وهذا شر ، وبينما نجد القتل منهى عنه فى هذه الاية (ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق — الانعام ١٥١) . نجد الاية الاتية تأمر بالقتل (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم — البقرة ١٩٠) . فالاية التى تنهى عن القتل تحدد ظروفه وكيفيته ولا تتركه مجردا أو مطلقا فتقول (التى حرم الله الا بالحق) وكذلك الايات التى تأمر به لا تتركه مجردا أو مطلقا وانما تحدد ظروفه ودوافعه وكيفيته ومستحقى القتل أيضا .

والوطء فى حالة زنى يرجم عليه المرء أو يجلد ، وفى حالة أخرى عمل طيب مشروع يثاب عليه .

حتى قطع الطريق ، فالرسول الكريم يخرج من المدينة فى أكثر من ثلاثمائة مجاهد ليقطعوا الطريق على تجارة قريش بقيادة أبى سفيان ، الاحداث المعروفة التى أدت الى موقعة بدر ، وما من شك أن هذا العمل هو عين العدل والخير من الرسول الكريم ، وذلك بالنظر الى ظروف الدعوة والحرب القائمة بين المؤمنين والمشركين وبالنظر الى ما سبق أن فعله المشركون بالمؤمنين بمكة قبل الهجرة ، من اعتداء وتعذيب واضطهاد عنيف ، وسلب لاموالهم وأمتعتهم بدون حق . هذا بينما قطع الطريق فى ظروف وأحوال أخرى من اكبر الكبائر .

والكذب أحيانا خير ، كما أنه فى بعض الاحيان الاخرى شر ، وكذلك أفعال القوى النفسية مثل الابصار والسمع والكلام وخواطر القلب

وجميع الحواس الأخرى وحركات الجسم البشرى وأعضائه ، ليست فى ذاتها خيرا أو شرا ، انما هى افعال مجردة،وتصلح للضدين ، والمرجح هو الارادة (ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا — الاسراء ٣٦) • ومن الأدلة العقلية على ذلك أيضا ، أن الفعل اذا وقع من الانسان حمل الصفة الخلقية ، ولكنه لا يحملها اذا وقع بعينه من غير الانسان ويرجع هذا الى ما يتميز به الانسان عن غيره من المخلوقات بالاختيار • فالذئب اذا افترس طفلا ، لا يصبح قاتلا وكذلك اذا دفع الهواء حجرا فسقط على رجل فقتله ، لا يمكن تسميه الحجر أو الهواء قاتلا ، فالقتل كفعل خلقى موصـوف بالشر ، يشترط فى فاعـله حتى يسمى قاتلا أن يكون مختارا مستطيعا ، على تنفيذ الفعل بعد النيـة والقصد اليه ، كما يكون قادرا على الترك بعد النية والقصد اليه ، أى تتوفر لديه شروط وأركان الحـرية ونعنى بها الاختيـار والاستطاعة والعـلم •

نخلص من ذلك كله أن الافعال فى ذاتها ليست حسنة أو قبيحة ، وانما هى تتصف بهذه الصفة أو تلك بعد لكتساب الاستطاعة البشرية لها مقترنة ومتلبسة بالارادة الانسانية المختارة • فليس العقل البشرى هو مصدر معرفة الخير والشر والحسن والقبيح لانه يستقى معـارفه وعلمه من عالم الشهادة ، أو المحسوس حيث الحقائق التوفيقية ، وما دامت الاشياء والافعال فى ذاتها ليست خيرا أو شرا • فمعرفة الحسن والقبيح اذا غير ممكنة له الا من المصـدر الثانى من مصادر المعـرفة البشرية وهو الوحى • فما أمر به الله هو الحسن والحق والخـير ، وما نهى عنه هو القبيح والباطل والشر • فأمر الله ابراهيم بذبح ابنه اسماعيل حسن وخير ، ولذلك اقدم ابراهيم على الذبح • لان ابراهيم يعتبر أن أمر الله وشرعه هو مصدر معرفة الخير من الشر لا العقل أو جهاز المعرفة البشرى جملة • وقتل الخضر للغلام البرىء هو فى حقيقته خير أمر الله به وأراده لوالديه الصالحين ، لكنه بموازين العقل البشرى

شر وقبيح ، وكذلك خرق السفينة • وذلك لان الله سبحانه وتعالى هو المتفرد بعلم الغايات والاسباب والعلل القصوى للاحداث والافعال •

ان الاسلام يقتضى افـــراد الوحى كمصدر وحيد لمعرفة الحـــلال والحرام وسائر النظم الاجتماعية ، ذلك لان الله هو الحـــق ومن ثم فأوامره التشريعية هى الحق ، وكل ما يخالفها باطل •

لقد خلق الله سبحانه وتعالى السموات والارض بالحق وأقام هذا العالم على الحق ، ومن ثم فان ارادة الله تعالى الكونية التى بها خلق السموات والارض تتبدى لنا فى الحق الكونى الذى تقوم عليه موازين وحقيقة كل شىء فى هذا الكون ، والتى يمكن معرفتها متمثلة فى القوانين العلمية التى تسير حسبها الاشياء المادية والطبيعية والفلكية •

وبالمثل أيضا فان الله تعالى ــ كما خلق العالم بالحق ــ فانه شـــاء للانسان ان تقوم علاقته بالاخرين، من الافراد والجماعات والمجتمعات وبكل شىء فى هذا العالم المخلوق ، على الحق •

ولا شك أن علاقة الانسان بالمادة وأجزاء العـــالم الحى وغير الحى لا تستقيم ولا تنته خيرا الا اذا قامت على الحق ، فلكى ينتفع الانسان بطعامه وشرابه وبالمعادن والمواد وبالبحار والجبال وطبقـــات الارض وبكل شىء حوله ، لابد ان يعرف الحق الذى تقـــوم عليه طبيعته هو ــ كانسان ــ وطبيعة الاشياء الاخرى المحيطة به والمراد الانتفـــاع بها • فاذا لم يعرف الحق الذى تقوم عليه ماهيات وحقائق وتأثيرات الاشياء ، فانه لن يستطيع الانتفاع بها وتسخيرها لنفســـه وتحقيق الخلافة واقامة الحضـــارة •

فالحق اذن ومعـــرفته ، ثم قيام الاستخدامات المـــادية عليه هـــو الاساس الاول فى قيام سيادة الانسان فى الارض ، هذه السيادة التى

تعتبر جانبا واحدا من جوانب الحضارة الانسانية • هذا الجانب الذى يتمثل فى العلم والتكنولوجيا •

أما الجانب الثانى من الحضارة فيتمثل فى علاقة الانسان بربه وفى علاقة الانسان بالانسان ، وهو يتجلى فى النظم الاجتماعية المختلفة ، الاخلاقية والسياسية والاقتصادية والاسرية وغيرها ، حيث تحكم هذه النظم علاقة الناس بعضهم ببعض كأفراد وجماعات ودول •

وهذا الجانب أيضا لا يستقيم ولا ينتج خيرا الا اذا قام على الحق مثل الاول ، واغفال الحق فى هذا الجانب او قيــام هذا الجانب على الباطل كفر وظلم وفســق •

ولكن منهج معرفة الحق فى هذا الجانب من الحياة الانسانية يختلف عن منهج معرفة الحق فى الجانب الاول • ذلك أن الاسلام قــد فوض العقل البشرى ووجهه للتجربة لكى يحصل الانسان على قوانين المادة والاحياء بنفسه وبجهده الخاص وبتوفيق الله عز وجــل • فالانسان يتقدم فى هذا المجال المعروف الان بالعلم التجريبى والتكنولوجيا بمقدار الجهد الذى يبذله وبمقتضى صحة المنهج الذى يتبعه فى البحث• اما الجانب الخاص بالنظم الاجتماعية، الذى يجب أن يتبعه فهو أخطر وأهم فى حياة الانسان من الاول ، لان الاول يقوم على علاقة الانسان بغير الانسان، بينما يقوم الثانى على علاقة الانسان بالانسان • وهو جانب معقد فى الحياة الانسانية ، ويترتب على بعده عن الحق قيام الحياة على المظالم وانتشار الفساد واهلاك الحرث والنسل واشــقاء البشرية ، ومن ثم فان منهج معـــرفة الحق فى هذا الجانب هو الرسالات السماوية وللوحى وليس العقل أو اجهزة الادراك البشرية • فالانسان محكوم عليه بالفشل اذا أراد ان يعرف الحق وحده فى هذا الجانب المعقــد ، ولذلك أنزل الله تعالى الرسالات الســماوية لاقامة هذا الجانب على الحق الذى يقوم عليه كل شىء فى الكون ، فمن الخطأ محاولة معــرفة

الحق والعدل فى النظم الاجتماعية التى هى الموضوع الرئيسى للشرائع السماوية من العقل والتجربة •

وذلك لاننا وجدنا ان الافعال البشرية التى تقوم عليها علاقة البشر بعضهم ببعض ليست موضوعا صالحا لاجهزة الادراك البشرية وليست موضوعا محددا للمعرفة من حيث أنها جميعا مجردة عن الخير والشر — كما ثبت لنا ذلك — مما يجعل معرفة أيها خير وأيها شرا أمرا مستحيلا على الذهن البشرى ما دامت تأتى مرة فى ظروف معينة خيرا وفى ظروف أخرى شرا • والدليل على ذلك اختلاف الحلال والحرام والممنوع والمباح من مجتمع الى آخر واختلاف القيم الخلقية أيضا من دولة الى أخرى ومن جماعة الى أخرى وهكذا •[1]

ومن ثم وجب على الانسان ان يأخذ معرفة الخير والشر من مصدره الغيبى وهو الرسالات السماوية ، ولو كان فى مكنة الانسان واستطاعته أن يدرك هذا الجانب بعقله لما نزلت الشرائع السماوية ، وتاريخ الانظمة الاجتماعية والتشريعات قديما وحديثا خير دليل على ذلك •

ولعل أوضح مثل على اجتهاد العقل البشرى فى مجال التحسين والتقبيح للافعال فى حضارتنا المعاصرة هو القرار الذى اتخذه البرلمان الانجليزى فى ستينات هذا القرن باباحة الشذوذ الجنسى بين شعبه متعللين بحرية المواطن الشخصية ، فهذا البرلمان ليس سوى صفوة مختارة لشعب نال قسطا كبيرا جدا من العلم والتقدم والحضارة المعاصرة ، ربما لم ينله شعب آخر فى الدنيا على الاطلاق ، ومع ذلك فقط أجمعت عقول صفوته على تحسين هذا الفعل الذى خبثته الشرائع جميعها والذى هو فى الحقيقة كفيل بالقضاء على البشرية وانقراضها فى عدة أجيال لو أجمعت عليه سبيلا • وفى مثلهم قال الله (ولوطا آتيناه

---

(١) نقصد بذلك الحلال والحرام الذى من وضع البشر •

حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين ــ الانبياء ٧٤) • ولكن هذه العقول عندما حسنت ما وصفه ربها بأنه الخبائث ، لم تعدم حججا تبدو منطقية مقبولة للعقل وذلك باعتبارهم هذا الفعل من مجال الحرية الشخصية ومن لوازم احترامها •

أما ما يعترض به من أن العقل قادر على أن يستحسن بعض الافعال كانقاذ الغرقى وكتمان السر تحت تسلط السيف وغير ذلك(١) ، فان ذلك مرفوض لان الشرائع لم تنفك من على ظهر الارض منذ آدم حتى بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما زالت الرسل تترى تعلم الناس الحسن والقبيح والحرام والحلال ، فلعل هذا نتيجة وأثر لهذه الشرائع علاوة على أن العقل يقرن ما ينفع الانسان دائما بالحسن ويقرن ما يضره بالقبح ، لما فطر عليه الانسان وجبل من تحسين وحب ما ينفعه وتقبيح ما يضره • ولكن لا يمكن اعتبار ما ينفعنى أنا وما يضرنى مصدرا للحسن والقبح ، اذ أنه قد يكون ماينفعنى شرا لغيرى ، وما هو ضار لى نافع لغيرى ومن ثم لزم أن يكون المشرع للبشر غيرهم وقد أثبت القرآن عجز البشر عن معرفة ما هو خير لهم وما هو شر حيث يقول (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ــ البقرة ٢١٦) • فاذا ثبت ذلك فليس أجدر ولا أحق ولا أقدر على ذلك من خالقهم سبحانه وتعالى •

وكما خلق الله الانسان والكون من حوله ، وخلق لهما السنن والنواميس التى تسير عليها الحياة ، وكذلك خلق العقل البشرى

---

(١) قال بعض مفكرى المعتزلة بهذين المثالين كدليل على وجود أفعال حسنة فى ذاتها ، حيث لا يمكن أن يكون انقاذ الغريق وكتمان السر الا حسنا ونسوا أن الانسان يحاسب على الفعل من خلال نيته وقصده من الفعل ، فكتمان السر قد يؤدى الى كارثة بابرياء وفى هذه الحالة يكون شرا .

موافقة ومطـابقة للحق ، وهذه القـواعد لا تنبـع من العقـل موافقة ومطابقة لقواعد العدل ، وهذه القـواعد لا تتبع من العقـل البشرى ولا يستنبطها من العقـل البشرى ولا يستنبطها من العـالم المحسوس المشاهد ، وانما هو يتلقاها ويتقبلها ويتفهمها كما هى • وفى ذلك يقول الله (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب ــ الشورى ١٧) • ويقول ابن كثـير فى تفسير الميزان (ثم قال تعـالى « الله الذى أنزل الكتـاب بالحق ») وهو العـدل والانصاف قاله مجاهد وقتاده وهذه لقوله تعالى « لقد أرسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط » وقوله سـبحانه وتعالى (والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ــ الرحمن ٧ ، ٩) •

فاذا كان الميزان قـد نزل مع الكتاب وهو العدل ، والعـدل والحق والخير هى المعايير والمقاييس والقيم التى تقوم بها الافعال والاشياء من من حيث هى حسنة أو قبيحة ، شر وخـير ، فهذا يعنى بنص الايات السابقة ان مصدر معرفة الحسن والقبح هو الشرع والكتـاب وليس العقل لقوله تعالى « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان » •

فالكتاب والميزان هما منهج معرفة الحلال والحرام والنظم الاجتماعية المنظمة للعلاقات المختلفة بين الناس •

اما بالنسبة لمعرفة الماديات والطبيعيات وخصائص الاحياء فقد وجه الله عز وجل الانسان ليبحث فيها بادراكه وفكره وتجربته وحسه فقال لنا (قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخـلق) • كما قال لنـا رسول الله عليه الصلاة والسلام (أنتم اعلم بشئون دنياكم) •

ومن ثم فرق القرآن الكريم والسنة بين نوعين من المعرفة :

الاولى : ما يمكن تسميته بالحكمة وهى دليل الاختيار وتلك تنزلت من السماء وحيا .

الثانية : ما يعرف بالعلم وقد فوض الله موضوعاته ومجالاته لاجهزة الادراك البشرية وعلى رأسها العقل لمعرفتها ، وهى ما يمكن تسميتها بالعلم ونعنى به العلم التجريبى .

وهذا هو موضوع الفصل التالى باذن الله تعالى .

الفصل السادس

المعرفة والعلم

الحرية الانسانية تتجلى واضحة فى الفعل الاختيارى الذى هو استجابة الانسان لما يعرض له من تجارب بلائية • وهو ما نسمية بالسلوك الخلقى الذى تبدو فيه مقومات الحرية الانسانية جلية ظاهرة ونعنى بها الاختيار والاستطاعة والعلم •

ويلزم ان نذكر ان هذه المقومات الثلاثة ليست منفصلة الا فى عالم الذهن فقط وانما هى جميعا فى الواقع والحقيقة واحدة للانسان تتمثل فيها ذاتيته وكينونته •

وكما علمنا مما سبق ان الاختيار البشرى يوجد متلبسا ممتزجا بالاستطاعة مصاحبا لها فى الفعل ، كذلك العلم او المعرفة •

فالعلم مقوم أساسى من مقومات الحرية ، كالارادة والاستطاعة ، وحيث أن السلوك الخلقى لا يمكن ان يقوم بدون أحدهما ، فهو لا يقوم بدون العلم كذلك ، لانه اذا كانت الاستطاعة هى تجميع وتنسيق العلل والمعلولات التى تؤدى الى حدوث الفعل على النحو الذى اراده الفاعل واختاره ، فانه يلزم ان يكون لديه العلم الضرورى بالاسباب وما تنتجه من مسببات ، وبالعلل ونتائجها من ناحية ، وكذلك يلزم أن يكون لديه المعرفة الضرورية للخير والشر فى الافعال المختارة من ناحية أخرى •

ومن ثم فمقومات الحرية الانسانية او ملكاتها فى نفس الانسان انما هى قوة ذاتية واحدة ، وان كان لها شعبها الثلاث وأساسها الامانة او النفخة الالهية الكريمة او هى ماورثه الله للانسان فى الارض ليصير به خليفة •

ولقد أثبتنا ما قرره القرآن عن الاختيار والاستطاعة • فما الذى اثبته عن المعرفة والعلم ؟ !

وكما ينبثق الاختيار وتنبثق الاستطاعة من حقيقة الخلافة ويقومان على الارض بحقيقة الابتلاء • كذلك ينبثق العلم ويقوم •

فآيات الخلافة التى تعتبر اول حديث مباشر عن الانسان فى القرآن حيث موقعها صدر سورة البقرة تقول : (واذ قال ربك للملائكة : انى جاعل فى الارض خليفة • قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : انى اعلم مالا تعلمون • وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال : انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين ، قالوا : سبحانك ، لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم ، قال يا آدم : أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السماوات والارض ، واعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ـــ البقرة ٣٠،٣٣) •

فالانسان قدتعلم الاسماء كلها، الاسماء التى اصبح بها اهلا للخلافة وخليقا بها حتى ان الله سبحانه جعله ينبىء الملائكة بها ، ليثبت علم آدم لهم فيزول بذلك تعجبهم فى اختيار الله له خليفة •

والاسم لفظ يطلق على شىء لتمييزه عن شىء آخر ، فالاسماء هنا معناها الاشياء وأسماء الاشياء ففى علم اسم الشىء علم بخصائصه لان الخصائص لها اسماء ، وبهذا العلم يحقق الانسان سيادته فى

الارض ويسخر ما فيها لنفسه . وهذه السيادة لا تتحقق الا بمعرفة الاشياء والاحياء وخصائص كل منها المتمثلة فى افعال الاشياء وتأثيراتها بعضها فى بعض ، وليس الذى تعلمه ادم ـ كما قد يفهم البعض ـ هو مجرد الفاظ او كلمات هى التى يستعملها ابناؤه كأسماء لما يعرفون ولما يكتشفون ولما يخترعون فى الارض ، بل ان آدم تعلم الشىء واسمه وخاصيته ، وذلك بدليل قوله تعالى (وعلم آدم الاسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين) .

فالذى عرضه الله سبحانه على الملائكة اعيان الاشياء بجواهرها واعراضها ، وليست معانى كلية لها او الفاظ او ماهيات ذهنية لها ، حيث قال تعالى (ثم عرضهم) ولم يقل عرضها ، فهو عز وجل لم يعرض الاسماء او الماهيات ، وانما عرض الاشياء بذواتها . فاذا علمنا ان لجوهر الشىء المادى اسم ، وان لفعله وتأثيره اسم ، تبين لنا ان ما خص الله به آدم من العلم ليس قاصرا على الاسماء ، كاصوات والفاظ مكونة من حروف منطوقة فقط ، وكمعانى كلية فى الذهن فقط ، وانما فوق ذلك كله عرف آدم الشىء المادى المتشخص الذى يحمل هذا الاسم ، وكذلك تأثير كل شىء فى غيره لان لهذا التأثير ايضا اسم من الاسماء .

ولتوضيح ذلك نقول ان الله تعالى علم آدم الماء كشىء متعين وكاسم لهذا الشىء وكعلة للارواء من الظمأ وهكذا ...

وقوله تعالى (الاسماء كلها) يعنى ان آدم تعلم فى ذهنه ووعى كل ما استخدمه وما سيستخدمه الانسان على الارض من الاشياء وكل ما تضمنته نواميس العلوم من مصطلحات وتعريفات وكل ما سيحدث من اختراعات واكتشافات الى يوم الدين .

فاذا علمنا ان العلم التجريبى ليس سوى معرفة خصائص العناصر والاشياء ، وتأثير بعضها فى بعض ، فهو ليس سوى معـرفة الاسباب والمسببات والعلل ونتائجها ، وهذا هو العلم الضرورى لاتمام للفعل البشرى • فليس ثمة شك فى ان فعـل الانسان فى الاشياء والاحيـاء يتوقف على علمه بخصائص كل منها والقوانين التى تحكمها وتحكمه •

وكما ان القرآن يثبت ثنائية فى الوجود ، اعنى بذلك عالم الشهادة وعـالم الغيب ، اى الوجـود الطبيعى المادى والوجـود الغيبى ، كموضوعين للمعرفة الانسانية ، فانه يثبت تبعا لذلك ثنائية فى المعرفة عند الانسـان •

المعرفة الاولى موضوعها عالم الشهادة ومنهجها الحس والتجربة • والثانية موضوعها عالم الغيب ومصدرها الغيب اى الوحى فالقـرآن يقرر ابتداء مصدرين من مصادر المعرفة :

الاول : الوحى وهو كتاب الله المقروء ودور الجهاز الانسانى المعرفى فيه هو التلقى والفهم والتصديق ، واثبـاته كما هو ، والمحافظة عليه لتتسلمه البشرية جيلا بعد جيل حتى تقوم الساعة •

والثانى هو كتاب الله الكونى ، العالم المحسوس والمشهود بما فيه النفس البشرية ذاتها ، باعتبـارها موجودا محسوسا • ودور جهـاز المعرفة الانسـانى فى هذا المصدر اوسع من مجـرد التلقى واكبر من مجرد الفهم والاستنباط كما هو شأنه مع الوحى • فالانسان بالنسبة للعالم المشهود يبحث ويستخلص الحقائق بنفسـه ويقيمها مقننـة ، ويمكنه من ذلك ثبات السنن الكونية والنواميس الطبيعيةو البشرية •

ووسيلة المعرفة الغيبية او وسيلة تلقى حقائق الالوهية والكون عند الانسان ، هى الفطرة ، وهى وسيلة انسانية وليست وسيلة بشرية ، وذلك لان الانسان مزود بها فى وجوده الغيبى الاول ودليلها من الكتاب

قول الله سبحانه (واذا أخذ ربــك من بنى آدم من ظهـورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا : بلى شهدنا ؟) • وقد سبق ذكر ماورد عن معنى هذه الاية منأقوال الصحابة والتابعين فقد أجمعوا جميعا على ان هذه العملية تفيد فطرة الناس على التوحيد ومعـرفة ربهم واحدا لا شريك له وفى ذلك يقول الله (وأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيـم ولكن اكثر الناس لا يعلمون) كما جاء فى الحديث (كل مولود يولد على الفطرة) وفى رواية (على هذه الملة) وجاء ايضا فى الحديث القدسى (انى خلقت عبادى حنفــاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهـم وحرمت عليهم ما احللت لهم) •

فالانسان اذا مفطور او مخلوق بماهية تجعله يتقبل الحقائق الغيبية دون دليل مادى او برهان تجريبى ومع ذلك تكون نفسه مطمئنة اليها متيقنة بوجودها وصحتها• والوحى عندما يخاطب الانسان انما يخاطب الانسان انما يخاطب فيه اولا هذه الفطرة ، لانها اداة المعرفة لحقائقه• والاسلام ، متمثلا فى القرآن والسنة ، انما يخاطب الكينونة البشرية جملة واحدة ، ملبياكل جوانبها ، متعاملا مع كل مقوماتها ، فهو يخاطب فى الانسان حسه وفكـره وبديهته وبصيرته وســائر عناصر الادراك البشـــرى •

ومن ثم فقد جاءت حقــائقة مسلمات أى على المســلم أن يتقبلها ويتفهمها ويعيها ويحافظ عليها ، ومع كونهامسلمات فهى معقولة فى ذاتها ومقنعة بمجرد معرفتها لانها توافق العقل ولا تخالف قوانينه •

اما وسيلة معرفة العالم المحسوس او الماديات ، فهى وسيلة بشرية، بمعنى انها لم تعط للانســان ولم يزود بها الا مع بداية حيــاته على الارض ، فهى معرفة مكتسبة وهى تنبع وتتبع من معرفة آدم بالاسماء حيث انه أكتســب علم الاســماء بعد خلقه قال تعــالى (وعلم آدم الاسماء •••) وكذلك ابناء ادم يكتسبون معرفة الاشياء والاحياء من

العالم المحسوس الطبيعى بعد خلقهم وفى ذلك يقول تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون ـ النحل ٧٨) • وكما هو واضح من هذه الاية أيضا فان القرآن يثبت للانسان جهاز معرفة وليس اداة معرفة ويؤكد ذلك قوله (ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا ما تشكرون ـ السجدة ٩) • فالسمع والابصار والقلوب او العقول تكون كلها جهازا واحدا متناسقا متكاملا للمعرفة حيث يجعل الله سبحانه التعقل يتيجة للسمع والنطق ، او يجعلهم من لوازم التعقل وذلك حيث يقول (مثل الذين كفوا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع الا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون ـ البقرة ١٧١) • كما يقول فى ذلك أيضا (ان شر الدواب عند الله الصم والبكم الذين لا يعقلون ـ الانفال ٢٢) •

ومما لا شك فيه ان توجيه جهاز الادراك البشرى بما فيه من حس وسمع وبصر وعقل لدراسة العالم المحسوس ، ومحاولة معرفة اشيائه وحقائقه ونواميسه المطردة والسنن التى تسير عليها الحياة والاحياء على الارض والافلاك والاجرام السماوية ، لا شك ان هذا هو الذى ادى بالمسلمين الى الوصول الى منهج البحث التجريبى القائم على الملاحظة والتعليل • حيث يستعمل الباحث فيه جميع حواسه وعقله حسب مابين لنا القرآن عن جهاز الادراك والمعرفة البشرى• وقد اثبتت الكثير من الابحاث الاسلامية والغربية على السواء ، وبما لا يدع مجالا للشك ، ان أسس العلوم الطبيعية والمدية ومناهجها التى تقوم عليها الحضارة الغربية الان ، قد وضعها العلماء المسلمون من قبل ، وذلك نتيجة هذا التوجيه القرآنى الكريم •

وأهمية المعرفة للحرية الانسانية التى تتمثل أعظم ما تتمثل فى السلوك الخلقى الذى هو نهاية التجربة الابتلائية ، وهذه الاهمية خطيرة للغاية بحيث تنتفي الحرية بانتفاء هذه المعرفة •

فالسلوك الخلقى يتم بمقومين أساسين هما الأختيار والأستطاعة ، وعلمنا ان الاختيار هو تحرك ارادة العبد وعقد نيته وتحديد قصده لفعل من ضدين أحدهما حسن والاخر قبيح ، ومن ثم فيلزم لصحة الاختيار وتمام شروطه فى الانسان ان تكون المعرفة بالحسن والقبيح والشر والخير ، مصاحبة لهذا الاختيار وهادية له تبيينا وتوضيحا وترشيدا ، وبذلك تكون المعرفة الانسانية ونعنى بها المعرفة الفطرية التى تتلقى من الوحى موضوعاتها فتعرف منه الحلال والحرام هى دليل الاختيار البشرى • ويسمى القرآن الكريم هذا النوع من المعرفة بالحكمة •

أما الاستطاعة فلها دليل آخر من المعرفة ويتضح لنا ذلك اذا تذكرنا ان الاستطاعة هى أكتساب العلل والاسباب التى بها يكتسب الانسان معلولات متجمعة بالارادة المختارة بنسق معين يؤدى الى حدوث الفعل المراد ، ومن ثم فلابد ان يكون هناك علم مصاحب للاستطاعة يكون لها هاديا ودليلا لاكتساب العلل المناسبة للمعلولات المطلوبة • واذا كان العلم المادى التجريبى هو معرفة الاسباب ونتائجها ، او بتعبير ادق ، هو معرفة العلاقة بين شيئين احدهما علة والاخر معلول ، فان هذا العلم ضرورى لقيام الاستطاعة البشرية بتنفيذ الفعل ، ولا شك ان الفعل البشرى الذى مصدره العالم المحسوس والذى يقوم اساسا على الملاحظة والتجربة والتعليل هو دليل الاستطاعة البشرية لاكتساب الفعل •

ولذلك نجد انه كلما نما رصيد هذا العلم ، كلما كان ذلك فى الحقيقة نموا فى الاستطاعة البشرية ، وليس ما يعرف اليوم بالتقنية (لتكنولوجيا) سوى استخدام العلم وتسخيره لتوسيع مجال الاستطاعة وتقويتها ، ومن ثم يمكن القول ان ما نقصده بالعلم الهادى للاستطاعة والمرشد لها والمنمى لها ، هو المعرفة البشرية التى تبدأ بتعلم الطفل استخدام حواسه ثم جوارحه واعضائه ثم ادواته الشخصية ثم بعض الوسائل البسيطة كالعصا والملعقة وغيرها •

ثم استخدام الرجل المحراث والمنشار والدولاب وسائر أدوات الزراعة والصناعة والنقلة • هذه الوسائل والادوات والاجهزة التى طورها الانسان وارتقى بها – بسبب التقدم العلمى – حتى وصل الى استخدام الالات والصولريخ والمركبات الفضائية لاجتياز الفضاء • فكل ذلك ليس سوى توسيع مجال الاستطاعة البشرية وليس اضافة قوى جديدة للانسان لم تكن لديه •

ان استخدام الطفل للكرسى – مثلا – فى محاولة منه للحصول على شىء لا تصل اليه يداه ، ليس سوى محاولة لتوسيع دائرة استطاعته ، وكذلك الامر فى استخدمات العلم للحديث فى مجال تسخير المادة لهم ، فالتكنولوجيا ليست سوى توسيعا لدوائر الاستطاعة البشرية المتمثلة فى قواه المختلفة ، فقوى للسمع (بالهاتف السلكى واللاسلكى) بحيث لو لم يكن لدى الانسان سمع لما اخترع الاجهزة السلكية واللاسلكية ، وقوى البصر (بالاجهزة البصرية وتقوية للرؤية كالميكرسكوبات والتلسكوبات وللتليفزيون وغيرها) وقوى الذاكرة بما يسمونه بالعقول الالكترونية والحاسبة • وقوى النقلة عند الانسان بكل وسائل الانتقال ابتداء بالدراجة والقارب حتى البواخر الكبيرة وللسيارات والطائرة وللصاروخ وكل ذلك لم يكن ليكون لولا ان الله عز وجل خلق الانسان متحركا متنقلا ذا قدمين فكل وسائل النقلة متمثلة فى رجليه وقدميه ، وكذلك قوى القبض على الاشياء المتمثلة فى يدية توسعت بالرافعات والجرارات الزراعية والالات المختلفة •

وهكذا يمكننا ان نرجع كل اختراع جديد توصل اليه الانسان فى هذا العصر للى انه ليس سوى توسيع لدائرة فى دوائر استطاعته العديدة التى وهبها الله له لاستخلافه فى الارض ولابتلائه بها • فالعلم والتكنولوجيا لا يغيران فى جوهر استطاعة الانسان ولكنهما يزيدان فى كمالها فقط •

ومن ثم يمكننا القول ان تأثير التقدم العلمى التقنى الحديث يقتصر على الاستطاعة وليس له ادنى تأثير على الارادة الانسانية المختارة بين الخير والشر او الحلال والحرام • فهو يقوى امكانية الفعل البشرى كما وليس كيفا ومن ثم فليس له ادنى تأثير على حقيقة وجوهر الانسان وركائز الحرية الانسانية •

لن العلم والتكنولوجيا ليس لهما اى تأثير على مجال عمل ارادة الانسان واختيارها بين الحلال والحرام • ومن ثم فليس لهما تأثير ما على القيم الخلقية والحلال والحرام ذاته • كل ما هناك ان ابن آدم لاول مثل اخاه آدم ارتكب الحرام بعصا او فأس بينما ابناء آدم الآن يقتلون بالقنابل الذرية والنابالم ، وكان ابن آدم الاول مختارا بين الحلال والحرام ، فى تجربته وابن ادم الحالى يختار ايضا بين الحلال والحرام فى تجربته ، والمرجح هو الارادة الحرة المختارة التى خلقها الله للاثنين والتى بمنأى عن أى تأثير عصرى او ثقافى او تكنولوجى • حيث ان عمل الارادة وهو الاختيار بين الخير والشر والحلال والحرام هو فى كل وقت وكل حين ذلك ان دليل الارادة ومرشدها للخير هو الدين والشرائع السماوية النازلة من السماء وجوهر الدين وجوهر الشرائع السماوية والحلال والحرام هو هو فى كل عصر وعلى لسان كل نبى ورسول ، ولذلك نجد الحكمة الهادية للارادة لا تنمو ولا تتطور ولا تتغير • فالدين ينزل من السماء فى حياة الرسول وينصح الله المؤمنين به فيكلفون به كله ويحرم عليهم زيادته او تغييره او نقصانه او الابتداع فيه ، وتصبح الاجيال التالية مكلفين به ايضا كما هو مهما تغير العصر والمكان • اما قدوم الرسول الجديد برسالة جديدة فلم يكن بسبب عدم صلاحية الرسالة السابقة للزمان او العصر الجديد ــ كما يظن البعض خطأ وضلال • وانما هو غالبا بسبب التحريف فى الرسالة السابقة •

هكذا ظن الأستاذ عباس محمود العقاد حيث صرح فى كتابه (الله) يقول (ترقى الناس فى العقائد كما ترقى فى العلوم والصناعات) وهو هنا غربى محض يتبع المدرسة الغربية للعلمانية فى تفسير نشأة الدين.

لما العلم الهادى للاستطاعة والمرشد لها والموسع لدائرتها فقد شاء الله عز وجل أن يحصله الانسان بجهده ، ومن ثم فهو ينمو ويتطور ويزيد مع نمو الحضارة وتقدم الانسان . ولكن ليس لهذا النوع من تدخل فى مسألة الحلال والحرام ، والتشريع والنظم الاجتماعية ، كما انه ليس للارادة ان تتدخل وتختار فى مجال المعرفة التجريبية المادية حيث يلزم لمن يكون ابا حث موضوعيا ، وأن يتخلص من الامور الذاتية التى تصدر عن اختياره الحر ، وهذا أحد مبادىء المنهج العلمى التجريبى كما هو معروف ، فكما ان تدخل العلم التجريبى فى امور الحلال والحرام والقيم الخلقية مفسد للدين والاخلاق ومضيع لهما فكذلك تدخل الارادة المختارة فى البحث التجريبى مفسد له ومضيع للنتائج المرجوة منه .

فالمعرفة بالوحى وبكتاب الله المقروء دليل الاختيار او هكذا يجب ان يكون والعلم بالتجربة وكتابه المشهود دليل الاستطاعة .

وحيث ان حرية العبد تتمثل فى الفعل الاختيارى ، او بقول أكثر دقة تتمثل فى الاختيار نفسه الذى هو فعل الارادة المختارة ، مادام الفعل مخلوقا لله ويقتصر دور الاستطاعة البشرية على اكتساب الفعل اكتسابا تابعا للاختيار ، وعلى ذلك فان مصدر الشر عند العبد هو الاختيار دون الاستطاعة . ولذلك فان حساب العبد يكون على اساس الاختيار وحده . فمن الافعال ما يتماثل ويتشابه فى الحركات والسكنات أى فى فعل الاستطاعة البشرية او دورها . ولكن بعض هذه الافعال شر والاخر خير . ويرجع ذلك الى نية الفاعل واختياره ومصداق هذا قول رسول الله صلى عليه وسلم (انما الاعمال بالنيات

وانما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او لمرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه) والحديث يثبت لن الهجرة وهى فعل واحد يكون فى حالة خيرا وفى حالة غير ذلك وعلة ذلك الاختيار والنية .

ومن ثم فالقرآن يثبت اقتصار للعمل الذاتى الذى يستحق عليه الفرد الجزاء على الاختيار فقط حيث تقول الاية (ومالاحد عنده من نعمة تجزى الالبتغاء وجه ربه الاعلى ولسوف يرضى — الليل ١٩—٢١)

وعلى ذلك اذا اختار انسان ما فعلا حراما فقد وقع منه الشر او الاثم سواء حدث الفعل أم لم يحدث (الا اذا صرف نيته واختياره عنه قبل تنفيذه) . اما اذا اكتسبه قلبه وحاول تنفيذه فلم يستطع لاسباب خارجه عن ارادته وظل مصرا عليه ومختارا له رغم الاستطاعة فانه يحاسب عليه . فالحساب ليس على الفعل وانما هو على اختيار الفعل والنية والقصد اليه ، ودليل ذلك فى القرآن قوله تعالى (لا يؤاخذكم الله باللغو فى ايمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان — المائدة ٩٨) . ويقول ابن كثير فى تفسير هذه الاية (انه قول الرجل الكلام من غير قصد : لا والله وبلى والله وهذا مذهب الشافعى وقيل فى المعصية وقيل غلبة الظن وهو قول أبى حنيفة وأحمد وقيل فى اليمن فى القصة وقيل فى النسيان وقيل هو فى الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك . واستدلوا بقوله « لا تحرموا طيبات ما احل الله لكم ») والصحيح انه لليمين من غير قصد بدليل قوله « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان » اى بما صممتم عليه منها وقصدتموها » والواضح من ترجيح ابن كثير ان المقصود بهذه الايمان هى الايمان التى تمت عن اختيار . يؤكد ذلك قوله تعالى (من كفر بالله من بعد ايمانه الامن أكره وقلبه مطمئن بالايمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم — النحل ١٠٦) . والمقصود من قوله من كفر بالله من بعد ايمانه

الا من أكره أى الا الذين فعلوا أفعالاً تظهر للناس انهم كافرون فهى أفعال كفر وشر ولكنهم مكرهــون على ذلك غير مختارين لهــا فهؤلاء مستثنون من غضب الله وعذابه لاطمئنان قلوبهم بالايمان اى لانهــم ما زالوا مختارين للايمان رافضين للكفر وان كانت استطاعتهم للكفــر وليست للايمان • أما الكافر فهو من شرح للكفر صدرا وهذا تعبير عن الاختيار الصحيح •

ومن ثم فالجزاء اساسا على الاختيار ، واما القول بأن الجزاء على العمل فذلك لأن العمــل البشرى هو عنوان الاختيــار ومظهره ودليله والحجة عليه • وحديث الرسول الكريم(اذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل يا رسول الله قد علمنا القــاتل فما بال المقتول ، قال لأنه كان حريصا على قتل صاحبه) هذا الحديث يثبت وقوع الشر ونبوعه من الاختيــار البشرىهو عمل الارادة الانسانية ، وليس عمل الاستطاعة البشرية ، حيث ان المقتول سيدخل النار جزاء على اختيــار قتل أخيه المســلم واصراره على القتــل وان لم تحدثه استطاعته •

ولذلك لا يصح القول ان الاستطاعة البشرية هى المسؤلة عن فعــل الشر او انه يقع منها اصالة • ومن ثم فالله سبحانه خالق الافعــال التى تكتسبها الاستطاعة منزها عما يرتكبه الانسان من شر حيث ان الاستطاعة لا يوصف عملها بالخير او الشر ولنما يوصف بالصــواب او الخطــأ •

فاذا ما حدث الفعــل من الاستطاعة موافقا لما يختــاره الانسان ويريده ، فهو صواب حتى ولو كان ما اراده واختــاره الانسان شرا او قبيحــا او حراما •

واذا ما حدث الفعــل من الاستطاعة ، مخالفا لــما اراده الانسان واختاره ، فهو خطأ حتى ولو كان ما اراده واختــاره شرا او حراما •

أى لنه اذا كان الشـر أو الخـير والقبـح أو الحسن والحـرام أو الحلال صفة لفعل الارادة وحركتها وهو الاختيار • فان الصواب أو الخطأ هو صفة حركة الاستطاعة فى الفعل البشرى •

ونضرب لذلك مثالا برجل يصوب بندقيته الى آخـر ليقتله ظلمـا وعدوانا ، ولكن الرصاصة لا تصيبه • هنـا نجد اختيـارا موصوفا بالشر ، واستطاعة وفلا بشريا موصوفا بالخطـأ ، ولو ان للرصاصة اصابته ووقع القتل ، لكانت حـركة الاستطاعة وفعلهـا موصـوفا بالصواب ، وذلك لان المفروض فى الاستطاعة ان تكون تابعة وخادمة ومنفذه لما تختار الارادة الحرة • وفى هذا المثال يوصف الرجل بالش ويعتبر قاتلا ، ولكن حركة الاستطاعة تعتبر صحيحة ، ونضرب عكس هذا المثال برجل يصوب بندقيته ليقتل وحشا ضاربا يهدد حياة الناس ، فيصيب بها خطأ انسانا آخر يقتـله ، ففى هذا المثال نجد اختيـارا موصوفا بالخير حيث يريد تخليص الناس من أذى الوحش لهم • كما ان فيه ايضا استطاعة موصوفة بالخطأ حيث لم تأت الفعـل كما اراد الفاعل • ورغم حدوث قتل انسان فى هذا المثال فان الفاعل لا يوصف بالقتل ، ولا يعتبر مسؤلا عنه مسئولية خلقية • وهو لا يعاقب عليه كقاتل مختار لفعله • وقد فرق الشرع بين من يقتل خطأ ومن يقتل عن قصد واختيار يقول الله عز وجل (وما كان لمؤمن أن يقتـل مؤمنا الا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطـأ فتحرير رقبة مؤمنة ، ودية مسـلمة الى اهلة الا ان يصدقوا ••• ـ النساء ٩٢) (ومن يقتـل مؤمنا متعمدا فجزاوءه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنـه ، واعد له عذابا عظيما النساء ٩٣) فوقـوع الشر وحدوثه من الارادة المختـارة هو اختيارها الحرام دون الحلال مع معـرفة الانسان حالة لختيـاره انه يختار الحـرام •

ووقوع الخير هو أختيار الأنســـان بارادته الحرة الحـــلال دون الحرام ، مع معرفة الفاعل لحظة اختياره أن ذلك حلال ، وأنه اختاره لان الله أمر به ، ورفض الحرام لان الله نهى عنه •

ومن ثم فان معرفة الله والايمان به واحدا لا شريك له وبرسـلـه وكتبـه واليـوم الاخـر والقدر خيره وشره وما امر به الله واوصى به وحسنه ، وما نهى عنه وقبحه ، نقـول ان معرفة كل ذلك هو دليل الاختيـــار •

اما وقوع الخطأ فهو وقوع الفعل من الاستطاعة على نحو يخالف ما اختارته الارادة • وذلك ناتج عن اغفال الفاعل لعـلة أو لمعلول ، او لوضع علة فى موضع علة أخرى • مما يؤدى الى حدوث فعل آخر غير المطلوب ، وذلك يحدث نتيجة جهل او سهو او نسيان فى طـريقة ترتيب وتنظيم وتجميع العلل والمعلولات بالكيف والكم اللذين يؤديان الى الفعل المطلوب ، لانه اذا كان الفعل هو تجميـع علل ومعلولات بنسق معين بحيث يؤدى فى النهاية الى الفعل المراد ، فان الخطأ هو تجميع هذه العلل والمعلولات بنسق مخالف ، والصواب هو تجميعها بالنسق المناسب والذى يكون نتيجتة حدوث الفعل المطلوب •

ومن ثم فالقتل الخطأ حدث نتيجة خطأ فى الجمع بين علة ومعلول• فبدلا من ان يكون نتيجة التصويب جمع الرصاصة (العلة) بالوحش المطلوب قتله ، جاءت نتيجته جمع الرصاصة (بمعلول آخر) بالمصاب ، فجاء قتله خطأ • لان الفاعل أغفل وجود المعلول الاخر (المقتول) فى اتجاه فوهة بندقيته ، او نقول أخطأ لعدم وضعه العـلة فى موضعها المناسب من نسق العلل والمعلولات فى الفعل •

وبينما يفرق القرآن بين الخطأ والشر ، وبين الصواب والخير على النحو الذى سبق فوضح لنا انه يطلق لفظ « خطيئة » على الفعل القبيح

المختار للعبد • فهو يفرق بذلك بين الخطأ والخطيئة فبينما يعتبر القرآن الكريم الخطأ صفة لفعل الاستطاعة فانه يعتبر الخطيئة صفة للفعل البشرى كله بما فيه اختيار الارادة ، حيث يسمى اصحاب النار خاطئين فى مثل قوله (ان فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين — القصص ٨) ويصف افعالهم الاختيارية بقوله (ومن يكسب خطيئة او اثما ، ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا — النساء ١١٢) • فالخطيئة هى خطأ الانسان فى الاختيار وصواب الاستطاعة فى تنفيذ ما اختاره وذلك هو فعل الشر •

ولقد فصل الرسول عليه الصلاة والسلام بين المعرفة الدينية التى هى دليل الاختيار ومصدر معرفة الخير من الشر والتى يمكن تسميتها بالحكمة ، وبين العلم الدنيوى ، الذى هو دليل الاستطاعة ، وهو ما يعرف به الانسان اثر الاشياء بعضها فى بعض كعلل ومعلولات ، وكيف تتجمع هذه العلل بكيف وكم معينين لتصبح فعلا ما ، ثم كيف تتجمع بكيف وكم آخرين لتصبح فعلا آخر • وذلك هو موضوع العلم التجريبى بشتى مجالاته (العلوم الطبيعية والكيمياء وعلم الحيوان والنبات وغيرها) • ودليل ذلك الفصل ما رواه مسلم فى صحيحه عن ابى موسى بن ابى طلحة عن ابيه ، كما روى عن عائشة وعن ثابت وعن انس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر فى المدينة على قوم يؤبرون النخل فقال (لو لم يفعلوا لصلح له) فامتنع القوم عن تلقيح النخل فى ذاك العام ، ظنا منهم أن ذلك من أمر الوحى ، فلما لم ينتج النخل الى شيصا (اى بلحا غير ملقح وهو مر لا يؤكل) • فلما رآه النبى صلى الله عليه وسلم على هذه الصورة سأل عما حدث له فقالوا: « قلت كذا وكذا قال انتم اعلم بأمر دنياكم » وفى رواية انه صلى الله عليه وسلم قال « ما اظن يغنى ذلك شيئا » ثم قال بعد ذلك « ان كان ينفعهم ذلك فاليصنعوه • فانى انما ظننت ظنا فلا تؤاخذونى بالظن • ولكن اذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به » •

ومن ثم فأمور الدنيا والعلم بهذه الامور ، موكول الى العقل البشرى ، وبهذا الادراك البشرى يلاحظ الأنسان ، ويفرض الفروض ، ويضع النظريات ، ويعمل التجارب التى يحقق بها هذه الفروض والنظريات ليصل فى النهاية الىحقائق الاشياء وعلل الاحداث وتأثيراتها مصاغة فى شكل القوانين الطبيعية والبشرية ٠

وفى هذا الحديث دلالة قوية على ان العلم بالاشياء وعللهما ومعلولاتها موكول للانسان باجهاده وبحثه وتنقيبه ٠ فأصحاب النخل قد عرفوا بالتجربة انه لابد من تلقيحه كل عام ليثمر ، وبذلك عرفوا علة من علل الاثمار فى النخل وعلى ذلك يصبح اثمار النخل من استطاعتهم ، اما نصيحة الرسول لهم او تعليقه على فعلهم فلم يكن عن وحى من الله ، وانما كان اجتهاد شخصى ٠ ولذلك قال لهم « انتم أعلم بأمر دنياكم » ٠ وفى هذه العبارة الصغيرة تفويض كامل من لله ورسوله ان يعتمد اعتمادا كليا على ما اوتى من أجهزة الادراك والعلم البشرية فى بحثه فى مجال العلم بالعلل والمعلولات وماهيات الاشياء ، بل ودعوته الى البحث والتنقيب فى كل ما على الأرض وفيما فوقها فى الافاق من أجرام ، وفيما تحت الثرى كذلك ، والعمل فى سبيل هذا العلم بحرية تامة بعيدا عن تحريمات وتعليمات الدين ٠ وذلك حتى تنمو البشرية لتحقيق خلافة الله فى الارض ٠

ومجال العلم الدنيوى الموكول العقل البشرى ، هو دليل الاستطاعة، وهو ما نعرفه اليوم بالعلوم التجريبية او الطبيعية ، واستخدام هذه العلوم فى مجال تنمية الاستطاعة البشرية وتقويتها وتوسيع امكاناتها هو ما يسمى بالتقنية ٠

أما المعرفة الدينية فليس فيها مجال لعمل الاستطاعة ، ومن ثم فليس للعقل البشرى من دور حيالها سوى التلقى والفهم ، ذلك ان هذه المعرفة خاصة بالاختيار نفسه ٠ والدين برمته سواء العقيدة

النظرية او الشعائر التعبدية او قوانين الاحوال الشخصية او التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والخلقية ، كل ذلك يدخل تحت المعرفة الدينية التى هى هادية للاختيار البشرى • وليس بها مجال للعقل البشرى الا فى حالات جزئية ، لا يوجد فيها نص من كتاب او سنة وبشروط معينة للمجتهدين •

محاولة الكافر يوم القيامة نفى حريته فى الدنيا :

ارسل الله الرسل معلمين البشر الحلال والحرام ، مقدمين لهم العقيدة الصحيحة فى الألوهية والتوحيد التى هى الحق الذى يوافق فطرتهم ، وتطمئن به وله قلوبهم وكذلك الحقائق الغيبية الاخرى التى ترضى فضولهم ، وتسكن بها نفوسهم • ومن ثم يكون لديهم المعرفة الضرورية لصحة الاختيار فلا يستطيع الناس التنصل من مسئولية افعالهم يوم القيامة ، هربا من الجزاء • وسبيلهم فى محاولة التنصل هو ابطال حريتهم فى ارتكاب ما صنعوه من ذنوب واكتسبوه من شرور • فستأتى كل نفس يوم القيامة تجادل عن نفسها فى محاولة لابطال حريتها بنفى احدى دعائم الحرية الانسانية او اثنين منها •

يثبت الله محاولة الظالمين نفى الحرية بابطال الاستطاعة حيث يقول عز وجل (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الارض قالوا : الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ــ النساء ٩٧) •

ويثبت محاولتهم ابطال الحرية محتجين بنفى الاختيار حيث تقول الاية (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا انكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قالوا : بل لم تكونوا مؤمنين وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين ، فحق علينا قول ربنا انا لذائقون ، فأغويناكم انا كنا غاوين ، فانهم يومئذ فى العذاب مشتركون ــ الصافات ٣٣) •

فالاية تثبت ان كل ما فعلوه لاضلالهم هو الغواية فقط ، والغـــواية دعوة للضلال وليست ضغطـا على الارادة ونفيا للاختيـار والايات الاتية ايضا تؤكد هذا المعنى وتثبت فشل محاولة الكافرين بالتنصل من أفعالهم بدعوى نفى الاختيار ابطالا للحرية (وبرزوا لله جميعا فقال الضعفاء للذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ، قالوا لو هدانا الله لهـديناكم سواء علينا أجـزعنا أم صبرنا مالنا من محيص ، وقال الشيطان لما قضى الامر : ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فاخلفتكم وما كان لى عليكم من سـلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا انفسكم ما انا بمصرخكم وما انتم بمصرخى انى كفرت بما اشركتمونى من قبل ان الظالمين لهـم عذاب اليم ـــ ابراهيم ٢١ ـــ ٢٢) • فليس لاحـد من الناس او من الشياطين أى سلطان او قوة تجبر الارادة البشرية على فعـل الشر • ومن ثم فدعوى ابطال الحرية بنفى الاختيار مرفوضة •

وكما يحاول المجادلون عن انفسهم يوم القيامة ان ينفوا حريتهم ، محتجين بعدم الاستطاعة وابطـال الاختيار ، فانهـم يحتجون كذلك بأبطال ونفى المعرفة عنهم ، ويذكرون ان هنـاك من أضلهم عن الحق ولكن الله سـبحانه يدحض حجتهـم حيث يقـول (ويوم يحشرهم ومايعبدون من دون الله فيقول: أأنتم اضللتم عبادى هؤلاء ام همضلوا السبيل قالوا : سبحانك ، ماكان ينبغى لنا ان نتخذ من دونك اولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا ـــ الفرقان ١٧ ـــ ١٨) ويقول ايضا (قال ادخلوا فى امم قـد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار ، كلما دخلت امة لعنت أختها ، حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لاولاهم : ربنا هؤلاء اضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا من النـار قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمـون ، وقالت اولاهم لاخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ـــ الاعراف ٣٧ ـــ ٣٨) • ويقول ابن كثـير فى قوله « قالت اولاهـم

لأخراهم ، ما كان لكم علينا من فضل » (قال السدى فقد ضللتم كما ضللنا فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) وهذه الحال كما اخبر الله تعالى عنهم فى حال محشرهم فى قوله تعالى (ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا: لولا انتم لكنا مؤمنين• قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : نحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم ، بل كنتم مجرمين • وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار ، اذ تأمروننا ان نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وجعلنا الاغلال فى اعناق الذين كفروا ، هل يجزون الا ماكانوا يعملون ؟ سبا ــ ٣١ ــ ٣٣) •

ومن ثم فدعوى ابطال الحرية بنفى العلم او باضلال الناس بعضهم لبعض عن الحق والهدى ، دعوى مرفوضة لان الرسل عليهم السلام قد ارسلوا لهذا الغرض ، ألا هو ابطال هذه الحجة للناس يوم القيامة (انا اوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط وعيسى وايوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما ــ النساء ١٦٣ ــ ١٦٥) فالرسل لم تفتأ تترى الواحد تلو الاخر كل لامته وزمانه ومجتمعه منذ آدم حتى رسول الله محمد خاتم الانبياء والرسل عليه وعليهم الصلاة والسلام • وليس هناك أمة وجدت على الارض ، لم يأتها معلمها من قبل السماء (وان من أمة الا خلا فيها نذير ــ فاطر ٢٤) • كما يقول لاهل الكتاب فى القرآن (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ــ المائدة ١٩) • والمقصود بقوله (ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير) هو الاحتجاج بالجهل فهي حجة مرفوضة

وذلك لان الله قال (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر آخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ـ الاسراء ١٥) ٠

مصير من لم تبلغة الرسالة السماوية :

فان قيل ان الفترة التى تسبق ارسال الرسل يكون فيها الاضلال والشرك والكفر بالله والفساد منتشرا ٠ وتكون الشرائع والاديان السابقة قد بدلت وحرفت ، حتى انها لم تعد تصلح لهداية الناس الى الحق والخير فما هو موقف الناس فى هذه الفترات ؟ وهل لهم ان يحتجوا بالجهل وابطال حريتهم بعدم معرفة الحرام والحلال والدين الصحيح ؟

حقا ان مالديهم من شريعة ودين لا يصلح لهدايتهم بدليل ان الله يرسل اليهم رسولا يعلمهم ويوضح لهم ويبين التوحيد من الشرك ، والحرام من الحلال ٠ فما موقف من مات منهم قبل بعث الرسول لأمته اذا ؟ وما يقال عن اهل هذه الفترة من الزمن يقال ايضا عن اهل المجتمعات البدائية على الارض التى ظلت منعزلة عن البشرية قرونا طويلة من الزمان مثل بعض القبائل فى استراليا او قبائل الهنود الحمر فى امريكا قبل اكتشافها ، وغيرهم ممن تعذر وصول اخبار الرسول والرسالات اليهم ٠ ويلزم للاجابة على هذا ان نعود الى الفطرة المؤمنة المسلمة التى زود الله بها الانسان لتكون له معلما اول وهادية له الى الهه ولله كل شىء ، والميثاق الذى أخذه الله على الانسان قبل خلقه كبشر يمشى على الارض الا يشرك به شيئا كما سبق ذكره (واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم : الست بربكم ؟ قالوا : بلى ، شهدنا ـ الاعراف ١٧٢) ٠ لماذا اخذ الله الميثاق على الناس خلقهم كبشر وما الحكمة ؟ ذلك واضح فى الاية التى تليها حيث تقول (ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا

غافلين او تقولوا انما اشرك اباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، افتهلكنا بما فعل المبطلون ؟) الاعراف ١٥٢ ـ ١٥٣) .

فتزويد الانسان بالفطرة المؤمنة المسلمة فى عالم الذر واشهاد الله الانسان على نفسه بأنه ربه واقرار الانسان بذلك يمنعه يوم القيامة من الاحتجاج بالجهل ، والغفلة من معرفة ربه واحدا لا شريك له ، كما يمنعه من الاحتجاج بالبيئة والتزام عقيدة الاباء والاجداد وغلبة المجتمع وقهر الواقع ، وهؤلاء الذين عاشوا او ماتوا على حين فترة من الرسل ، ولم يكن عندهم دين صحيح ولا شرع الهى غير محرف لا يحاسبهم الله يوم القيامة على صلاة او زكاة او صوم او غير ذلك من تفاصيل الشريعة وانما هو يحاسبهم على شركهم به فقط ، لان التوحيد توجبه عليهم الفطرة وتلزمهم به المعرفة البشرية فمنهؤلاء من يدخل النار ، ومنهم من يدخل الجنة وذلك على اساس التوحيد او الشرك فقط وحتى والد الرسول صلى الله عليه وسلم لم يسلم من عذاب مع موته قبل البعثة (عن انس رضى الله عنه ان رجلا قال يارسول الله اين ابى قال ابوك فى النار فلما مضى قال النبى صلى الله عليه وسلم ان ابى وأباك فى النار ـ رواه ابو داود) هذا بينما نجد ان الجاهلية التى سبقت الرسول عليه الصلاة والسلام شهدت وعددت من هؤلاء الحنفاء الذين التزموا فطرتهم وابوا ان يلوثوها بعقائد الاباء والاجداد والمجتمعات المشركة بالله والمنافية لهذه الفطرة والمعارضة لها ومازالت خطبة قس بن ساعدة المعروفة التى خطبها والرسول عليه الصلاة والسلام فى مقتبل عمره فى سوق عكاظ محفوظة فى الاذهان ومدونة فى كتب التاريخ تلك التى يقول فى نهايتها للعرب (والله ان لله دينا غير دينكم وانكم لتأتون من الامر منكرا) ومن الحنفاء ايضا عمرو بن نفيل عم عمر بن الخطاب .

اما قول الله سبحانه « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » فانه يقتصر على التعذيب على الشرائع والشعائر التعبدية ، حيث يكون

أهل هذه الفترات والمجتمعات من تاريخ ومجتمعات البشرية معذورين لعدم وصول الشريعة والعبادات اليهم ، وهذه الامور لا يستطيع الانسان أن يعرفها بتفاصيلها وتمامها بفطرته •

الجحود وليس عدم المعرفة هو علة الكفر :

فان قيل ان المشركين والكافرين الذين يكذبون الرسل والرسالات ، انما يكذبونهم ويحاربونهم لاعتقاد هؤلاء الكافرين — مخلصين للحقيقة — أنهم — اى الرسل — كاذبون وانهم على ضلال وهم الذين على على حق • قلنا هذا غير جائز لان ما يأتى به الرسل من الهدى ، والحق وتوحيد الله انما هو موافق للفطرة التى فطر الله الناس عليها، هذا من جانب ، ومن جانب آخر نقول ان موقف المكذب من البشر من الرسل ودعوتهم لا يخلو من أمرين :

الأول : ان من يكذب بالرسول ويكفر به وبما جاء به من حق ، يفعل ذلك وهو يعلم ان الرسول صادق ، وان ما جاء به هو الحق • ولكنه يعاند ويكابر • حبا فى الدنيا واختيارا لها •

الثاني : ان يكذبه من يكذبه نتيجة لالتباس الحق عليه وظنه فى الرسول الكذب وفى هذه الحالة فان هذا المكذب بحسن نية سوف يؤمن بمجرد ماتتكشف له الحقيقة ، ولابد ان تنكشف سواء بوضوح الحق لعقولهم وأفهامهم او بالمعجزات ، ومثل هؤلاء عمر بن الخطاب وغيره من كبار الصحابة الذين لم يسلموا من اول وهلة • أما المعاند المكابر فانه يحارب دعوة الحق ، ابقاء وحرصا على مصالح دنيوية او مراكز ادبية او جاه وسلطان او حقد ، وغير ذلك مما يبين لختياره المحض للدنيا دون الاخرة ، وهؤلاء لا ينقصهم العلم وانما هو عناد واصرار على الكفر ، وحرص على الدنيا ، اتباع للهوى وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى لرسوله عن المشركين (قد نعلم أنه ليحزنك الذي

يقولون ، فانهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ــ الانعام ٣٣) ويقول ايضا عن اهل الكتاب (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ــ البقرة ١٤٦) • ويقول ايضا عن الكافر ، الذى بسبب حرصه على شهولته وهواه (أفرأيت من اتخذ الهه هواه ، وأضله وأضله الله على علم ••• ــ الجاثية ٢٣) • ويقول ايضا مثبتا العلم للكافرين من بنى اسرائيل (ولا تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق ، وانتم تعلمون ــ البقرة ٤٢) • ويقول أيضا مثبتا الفطرة العارفة بالله خالق كل شىء لمشركى مكة (ولئن سألتهم : من خلق السماوات والارض ؟ ليقولن : خلقهن العزيز الحكيم ــ الزخرف ٩) واخيرا يقول الله سبحانه وتعالى للناس كافة مخبرا اياهم انهم يعلمون وحدانيته ومقرون بها فى ضمائهم وفطرتهم (يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل الارض فرلشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ــ البقرة ٢١ ــ ٢٢) •

فالمعرفة الانسانية والعلم البشرى حقيقة أصلية ومقوم اساسى ثابت تقوم عليه الحرية كالاختيار والاستطاعة سواء •

بيد ان القرآن الكريم يفصل فصلا تاما بين الحكمة والعلم التجريبى باعتبار الحكمة هى التى ترشد الانسان فى اختياراته حيال تجاربه الابتلائية بينما العلم هو دليل الاستطاعة ووسيلة توسيعها وتقويتها وتنميتها ، وذلك هو ما أثبتته آية الخلافة حيث أخبرنا الله انه علم الانسان الاسماء بادىء ذى بدء • وذلك هو العلم الذى نستطيع نحن كبشر ان نصل اليه بمجهوداتنا ومحاولتنا بالمنهج الصحيح • أما دليل الاختيار الذم أسميناه المعرفة او الحكمة فانها توحى الى الانسان وحيا منزلا من السماء (وأنزل عليك الكتاب

والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ـ النساء ١١٣) • (يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا ـ البقرة ٢٦٩) •

فالحكمة مقرونة بالخير لأنها دليل الاختيار حيث يختار الحكيم دائما الفعل الحسن من الضدين المعروضين لاختياره • ولكن العلم باعتباره دليلا للاستطاعة فهو امكانية مجردة كالاستطاعة يمكن ان تكون نتيجته خيرا او شرا • ومن ثم فالمتحكم الوحيد فى الفعل من حيث الحسن والقبح هو الارادة الانسانية المختارة •

وقد علمت الملائكة ذلك حين وصفت ربها بالعلم والحكمة معا فقالوا « سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم » • ومن ثم يمكن القول ان الله سبحانه قد ورث الانسان الفطرة اللوحدة بالاشهاد وورثه العلم بالاسماء بتعليم آدم لها بعد خلقه ، أما الحكمة فقد شاء سبحانه ان تلحق بالانسان فى وجودة الارضى حينا بعد حين وكتابا بعد كتاب ورسولا بعد رسول حتى خاتم الانبياء والرسل •

الدين والعلم مقوما الحضارة الحقة :

وكنتيجة لكل ما تقدم ، يمكن القول ان احلال الحكمة او الدين محل العلم خطأ يؤدى الى نتائج عكسية • حيث يتعطل العلم ويصل الانسان الى بذلك الى نظريات خاطئة عن العالم ونواميسه ، ولا يستطيع ان يقيم حضارة حقيقية وعلم حقيقى • ومثل ذلك ما فعلته الكنيسة فى عصورها السابقة حيث فرضت على الناس قوالب معينة من التفكير تتنافى مع قواعد البحث العلمى الصحيح القائم على التجربة والملاحظة واعتبرت نظرياتها فى الطبيعة والفلك وغيرها من الامور الاعتقادية التى اوجبت على تابعيها الايمان بها ، والا رمته بالكفر • فتجمد العلم نتيجة لذلك وتوقف تقدم الشعوب المسيحية قرونا طويلة ولم يحدث نمو يذكر فى مجالات العلوم وتطبيقاتها ، وليس ذلك الا لعدم الفصل

بين وسيلة المعرفة التى هى هادية للاختيار ووسيلة العلم الذى هو هادى للاستطاعة ٠

وبالمثل ايضا ما حدث الان فى اوربا كرد فعل لما فعلته الكنيسة فى الماضى ٠ فقد جعلت الحضارة الغربية المعاصرة العلم الذى هو هاد للاستطاعة بمنجهه التجريبى ، هاديا للاختيار البشرى ٠ فأقامت مناهج الحياة الخلقية والاجتماعية والسياسية على اسس التفكير العقلى التجريبى ، فنتج عنها مانعرفه اليوم بالنظم العلمانية ونحيت الحكمة النازلة للبشر من السماء ، عن تنظيم شئون الحياة فصارت اختيارات الناس كأفراد وجماعات قائمة على اجتهاداتهم وعقولهم وتجاربهم ٠ ففسدت الاخلاق ، وشاع بينهم الانحلال الجنسى وسائر الامراض الاجتماعية والنفسية التى يشتكى منها العالم الغربى ٠

ومن ثم يمكن القول ان اكبر ما يميز حضارة الغرب فى عصرنا هذا ، هو انها حضارة تقف على قدم واحدة ٠ فبينما نجدها ناجحة نجاحا مبهرا فى مجالات العلوم المادية والطبيعية وما يقوم على هذه العلوم من التقنية التى تسهل وتيسر التمكين للانسان من تسخير الطبيعة لحياته ، فاننا نجد ايضا فقر هذه الحضارة فى مجال المعرفة التى تهدى الانسان الى الأختيار الصحيح للخير ، وذلك لانهم جعلوا العلم هو الهادى للاختيار وغفلوا تماما وأغفلوا المعرفة والحكمة الالهية ٠ ومن ثم فهى حضارة ترى بعين واحدة او هى ذات جناح واحد يرفرف قويا عاليا بينما الجناح الاخر مصاب بالشلل والضمور ٠

الفصل السابع

القضاء والقدر

معنى القـــدر :

وما دمنا فى مجال العلم ، يلزم ان نذكر العلاقة بين الفعل البشرى الحر وبين علم الله السابق ، وتقديره لكل شىء قبل وجوده خلقا وفعلا .

أما عن العلم الالهى السابق بالاشياء والاحياء والاحداث والافعال فى الكون ، فان ذلك من أخص خصائص ألوهيته تعالى ، ولا نزاع فى ذلك ولا تعارض او تنافى بين اثبات أسبقية العلم الالهى بكل شىء ، وبين حرية الانســان . ولم يكن ذلك مدعاة لشــبهة جبر عند أى من المفكرين ، بيــد ان الذى أدى الى الشبــهة ، واحدث الالتباس هو القضاء والقدر والقضاء بمعنى ارادة الله النافذة فى الخلق وللفعل فى زمان ومكان وبكيف وبكم محددين ، حسب ما شاء الله عز وجل ، وما سبق فى علمه تعالى ، مع تسجيل ذلك فى صحائف ومسجلات ســماوية ، مع عدم تخلف شىء مما هو مدون عن الحدوث فى وقته والمطـابقة التامة الدقيقة لما يحدث على الارض وفى العالم بماهو مدون فى هذه الصحائف .

هذا المعنى للقضاء والقدر الالهى هو الذى ادى ببعض المفكرين من المسلمين الى الظن ان ذلك يستلزم كون الانسان مجبرا على جميـــع افعاله حتى المحاسب عليها ، وعلى ذلك تنتفى العدالة الالهية . ممـــا

الجا للبعض الأخر أثباتا للعدالة الالهية ــ وعلاجا لهذا الأنحراف فى الفهم العقدى ، الى انكاره تماما • وقالوا : « لا قــدر والامر أنف » وذلك محاولة منهم لانقاذ الحرية الانسانية على اعتبار أنهم فهموا أن القدر ، بهذا المعنى يؤدى الى الغــاء الحرية ، ونفى الاختيار • ولو رجع للفريقان ــ مثبتو القدر ونافوه ــ الى القرآن والسنة باحثــين فيهما بالمنهج الصحيح ، لوجدوا ان الاسلام يثبت قضاء الله وقدره ، وسيطرة الله مع علمه السابق على كل شىء ، خلقا وتدبيرا وتنظيما ، مع اثباته حرية الأنسان ، ومسئوليته التــامة عن أفعاله الاختيــارية واستحقاقه للثواب ، وكذلك طلاقة العدل الالهى فى توازن وتناســق واحكام معجــز •

فمعنى القدر فى للقرآن الكريم والسنة ، هو تقدير كل شىء تقديرا مسبقا على خلقــه وحدوثه أى تحديده ماهيــة وخاصية وصفة كمــا وكيفا ، زمانا ومكانا كذلك •

فدليل تقدير الخلق قوله (ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شىء فقدره تقديرا ــ الفرقان ٢١) • ودليل تقدير الكم والكيف للمخلوق قوله (كل شىء عنده بمقدار ــ الرعد ٨) وقــوله (وان من شىء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم ــ الحجر ٢١) • وكذلك قوله تعالى (وأنزلنا من السماء ماء بقدر فاسكناه فىالارض ــ المؤمنون ١٨) وهذه الايات تفيد تحديد المكان والزمان والكيف والكم لكل كائن •

ودليل تقدير الماهية والخاصية للمخلوق قوله (انا كل شىء خلقناه بقدر ــ القمر ٤٩) • وقوله تعالى (وزينا السماء الدنيــا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ــ فصلت ١٢) ودليل تقديره سبحانه للمخــلوقات زمانا وأجــلا قوله (ولكل أمة أجــل فاذا جاء أجلهــم لا يستاخرون ســاعة ولا يســتقدمون ــ الاعراف ٣٤) • وقــوله (والشمس تجرى لمستقر لها ، ذلك تقدير للعزيز العليم ــ يس ٣٨)•

فالقدر اذا هو تحديد ماهيات وخاصيات وأعراض الخلائق وأفعالها ، مع تحديد حدوث الخلائق زمانا ومكانا ، وكيفية أفعالها فى زمان ومكان محددين كذلك • كل ذلك محدد ومدون قبل الحدوث •

معنى الامر :

كما ورد فى القرآن أيضا مفهوم للقدر بمرادف آخر هو « الامر » وقد ورد هذا اللفظ باكثر من معنى

الاول — بمعنى الشأن وذلك مثل قوله (وأمرهم شورى بينهم — الشورى ٣٨) • وقوله (فذاقت وبال أمرها — الطلاق ٩) •

الثانى — هو الامر التخييرى الابتلائى وهو فى القرآن موجه من الله سبحانه الى البشر • وهذه الاوامر هى الشرع والدين ، حيث ان الدين هو مجموعة اوامر ونواهى • ومنه قوله تعالى (قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد — الاعراف ٢٩) • ومنه أمره تعالى لابليس بالسجود (ما منعك ان تسجد اذ أمرتك — هود ٩٧) ومن ثم فالامر بهذا المعنى هو توجيه وارشاد ونصيحة من الله سبحانه للمامور بفعل معين او بنهى معين ، مع كون المامور فى حالة يستطيع معها القيام بتنفيذ الفعل أو الترك بلا موانع لحدوث ما يختاره حياله • وهذا واضح من السؤال الاستنكارى لفعل ابليس ازاء أمر الله بالسجود لادم حيث قال له الله (مامنعك أن تسجد اذ أمرتك ؟) أى أنه لا شىء سوى ارادتك منعتك وأنت قادر على الفعل كما أنك استطعت الترك • وبهذا المعنى للامر قال الله (الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) فليس هذا الامر بمعنى القضاء او القدر ، وانما هو الامر التخييرى الابتلائى أى الدين ودليل كون هذا الامر بمعنى للدين قوله تعالى (فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد — هود ٩٧) • أى فاتبعوا دين فرعون وتركوا دين الله •

الثالث ــ و الامر الكونى ، ويعبر عنه القرآن بكلمة « كن » الالهية للشيء فيكون ، ودليله (واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ــ البقرة ١١٧) وذلك بايجاد وخلق الشيء ، وهو خاص أيضا بكيفية الخلق ونواميس المخلوقات ٠ وبه يتم العمل والفعل والتاثير للشيء أو للانسان بمقتضى الخلق والطبع والجبلة ٠ ودليل ذلك قوله (وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بامره ، وسخر لكم الانهار ــ ابراهيم ٣٢) وقوله (قال ربنا الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ــ طه ٥٠) ٠ وقوله عن الانسان وأفعاله التى يفعلها بمقتضى الخلق والماهية (فاذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم الله ــ البقرة ١٢٢) ٠ فهذه الاية تتضمن أمرين : الاول ، بالمعنى التخييرى الابتلائى أى أنه من أوامر الشرع وهو قوله « فاتوهن » ووسيلة تبليغه الى البشر الوحى ٠ والثانى ، هو ما تثبته الاية متمثلا فى قوله « من حيث أمركم الله » والمقصود به بمقتضى الخلق والفطرة البشرية التى تهدى الانسان الى كيفية ممارسة غريزته الجنسية ٠

ولقد اجتمع أمر الخلق وأمر الفطرة فى قوله تعالى (الاله الخلق والامر تبارك الله رب العالمين ــ الاعراف ٥٤) ٠ فالامر هنا هو أمر التدبير وادارة شئون الخلائق ، وترتيب وتنظيم الاحداث ، وذلك هو الامر الكونى الذى يتم به ما يريده الله حتما ، وذلك مثل قوله (وكان أمر الله مفعولا ــ النساء ٤٧) ٠ وذلك الامر واجب الحدوث ، ومستحيل عدم حدوثه بدليل قوله (قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم ــ هود ٤٣) ٠ وقوله أيضا (انه قد جاء أمر ربك وانهم آتيهم عذاب غير مردود ــ هود ٧٦) ٠ هذا عن نفاذ الامر الكونى فى الاحداث والافعال ، ودليل نفاذه فى الخلق سواء أكان نافذا بالسنن الكونية أم بخلافها قوله تعالى (قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ــ مريم ٢١) ٠

وخلق الخلائق ووقوع الاحداث بالامر الكونى لا يتم أنفا ، وانما يتم بقدر سابق وجميعه معلوم لله أزلا : كبيره وصغيره ، سابقه ولاحقه ، سواء فى مجال الاشياء والانسان أو فى مجال الطباع والأحداث ، ومع العلم الالهى يوجد التدبير الالهى لخلق الخلائق وترتيبها وتنظيمها مع ترتيب وتنظيم وتدبير الاحداث والافعال بينها زمانا ومكانا وكيفا وكما • ودليل قوله تعالى (ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ثم أستوى على العرش يدبر الامر ما من شفيع الا من بعد اذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ؟ يونس ٣) • وقوله أيضا (يدبر الامر من السماء الى الارض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ـ السجدة ٥) وقوله كذلك (الله الذى خلق سبع سماوات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا أن الله على كل شىء قدير ، وان الله قد أحاط بكل شىء علما ـ الطلاق ١٢) • وهذا المفهوم للامر مرادف لمفهوم التقدير والقدر •

معنى القضاء :

ثم ننتقل بعد ذلك الى النظر فى استعمالات لفظ « القضاء » فى القرآن الكريم ، حيث نجد أنه ورد باكثر من معنى واستعمال •

الاول : بمعنى الحكم والقضاء بين المتخاصمين والمتنازعين وذلك مثل قوله (ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ـ النساء ٦٥) •

والثانى ـ بمعنى الامر التشريعى التكليفى مثل قوله (وقضى ربك الا تعبدوا الا أياه وبالوالدين احسانا ـ الاسراء ٢٣) •

الثالث ـ بمعنى الاخبار والاعلام مثل (وقضينا اليه ذلك الامر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ـ الحجر ٦٦) • وقوله أيضا

(وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ــ الاسراء ٤) • يعنى أخبرناهم فى التوراة بذلك •

الرابع ــ بمعنى أنهى وأتم وأنجز ودليلة قــوله (ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا ــ النساء ٤٢) • وقوله أيضا (فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ــ الأحزاب ١٣) • وقوله كذلك (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض ــ الجمعة ١٠) •

الخامس ــ وهو الذى يهمنا حيث أنه خاص بمشكلة القضاء والقدر ، وهو بمعنى الامر الكونى النافذ ، والقــدر الحتمى الذى لا يرد له ، ودليله قوله (واذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون ــ البقرة ١١٧) أى اذا قدر أمرا وارادة فانه لابد أن ينفذ بمجرد قوله تعالى له « كن » ويأتى كذلك بمعنى حدد كقوله (هو الذى خلقكم من طــين ، ثم قضى أجلا ــ الانعام ٢) أى قدر وحدد زمنا ، فهو قضاء حتمى أيضــا وما يفيد الحتم فى هذا المفهوم للقضاء قوله (ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا ــ مريم ٢١) • أى قدرا مقدورا وخلقا مرادا له سبحانه وفعلا نافذا لا مرد له •

ومن ثم يكون القدر هو التقدير والتعبير السابق للخلائق والافعال والاحداث الجبرية منها والاختيارية فى الوجــود الكونى والانسانى ، أو فى العالمين : الجبرى والابتــلائى • ويتفق معه أيضــا معنى الامر الكونى ، وهو المعنى الخامس للقضــاء حيث يكون تحــديد كل منهــا بالارادة الالهية الكونية سواء القــدر أو الأمر الكونى أو القضــاء • ويمكن تعريف هذا المفهــوم بانه « حدوث الشىء أو الفعل بماهيتــه وخاصته وكيفه وكمه فى الزمان والمكان حسب ارادة الله عز وجل » •

الارادة والامــر :

وينبغى علينا أن نذكر تفصيلا آيات الارادة الالهية وآيات الامــر

الالهى ، حتى يمكن أن نفهم معنى الارادة ومعنى الامر ، بما لهما من أهمية خاصة تتعلق بمشكلة القضاء والقدر •

اما موضوع الارادة والامر اجمالا ، فهو العالم والكون المخلوق • (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين ، وتجعلون له اندادا، ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها اقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين • ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او وكرها ، قالتا أتينا طائعين• فقضاهن سبع سماوات فى يومين ، وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ـ فصلت ٩ــ١٢) فهذه الايات الجامعة الشاملة والمفصلة لخلق السماولت والارض تتضمن الامر الالهى الكونى معبرة عنه بقوله تعالى (وقدر فيها اقولتها) ثم أمرا آخر للسماء والارض حيث يقول « وأوحى فى كل سماء أمرها » ثم ذكر لنا أمر السماء الدنيا وحدده بان جعلها بنجومها زينةو حفظا من الشياطين ، وعقب بقوله ان ذلك كله من تقدير الله سبحانه • ومن ثم فهى تفرق بين نوعين من الامر او بتعبير أدق بين فعلين للقدرة الالهية وللمشيئة الالهية النافذة •

الاول ــ الامر الالهى الكونى الذى يتم به الخلق بايجاد الشىء من عدمه •

الثانى ــ الامر الالهى الكونى بتحويل وتنظيم وترتيب وتقدير اشياء موجودة ، وسبق خلقها • لكى تصبح بماهيات وخصائص جديدة • وهذا واضح من قوله تعالى « وقدر فيها اقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين » فكان تهيئة الارض ، وجعلها صالحة للاعاشة والحياة ، او خلق أشياء من أشياء ، هو الذى عبر عنه الله بالتقدير ومن هذا الامر أيضا اعطاء كل شىء خلقه وهو متمثل فى قوله « وأوحى فى كل سماء أمرها » أي ماهيتها ووظيفتها وقواميسها الذى ستسير عليه

تحقيقا لحقيقتها ووظيفتها • ويدل على ذلك ما حدده الله لنا فى وظيفة السماء الدنيا بانها زينة وحفظا من الشياطين • وهذا الامر الذى يتبدى لنا فى السنن والنواميس الكونية تخضع له كل الكائنات ، ويسير به كل محدث فى الكون ،وذلك مثل قوله تعالى (وأوحى ربـك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيـوتا ومن الشجر ومما يعرشـون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا ، يخـرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شـفاء للناس • ان فى ذلك لاية لقـوم يتفكرون ــ النحل ٦٨ ــ ٦٩) • ويفسر ذلك قول موسى لفرعون (قال ربنا الذى اعطى كل شىء خلقه ثم هدى ــ طه ٥٠) • فالامر بهـذا المعنى هو مظهـر الارادة الالهية الكونية الذى يتجلى ويتبدى لنا فى السنن والنواميس وطبـائع الاشـياء •

فالخلق هو الايجاد من عدم بالارادة الكـونية ، والامر الالهى هو تجلى المشيئة الالهية واستمرار وجود هذا الشىء بعد ذلك الى أجـل من تقدير الله سبحانه بماهيـة مقدرة منه أيضا • ومن ثم فـرق الله سبحانه وتعـالى بين الخلق والامر فقـال (ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره ، الا له الخلق والامر تبارك الله رب العـالمين) • فبين الله سـبحانه ، لنه بالخلق اوجد السماوات والارض والانسان ثم بين ان هذه المخلوقات وافعالها انما تسير بامره الذى يبدو لنا فى صورة النواميس والسنن • ثم ذكر الاثنين وارجعهما له وحده سبحانه بقوله «الا له الخلق والامر» اى ان الخلق هو الايجـاد فى الزمان من عدم ، والامر هو ما به يدبر الله سبحانه وتعالى امور المخلوقات بما يفيد استمرار وجودها (ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبـر الامر ما من شـفيع الا من بعـد اذنه ، ذلكـم الله ربكم فاعبدوه افلا تذكرون ــ يونس ٣) •

وذلك لان استمرار حياة الانسان كفرد - مثلا - انما يتم بالامر الكونى وذلك حيث يقول تعالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله - الرعد ١١) . اى ان الحفظة من الملائكة الذين يحافظون على حياته ، انما هم من أمره الكونى ، ويوضح ذلك قوله فى موضع آخر مبينا ان الانسان خلق من ماء مهين وانه ضعيف المادة والتركيب ، ولذا اقتضى استمرار وجوده على الارض مايحافظ عليه بامر الله (ان كل نفس لما عليها حافظ ، فلينظر الانسان مم خلق؟ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب انه على رجعه لقادر - الطارق ٤ - ٨) .

فالتدبير لشئون الخلائق جميعا من خصائص الوهيته وربوبيته سبحانه وتعالى التى ينفرد بها وحده وهو أيضا مظهر الارادة الالهية او الأمر الالهى الذى يتبدى لنا فى صورة الاحداث المتغيرة على الارض بين الناس بعضهم ببعض وبينهم وبين بقية الكائنات . وهو سبحانه وتعالى يوضح لنا فى آية أخرى الحكمة والهدف الذى يرمى اليه ذلك التدبير المحكم المنزل من السماء الى الارض (وهو الذى خلق السماوات والارض فى ستة ايام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا ولئن قلت انكم لمبعثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا ان هذا الا سحر مبين - هود ٧) . فالتدبير المحكم بين الخلائق انما هو للابتلاء .

وحيث انه قد مر القول بان الكائنات كلها ما عدا الانسان والجان غير احرار ولا مختارين فان الواضح الجلى بالنسبة لها أن ارادة الله ومشيئته هى أمره . فما يريده الله منها وما يأمرها به وما يقضى عليها وما يقدره لها نافذ لا محالة .

أما حيال الانسان الكائن المبتلى الذى يملك الاختيار والحرية ، فان الامر يبدو غامضا وفى حاجة الى نظرة متانية فيما ثار حول هذا الموضوع ، أعني موضوع الامر والارادة من جدل ونقاش طويل .

معنى الارادة الالهية فى القرآن الكريم

فاذا استعرضنا استعمال القرآن الكريم للفظ الارادة منسوبة له سبحانه وجدنا أن لها فى الآيات استعمالين :

الأول — بمعنى الارادة الكونية أى التى تقابل الأمر الكونى والقضاء والقدر فهى الارادة التى يتم بها الأمر الكونى والقضاء والقدر ، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى (انما أمره اذا اراد شيئا أن يقول له كن فيكون — يس/٨٢)• وهذه ارادة الخلق التى بها يوجد الله الشىء بعد أذ كان عدما • ومثلها قوله (ان أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته — الزمر/٣٨) •

نستنتج كذلك أن الافعال والاقدار التى تصيب العباد وتحدث فى الكون فتسببلهم الآلام أو غيرها انما هى بارادة الله وحده وهى نافذة لا مرد لها مادام الله أرادها فهى اذا ارادة كونية نافذة والمراد لها جبر مطلق على العباد• ومن ذلك قوله (قل فمن يملك من الله شيئا آن اراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن فى الارض جميعا — المائدة /١٧) • فالمراد لله سبحانه وتعالى اما ايجاد من عدم أى خلق واما قضاء أى تغيير واحداث بمخلوقات موجودة من قبل مثل قوله (واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له — الرعد —١١)• ومراد الله اذا هو قدره حيث يقول (فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما — الكهف/ ٨٢) • فرتب سبحانه لذلك ودبر وقدر ما يحفظ لهما كنزهما حتى يصيرا قادرين على استخراجه فالمراد لله سبحانه وتعالى بهذا المعنى هو مراد كونى وهو خلق أو قضاء أو قدر بالمعنى الكونى لها جميعا فهو «فعال لما يريد» •

والخلق الالهى يتم بمشيئته وارادته اما بكلمة كن الالهية كخلق السماوات والارض والاشياء فى البدء وكخلق آدم والملائكة وخلق عيسى

وكاحداث المعجزات التى حدثت على أيدى الأنبياء والتى لا تكون حسب ما يلمسه الانسان العادى من السنن والنواميس الكونية ، وأما يتم حسب النواميس والسنن الكونية بعلل طبيعية حسية ملموسة وعلل غيبية أخرى «سيأتى عنها الحديث بعد » •

وكما يتم خلق الاشياء فى الزمان حسب نواميس مخلوقة منذ البدء • فان الافعال والاقدار والقضاء الالهى يتم فى حياة الانسان فردا كان أو جماعة أو أمة أيضا حسب ناموس وسنة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول ، وهذه الافعال أيضا مرادة لله • أى أن الله سبحانه وتعالى يريد أمورا وأحداثا بالعباد والمخلوقات على مر الزمان تتم حسب سنته وناموسه وفى ارادة الله فيمايحدث للعباد من أقدار يقول (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ــ الاسراء/١٥) • أى هذه سنته سبحانه فى اهلاك أهل قرية • وكذلك قوله (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ــ القصص /٥) • وكذلك قوله سبحانه (ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر انهم لن يضروا الله شيئا يريد الله الا يجعل لهم حظا فى الآخرة ولهم عذاب عظيم ــ العمران /١٧٦)• وكذلك قوله (فان تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ــ المائدة /٤٩)• وهكذا تبين هذه الآيات أن ارادة الله سبحانه وتعالى هى سنته فى معاملة عباده فمن سنته وناموسه بين خلقة أن يمن على الذين استضعفوا وكذلك أن يضل ويحرم ويدمر من يكفر به ويختار الدنيا على الآخرة فهذه الآياتاذا تتحدث عن الارادة الالهية النافذة المتبدية فى السنن والنواميس المرادة لله بمشيئته من قبل •

أما المعنى الثانى للارادة بحسب استعمال الآيات القرآنية له فهو

يقابل الأمر الأبتلائى التخييرى التشريعى أو بتعبير أدق فهو ما به يكون الأمر أو القضاء التخييرى الابتلائى للانسان مرادا له ،ومنه قولة (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الارض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخـرة والله عزيز حكيم ــ الانفال/٦٧) • أى أن اللـه سبحانه وتعالى بتشريعه وأوامره ودينه التخييرى الابتلائى لهم يريد لهم الآخرة وهذا المراد من الله للمؤمنين لا يمكن أن يكون مرادا كونيا نافذا بمعنى المراد الاول، والا لكان ما أراد اللـه وما شاء ، ولما وقع المؤمنون فيما وقعوا فيه من خطأ ، وانما ذلك يعنى أن اللـه أراد أن يفعل المؤمنون كذا ولكنهم فعلوا خلاف ذلك،أى أنه أمر أن يفعل المؤمنون كذا ولكنهم لم يفعلوا• فهى ارادة الهية تخييرية ابتلائية تكليفية والتى يكون المراد لها هو الأمر التشريعى من اللـه للعباد وليس الأمر الكونى النافذ ويؤكد ذلك قوله (••• فمن شهد منكم الشهـر فليصمه ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد اللـه بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ــ البقرة / ١٨٥) • فهو يريد بنا اليسر بتشريعه الافطار فى السفر والمرض، فهى اذا ارادة تشريعية وفيها قوله سبحانه وتعالى أيضا (ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، واللـه أعلم بايمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن وآتوهن أجـورهن بالمعـروف محصنات غـير مسافحات ولا متخذات أخدان فاذا أحصن فان أتين بفاحشـة فعليهن نصف ما على المحصنات من العـذاب ،ذلك لمن خشى العنت منكم وان تصبروا خير لكم والله غفور رحيم ، يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتـوب عليكم واللـه عليم حكيم ، واللـه يريد أن يتوب عليكم ويريـد الذين يتبعون الشهـوات أن تميلوا ميلا عظيما ، يريد اللـه أن يخـفف عنكـم وخلق الانسـان ضعيفا ــ ٢٥ / ٢٨

سورة النساء). فالله سبحانه بعد أن شرع لنا فى نكاح المحصنات ونكاح ما ملكت أيماننا يتبع هذا التشريع بنسبته اليه تعالى ويبين انه أرادة لنا حيث يقول «يريد الله ليبين لكم» فهى اذاً أرادة تشريعية . ويؤكد ذلك قوله تعالى(والله يريد أن يتوب عليكم) فمما لا شك فيه أن هذه ليست أرادة كونية نافذة عليهم بالتوبة لأن التوبة والايمان بالله انما هو فعل اختيارى يحاسب عليه المرء ، ولكن ذلك يعنى أن الله بدينه وتشريعه يريد للعبد بارادة تشريعية ابتلائية أن يتوب عليه لأنه يردف ذلك بقوله (يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ــ النساء/٢٨)فالتخفيف هنا هو تخفيف التكليف والتشريع حتى يكون فى طاقة الانسان الضعيف وهذا هو المراد لله بارادة تكليفية . ومثل ذلك قوله سبحانه لنساء النبى آمرا أمرا تشريعيا ابتلائيا بارادة تشريعية ابتلائية كذلك (وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ــ الاحزاب /٣٣) فقوله «انما يريد الله» أى بهذا التشريع وهذه الاوامر الالهية التخييرية ، فهى أرادة تشريعية تكليفية تخييرية لابتلاء الانسان . وليست ارادة كونية نافذة .

المشكلة هنا أو ما يبدو أمام العقل البشرى أنه مشكلة هو كيف يريد الله سبحانه وتعالى شيئا ولا يحدث ؟ فاذا أراد الله بنا اليسر ، فلم لا يحدث لنا ذلك ؟ أو كيف يأمر الله سبحانه وتعالى الانسان بأوامر ويتحقق بعضها دون البعض مثل (قل أمر ربى بالقسط) أو كيف يقضى الله على الانسان بفعل ما ثم لا يفعله ، مثل «وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » ؟ .

أنه بدون التفريق بين الأمر الكونى والأمر الابتلائى وبين القضاء الكونى والقضاء الابتلائى وبين الارادة الالهية الكونية والارادة

الابتلائية سيكون الأمر غامضا متناقضا وبالتفريق بينهما جميعا سيكون الامر واضحا جليا • أن الامر والقضاء والارادة الالهية الكونية النافذة تعمل فى الجانب الجبرى من الانس والجن وبقية المخلوقات فى الكون • أما الجانب الاختيارى فى الانس والجن فان الارادة والقضاء والأمر الالهى الابتلائى موجه اليه أى الى الارادة والاختيار الانسانى الحر •

الارادة الالهيــة واحــدة :

ولايعنى هذا أن هناك من يفعل أو أن هناك ما يحدث فى الكون بدون أمر الله أو بخلاف ما يريد ••• فان فعل الانسان المخالف لأمر اللـه الابتلائى التخييرى موافق لأمره الكونى الذى هـو قضاء اللـه وأمره بجعل الانسان حرا يفعل ما يختار لابتلائه التخييرى•••وهذا أمر كونى عام شامل سابق على الأمر الابتلائى فى الزمان• وكذلك لايعنى ذلك أن الأمر الالهى متعدد ومتنوع أو أن الارادة الالهية متعددة ومتنوعة وكذلك القضاء الالهى ••• لا ••• فالحقيقة التى يمكن استخلاصها من آيـات القرآن الكريم أن الارادة والأمر والقضاء الالهى صفة من واحدة للـه سبحانه وتعالى ، أو أن الأمر والقضاء والقدر وأنما هى أفعال الارادة الالهية الواحدة ، فى أرادة بالنسبة لذاته سبحانــه وقضاء بالنسبـة لنفاذها فى الكون والانســان ، وأمر بالنسبة لاستمرار نفاذ المشيئـة والأرادة المتبدية فى السنن والنواميس الكونية والبشــرية •

وكذلك فان الارادة أو الاوامر أو القضاء الالهى النافذ هو الارادة أو الامر أو القضاء الالهى الموجه للجانب الاختيارى فى حياة الانسان أو الموجه للارادة الانسانية المختارة ، وليس هذا تناقضا بين ما سبق قوله عن التفريق بين الامرين والقضائين والأرادتين فالارادة واحدة كصفه الله سبحانه وتعالى ، ولكنها اذا صدرت للمخلوقات ، بكلمة كن ، أو بأى

أمر تشريعى أو بقضـــاء معين ، فأنها تصبح ابتلائية تخييريـــة للانس والجن وكونية لغيرهما من المخلوقات التى لم تخلق للابتلاء •

فالأمر يصدر من الله أمرا واحدا الى السماوات والارض والانسان والملائكة ، فيكون هذا الأمر كونيا نافذا للسماوات والارض والملائكـــة ابتلائيا للانسان والجان، فالامر الالهى واحد ولكنه كونى لكائن وابتلائى لآخر ، ومثال ذلك قولـــه تعالى للملائكة «اسجـــدوا لآدم فسجدوا الا ابليس» فالأمر أو القضاء أو الارادة الالهية واحدة ولكنها بالنسبـــة للملائكة كونية حيث لا يعصون اللـــه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمـــرون ، وبالنسبة لابليس الذى كان من الجان ، وهو حر مبتلى أمـــرا ابتلائيا • من ثم فان ابليس عندما فسق عنأمر ربه، لم يخرج عن أمر ربهالكونى وانما خرج وعصى الامر الابتلائى بالسجود ، وهو بفعله هذا ، لم يفعل أمرا خارجا عن ارادة الله الكونية وانما هو متمشى مع ارادته الكونية ، حيث قد أراد اللـــه ما أمر ، وأعطى ابليس الحرية التى تمكنه أن يفعل ما يختار ••• ، فالله سبحانه وتعالى أراد بارادة نافذة وقضى قضـــاء وأمر أمراً كونيا سابقا على الاوامـــر الابتلائية فى الزمـــان ، أنيكون الانسان حرا ، وكذلك الجان وأن يفعل الانس والجن ما يختارانه ، حتى ولو كان معارضا وخارجا عن الأمر الابتلائى، وكل ذلك لحكمة الابتلاء ، والتى هى الحكمة والغاية القصوى من خلق الكون والانسان• فاذا فعل ابليس والجن ما هو مخالف لامر الله الابتلائى ، واذا ارتكب الانسان أى فعل مخالف لأوامر الله ونواهيه التشريعية ، فانهما بذلك يمارسان الحرية ويختاران ما ينبع من ارادة كل منهما وينفذانه بأمر الله الكونى الاول الذى أصبحا به مختارين • ويصبح معنى القدر الالهى بالنســـبة لابليس قدرا من ابليس لعصيانه ، أو قدراً من الانسان العاصى أى أن

الله سبحانه وتعالى قدر منهما المعصية ... فمكنهما منها بالامر الكونى الذى به أصبحا أحـــرارا .

الاختيار الانسانى والارادة الالهية :

ومن ثم يكون معنى الاختيار بالنســـبة للانس والجن فى ضـــوء هذا المفهوم للارادة الالهية أنه عودة اختيارية من المختار سواء كان انســـا أو جنا الى أمر اللـــه الكونى الذى تسير به كل الكائنات المخلوقة لـــه تعالى . فالانسان الذى يتعامل مع أوامر الله الصادرة بالوحى ونواهيه وتشريعه ونظمه على أنها أوامر ونـــواه وتشريعات اختيارية يأخذ منها ما يشاء ويترك ما يشاء حسب هـــواه وحسب تفكيره ونزواته ، هـــذا الانسان سواء كان فردا أو جماعة أو أمة، لم يدخل فى عداد للكائنات العابدة القانتة لله ولم يندرج فى صفوفها ومازال هو بمعاملته للتشريع الالهى على ذلك النحو عاصيا كافرا مريدا للدنيا راغبا عن الآخرة .

أما من يختار الآخرة وعزم عليها وباع لذلك الدنيا ورغب عنها ، فان تعامله مع أوامر الله التشريعية ونواهيه تختلف عن التعامل الأول ، اذ أن هذا المؤمن بالله واليوم الآخر الراغب فى الآخرة ليس أمامه طريق للحصول على ما يريد وما يختار الا أن يتعامل مع التشريع الالهى كله على أنه أمر تكوينى اجبارى وليس أمرا تخييريا بل تصبح هذه الأوامر بالنسبة له كالأوامر التكوينية بالنسبة لباقى المخلوقات ، وذلك قـــدر الطاقة والاستطاعة ، وبقدر ما أوتى من تقـــوى ، وما ترقى فيـــه من درجات الكمال البشرى فالقضاء التشريعى ليس تخييريا بالنسبة للمؤمن أو المؤمنة كما هو كذلك بالنسبة لغيرهما (ماكان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ــ الاحزاب/٣٦) . وهذا هو ما يفترق به المجتمع المؤمن عن غيره من المجتمعات على وجه

الأرض ، حيث نجد أن التشريع الالهى فى المجتمع الاول كأنه سنة من السنن الطبيعية والفلكية لا تملك الطبيعة أو الكائنات الفلكية أن تحيد عنها قيد شعره كما لايملك المجتمع المؤمنأن يحيد عن شرع الله ، لأن الامر الالهى التشريعي بالنسبة اليه كالأمر الكونى ســواء • فتحقيق العبودية الحقة لله سبحانه تعالى مرتبط بهذا المفهوم ، وهذا التعامل مع التشريع الالهى ولا يمكن أن تحقق هذه العبودية لكائن مامنالكائنات المختارة الا أذا كان قضاء الله ورسوله التشريعى قضاء مبرما لازمـــا حاتما كالكونى ســـواء•

ونقصد بالعبودية هنا العبودية الاختيارية التى يدخل فيها الانسان باختياره فيستحق عليها الجزاء بخلاف العبودية الجبرية التى تندرج فيها كل المخلوقات التى رفضت الأمانـــة كما يندرج الانســـان والجان بجانبيهما الجبريين فى حياتهما كذلك • فالكل عبيد لله عبودية جبرية لاثواب عليها ولا عقاب ، حيث أنه لا تقصير فيها لحصولها فى جمـــيع الكائنـــات بمقتضى الخلقـــة • • ولذلك فان نماذج الكفـــار كابليس وفرعون وهامان وغيرهم انما هم أيضا عبيد لله من هذا الجانب ، وليس لهم على ذلك ثـــواب •

أما تحقيق العبودية الاختياريـــة فان القـــرآن يسميها اســـلاما ، فالاسلام هو أن يسلم المخلوق الحر حريته وارادته واختياره لله سبحانه وتعالى ، وهذا يكون بالتعامل مع القضاء التشـــريعى كأنه قضاء كونى ، ولذلك كان ذلك هو دليل الايمان وشرطه حين قـــال سبحانه لنبيه عليـــه السلام(بلى وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يكون فى أنفسهم حرجـــا مما قضيت ويسلمـــوا تسليما ــ النســـاء /٦٥) • فالتسليم هنا لحكم الرسول ، وهو حكم اللـــه ، ذلك لأنهم فى افرادهم

الرسول كحكم بينهم ، ثم فى التسليم بحكمه ، باعتباره مبلغا لهذا الحكم عن ربه حتى ولو جاء هذا الحكم على غير ماتهوى أنفسهم ـ نقول اذا فعلوا ذلك كان كله هذا دليلا على أنهم يتلقون الأمر أو الحكم أو القضاء التشريعي على أنه قضاء كونى لا خيرة لأنفسهم فيه •

أما الذين يرفضون آيات الله وتشريعه ويقفون منها موقف المختار الذى يبقى لنفسه دائما حق الرفض أو القبول حسب الهوى ، أو الذى يمارس اختياره حيالها من اللحظة الاولى لتلقيها متمثلا فى الرفض التام القاطع ، فهؤلاء ينفى عنهم الله سبحانه وعى آياته وتعقلها حيث يقول الله عز وجل(ان تسمع الا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ـ النمل/٨١)• فالاسلام هو أن يدخل الانسان فى عبوديته لله اختياريا حتى يصبح تشريعه ودينه بانسبة له جبريا • ومن ثم يأخذ مكانته الطبيعية واللائقة به بين المخلوقات الأخرى العابدة ، ويصبح ككل شىء فى الوجود عبدا خاضعا لله • ولذلك أمر الله سبحانه نبيه الكريم أن يعلن ذلك على العالم ويقول (انما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كلشىء وأمرت أن أكون من المسلمين ـ النمل/٩) • كما أمره الله أيضا بقوله (قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء••• الانعام /١٦٢ـ١٦٤)فاختيار الانسان للآخرة والدخول فى العبودية لله مع افراده سبحانه بالالوهية والربوبية ، يعنى انخراطه فى سلك سائر الكائنات وان كان ذلك منه اختيارا • ولذلك جعل من يعبد الله مع الكائنات الأخرى فى صف واحد عبيدا له فقال سبحانه (الم تر أن الله يسجد له من فى السماوات ومن فى الارض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب

ومن يهن الله فماله من مكرم آن اللهَ يفعلُ ما يشاء ــ الحج /١٨)•ولاشك أن كون الانسان ساجداً لله سبحانه كبقية المخلوقات التى فى السمـاء وفى الارض انما يعنى أنه تلقى أمره التشريعى باعتباره كونيا حتى صار ساجدا مثلها وعبدا مسلما للــه مثلما هى مسلمة لــه ،فجميع الكائنات العابدة بأمــر كونى مع كثير من الناس العابــدين باختيارهم لأنهــم باستجابتهم للامر التشريعى الصادر اليهم وتفاعلهم معه كأنه أمر كونى صار كونيا بالنســبة لهم دون من لم يستجب ، فعاشوا به ودخــلوا فى زمرة الكائنات العابدة الخاضعة لله كونا ، وذلك لا يعنى نفى الاختيار عن هؤلاء الناس العابدين لتسليم أرادتهم لله ولدينه وشرعه ، وانما هو اختيار متكرر متجدد دائم مستمر مع كل تجربة ابتلائية يمرون بها •

الاســلام والايمــان :

ومن ثم كان الاسلام لله أحيانا من أعلى مراتب الايمان • حيث مرت الآيات التى تصف الرسل بالاسلام • بيما نجد أن الله سبحانه وتعالى فى قوله (قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم ــ الحجرات /١٤) يثبت أن الاسلام أقل من الايمان مما يوحى الى الذهن بوجود تعارض خاصة وأن هناك من الآيات ماتثبت الايمان لغير المسلمين مثل قوله تعالى (ومايؤمن أكثرهم باللــه الا وهم مشركون) ولكن ذلك اللبس والغموض فى مفهوم الاسلام واستعمالات اللفظ فى القرآن يزول اذا نحن وضعنا فى أعتبارنا التفرقة بين الدخول فى شرع الله وحكمه ودينه اختيارا والدخول فى هذا الشرع والحكم والدين جبرا أو قسرا واضطرارا لظروف معينــة •

فمن يدخل فى هذا الدين وهو مازال ضعيفا محتاجا الى جهاد الناس وصبرهم على أذى السلطة الجاهلية فى الأرض ، فانه قد أثبت بلا شك:

بتسليمه لحكم الله الذى يعرضه للعذاب والآلام ، أنه مؤمن أو أنه مسلم، حيث لافرق هنا بين الوصفين فالايمان دليله تحمل العذاب • فمن يدخل فى شرع الله فى مثل ظروف مكة لا فرق بين وصفنا له بالاسلام ، أو وصفنا له بالايمان، لأن الاختيار فى مثل هذه الظروف محقق ومؤكد • ومن ثم تستوى — العبودية لله والاسلام له • أما ظروف الاعراب ، فانهم دخلوا فى هذه العبودية بعد أن فتح الله على المسلمين وسادوا شبه الجزيرة العربية تقريبا ، واصبح السلطان بيدهم ،أى أنه أصبح لله فيها فدخول هؤلاء الاعراب فى هذه العبودية لم يكن دليلا واضحا على الايمان وأن كان دليلا واضحا على التسليم لسلطان الله فى الارض لأن ذلك لم يكن منهم الابعد سيطرة هذا الدين،وبذلك فقد يكون دخولهم فى الاسلام بسبب هذه القوة ومن ثم سماه الله اسلاما من التسليم ووصفهم بأنهم «لما يدخل الايمان فى قلوبكم» •

وكذلك فالافراد الذين يعيشون فى مجتمع اسلامى بنظمه وقوانينه ، يقرون بهذه النظم والتشريعات الالهية وليس ذلك دليلا على ايمانهم جميعا وان كان دليلا على اسلامهم وفرق هنا بين الاسلام والايمان • لأن الاسلام فى هذا المجتمع هو الصفة الظاهرة فى مواطنيه ، أما الايمان فهو الصفة القلبية الباطنة التى لا يعلمها الا الله ، ومن ثم فان المجتمع المسلم يضم مؤمنين ومسلمين ومنافقين • بينما الجماعة الاسلامية فى فى ظروف مكة حيث التجمع سرا خوفا من الاضطهاد والتعذيب، تخلو من المنافقين من ناحية ، كما أنه لا فرق بين المؤمن والمسلم فيهم من ناحية أخرى ، ويصبح الايمان والاسلام مترادفان لا فرق بينهما • فالمسلم هو المؤمن وهوالتقى • أما فى المجتمع المسلم ، مجتمع المدينة ، فيصبح الاسلام أمرا ميسورا والكفر أمرا عسيرا ، حيث يتحتم على الكافر أن

يخفيه ومن ثم يكون منافقا، وذلك لان هذا المجتمع جعل من شريعة الله التخييرية أمرا كونيا له ، ولا يستطيع المنافق أن تكون شريعته تخييرية له والا انكشف كفره • وكذلك فان المسلم فى مجتمع مكة قبل الفتح لا يستطيع الا أن يجعل أمر الله التشريعى أمراً كونيا له والا خضع لدين الكافرين وفقد الايمان مما يعرضه لأذى المشركين • فالمؤمن على أى حال لا يستطيع الا أن يعيش فى قدر الله وبتدبيره وتيسيره للخلائق بأوامره الكونية والتشريعية سواء •

القدر والتدوين :

علمنا ان القدر هو تقدير الله السابق لكل شىء سيحدث فى الكون سواء كان خلقا أو فعلا ، وسواء كان الفعل جبريا أو اختياريا وزيادة على ذلك ومن المهم جدا أن نذكر أن ذلك كله مكتوب ومدون تدوينا وكتابة سابقة على الحدوث ، ودليل ذلك من الكتاب والسنة كثير ، نذكر منه قوله تعالى(ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى انفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ـ الحديد /٢٢) • وقول الرسول صلى الله عليه وسلم (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والارض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء ـ رواه مسلم فى صحيحه) فما هو التدوين وما الحكمة منه ؟ •

مما لا شك فيه أن الله بكل شىء عليم ومحيط ولا يلزم لثبات علمه التدوين والتسجيل فهو سبحانه منزه وأجل من أن ينسى أو يسهو تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، فما الحكمة اذاً من كتابة المقادير وتدوينها ؟ •

لمعرفة ذلك ، يلزم الرجوع الى الخلق الالهى والفعل الالهى وكيفية

الخلق والفعل بعلل وأسباب مادية وانسانية معروفة فيزيقيا وذلك حسب المشيئة الالهية •

وبالرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد أراد للسنن الكونية ، والنواميس الطبيعية التى يتم بها ايجاد المعلول بوجود العلة وحدوث المسببات والنتائج بحدوث الاسباب والمقدمات ، بالرغم من ذلك ، فانه جعل لحدوث الخلق والأفعال نواميسا وسننا أخرى ميتافيزيقية خافيه علينا نحن البشر ، لا نملك ملاحظتها بالحس ورصدها بالتجربة • وانما هى من عالم الغيب ، نتلقى أخبارها العلم فقط ، ونتلقى تعاليم وأوامر الدين للتعامل معها فى أضيق الحدود ، وهى حدود المشاعر فقط ونعنى بهذه الاسباب والعلل الغيبية لحدوث الأفعال والخلق جنود الله ومنفذى أوامره وقضائه وقدره ، الملائكة، فهذه الاحداث التى تحدث كل ثانية فى هذا الكون العريض يخلقها الله سبحانه بجنود وموظفين خلقهم وعينهم خصيصا لانجاز هذه الأفعال ، كل فى تخصصه •

وعلى ذلك فالفعل يتم فى هذا العالم الطبيعى الذى نعيش فيه بعلل وأسباب فزيقية ، وهى التى نعرفها ونلاحظها ونسجلها وعلل وأسباب أخرى غيبية وهى الملائكة • والعلل سواء كانت طبيعية أو غيبية مخلوقة لله وآثارها أو أفعالها ونتائجها مخلوقة له كذلك •

ولنأخذ مثلا على ذلك بخلق الانسان وهو أعظم الأحداث على وجه الارض ، وهذا الحدث ــ كحدث طبيعى على الارض ــ لا بدا لحدوثه حسب الناموس الكونى من مباشرة رجل لامرأة • وهذه هى العلة الطبيعية الاولى لخلق الانسان ، ولكن هذه العلة يعقبها علة غيبية أخرى حيث يقول رسول الله صلى الله علية وسلم (ان أحدكم ليجمع فى بطن

أمة أربعين يومـا نطفة ثم يكون ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الله اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمـر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقى أو سعيد ٠٠٠ ــ رواه الشيخان) فنفخ الملك الروح فيه عـلة غيبية لخلق الانسـان ٠

والموت كذلك كحدث طبيعى على الارض لابد أن يكون له علة طبيعية٠ وليس هناك انسان يموت بدون سبب أو علة يكشف عنها الاطباء ، والله سبحانه هو الخالق للموت والحياة وهو المحيى والمميت ، ولكنه شـاء سبحانه أن يكون لاحيائه ناموس وسنة يحيى بها الخلق تعمل بأسباب ظاهرة للناس وأسباب خفية غائبة ٠ وكذلك لاماتته لهم ٠٠٠ وكما أن للموت سبب ظاهر ا فله سبب وعلة خفية ، تقـوم بها الملائكة كذلك ٠ حيث يقول الله (قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ــ السجدة/١١)٠

وكما يعمل الملائكة كعلل فى الخلق والوفاة يعملون كذلك فى كافة شئون الحياة على الارض ٠ فاستمرار حياة الانسان على الارض سواء للفرد أو الجماعة قائم باذن الله وقدره٠٠ ومن ثم فانه يلزم تبعا لهذه المشيئة أن يمنع عنه كل ما يعوق هذا الاستمرار ٠ ونحن نعرف لاستمرار حياة الفرد عللا وأسبابا فسيولوجية وبيولـوجية ولكن له علله وأسبـابه الغيبية كذلك ٠ حيث يقول اللـه (له معقبات من بين يديه ومن خلفـه يحفظونه من أمر الله) ويقول أيضا (ان كل نفس لما عليها حافظ) ٠

وهكذا تتمشى حقيقة العلية فى القـرآن والسنة مع حقيقة الوجود فيهما ، فكما يثبت الاسلام للوجود ثنائية حيث الوجود الغيبى والوجود المشاهد ، كذلك يثبت للخلائق والأحداث والأفعال فى العالم الطبيعى عللا غيبية بالاضافة الى العلل الطبيعية المشـاهدة ٠

ونعود مرة أخرى الى التدوين وحكمته فنقول : أن الملائكة مخلوقات لله سبحانه لا تعلم من علمه مقاديره للخلائق شيئا ، وهى مكلفة بانجازات وأعمال كل فى تخصصه وحسب واجبه ، وعلى ذلك فالتدوين والكتابة للمخلوقات وللامور والشئون والافعال المخلوقة والمرادة لله سبحانه، انما هو ـ أى التدوين ـ لكى تتلقاها الملائكة كأوامر تقوم بتنفيذها واتمامها باذن ربها ، وفى ذلك يقول الله سبحانه (فالمقسمات أمرا ـ الذاريات /٤) • مقسما بالملائكة كما ذكر ابن كثير عن أبى طالب ، وكذلك يقول الله (فالمدبرات أمرا) وذكر ابن كثير أنهم الملائكة أيضا والامر المقسم والمدبر هو قدر الله وقضاؤه تدبر الملائكة فعله وانجازه • ومن ثم فان

تدوين وكتابة المقادير قد تم بأكثر من حال :

الحال الاول ـ هو تقدير مقادير الخلائق وكتابتها قبل خلق السماوات والارض ودليل ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن خلق السماوات والارض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء ـ رواه مسلم فى صحيحه)• وكذلك مارواه أبو داود فى سننه عن أبى حفصة الشامى قال قال عبادة بن الصامت لابنه • يابنى انك لن تجد طعم الايمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن أول ما خلق الله القلم فقال له أكتب فقال رب وماذا أكتب قال : أكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة ، يابنى• سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من مات على غير هذا فليس منى ـ رواه أبو داود فى سننه•

الحال الثانى ـ للكتابة والتدوين للمقادير أقل عموما من الاول وهو

خاص بالبشر : أرزاقهم وآجالهم وأفعالهم ومصائرهم فى الآخرة • ودليل ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يروية على بن أبى طالب ، قال (كنا فى جنازة فى بقيع الغردقد فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرة فنكس ، فجعل ينكس بمخصرته ثم قال ما منكم من أحد ما من نفس منفوسة الا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار والا قد كتبت شقية أو سعيدة — رواه مسلم فى صحيحه) •

الحال الثالث — لكتابة المقادير خاص بتقدير أفعال العباد وذلك قبل خلق آدم بأربعين سنة ودليل ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عنه أبو هريرة قال • قال رسول الله صلى الله علية وسلم (احتج آدم وموسى فقال موسى ياآدم انت أبونا خيبتنا واخرجتنا من الجنة فقال له آدم : أنت ياموسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومنى على أمر قدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فقال النبى صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى، فحج آدم موسى — رواه الشيخان فى صحيحهما) وعلى ذلك فهذا التدوين خاص بتجارب الابتلاءات التى يجتازها الناس فى حياتهم ونتيجة أختياراتهم ، فتحديد التجارب وظروفها وأحوالها لكل فرد من أفراد البشرية جمعاء من أول آدم حتى يوم القيامة مع تحديد الزمان والمكان، كل ذلك مدون ومسجل قبل خلق الانسان بأربعين سنة •

والحال الرابع — خاص بتدوين أخص التقديرات للانسان الفرد حيث يتم وهو بعد جنين فى بطن أمه ، وفيه يدون رزقه وأجله وعمله أى التجارب الابتلائية التى سيجتازها فى حياته ونتائج اختباراته • وكذلك يسجل مصيره حسب هذه النتائج شقيا كان أم سعيدا ودليل ذلك من

السنة قول الرسول عن عبد الله بن مسعود قال حدثنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو المصدوق أن أحدكم ليجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما ثم يكون فى ذلك علقـــه مثل ذلك ثم يكون فى ذلك مضـــغة مثل ذلك ثم يرسل الله اليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربـــع كلمات يكتب رزقـــه وأجله وعمله وشقى أو سعيد فوالذى لا اله غيره ان أحدكم ليعمل بعمـــل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فسبق عليه الكتاب فيعمـــل بعمل أهل النار فيدخلها وان أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهـــل الجنة فيـــدخلها ــ متفق عليه) •

والحال الخامس ــ هو تدوين سنوى للمقاديروذلك بنسخ مقـــادير العام القادم من أم الكتاب ليـــلة القـــدر • وفى ذلك يقـــول الله سبحانه (انا أنزلناه فى ليلة مباركة انا كنا منذرين فيها يفرق كل أمر حكيم من عندنا انا كنا مرسلين ــ الدخان ــ ٤) • ولذلك فقد سمى الله هذه الليلة المباركة ليلة القدر ، حيث يفرق فيها كل أمر حكيم وتسجل الاقدار • يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآيات الكريمة (فيها يفرق كل أمر حكيم أى فى ليلة القـــدر يفصل من اللوح المحفوظ الى الكتبة أمـــر السنة وما يكون فيها من الآجال والارزاق وما يكون فيها الى آخرها • وهكذا روى عن ابن عمر ومجاهـــد وأبى مالك والضحاك وغير واحد من السلف وقوله جل وعلا « حكيم » أى محكم لا يبدل ولا يغير ولهذا قال جل جلاله « أمرا من عندنا » أى جميع ما يكون وبقدرة الله تعالى وما يوجبه فبأمره واذنه وعلمه) •

والحال السادس ــ والاخير للقدر ــ فهو تدوين ونســـخ مقـــادير وأحوال اليوم من سجلات أحوال السنة • ودليل ذلك قوله سبحانه وتعالى

(يسأله من فى السموات والارض كل يوم هو فى شأن ــ الرحمن ــ ٢٩) •

ويروى ابن جرير فى معنى « كل يوم هو فى شأن » حديثا عن الرسول عليه الصلاة والسلام وقد سئل « ما ذاك الشأن » قال « أن يغفر ذنبا ، ويفرج كربا ويرفع أقواما ويضع آخرين » ويذكر ابن كثير أن هذا الحديث روى موقوفا ، أما البخارى فقد ذكره على أنه كلام أبى الدرداء • كما أورد ابن جرير عن ابن عباس « أن الله خلق لوحا محفوظا من درة بيضاء دفتاه ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور وعرضه ما بين السماء والارض ، ينظر فيه كل يوم ثلثمائة وستين نظرة يخلق فى كل نظرة ويحيى ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء) • وبهذا المعنى فسر جمهور السلف الآية كما ذكر ذلك عنهم ابن كثير فى تفسيره •

العناية الالهية والقـــدر :

ولا شك أنه من السهل على الذهن البشرى ، تصور انتقال المقادير فى السماء من حال الى حال أخص فى التدوين ، مع تصور ذلك بلا كيف من كيفيات التدوين الارضية • ولكن معضلة المعضلات الفكرية ، ومشكلة المشكلات هى فى تصور انتقال القدر المدون من الصحف فى السماء الى الواقع النافذ به فى الارض • ذلك أن القدر باعتباره مظهر المشيئة الالهية المطلقة ، وفعل الله سبحانه وتعالى فى الخلق ، انما يعنى نفاذه فيهم التقاء فعل الله تعالى مع مخلوقاته أى التقاء الخالق بالمحدث • ولما كان من المستحيل على الذهن البشرى تصور القديم والخالد كما أنه من المستحيل عليه تصور فعله ، فانه من المستحيل أيضا أن يتصور الانسان أو أن يدرك من تلقاء نفسه التقاء الفعل الالهى النافذ بالمخلوقات الفانية •

ولقد واجهت هذه المشكلة كل الانساق الفلسفية البشرية التى تقـول بالاله الخالق ، وتؤمن بالقدر والعناية الالهيـة ، كما واجهت كل المذاهب الفكرية العقلية القائمة على أسس من الاديان ويشهد تاريخ الفكر البشرى النابع من الفكر العقلى المجرد ، أو المنبثق من أحضـان الحقـائق الدينية القادمة عن طريق الوحى ، بأن معالجة هذه المذاهب جميعا وتصويرها لامر المشيئة الالهية وكيفية نفاذها فى المخلوقات ، أو بتعبير آخر تصويرها للصلة بين الله سبحانه وبين مخلوقاته لا تخلو من اتجاه من ثلاثة اتجاهات :

الاول ــ المذاهب التى تقول بالاله الكامل فوق هـذا العالم الكونى • ولكنها نظرا لصعوبة مشكلة الالتقاء هذه ، تجعل الاله فى عزلة عن العالم ، وتنفى عنايته للكون فى الايجاد،أو الافناء أو فى الامداد بالوجود ومقوماته• فتقول بقدم العالم كقدم الاله ، وتجعل الاله مجـرد غاية ، يتحـرك اليها العالم بالشوق اليه • ومن ثم فالاله بذلك ليس له فعل مباشر أو غير مباشر كما أنه لا يدرى شيئا عز العالم ولا يريد منه أو به شـيئا • وذلك بنـاء ميتافيزيقى يقوم على الهروب من المشكلة التى نحن بصـددها ، أكثر من مواجهتها • وذلك الاتجاه مرفوض بكثير منآيات القرآن الكريم وحقائقه، حيث أنه يلغى الربوبية والهيمنة ، ويعطل كثير من خصائص الالوهية •

والثانى ــ وهو الذى نادت به المذاهب القائلة بالعناية الالهية للعالم• وخلق الاله له وفعله كل كبيرة وصغيرة فيه ، وامداده بمقـومات استمرار وجوده ككل وكجزئيات أيضا • ومن ثم فكل شىء يتم فى العـالم بقـدره وارادته مما يحتم على مثل هذه المـذاهب أن تفسر لنا العـلاقة بين الاله الخالق الفاعل ، وبين المخلوقات والافعال ، وتبين التقاء القديم بالمحدث • وهذا المذهب حيال هذه النقطة بالذات يأخذ طريقين فى حلها :

أ ــ طريق جعل الالتقاء بين القديم والمحدث عن طريق وسائط من الموجودات تجمع بين خصائصها بعض خصائص الالوهية ، مع بعض خصائص الموجودات المحدثة ، ومن ثم تأخذ خصائص الرب وصفاته من خلق وتدبير وحساب وعقاب ، أى أنها تصبح أربابا لاتصافها بصفات الربوبية ولاستقلالها فى المشيئة والفاعلية . وذلك حتى يكون نفاذ المشيئة الالهية فى الزمان مقبولا وميسورا ادراكه للعقل البشرى . وهذا وان كان قائما ــ عند هذه المذاهب لاثبات العناية الالهية ، ونفاذ مشيئة الله وقدره فى الكون . ويتفق مع القرآن فى هذا الاصل ، الا أن هذا التفسير لصلة الله بخلقه من حيث أنه رب لهم ، تفسير معوج ومرفوض رفضا تاما وحاسما ، من حيث أنه يجعل مع الله سبحانه شركاء له فى خلقه وفعله وملكه . وقد ظل القرآن المكى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم طيلة ثلاثة عشر عاما لهدم قضية الشرك برفض وجود وسائط بين الله وخلقه فى الفعل والنفع والضر ، لان ذلك يؤدى الى اتصاف من هم من دونه تعالى بصفات الربوبية الخاصة به وحده .

ب ــ والسبيل الثانى الذى يطرحه العقل البشرى كحل لتفسير العلاقة بين الله والعالم ، فىحالة القول بالعناية الالهية التامة والكاملة للعالم بدون القول بالوسائط بينهما ، هو أن تكون العلاقة بين الله والعالم علاقة مماسة ، وتكون بينهما التقاء بالمعنى المكانى والزمانى للالتقاء . وذلك قول أشنع من الاول . لان الاول يجعل الله بائنا عن خلقه مترفعا عنه ، عاليا عليهم ، ويجعل وساطات بينه وبين الخلق لاثبات الربوبية والتدبير والعناية . بينما هذا السبيل الثانى ينزل بالاله من هذا العلو ، ويجعله متخللا فى العالم متلبسا به . ويغالى البعض فيهم حتى يصبح الاله عنده

هو العالم أو هو روح العالم ونفسه الكلية ، والعالم المادى الطبيعى هو الجسد . وذلك فى زعمهم لكى تكون الربوبية تامة والفاعلية ايجابية مطلقة. ولكن هذا تصوير مخالف للقرآن أيضا ، تمجده معظم آياته ، وترفضه حقائقه رفضا تاما قاطعا .

تلك هى السبل أمام الذهن البشرى لتصوير العلاقة بين الاله والعالم. اما القول بعدم العناية الالهية للعالم ، وهو قول شبيه أو قريب من الالحاد وانكار وجود الاله ، واما القول بالعناية مع تعدد الارباب والآلهية . وذلك قول الشرك الذى لا يستقيم مع العقل والمنطق والفطرة . وأما القول بوجود الاله متخللا وحالا فى العالم ، ومنبثا فى أجزائه وجزئياته وذراته ومن ثم يكون العالم هو الاله والاله هو العالم . وهذا قول شبيه بالقول الاول حيث أنه يؤدى فى النهاية الى انكار وجود الاله .

فاما أن يكون الاله واحد مع انفصاله عن العالم تماما ، واما أن يكون واحدا مع اتصاله به عن طريق الارباب والآلهة الوسائط ، واما أن يكون الاله واحدا متصلا بالعالم اتصالا كليا فيكونا شيئا واحدا .

ذلك هو حصاد الفكر البشرى حيال هذه المشكلة . أما ما يقدمه لنا القرآن الكريم فهو الميتافيزيقا المحكمة ، التى تشهد عند دارسى الميتافيزيقا أنها حقيقة نازلة من السماء ويستحيل على العقل البشرى الوصول اليها ، ويؤكد هذه الشهادة تاريخ مذاهب الميتافيزيقا طيلة القرون السابقة على نزول القرآن واللاحقة .

الفاعلية الالهية فى الاتجاهات الفلسفية وفى القرآن الكريم :

ان من أخص خصائص الالوهية فى القرآن الكريم ، هو انفراد الله

سبحانه وتعالى بالعلم الازلى اللانهائى ، والمشيئة المطلقة السامية ، والقدرة اللامتناهية اللائقة بجبروته وكبريائه وهو الحى الخالد الباقى الذى لا يموت ، وهو رب كل شىء وخالقه ورازقه ومدبره • وان من كمال الربوبية اللائقة بألوهيته ، مباشرة الله سبحانه وتعالى للكون المخلوق بارادته وتنظيمه وعطائه ونفعه ، وضره ، وامداده بكل مقومات الوجود أو مقومات الانتهاء ، سواء كان ذلك لكل موجود على حدة أو للعالم أجمع • وذلك يتم بأمره النازل الى العباد فى حياتهم الزمنية • فأمر الله سبحانه انما يتنزل بما يحدث على الارض منأحداث يومية صغيرها وكبيرها هزيلها وخطيرها ، كما هو مسجل فى أم الكتاب •

أما كيفية تحقيق هذه الاوامر ونفاذها فى الخلق ، فذلك واضح كما ذكرناه من وجود العلل الغيبية والعلل الطبيعية لكل شىء ولكل فعل يحدث فى الارض وليست العلل الفيزيقية التى نعرفها نحن البشر ونحسها ونتحكم فيها وكذلك العلل الغيبية التى يتم الشىء بها مع العلل الفيزيقية ، ليست هذه ولا تلك سوى أدوات وآلات القدرة الالهية لنفاذ القضاء والقدر وهى جميعا جنود لله تعالى ، تفعل بمشيئته وفاعليته دون استقلال عن المشيئة والقدرة الالهية ، مع قدرته تعالى على الفعل بدونها • وذلك اننا لا يمكن عقلا أن ننسب لمن يضرب بالعصا الضرب للعصى دونه ، وانما الفعل منسوب للفاعل لان العصا ليست سوى أداة يصدر تأثيرها عنها حسب قصد الفاعل وارادته • والملائكة المكرمون لكونهم لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون فانهم بذلك ليسوا سوى أداة القدرة الالهية فى الفعل الالهى فى الارض والسماء • وهكذا شاء الله أن يكون فعله فينا ــ وهو القادر على أن يفعل بدونهم وبدون غيرهم كما بين لنا ذلك فى معجزات

الرسل ، كما انه قادر على أن يفعل بدون العلل الفيزيقية أيضا ــ شاء سبحانه أن يكون فعله بالعلل الغيبية والطبيعية ، ومشيئته فى ذلك نافذة لا محالة .

فالقرآن لا يخبرنا ان الله اذا متخلل فى العالم منبث فيه أو حال فى كل شىء ، أو انه والعالم موجود واحد . بل ان كثيرا من الآيات تثبت بينونته عن العالم ، وعلوه فوق عرشه ومن ثم وضح لنا القرآن فى أكثر من موضع ــ كما سنرى ــ ذلك حتى لا يظن أحد غير ذلك ، وحتى لا ينحرف الفكر الدينى عند المسلمين بعد ذلك كما انحرف عند سابقيهم الى الاعتقاد بأن الملائكة شركاء الله فى الفعل والخلق والتدبير ، كما اعتقدوا أن العلل الفيزيقية ذات فاعلية مستقلة عن الفاعلية الالهية ، مما أدى بهم الى الشرك والوثنية . فبين أن الملائكة ليسوا سوى أدوات القدرة الالهية ، كما أن العلل الفيزيقية هى سنة الله التى ارتضاها لفعله فى الخلق بمشيئته .

ولقد حدث فى تاريخ الفكر البشرى عند الفلاسفة العقليين من اعتبر الكواكب والاجرام السماوية آلهة وأربابا بأن جعلهاوسائط بين الله والخلق، تشاركه فى الخلق والتدبير . كما حدث فى العقائد الوثنية عند الشعوب من جعلوا الملائكة آلهة باعتبارها بنات الله تشاركه أيضا فى الفعل والتدبير وانزال النفع والضر على البشر ، علاوة على أنتشار عبادة الاجرام السماوية أيضا ، كذلك فان هناك من الاديان السماوية ما حرفها أهلها بعد رسلهم ، فجعلوا أنبياءهم أبناء الله يشاركونه الملك والسيطرة والاحياء والاماتة والمغفرة والحساب يوم الجزاء .

تلك هى منزلقات الفكر البشرى فى أعوص مشكلة تواجهه ، فكيف عالجها القرآن ؟ أثبت القرآن الكريم ان الله بائن عن خلقه ، ثم نفى أن

يكون بينه وبين خلقه وفعله وسائط حيث يقول (هو الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج فى الارض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم، والله بما تعملون بصير ، له ملك السماوات والارض ، والى الله ترجع الامور ـ الحديد ٤ـ٥) • فأثبت انفراد الله بالخلق وعلوه فوق عرشه وتلك هى البينونة لله عما سواه • ولكن تلك المفاصلة بين الله وبين الخلق ، ليست تعنى اهماله أو اعتزاله عنهم ، بل ان الله مع ذلك يعلم كل شىء فى العالم المخلوق وكل ما يتغير فيه نزولا من السماء الى الارض ، أو صعودا من الارض الى السماء • وهو مالك لهذا العالم ومسيطر عليه ، عالم بأفعال الانسان الواقعة فى الزمان قبل وقوعها وحين تقع •

وحتى تنتفى ـ نتيجة لاثبات مباينة الله عن الخلق مع عنايته بهم وملكه وسيطرته عليهم ـ أية شبهة فى وجود وسائط بينه عز وجل وبين العالم ، تشاركه الفعل والملك والامر بقول الله سبحانه (الله الذى خلق السماوات والارض ، وما بينها فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، مالكم من دونه من ولى ولا شفيع • أفلا تتذكرون ؟ يدبر الامر من السماء الى الارض ، ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ـ السجدة ٤ـ٥) • فينفى فى هاتين الآيتين وجود ولى أو شفيع أو وسيط أو مشارك لله فى أمره وتدبيره فى الخلائق • فالامر يدبره الله من السماء الى الارض ، وليس من دونه من يشاركه فى ذلك ، وذلك مع أن الله سبحانه على عرشه بائن عن الخلق •

ويفرد الله نفسه بالربوبية والخلق والامر والملك مع استوائه على عرشه ومباينته للعالم بقوله (ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض

فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، الا له الخلق والامر ، تبارك الله رب العالمين ـ الاعراف ٥٤) . ففيها يرد الله سبحانه وتعالى على القائلين بالنجوم والشمس والقمر آلهة أو أربابا مع الله يشاركونه الفعل الخلق والامر ، فجعلها مسخرات بأمره . أى ان فعلها وحركتها البادية لنا انما هى من أمر الله ومن ثم فهى واقعة بمشيئته وقدرته ، فهى ليست ذات تأثير مستقل عن الفاعلية الالهية ، وهذا افراد له بالخلق والامر فقال تعقيبا « الا له الخلق والامر » ، ونفى بذلك أن تكون هذه المخلوقات على ضخامتها وهولها مشاركة له فى فعله ، أو وسائط بينه وبين خلقه .

ومثلها قوله تعالى (الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجرى لاجل مسمى يدبر الامر ، يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ـ الرعد ـ ٢) فيرد على العابدين للاجرام السماوية باعتبارها وسائط بين أمر الله وخلقه ، فبين أن ما يصدر منها من تأثير وفعل وفائدة للحياة على الارض بعامة وحياة البشر بخاصة انما هو بأمره تعالى حيث سخرها لذلك ، ثم بين أنه يدبر الامر ويفصل لنا الآيات .

والملاحظ فى هذه الآيات جميعا اثبات علوه واستوائه على عرشه لاثبات البينونة ، ومع ذلك يبين تدبيره الامر من فوق سماواته دون وسائط وكما نفى أن تكون الكواكب والاجرام السماوية وسائط بين الله وبين خلقه، نفى كذلك كون الملائكة كذلك فقال (وله من فى السماوات والارض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار

لا يفترون • أم اتخذوا آلهــة من الارض هم ينشرون لو كان فيهما آلهــة الا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون • أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل : هاتوا برهانكم • هذا ذكر من معى وذكر من قبلى ، بل أكثرهم لا يعلمــون الحــق فهم معرضــون ، وما أرسلنا قبلك من رسول الا نوحى اليــه انه لا اله الا أنا فاعبــدون • وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون • يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون الا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون ومن يقل منهم انى اله من دونه ، فذلك نجزيه جهنم ، كذلك نجزى الظالمين ــ الانبياء ١٩ــ٢٩) • وهكذا بين الله عز وجل لنا فى أول الآيات ان من عنده ، أى المــلائكة ، عباد له يعبــدونه وينفذون أمره ، ويقومون به ولا يعصونه ، فكل أفعــالهم صــادرة بالمشيئة والقدرة الالهية وليست لهم فاعليتهم المستقلة ، وهذا يثبت انهم جنود لله عز وجل تنفذ بهم مشيئته فى الكون المخلوق • ثم بين أنه لو كان هؤلاء آلهة مع الله : أى ذوى مشيئة مســتقلة ، لفســدت السماوات والارض فلو شاركه أحــد غيره فى الامر والتدبير والخلق ، لمــا صــلح الخلق • وهذه الحقيقة المنطقية تنفى كون الملائكة شركاء لله فى الامر ، كما تنفى كون أحد من أهل الارض شريك له كذلك • فنفى أن يكون له ولد أوأن يكون بين الناس وبين ربهم شفيع أو وسيط ، ولا يملك أحد أن يتشفع لاحد عند الله الا لمن يأذن له الله فى ذلك ، وهذا يعنى أن مــرد الامــر كله أولا وأخيرا لله سبحانه وتعالى ، كما يثبت انفراده بالخلق والامر • كل ذلك مع استوائه على عرشه وعلوه فوق خلقه ، وهيمنته وسيطرته وعلمه بهم كذلك•

ننتهى من هذا كله الى أن مزالق الشرك بالله ، انما تكمن فى النظر الى العلل الفيزيقية والعلل الغيبية لنفاذ القــدر الالهى فى الارض واعطائهــا

الفاعلية المستقلة ، واعتبارها مصدرا للخلــق والفعــل والاحياء والاماتة والتغير والنفع والضر وغير ذلك • وينقسم الفكر البشرى حيال هذا الامر الى قسمين :

الاول ــ الفكر المادى القائم على الايمان بالمحسوس ورفض الايمان بالغيب • وذلك يرجع كل شىء لعلته الفيزيقية متغافلا أو متجاهــلا العلل الغيبية التى يقع بها الشىء ، غير مدرك أو عالم بأن هذا الشىء انما يتم بخلق الله وفعــله ، وليست هــذه العلل الفيزيقية ــ ومعها ما ينكرها من العلل الميتافيزيقية ــ سوى أداة المشيئة والقدرة الالهية ، وأن الخالــق والفاعل الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى •

الثانى ــ أصحاب التفكير الدينى فى عهودهم المتأخرة حيث تحــدث الانحرافات الفكرية والاتجاهات ذات الغلو فى النواحى الغيبية والروحية، وهؤلاء يعطون العلل الغيبية وهى الملائكة وغــيرها ، الفــاعلية والتأثــير الحقيقين فى الخلق والامر متغافلين وجود علل فيزيقية يتم بهــا وقــوع القدر الالهى غير مدركين ان النوعين من العلل الغيبية والطبيعية ــ ليســا مؤثرين ولا فاعلين على الحقيقة ، انما هما أدوات وجنود لله سبحانه يفعل بهما ما يشاء فى ملكه ، ومن ثم فليست لهما فاعلية مســتقلة ، أو مشيئة أو قدرة تعمل باستقلال عن فاعلية الله عز وجل •

لقد شاء الله سبحانه أن يدبر أمر المخلوقات منفوق سبع سماوات ، بأوامره المكتوبة النازلة الى الملائكة كما شاء ان لا يحدث فى أمور الخلق من احياء واماتة وانبات زرع وانزال ماء من السماء ، وضر ونفع ، وخير وبلاء للعباد غير ذلك الا باذنه ، وأن يفعل ذلك بعلله الغيبية والطبيعية كما علمنا • والخطأ الذى يمكن أن ينزلق فيه أى انسان ، هــو أن يعطى لهــذه العلل ــ سواء الغيبية والطبيعية ــ فاعلية حرة مستقلة تعمل بها بدون أمر الله

النازل اليها من السماء ، فليست الملائكة الا جنودا للرحمن مخلصين ومن ثم فكل ما يتم بهم ويقع منهم انما هو من أمر الله وفعله وخلقه ومشيئته، ويشترك معهم فى هذا الحال سائر المخلوقات ، والمؤمنون من الجن والانس بقــدر طاعتهم .

والعلاقة بين الله وخلقه ــ مع كونه بائنا عنهم ــ قائمة ومتصــلة ، وليست مقطوعة ، ولعل سائلا يسأل ، كيف يكون الله سبحانه وتعالى فوق عرشه ، وهو يملك السماوات والارض ، وما بينهما ويدبرهما ويمدهما بما يفيد استمرار وجودهما ويعلم كل صغيرة وكبيرة فيهما ويهيمن عليهما ؟

وهنا نجد القرآن الكريم يقدم للانسانية جمعاء أعظم ما يمــكن أن يقدم فى مجال العقائد ، وذلك هو ما أجمعت عليه الامة الاسلامية بمفكريها الملتزمين بالقرآن والسنة بالمنهج النبوى الكريم كمفهوم صحيح للتوحيــد نابع من القرآن الكريم والسنة ، وهو أن الله سبحانه بذاته فوق العــرش وبصفاته فى العالم كله . وهو بذاته تعالى فوق عرشه قد أستوى عليه كما أخبرنا جلاله ، ولكنه سميع بصير قدير عليم رحيم غفور ودود فعال لمــا يريد . ومن ثم فهو عليم بكل ما يحدث فى الكون بصير به قدير عليه وسميع لدبيب النملة وهو فوق عرشه الذى هو فوق السماوات السبع وهو سبحانه وتعالى يدبر الامر من السماء الى الارض بقدرته وسمعــه وبصره وعلمه وجبروته وهيمنته وسيطرته ورحمته وفاعليته .

وهذا الناموس الذى سنه لفاعليته فى تعامله مــع خلقــه من حيث ايجادهم أو افنائهم واحيائهم واماتتهم ، ونفعهم وضرهم وغير ذلك ممــا يحدث فى شئون الخلق ، هذا الناموس ليس حاكما له فى فعله ، وانما هــو محكوم من الله ، مراد بمشيئته نافذ بقضائه . وهو يفعل بهــذا الناموس

ولا يفعل به اذا شاء • فيأتى فعله بالعلل الغيبية والطبيعية معاً ، ويأتى اذا شاء بالعلل الغيبية دون العلل الطبيعية ، كما يفعل بلا علة طبيعية أو غيبية اذا أراد ، وذلك كما هو فى الامور الطبيعية التى نشاهدها كل يوم ، أو فى المعجزات على أيدى الرسل أو فيما يتم بمشيئته تعالى بقوله له « كن فيكون » •

ومن ثم فالقدر المدون والمكتوب قبل الخلق فى أم الكتاب ، والذى تتسلسل فيه الافعال بناء على سوابقها ، ليس سلسلة منيعة من العلل والمعلولات التى لا يمكن الرجوع عنها ، أو تغييرها أو ضبطها أو منعها من الصدور • واذا لم تكن ذلك هو صفة الخلق والامر الالهى ، فانه يعنى أمرين خطيرين •

الاول – اثبات استقلال للقدر يستتبع حاكمية على الفاعلية الالهية تحد من القدرة والمشيئة وهذا فوق انه ينسب الى قدرة الله العجز والى المشيئة المحدودية والنقص ، فانه يجعل من القدر شريكا والها آخر معه • وهذا محال[1] •

الثانى يؤدى ذلك أيضا الى القول بأن الله سبحانه قد اعتنى بالعالم مرة واحدة فخلقه أولا ورتب كل شىء فى القدر المكتوب ، ثم جعل الاشياء والمخلوقات – بشرا كانوا أو غير بشر – يصدرون كل يستتبع الآخر ، وكل سابق يوجب ايجاد لاحقه كأنه خروج من كمون ، أو سلسلة من الافعال والاحداث والاشياء تجر كل حلقة منها الاخرى حتى آخر الزمان • ومن ثم فذلك يعنى انقطاع الصلة بين الله والعالم ، واهماله له بعد عنايته به مرة واحدة فى البدء • وذلك يجر أيضا الى نسبة العجز الى القدرة الالهية

---

(١) وهذا ما وقع فيه الرواقيون وهم جماعة من فلاسفة اليونان •

والفاعلية ، والحد من المشيئة ، حيث انه يستتبع عدم مقدرته أو عدم جواز ارادته التغيير لاى شىء سوف يحدث ، أو منع أى شىء من الحدوث • ومن ثم يصبح صدور العالم خلقا وفعلا عن فاعليته فى المرة الاولى منذ البدء صدورا ميكانيكيا آليا وتصبح فيه السيطرة والهيمنة والملك والتأثير الحقيقى للعلل الغيبية والطبيعية ، ويعود بنا مرة أخرى الى تأليه هذه العلل وجعلها شركاء لله ، وهذا أيضا محال(٢) •

من أجل ذلك أوجب علينا التوحيد الاسلامى الاعتقاد بأن ربوبيته تعالى ومباشرته لامور الخلق وفاعليته مستمرة فى العالم حيث يمده الله بالوجود بأمره النازل من السماء الى الارض ، ويمنع عنه الوجود بأمره النازل أيضا من السماء الى الارض فيثبت بذلك سيطرته التامة وملكه لكل شىء ، وهيمنته على كل شىء ، وربوبيته لكل شىء فى هذا الكون المخلوق طيلة وجوده ، وحالة عدمه •

من أجل ذلك يثبت القرآن الكريم شمول العناية الالهية لكل الموجودات الكائنة فى الزمان حتى نيسمع الله دبيب النملة ويرعاها ويرزقها ، كما يخبرنا عن صوت الرعد الذي يسبح بحمده من خيفته وعن كل شىء من المخلوقات يعبده ويسجد له ، وعن امرأة من الناس يسمع جدالها مع رسوله على الارض فى الزمان والمكان أثناء شكوتها اليه تعالى ، فيخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى الى الله ، والله يسمع تحاوركما ، ان الله سميع بصير ـــ ١ المجادلة) •

ويثبت كذلك القرآن سيطرته تعالى وملكه وهيمنته على كل شىء صغير

---

(٢) وذلك ما وقعت فيه الرواقية وبعض الفلاسفة أيضا •

أو كبير فى العالم بقوله على لسان لقمان لابنه (يا بنى : انهـا ان تك مثقال حبة من خردل ، فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الارض ، يأت بها الله ان الله لطيف خبير ــ لقمان ١٦) • فالله سبحانه وتعالى يتصـل بالعالم اتصالا مباشرا بصفاته •

والصلة بين الله سبحانه وخلقه صلة أخـذ وعطاء يعطى الله خلقـه وجودهم وما يفيد استمراره ويأخذ منه الخلق ذلك ، وتلقى وقبول ، وعمل ورضاء • ادارته للكون وانفاذه للقدر المكتوب ، انمـا يتم بأمـره الكونى الخاص به وحده ، كما ان خلقه خاص به وحده « الا له الخلق والامر » وقد بين لنا الله سبحانه فى قرآنه ان تدبـيره الامر من السماء الى الارض لم يحدث مرة واحدة منذ البدء ، ثم ترك الامـور والخلائق تترى فى الزمان حسب مرسوم سابق • فهو وان كان قد أمر القلم أن يكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة ، وان كان القـدر أمرا حتميا لازم الوقوع باعتبار أنه صادر بمشيئته تعالى ، الا أنه يدبر هذا الكون بأمره ومشيئته أيضا « كـل يوم » • ومن ثم يبين لنا هذه الصلة الحية النابضة القائمة بينه تعالى وبين خلقه مباشرة وبقوله (يسأله من فى السموات والارض ، كل يوم هـو فى شأن) وهذا هو الحال الاخير لتدوين القدر ونسخه للمرة الاخيرة السابقة على النزول الى الارض لنفاذه •

وعندما نصل الى القول بأن الله سبحانه « كل يوم هـو فى شـأن » بالمفهوم الذى مر بنا من قبل وانه أيضا قد أمر القلم من قبل بتدوين مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة ، نجد الاجابة واضحة خلية على ما يتبادر الى الذهن من شبهة التناقض بين أمر الله للعبيد بالدعاء الى الله والطلب منه ، وبين كون كل شىء مسجل ومدون وحتمى الوقوع من قبل الخلق • ذلك أن

العلاقة ــ كما مر ــ ليست علاقة عناية منذ البدء تم انقطاع بعد تدوين المقادير ، وليست الامور تجرى على العباد بفعل العلل الغيبية والطبيعية ، واستتباع الواحدة منهما الاخرى حتى نهاية الزمان ، بسلسلة محكمة حاكمة للفاعلية الالهية .. كلا ، وانما الامور تتنزل من السماء الى الارض بناء على سلوك العباد وأفعالهم الاختيارية ، ودعائهم وطلبهم من ربهم ما يريدون . وهذا ما يجعلنا نكرر القول بأن العلاقة ليست بين الخلق وبين القدر ، أو بين الخلق وبين الدهر وانما هى بين الخلق وبين ربهم حيث أخبر عن نفسه بأنه هو الدهر ، ومنع الناس من سب الدهر (استقرضت ابن آدم فلم يقرضنى وشتمنى يقول ودهراه والله هو الدهر)[1] فهو الذى ينفذ بقدرته ما يشاء . ومن ثم قال (واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى ــ البقرة ١٨٦) . بل انه أمر العباد بالطلب منه والدعاء فقال (ادعونى ، أستجب لكم ــ غافر ٦٠) .

ولكن هل يعنى ذلك امكان وجواز تغيير القدر ، وما فائدة الدعاء اذا لم يكن هناك جواز لهذا التغيير ؟ واذا جاز هذا التغيير ، أفلا يكون مخالفا لحتمية القدر وضرورة نفاذه كما كتب قبل خلق السموات والارض ؟

ان الذى وجدناه فى محكم آيات القرآن هو أن الدعاء جائز ، بل هو مطلوب كما أن التغيير فى القدر أو الالغاء فى بعض مقادير العباد جائز أيضا . وذلك لان ما هو مدون لا ينفذ ويحدث فى الارض بمجرد تدوينه وكتابته ، بل انه لا يحدث ولا يتنزل هذا الامر من السماء الى الارض الا اذا أراد الله له النزول والنفاذ . وهذا معنى قوله تعالى « كل يوم هو فى شأن»

---

(١) البخارى ــ خلق أفعال العباد ص ١٨٩ من نشر الدكتور : على سامى النشار ــ الاسكندرية ١٩٧١ ضمن مجموعة كتب بعنوان عقائد سلفية .

فالحقيقة أن الله سبحانه وتعالى يتقبل دعاء العباد كما يشاء ، ويغير فى أقدارهم النازلة اليهم الى الارض ، بناء على أفعالهم ودعائهم له مع عدم نسبة تغيير القدر أو تعطيله أو نفيه حيث ان ما هو مدون فى أم الكتاب مقضى لا محالة .

ولكى نوضح هذه الحقيقة ، وما يبدو فى هذا الكلام من اختلاف ، نجد أنفسنا ملزمين بالعودة الى أحوال التدوين للقدر فى السماء . حيث علمنا أنها تتم على عدة أحوال أعم فأخص حتى تصل الى تقدير اليوم . فينظر فيه رب الكون فيجيزه ، ويمضى ما يأمر به ، ويأمر بما يريد تعالى من تعديل، وذلك بناء على دعاء الناس وأفعالهم ودليل ذلك قول الرسول عليه الصلاة والسلام فيما أثر عنه من أدعية (اللهم انى لا أسألك رد القضاء ، ولكن أسألك اللطف فيه) .

حيث يدل هذا الدعاء على امكان تغير القضاء أو المصيبة وتخفيفها . ومن ثم يمكن اعتبار الامر بالدعاء والحض عليه وقبول الله له دليلا على تعديل وتغيير الاقدار .

وأهمية التدوينات المتعددة للقدر هنا هو أن الملائكة يتلقون التقدير من أم الكتاب بأحداث معينة لمدة زمنية محددة لافراد معينين ، ثم ينزل هذا التقدير من حال الى حال حتى يصل الى التقدير اليومى ، الذى يحتوى التقديرات الجزئية لافراد البشر وغيرهم من المخلوقات ، فاذا نظر فيه الله سبحانه وتعالى ، محا منه ما يريد وأثبت منه ما يشاء ، والمحو والاثبات بناء على ما يرفع اليه سبحانه وتعالى من أعمال العباد الصالحة أو معاصيهم أو أدعيتهم أو غفلتهم عن ذكره . وليس ما يمحوه الله سبحانه وتعالى أو ما يثبته من أقدار يعنى نفى حتمية القدر ، ولا يعنى نسبة التغيير فى المشيئة أو نسبة نقص الى العلم الالهى . وذلك لان هذا الذى حدث من تغيير أو

تبديل أو محو أو تخفيف وتلطيف فى القضاء والقدر ، انما هو مسجل عند الله فى ام الكتاب • ذلك لأن ما هو مسجل فى أم الكتاب ليس مقصورا على مقادير الارض فقط ، وانما يشمل أيضا مقادير السماوات السبع ، كما مرت بنا النصوص المبرهنة على ذلك ، حيث أمر الله القلم أن يكتب « مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة » ومن ثم فأى محو يتم بأمر الله انما يكون ذلك مسجل فى أم الكتاب ، وان كانت المقادير التى محيت مسجلة أيضا فى أم الكتاب ، ومنقول منها أحوال التدوين الاخرى ومنها الحال الجزئى الاخير الا أنه قد حدث أن دعا العبد صاحب هذه المقادير ربه عز وجل فيستجيب له سبحانه وذلك بعد التدوين والنسخ من أم الكتاب فلما عرضت عليه سبحانه وتعالى ــ وهو أعلم بدونها ــ محاها الله أو لطف فيما فيها من قضاء •

وليس فى ذلك تغيير أو الغاء للقدر حيث ان ما هو مسجل فى أم الكتاب أن العبد سيدعو ربه وأن الله سبحانه سيستجيب له ويمحو من قضائه أو يلطف • ومن ثم يكون هذا نابعا أيضا وموافقا لعلم الله الازلى الذى سجله بالقلم قبل خلق السماوات والارض فى أم الكتاب الذى لا يحيط بما فيه الا هو سبحانه وتعالى وهذا المعنى فى قوله (يمحو الله ما يشاء ويثبت ، وعنده أم الكتاب ــ الرعد ــ ٣٩) • ان المحو والاثبات للمقادير انما يثبت هذه الصلة التى ذكرناها آنفا بين الله سبحانه وبين خلقه • وأما المحو فهو مسجل أيضا بأم الكتاب أى انه مسجل ان المقادير الخاصة للعبد فلان ــ مثلا ــ ستنزل من أم الكتاب الى التدوين الخاص فيمحو الله سبحانه منها ما يشاء ويثبت منها ما يشاء استجابة لدعاء أو غضبا عليه لمعصية أو رحمة به ورأفة ، وكل ذلك للابتلاء ، وذلك كله مدون فى أم الكتاب الذى يختص بعلمه دون أحد سواه ولذلك قال « وعنده أم الكتاب • أى انه ليس هناك تغيير فى المشيئة والقدر ، وليس ثمة نقص فى العلم الالهى ، فكله مراد لله ومعلوم له •

وفى آيات القرآن الكريم ما يثبت ان الاقدار تتنزل على البشر بناء على اختيارهم وأدعيتهم نذكر منها على سبيل المثال ، لا الحصر قـوله تعـالى (ان ربكم الله الذى خلق السماوات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا ، والشمس والقمـر والنجـوم مسخرات بأمره • الا له الخلق والامر ، تبارك الله رب العالمين • ادعـوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين • ولا تفسـدوا فى الارض بعـد اصلاحها ، وادعوه خوفا وطمعا ، ان رحمة الله قريب من المحسنين • وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته ، حتى اذا أقلت سحابا ثقـالا سقناه لبلد ميت فانزلنا به الماء ، فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخـرج الموتى ، لعلكم تذكرون والبلد الطيب يخـرج نباته باذن ربه والذى خبث لا يخرج الا نكدا ؛ كذلك نصرف الايات لقوم يشكرون ــ الاعراف ٥٤ ــ ٥٨) • وما يمكن استنباطه من هذه الايات هو :

أولا ــ ان الله سبحانه وتعالى خلق السماوات والارض ، ثم استوى على العرش ، فهو بائن عن خلقه ، ليس حالا فيهم ولا متحدا بالعالم كـكل أو بأى جزء منه •

ثانيا ــ ان ربوبيته للعالم مباشرة وعنايته له دائمة ومستمرة وكاملة •

ثالثا ــ ان صلته بخلقه من الانس والجن صلة ود ورحمـة وعطف وعطاء لمن يفعل الخير منهم وصلة غضب واعراض ومنـع لمن يفعـل منهم السوء •

رابعا ــ ان الاحداث الطبيعية والبشرية التى تتنزل جبرا من السماء الى الارض انما تتنزل بأمر الله بناء على أفعـال الناس الاختيارية • وما أثبتته هذه الايات كشاهد على ذلك هو أن الاحداث الطبيعية كالمطر والانبات

انما يفعلها الله سبحانه وتعالى فعلا مباشرا بالعلل الفيزيقية والغيبية،وذلك حسب اقدار مقدرة قبل الخلق بناءً على اختيارات الناس وأفعالهم المقدرة أيضا فالطيبون يخرج لهم نبـاتا طيبا ، ومن هم بخـلاف ذلك لا يخـرج الا نكدا .

وعمدة هذه الحقيقة القرآنية الخطيرة قوله تعـالى (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ان الله لا يغـير ما بقـوم حتى يغيروا ما بأنفسهم واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال الرعد ــ ١١) . وقوله تعالى فيما يقصه علينا من قول نوح لقـومه (فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليـكم مـدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ــ نوح ١٠ ــ ١١) . وهكذا نجد أن العلة الحقيقية فى نزول المطر والثراء وكثرة الاولاد الاستغفار من الناس ثم الاستجابة من الله سبحانه وتعالى حيثيمحو من أقدارهم ويثبت كما هو عنده فى أم الكتاب .

وهكذا يثبت القرآن أن التعامل بين الله وبين خلقه تعامل مباشر دون وسائط من علل غيبية أو طبيعية فيأمر الناس أن يتوجهوا الى الله وحـده بالدعاء والاستغفار والطلب ، حيث هذه العلل بقسميها ليست الا جنـودا وأدوات فى يد القدرة الالهية والمشيئة النافذة فى الكون والفاعلية المطلقـة القادرة على الفعل بها وبدونها .

القـدر والابتـلاء :

تبين لنا فيما سبق عمل القـدرة الالهية فى المخـلوقات وأفعـالها ، فالملائكة المكرمون الذين يقومون بوظائف فى حياة الناس ومماتهم والمحافظة عليهم واحصاء وتدوين افعالهم ، هؤلاء الملائكة كما ذكرنا لا يعلمون شيئا من الغيب ولا يعلمون مقادير السماوات والارض جميعا ومنذ بدء الخلـق

حتى الساعة ، وهم مكلفون بأعمال وانجازات ، وعلى ذلك يلزم أن تكون هناك أوامر نازلة من الله تعالى الى الملائكة ، أوامر مدونة ومكتوبة ومسلمة اليهم للتنفيذ ، وهذه الاوامر قد سجلت أكثر من مرة ، فهناك التسجيل الاول الكلى العام لكل شيء قبل بدء الخلق ومنه ينسخ التسجيلات الاقل عموما حتى تصل الى التسجيل اليومى المذكور وهو نسخ الملائكة لاحداث وأحوال اليوم للتنفيذ بأمر الله واذنه •

والتقدير السابق لحركة الاجرام السماوية تقدير واحد منذ خلقها الله حتى يوم القيامة حيث يتحرك الجرم حركة معينة حتى يتم دورته ويبدأ من حيث ينتهى وهكذا • وهذا أيضا من قدرة الله وهو كأمر الفطرة والماهية ، وذلك حيث يقول سبحانه (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم — يس : ٣٩) • وتحديد العلاقة بين الاجرام محدد ومقدر أيضا (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون — يس : ٤٠) •

وفى مجال الجماد والحيوان والنبات على سطح الارض ، فان التقدير السابق هو تقدير الماهيات والطباع وخصائص كل عنصر وكل حيوان وكل نبات مع تأثير كل فى الاخر وقضاء أفعالها هو بالتقاء بعضها ببعض ، فيحدث التأثير وتنتج النتائج • وكل ذلك مقدر مسبقا كذلك • وهذا القدر الالهى يبدو للناس فى صورة السنن الكونية والنواميس المطردة وحياة النبات والحيوان على ظهر الارض •

أما فى مجال الانسان فالامر مختلف عن ذلك تماما • فقد مر بنا أن الله سبحانه طرح الحرية على المخلوقات ، فاختارها الانسان • فالانسان اذا حر باختياره وباذن الله ، ومعنى أن يكون حرا هو استعداده التكوينى للبلاء ويستلزم ذلك بالضرورة دخوله التجارب الابتلائية خلال حياته كفرد أو كمجتمع أو كجنس • وذلك يتضمن كما علمنا جانبين فى حياة البشر :

الاول ــ جانب جبرى وهو خاص بايجاد ظروف وأحوال التجــربة ومواجهة العبد بها •

الثانى ــ جانب اختيارى ويتمثل فى مجموع اللحظات الاختيارية التى يستجيب العبد فيها للتجربة استجابة نابعة من ذاته المريدة باختيار ، وذلك منذ تكليفه الى مماته •

واذا كانت غاية الوجود الانسانى هى الابتلاء ، كما مر بنا ، فان حياة الانسان ليست سوى سلسلة من التجارب الابتلائية لا يــكاد يفــرغ من واحدة حتى تتبعها أخرى ، وهكذا حتى نهاية عمره • فالتجارب الابتلائية تتداعى سواء بالنسبة للفرد الواحد أو للافراد أو للمجتمع والمجتمعات •
ومعنى جبرية مؤديات ومقومات التجربة انها غير اختيارية لا تتوفر فيها مقومات الحرية بعضها أو كلها سواء أكانت هذه الافعــال ارادية ، فمن أفعال الارادة ما هو اختيارى ومنها ما هو جبرى ، وهــذه المقومات تؤدى بالضرورة الى الفعل الاختيارى وتدفع اليه ، ومن ثم فان لحظات الاختيار أو اللحظات الوجودية الحاسمة التى تتحــرك فيها ارادة العبــد المختارة لتختار فعلا من ضدين • هذه اللحظات متخللة بين الافعــال الجبرية حيث يسبقها ويلحقها جبر كذلك •

ومؤديات ومقدمات التجربة مقدرة مسبقا ومسلمة كأوامــر لجنود الله لتنفيذها • وهذا هو معنى القضاء حيث لا مرد له • ووقوع هذا الفعل حتمى وضرورى على النحو الذى أراده الله وبالكيفية والكمية وفى الزمان والمكان المحددين بالقلم قبل خلق السماوات والارض بخمسين ألف سنة وهذا الفعل أما أن يكون مؤلما أو يكون مبهجــا للعبــد ، وكلاهما بــلاء ، فالمصائب من نقص فى الاموال والانفس والثمرات والامراض وكل ما يحزن الانسان ويسبب له الالم والتعاســة على الارض ، كل ذلك مقــدر عليه •

والرزق والولد والجمال والذكاء والحكمة وكل الاحداث التى تحدث للانسان ، فتسبب له السعادة والمتعة من نجاح وتوفيق للامال والامانى ، كل ذلك مقدر له • ومن ثم فالانسان مقدر عليه ومقدر له ، وهذا حتم وجبر مطلق •

أما الجانب الاختيارى فى حياته ، أى اللحظات هى نهاية التجارب الابتلائية التى تعترض حياته من أولها الى آخرها ، هذه لحظات مقدرة ومكتوبة ومحسوبة زمانا ومكانا ونتيجة لكل انسان ومسلمة أوامرها للملائكة حتى يخلوا سبيله لحظة الاختيار هذه ، ولكى يقوموا بتيسير الفعل المختار ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اعملوا فكل ميسر لما خلق له)[1] (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى) • فنتائج اختيارات العبد أو ما يختاره العبد من أفعال حسنة أو سيئة ، حسنة أو قبيحة مقدرة ومحددة ومسجلة كذلك • فهل يعنى ذلك التقدير السابق والتسجيل لنتائج الاختيارات الغاء للاختيار وتعارضا مع الحرية ؟ كلا فلحظة الاختيار لحظة وجودية تنبع من ذات العبد المريدة المختارة ونتائج التسجيل غيب عن علم العبد ، وهو يعمل بلا شعور أو وعى بمن حوله من الملائكة أو سجلاتهم ، وهم لا يتدخلون فى اختياره توجيها لليمين أو الشمال • ولكن معنى التقدير السابق الالهى لفعل العبد الحر وتسجيل ذلك ونسخه ، أن الله سبحانه وتعالى :

(أ) قدر على العبد فلان فى يوم كذا فى الموضع كذا من الارض ابتلاءه بكذا (سواء كان ابتلاء مؤلما أو مبهجا) فهذا قدر له أو عليه •

(ب) قدر الله سبحانه بعلمه أن العبد فلان هذا سيختار هذا الفعل

---

(١) صحيح البخارى ــ كتاب القدر •

القبيح دون الحسن من الضدين المعروضين أمامه أو العكس . فهذا تقدير الله سبحانه لما سيحدث من العبد ، أى أنه قدر منه ، فالقدر بالنسبة للانسان : قدر له وقدر عليه وهذان جبريان ، وقدر منه وهذا اختيارى .

وتقدير الله السابق لسلوك العبد الاختيارى وتدوينه ، فوق أنه من مشيئته واذنه ولا يسأل عما يفعل فان الحكمة من هذا التدوين ، هى كون هذا السلوك حلقة من سلسلة العلل والاسباب التى تؤدى الى أحداث وأفعال أخرى بين بنى البشر بكيفية فيها الحتمية بين العلة والمعلول الواقعة بقدر الله عز وجل . ولذلك فقضاء الله وقدره ، بمعنى أمره الكونى ، قد دبر ورتب ونظم أفعال العباد خلال تاريخ البشر الطويل ، وقدرها بعضها على بعض وبعضها من بعض ، فتاريخ البشر منذ آدم حتى يوم القيامة هو تاريخ الافعال الفردية والجماعية للناس مترتبة بعضها على بعض خلال الزمان بمعنى أن اختيار انسان ما فى موقف ابتلاء ما يترتب على تجربة ابتلائية أخرى ، أو يصبح نفس الفعل من مؤديات ومقومات وأسباب التجربة الجديدة سواء لنفس الفرد أو لغيره .

ومثال ذلك التجربة الابتلائية الاولى فى تاريخ البشر ، ونعنى بها وضع آدم وزوجه أمام الشجرة المحرمة ، حيث يتعين عليه أن يختار فعلا من ضدين اختيارا حرا . أما ان يأكل منها أو لا يأكل ، فتقدير الله سبحانه وتعالى شمل كل شىء فى التجربة سواء الافعال الجبرية أو استجابة آدم الحرة . فالله سبحانه قد قدر أزلا انه سيبتلى آدم بالشجرة وأن آدم سيختار جانب المعصية . فاذا ما تحركت ارادة آدم فى الزمان تحركا حرا لاختيار جانب المعصية فان الله سبحانه ييسر له الفعل المختار خلقا من الله وفعلا من استطاعته . فاذا ما تم ، يصبح هذا الفعل وهو الفعل الاختيارى لآدم من مؤديات ومقومات تجربة ابتلائية أخرى لآدم أو لغيره من البشر ، وهذا ما نقصده بالتدافع ، فهذا الفعل الاختيارى لآدم مرتب عليه فعل بل

أفعال جبرية أخرى له ولابنائه حيث ان الله قدر من آدم اختيار المعصية ورتب وقدر بناء عليها أمرا قضائيا جبريا يبتلى به آدم بلاء آخر أو يبتلى به آخرين ، ولذلك قال له الله بعد ارتكاب المعصية (قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحـزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ـ البقرة ٣٨) • وهذا مجمل بلاء البشرية ونتيجته قد ترتب على فعـل أبيها ، وآدم لا يلام على هذا الفعل الجبرى لابتلاء الناس على الارض وخروجهم من الجنة لأن حياتهم فى الجنة لم تكن مقدرة أزلا ثم تغير هذا القـدر ونزلوا الى الارض ••

فالقدر لا يتغير ، وانما هو يلام من الله فقط على ارتكابه المعصية وقد تابوا واجتباه ربه وهداه فلا لوم عليه اذا •

وتقدير ابتلاء الناس فى الارض بناء على معصية آدم ، جبر من الله عليهم وهو خاص بظروف وأحوال التجربة الابتلائية وهم لا يحاسبون على ذلك وانما يحاسبون على اختياراتهم حيال التجارب ، وعلى ذلك فنزولهم الى الارض ، عقب معصية أبيهم والذى هو مـرتب ومقـدر سـلفا على هذه المعصية ، ليس عقوبة لهم على هذه المعصية وانما هـو مقـدر عليهم تحقيقا للابتلاء الذى من أجله خلق الله السماوات والارض والحياة والموت، وجعل الظلمات والنور ، وخلق الانس والجن •

ولذلك فقد حج آدم موسى فيما يرويه أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (احتج آدم موسى قال موسى : يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة • فقال له آدم : أنت موسى اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك التوراة بيده ، اتلومنى على أمر قـدره الله على قبل أن يخلقنى بأربعين سنة • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : فحج آدم مـوسى ، فحـج آدم

موسى ، فحج آدم موسى) فاحتجاج آدم بالقدر ليس احتجاجا به على المعصية ، ومحاولة منه لابطال اختياره وحريته أثناء ارتكاب المعصية بالقدر، بدليل أن آدم أقر بذنبه وندم وتاب ، وانما كان احتجاج آدم بالقدر على أن الفعل المترتب على معصيته وهو خروجه وذريته من الجنة ، فعل جبرى عليه وعلى ذريته • فهو من قضاء الله وقدره وأمره النافذ الذى لا مرد له وهو من مقدمات التجربة الابتلائية •

وبالنظرة الدقيقة لالفاظ الحديث يثبت لنا هذا المعنى فموسى يقول لآدم محتجا « يا آدم أنت أبونا ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة » ولم يقل له خيبتنا بمعصيتك ، أو خيبتنا بأكلك من الشجرة • وذلك خطأ من موسى حيث أن أكل آدم من الشجرة هو الفعل الاختيارى الذى تتمثل فيه نهاية التجربة الابتلائية التى اجتازها آدم • أما ما تلى ذلك من أحداث مترتبة على هذا الفعل ، أى خروج آدم من الجنة ، فليس باختياره أو باختيار ذريته ، انما هو فعل جبرى عليهم جميعا • ولذلك احتج آدم على موسى بأن ذكر له أن الخروج من الجنة كان مكتوبا عليه قبل خلقه بأربعين سنة • أما المعصية فانها ــ وان كانت مكتوبة أيضا ــ فانها مقدرة من آدم وليست مقدرة عليه بمعنى أنها ليست مفروضة عليه جبرا أو قسرا • والخروج من الجنة من قضاء الله وبمشيئته وأمره لابتلاء آدم والذرية ، وليس عقوبة للابناء كما أنه ليس عقوبة له • ذلك أنه لا تزر وازرة وزر أخرى • كما أن الله أخبرنا بتوبة آدم فقال (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ــ طه :١٢٣)•

وبنزول الذرية الى الارض تتدافع الافعال البشرية الاختيارية لتصبح أفعالا جبرية يبتلى بها الله بشرا آخرين ، جيلا بعد جيل وهكذا الى آخر الزمان •

ومن ثم فالافعال الاختيارية متخللة بين الافعال الجبرية ، وتقدير

الله السابق لما سيفعله البشر مختارين ، تقدير ضرورى لان الله سبحانه وتعالى عليم بكل شىء ، وهذا من خصائص الالوهية • وهو يدبر الامر من السماء الى الارض ، فيدبر التجارب الابتلائية ، ثم يعرج اليه أفعال الناس وأعمالهم الاختيارية ، أى نتيجة هذه الابتلاءات ، فيبتلى بها آخرين • فيبتلى العبد بأفعال اختيارية لآخرين (يدبر الامر من السماء الى الارض ، ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون — السجدة : ٥) •

فالفعل الاختيارى من العبد يسأل عليه العبد ، فيثاب أو يلام • ونفس الفعل اذا أصبح فعلا جبريا لابتلاء عبد آخر ، لا يستتبع لوم فاعله على هذا الابتلاء للعبد الآخر ولا يستتبع لوم العبد المبتلى لأنه جبرى عليه • ومن ثم فآدم لا يلام على خروجنا من الجنة ، وان كان يلام على المعصية قبل توبته •

فالافعال البشرية الطبيعية الظاهرة ، انما هى نتائج ابتلاءات تصبح ابتلاءات جبرية فى تتابع وتدافع وتعقيد شديد لا يحيط به الا الله •

فالتجارب الابتلائية التى اجتازها البشر منذ آدم واللاتى سيجتازونها — حتى قيام الساعة — عبر الزمان ، مقدرة ومرتبة بعضها على بعض ، وبعضها من بعض ، ومن أولها الى آخرها •

واللحظات التى تكون فيها الارادة الانسانية للفاعل الفرد أو للجماعة حرة مختارة ، بعد مواجهتها بالضدين من الافعال ، هذه اللحظات المتخللة حياة الفرد والجماعة مقدرة ومحسوبة زمانا ومكانا ، وكيفا وكما • وما سيختاره كل عبد فى نهاية كل تجربة يمر بها مقدر كذلك منه ، ومن ثم فتنبؤ أى مخلوق بالاحداث القادمة والمستقبلية فى حياة البشر أفرادا وجماعات من الامور المستحيلة وذلك لاستحالة التنبؤ بموقف انسان ما فى تجربة ما

تتبؤا علميا ولاستحالة معرفة تجارب الافراد والجماعات الابتلائية فى لحظة واحدة ، والتدافع والتتابع ، والتعاقب والتشابك المعقدين اللذين بينهما وبالتالى استحالة معرفة ذلك عبر الزمن ، وخلال تاريخ البشرية الطويل •

والتدافع بين أفعال العباد الاختيارية والجبرية على الارض فى لحظة واحدة ، وبين المجتمعات البشرية على الارض الى الاجل المسمى والمقدر (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ــ البقرة : ٢٥١) (الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز ــ الحج : ٤٠) • فالدفع لافعال الناس أفرادا ومجتمعات وجيوشا فى اللحظة الواحدة ، يصل شرق الارض بغربها ، وشمالها بجنوبها والدفع بين هذه الافعال عبر الزمن ، يصل فعل آدم بآخر مخلوق على الارض ، فيثبت بذلك أثر أول تجربة ابتلائية للانسان بآخر تجربة ابتلائية له •

ففعل اختيارى لانسان ما فى مكان أو زمان ما ، يؤثر على البشرية جمعاء • ويظل كالموجة الاثيرية تنتقل عبر الاجيال ، وتدفع آخرين لابتلاءات مختلفة ، وكذلك بالنسبة لسلوك الامم والمجتمعات المتمثل فى حضارة وتاريخ كل منهم •

وكل جريمة تقع على الارض ، انما على ابن آدم الاول كفل منها (واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، اذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر • قال . لاقتلنك قال : انما يتقبل الله من المتقين • لئن بسطت يدك لتقتلنى ، ما أنا بباسط يدى اليك لاقتلك انى أخاف الله رب

العالمين ، انى أريد أن تبوء باثمى واثمك فتكون من أصحاب النار ، وذلك جزاء الظالمين • فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله ، فأصبح من الخاسرين • فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه ، قال : يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوءة أخى فأصبح من النادمين • من أجل ذلك كتبنا على بنى اسرائيل ، أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الارض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم ان كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون ــ المائدة : ٢٧ــ٣٢) • كما جاء فى الحديث الشريف (من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة) • أى أن الانسان يحاسب على فعله وعلى آثاره ونتائجه على اختيارات غيره من البشر (انا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم ، وكل شىء أحصيناه فى امام مبين ــ يس : ١٢) • ومن ثم فالانسان مسئول عن أفعاله الحرة كفرد ، ومسئول عنها كعضو فى مجتمع أو أمة ، ومسئول عنها كعضو فى الاسرة الانسانية •

والحوار الذى يدور بين الامم المتعاقبة فى النار يجسم لنا هذا التدافع بين افعال البشرية منأولها الى آخرها ، حتى أنه ليبرز لنا بالتالى وحدة البشرية خلال المكان وعبر الزمان • (قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والانس فى النار ، كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى اذا اداركوا فيها جميعا قالت أخراهم لاولاهم ، ربنا هؤلاء أضلونا ، فآتهم عذابا ضعفا من النار ، قال : لكل ضعف ولكن لا تعلمون • وقالت أولاهم لاخراهم : فما كان لكم علينا من فضل ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون ــ الاعراف : ٣٨ــ٣٩) فاسلوب الحياة وسمة الحضارة والسلوك الخلقى

الذى تختاره هذه الامة ، يكون له دفعه وأثره الاجبارى لابتلاء الامة الاخرى المعاصرة لها ، وابتلاء الاجيال المتعاقبة لها كذلك ، وما يختاره جيل معين من أنماط سلوكية ومذاهب فكرية ، ونظم اجتماعية ، انما هو ابتلاء للاجيال الاخرى • وهكذا يدفع الله الناس بعضهم ببعض ليبتلى بعضهم ببعض ، وذلك حتى نهاية الحياة الدنيا •

ومن ثم لا يمكن فهم حقيقة القدر من القرآن بدون النظر الى جميع الحقائق الانسانية الاخرى ، وبدون معرفة خصائص الالوهية كذلك • وعلى رأس هذه الحقائق الانسانية حقيقة الابتلاء • وبدون هذا المنهج يصبح البحث فى القدر هراء وتنازعا وثرثرة لا تفضى الى نتيجة ولقد ورد فى مصابيح السنة للامام البغوى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال (خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع فى القدر فغضب حتى احمر وجهه حتى كأنما فقىء فى وجنتيه الرمان • وقال : أفبهذا أرسلت اليكم ؟ انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا فى هذا الامر ، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه) وهذا يعنى أن الكلام فى القدر أو البحث فيه بالمنهج العلمى الصحيح غير محرم أو منهى عنه ، وانما الذى نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام هو التنازع فى القدر ، أى أن يعرض الموضوع عرضا يؤدى الى تنازع الناس قبله فريقين • كأن نقول مثلا ــ وهو الشائع ــ هل أراد الله سبحانه لابليس المعصية وقدرها عليه ؟ فان قلنا نعم ، قيل : فلماذا يحاسبه ويلعنه ويعذبه اذا ؟ وان قلنا لا ، قيل : فهل يفعل ابليس أو أى مخلوق أمرا دون ارادة الله ؟ وتلك هى مشكلة القضاء والقدر كما يعرضها المتنازعون فيه • وعن هذا نهى رسول الله ، اذ أن عرض المسألة بهذا المنهج يؤدى الى اختلاف الناس الى فريقين متنازعين ، فريق يثبت طلاقة المشيئة الالهية ، ويصرح بأن المعصية بأمر الله ليست بأمر العبد فيقع فى الجبر ، والفريق

الاخر يثبت العدل الالهى فيقرر حرية ارادة العبد المبتلى وينكر القدر وطلاقة المشيئة فيقع أيضا فى المحظور • ويظل الفريقان يتنازعان الامر بينهما دون أن يصلا الى نتيجة واحدة تجمعهما على الحق • ذلك ان كلا منهما يأخذ جانبا صحيحا من المسألة ، ويتمسك به ويظن نفسه على حق ومن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث السابق نهيا تاما عن التنازع فى القدر •

أما أن نعود الى كتاب الله بالمنهج العلمى الصحيح ، وفى ضوء السنة المطهرة لنعرف حقيقة المسألة ، فذلك أمر لا ينهى عنه الحديث ، ولا شك أن ما نصل اليه من حقيقة عن المسألة بالبحث الصحيح فى القرآن الكريم والسنة ، انما هى نفس الحقيقة التى يحس بها قارىء القرآن عن موقف الانسان الوجودى ، وان كان احساسا وفهما اجماليا ، ولكنه فهم مقنع ومرضى للنفس على أى حال •

الفصـــل الثـــامن

العــدل الالهى والكمال الانسانى

العــدل الالهى :

نخلص من كل ما سبق أن الكلام على القضاء والقدر يجب أن يكون من خلال حقيقة الابتلاء ، لانها الوعاء الذى يحتوى هذا كله فتقدم لنا الامر التشريعى الالهى والامر الكونى متناسقين بلا تضارب أو تناقض أو غموض أو لبس أو ابهام • كما يقدم لنا الجانب الجبرى والجـانب الاختيارى من كينونة البشر وأفعالهم فى تناسق تام ، وبلا تعارض أو تناقض أو تضاد •

وكما لا يمكن معرفة الكائن الحى الا حيا متحركا ، كذلك لا يمكن فهم الحرية البشرية الا من خلال الموقف الابتلائى • واذا كنا قد قسمنا وفصلنا وضفنا هذه الحقائق ، فان ذلك للدراسـة والتوضيح فقـط • أما حقيقـة القضاء والقدر ، وحقيقة الخلافة ، وحقيقة الابتلاء ، والاختيار والاستطاعة والمعرفة كمقومات للحرية الانسانية ، فكل ذلك يعد بمثابة الاعضاء للكائن الحى لكل وظيفته وماهيته فى ذاته كعضو مستقل ، ومع ذلك فلا يعنى هذا استقلاله وانفصاله ذاتيا ووظيفيا عن سائر الجسد ، وانما هو جزء من كل، ولا يقوم وحده ، وفصله واستقلاله وقطعه عن الكل مضيع لمعناه ومبـدد ومفسد لوظيفته • كذلك كل هذه الحقائق المذكورة التى توضـح مـوقف الانسان وحقيقته لا يمكن معرفتها على حقيقتها الا من خلال الـكائن الحى الذى يجمعها جميعا فى اطار واحد ، ونعنى به الحرية الانسانية المتمثلة فى السلوك البشرى فى الموقف الابتلائى •

فالامر الابتلائى التشريعى لا يتعارض مع الامـر الكونى بل يؤدى

اليه ، فالاول تخييرى والثانى كونى أى أنه قضائى بنفاذ ما يختاره العبد بمشيئة الله ، فلا تعارض بينهما •

والجانب الجبرى من حياة الانسان يؤدى الى لحظات الاختيار الحرة، وحقيقة الابتلاء هى الوعاء الذى يجمع كل ذلك فى تناسق وتوازن واحكام •
والقدر السابق والحتمى للفعل البشرى لا يتعارض ، ولا يتنافى مع الحرية الانسانية ، ولا يجعل الفعل البشرى اختياريا فى الظاهر والمجاز وجبريا فى الحقيقة والاصل كما يزعم الجبريون ، بل هو فعل حر مكتمل الشروط والاركان التى يوجبها الشرع للفعل الحر ، ويفرضها العقل والمنطق كذلك •

وقيام الحرية الانسانية بالنسبة للافعال الخلقية التى يحاسب عليها المرء ، يعتبر الاصل الاول من أصول العدل الالهى بالنسبة للانسان • والعدل الالهى يقوم على أسس وأصول غير هذا الاصل ، ونعنى بهذا الاصل ، ما ثبت لنا أثناء البحث من مقومات الحرية الانسانية التى نستتبع بالضرورة مسئوليته ، ونستوجب جزاءه • أما موازين الحكم الالهى العادل لجزاء البشر ، فقد عرضها القرآن الكريم مفصلة مقبولة للعقل الانسانى ، ومتمشية مع خصائص الالوهية المطلقة كذلك ، التى لا يتم شىء فى الكون خلقا وفعلا الا بها • فيقرر أن الله سبحانه قادر على كل شىء ، فعال لما يريد واذا كان الظلم شيئا ، فهو قادر عليه • ولكنه أخبرنا سبحانه أنه قد تنزه عنه (من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد — فصلت : ٤٦) • ويقول (اليوم تجزى كل نفس ما كسبت ، لا ظلم اليوم ، ان الله سريع الحساب — غافر : ١٧) • ويقول أيضا (ان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون — يونس : ٤٤) • بل أن القرآن

ليثبت عدلا الهيا بألوهيته وربوبيته وكرمه وعلمه وقدرته ، وكل ما وصف به نفسه سبحانه بحيث يستحيل أن يتحقق هذا العدل بكيفه وكمه وصفته لسواه ، بل يستحيل على الانسان أن يتصوره تصورا نظريا ، أو يلم به عقله أو يحيط به فكره فهو يقول (بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا ــ النساء : ٤٩) • بل يصل عدله الى ما هو أعظم من ذلك وأقسط فيقول (ان الله لا يظلم مثقال ذرة ــ النساء : ٤٠) •

فأساس العدل الالهى يكمن فى قيام الحرية الانسانية وتوافر مقوماتها لافعال البشر الخلقية من جهة • ومن جهة أخرى دقة الحساب الالهى ، واعطاء كل ذى حق حقه ، فيجازى المسىء بقدر اساءته ، والمحسن بقدر احسانه • (وأن ليس للانسان الا ما سعى ــ النجم : ٣٩) • ويقول سبحانه وتعالى أيضا (بل الانسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ــ القيامة : ١٤) كما أنه لا يحاسب أحدا بعمل أحد (ولا تزر وازرة وزر أخرى) فكل نفس تحاسب يوم القيامة حسابا خاصا بها ، ذلك أنها تنفرد بحياتها وأعمالها ، كما تنفرد كذلك بما وهبها الله من امكانيات وطاقات ومواهب وقدرات • وكذلك فان مواقف الابتلاء التى مرت بها فى الدنيا ، والتى يسجل على العبد فيها نتائج اختباراته لهذه المواقف ، سيحاسب عليها فى الاخرة حسابا خاصا به وحده لانها خاصة به وحده • ومن ثم فالحساب يتم بالنظر الى الظروف الجبرية من المورثات والبيئة والاحداث الحتمية ومدى تأثير كل منها فى السلوك الاختيارى ودليل ذلك قوله (ولا نكلف نفسا الا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق ، وهم لا يظلمون ــ المؤمنون : ٦٢) •

وبالرغم من ذلك كله ، ومع أن الذى يحاسب هو العادل المطلق ، فانه يسمح لكل نفس أن تدافع عن نفسها وتجادل (يوم تأت كل نفس تجادل عن نفسها ، وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ــ النحل : ١١١) •

سيحاول الناس ابطال حريتهم تنصلا من المسئولية بالغفلة والجهل أو ينفى الاختيار • ولكن ذلك كله مردود عليهم كما مر بنا •

ولعل هذه الآية الكريمة قد شملت كل ما سبق من أصول العدل الالهى أو جله حيث يقول الله (من اهتدى فانما يهتدى لنفسه • ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ــ الاسراء : ١٥) • وهذا بيان بالقيم والمعايير والاسس التى يحاسب بها الله البشر (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين ــ الانبياء : ٤٧) • وهذه الاسس مقبولة عقلا ومنطقا لأن خالقها وخالق العقل ومنطقه واحد سبحانه وتعـــــالى •

وهذه أسس ليست ملزمة لله أو موجبة عليه شيئا ، وانما هو خالقها ، وقد أوجب سبحانه بمشيئته المطلقة منه العدل الذى أراده بمشيئته أيضا • وذلك بدليل قوله (كتب ربكم على نفسه الرحمة ــ الانعام : ٥٤) ويقــول أيضا (كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم الى يوم القيامــة لا ريب فيه ــ الانعام : ١٢) • فالكتابة هنا معناها أنه سبحانه تعفف عن القسوة فى غير الحق ، وتنزه عن الظلم • فمعايير الحسن والقبح والخير والشر ، والعدل والظلم ، مخلوقة له سبحانه وقائمة بمشيئته وارادته واذنه وهذا ما يثبته حديث أبى ذر الغفارى عن النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى (يا عبادى : انى حــرمت الظلم على نفسى ، وجعلته بينكم محرما ؛ فــلا تظالموا • يا عبادى : انكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ولا أبالى فاستغفرونى أغفر لكم • يا عبادى : كلكم جائع الا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم • يا عبادى : كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى أكسكم • يا عبادى : كلكم ضال الا من هــديته ، فاستهــدونى أهــدكم •

يا عبادى : انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفـعى فتنفعونى • يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا • يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم وأنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا • يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد ، فسألونى فأعطيت كل انسان منهم مسألته ، ما نقص ذلك من ملكى الا كما ينقص البحر اذا غمس فيه المخيط ، يا عبادى : انما هى أعمالـكم أحصيها لكم • ثم أوفيكم اياها • فمن وجد خيرا فليحمد الله • ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن الا نفسه) •

ولعل الحديث القدسى الآتى يوضح الصلة بين الله سبحانه وتعـالى وبين خلقه من الانس والجن حيث يبين ان صلته بهم فى الدنيا للابتـلاء ، وصلتهم به فى الاخرة للجزاء القائم على العدل ، بل ما هو فوق العدل ونعنى به الرحمة (انى والجن والانس فى نبأ عظيم ، أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى • خيرى الى العباد نازل ، وشرهم الى صاعد أتحبب اليهم بنعمتى ، وأنا الغنى عنهم • ويتباغضون الى بالمعاصى ، وهم أحـوج شىء الى • من أقبل الى منهم تلقيته من بعيد ، ومن أعرض عنى منهم ناديته من قريب أهل ذكرى أهل مجالستى • وأهل شكرى أهل زيارتى • وأهل طاعتى أهل محبتى • وأهـل معصيتى لا أقنطهم من رحمـتى ، ان تابوا الى فأنا حبيبهم ، فانى أحب التوابين المتطهـرين ، وان لم يتـوبوا فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لاطهـرهم من الذنوب والمعـائب • الحسنة بعشر أمثالها أو أزيد ، والسيئة بواحدة أو أعفو فان استغفرونى غفرتها لهم • رحمتى سبقت غضبى ، وحلمى سبق مؤاخذتى ، وعفوى سبق عقوبتى • وأنا أرحم بعبدى من الوالدة بولدها) •

فليس هو العدل اذا الذى يحاسب الله به عباده ، وانما هو ما فوق العدل ، انما هى الرحمة يحاسب بها الرحمن عباده •

أما تنزهه عن الظلم مع قدرته عليه سبحانه فيثبته قوله (انى حرمت الظلم على نفسى) وهو لا يعنى أو يستلزم ايجاب شىء على الله ، فهو فعال لما يريد ، وقد أراد العدل والرحمة للعباد وتعفف عن الظلم وتنزه عنه بمشيئته • فان قيل : ان هذا ايجاب عليه سبحانه • قلنا : هذا ايجاب عليه منه ولا يمس ذلك التوحيد بشىء ، كما لا يتعارض ذلك مع خصائصه وصفاته العلية •

ولكن قد يقول قائل : ان خلق الانسان ككائن حر الابتلاء هو العلة البعيدة التى أدت بالظالم الى الظلم ، ومن ثم الى دخوله النار • قلنا هذا حق • فان قيل : ومعلوم أن خلق الانسان واعطاءه الحرية ، انما هو جبر عليه وقهر ، حيث تم بلا اختيار منه ، وعلى ذلك تكون الحرية المعطاه له والمتخللة فى الزمان الدنيوى الابتلائى محسوبة ومقدرة ولا معنى لها ، ما دام قدومه الى الدنيا ودخوله التجربة من البدء جبريا دون اختيار منه • بمعنى آخر يمكن القول أن العبد قد لا يستطيع الاحتجاج بالجهل ، أو الغفلة أو عدم الاختيار أو عدم الاستطاعة نفيا لمسئوليته عن أفعاله الاختيارية المحاسب عليها ، ولكنه يستطيع الاحتجاج بأنه لم يكن راغبا ولا مختارا ولا حرا فى أن يكون انسانا حرا مختارا مستطيعا عالما مستعدا للابتلاء • أى أنه خلق مخلوقا حرا ، ودخل عالم الابتلاء دون اختيار منه ، وأنه لو خير من البدء لرفض اتقاء لهذا المصير ، وعلى ذلك فحريته الزمنية لا معنى لها • اذا قيل ذلك • قلنا : حتى الاحتجاج بهذه الحجة مرفوض ، لان الانسان قد قبل كل ذلك قبولا اختياريا حرا •

فهو لم يصبح انسانا مبتلى مزودا بالحرية لتحقيق الابتلاء ، الا بعد أن عرض عليه هذا الوجود الابتلائى فى لحظة اختيارية ، وهبها له الله أن يكون عبدا حرا بالمعنى المعروف لحرية الانسان • هذه اللحظة الاختيارية وهبها الله له ولبقية الكائنات ، وعرض عليهم جميعا أن يقبل أحـدهم أو جلهم أو كلهم الامانة فرفضوها جميعا ما عدا الانسان •

كما دخل الجن بعد ذلك عالم الابتلاء أثر معصـية ابليس ورفضـه السجود لآدم منافسة نه على خلافته فى الارض •

وعلى أى حال فان الفرصة ما زالت سانحة لـكل من يعترض هـذا الاعتراض من الانس أو الجن ، وهم فى حياتهم هذه ، لرفض هذه الحرية والعودة الى كينونتهم السابقة ، أى الى عبوديتهم لله سبحانه وتعالى كبقية الكائنات الاخرى بتنفيذ الامر الشرعى وتلقيه كأنه آمر كونى • فالابتلاء ــ كما مر بنا ــ هو دخول العبد فى موقف يخير فيه بين أن يكون حـرا فى الدنيا ليحصل عليها ، أو أن يكون حرا فى الآخرة • فالعبد اما أن يكون من أهل الدنيا فيعمل لها ويرضى بها ، واما أن يكون منأهل الآخرة فيسعى لها سعيها وهو مؤمن •

أما الذى يحتج بكونه أتى الى هذه الدنيا ووضع فيها كانسان وخليفة لله تحت الاختبار جبرا وليس باختياره ، فانه يرفض بذلك حقيقة الاختيار التى يعيشها فى حياته الآن ، والتى تخيره بين أن يكون حرا طليقا فى الدنيا يفعل ما يشاء ، ويحيا كما يريد ويهوى غير عابىء بشرع الله ولا دينه أو ملتفت لحرامه وحلاله وهذا طريق • وبين الطريق الثانى وهو ما يدخـل باختياره فى عبوديته لله فيأمر بأمره الشرعى • وينتهى عما نهى عنه ، رافضا حريته فى الدنيا ، محققا عبوديته لله فيها ايثارا لحريته فى الآخرة • وليس

أمامه الا هذين النهجين يختار أحدهما ، والناس جميعا ليسوا الا على هذين السبيلين ، اما طالب دنيا أو طالب آخرة ، وطالب الدنيا يعطيها الله سبحانه اياه كما فعل مع ابليس ، ومن ثم فقد أنظره الى يوم البعث • أما المتلجلج المنافق المذبذب بين هذا وذاك العابث بحقيقة الايمان والرافض للاختيار ، والمحتج على الله بأنه أتى للدنيا دون اختياره ، فذلك مجادل لا يبحث عن الحق أو الحقيقة وكأنه قد ظن بالله انه لن يعطيه الدنيا ولا الآخرة ، ونسب اليه العبث سبحانه بخلقه وتلك نغمة كثيرا ما نسمعها من ملحدى هذا العصر • وهؤلاء ليس لهم سوى رد واحد ، وهو أن نقول لهم : ان كنتم تدعون انكم أتيتم الى هذه الدنيا قهرا وقسرا ، وأنه لا سبيل أمامكم لدفع الظلم عنكم من الله ، فان كلا منكم قادر الآن على أن يخرج من هذه الدنيا اختيارا ، أى أنه قد أصبح أمامكم ثلاثة طرق • أما أن تكونوا من أبناء الدنيا راضين بها ، ومن ثم فلا معنى لاعتراضكم بأنكم أتيتم اليها جبرا ، لأن رضاكم بها دليل الاختيار • واما أن تكونوا من أبناء الآخرة • واذا لم يعجبنكم هذا ولا ذاك ، وظننتم انه لن ينصركم الله فى الدنيا ويعطيكموها اذا اخترتموها ، أو أنه لن ينصركم فى الاخرة ويعطيكموها اذا اخترتموها • ومن ثم يكون مافى أذهانكم من ميتافيزيقا الكون ، أنه لا اله وأن القوة الكبرى فيه منعزلة عن العالم ، أو أنها عابثة ظالمة خلقت الناس للعذاب فى الدنيا والعذاب فى الاخرة ، اذا كان ذلك مذهبكم ودينكم ، فليس أمامكم الا الطريق الثالث وهو رفض الدنيا والاخرة معا ، وذلك لا يكون الا بالانتحار ، وعلى كل منكم اذا كان مخلصا فى قوله جادا فيه أن يعلق رقبته فى حبل معدود فى سقف منزله ، وسيرى بعد ذلك هل يذهبن فعله ما يغيظه من وجوده الذى أراده الله : (من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ ــ الحج : ١٥) •

ان الله سبحانه وتعالى خير الانس والجن بين الدنيا والآخرة فمن يتمرد على ذلك ، ليس أمامه سوى الخروج مما يعتقد أنه الوجود كله ، أى حياته منذ مولده الى موته ، لأن مثل هـذا لا يؤمن بالغيب • ومن ثم فانه اذا كان ــ حسب زعمه ــ قد أتى للدنيا جبرا ، فانه قادر على الخروج منها اختيارا • وتلك الحقائق تتضح لنا اذا استعرضنا هـذه الآية السابقـة فى سياقها حيث يقول الله سبحانه وتعالى مخبرا عن هذا الفريق الثالث (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير • ثانى عطفـه ليضل عن سبيل الله له فى الدنيا خزى ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق • ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هـو الخسران المبين • يدعـو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ، ذلك هو الضلال البعيد • يدعو لمن ضره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير • ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار ، ان الله يفعل ما يريد • من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيا والآخرة فليمدد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر هل يذهبن كيده ، ما يغيظ • وكذلك أنزلناه آيات بينـات وأن الله يهـدى من يريد ــ الحج : ٨ــ١٦) • وهـكذا تبين الآيات أن الله يخبرنا عنهم أنهم ليسـوا طالبى دنيا فى الظاهـر وان كانوا طالبين لها فى الحقيقة ولكنهم يجـادلون لاضلال الناس فقط فيحتجون بمثل هذه الحجة المرفوضة •

فالعدل الالهى بذلك ثابت كما يليق بكماله وطـلاقة صـفاته سبحانه وتعالى ومركز الانسان الفرد فى الآخرة انما يتحدد بما حققه من كمالات بشرية تقربه من نموذج الانسان النائب لله سبحانه وتعـالى فى أرضـه الدنيـــا •

الكمال الانســـانى :

علمنا مما سبق أن الحرية الانسانية وسيلة وليست غاية ، حيث الغاية هى تحقيق أقصى الكمالات الممكنة فى طبيعة البشرية بتحقيق الخلافة • ومن ثم يقدم لنا القرآن الضمان الحقيقى لقيام المثل والقيم الخلقية وصيانتها ، بخلاف المذاهب والفلسفات التى تجعل الحرية الانسانية غاية وهدفا لذاتها فيصبح كل شىء مباح مما يزلزل القيم ويقضى على الاخلاق والمثل •

والغاية تتمثل فى تحقيق الذات الانسانية بتحقيق الخـــلافة ، وذلك ــ كما سنرى مرتبط بتوحيد الله أشد ارتباط • فقول الله سبحانه وتعالى فى آيات الخلافة « انى جاعل فى الارض خليفة » شاهد على ان الخلافة هى الماهية الانسانية ، أو الذات البشرية حالة كمالها الممكن على الارض • أى أن تحقيق الخلافة بتنفيذ شريعة الله وتكليفه اختيارا انمـــا هو تحقيـــق لانسانيتهم ، أو هو الوصول ببشريتهم الى تمام كمالها المقـــدر الممكن فى الحياة الدنيا ودليل ذلك قوله « انى جاعل فى الارض خليفة » أى الانسان، ولم يقل انى جاعل انسانا خليفة ، وذلك يعنى أن الخلافة هى الانسانية • ومن ثم فحصول الفرد على انسانيته ، انما يأتى لمجاهدته نفسه ومكابدته الابتلاء تلو الابتلاء مترقيا فى درجات الايمان (لقد خلقنا الانسان فى كبد ــ البلد : ٤) •

فاذا ساءت اختياراته ، ولم يقم بالتكليف ، وفقد الامانة ، فانه يفقد ذاته ويفقد معنى حريته التى زوده الله بها للحصول على هذه الذات • ومن ثم تفسد فطرته نتيجة تبديد أثر النفخة الالهية الكريمة فى كيانها • ويلقى الله مضيعا للامانة أو مبددا لها فى ظلمات المادة • وأساس النجاح أو الفشل هو اختيار الدنيا أو اختيار الآخرة (يا أيها الانسان انك كادح الى ربـــك

كدحا فملاقيه • فأما من أوتى كتابه بيمينه • فسوف يحاسب حسابا يسيرا • وينقلب الى أهله مسرورا • وأما من أوتى كتابه وراء ظهره • فسوف يدعو ثبورا • ويصلى سعيرا انه كان فى أهله مسرورا ـ الانشقاق : ٦ـ١٢) •

واعتبار الحرية وسيلة وليست غاية ، يعنى فقد الحرية بفقد الغاية التى جعلت من أجلها ولذلك فان الكافر الذى يتردى الى درك هابط بعيد عن الانسانية يصبح كالانعام أو أضل ويصبح عبدا لغير الله ، وليس متحررا من كل عبودية • أى أن ماهية الانسان كبشر على الارض تحتم أن يكون عبدا • فاما أن يكون عبدا لله فتتحقق خلافته وانسانيته وكماله المقدر • واما أن يكون عبدا لسواه فيفقد ذلك كله • وفى عبوديته لله حرية يمارسها دونه من الكائنات على الارض ، وكلها دونه ، وفى عبوديته لغير الله يفقد من ذاته ومن حريته بقدر الكائنات التى يخضع لها ويجعلها بينه وبين ربه • وأول هذه الكائنات التى يخضع لها الانسان ، اذا أشرك بربه ، الشيطان • وتحقيق الخلافة بالنسبة للفرد أو المجتمع يعنى ارتقاء الانسان لما فوق سلطان الشيطان والشر والهوى فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم انه ليس له سلطان على الذين آمنوا • وعلى ربهم يتوكلون • انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون ـ النحل : ٩٨ـ ١٠٠) •

ومن ثم فدخول الانسان فى عبوديته لله اختيارا ، هو السبيل الوحيد للمحافظة على حريته وتحقيق ذاته • لان اختياره لهذه العبودية الحقة ، يعنى انضمامه للكائنات الاخرى ، حيث يستوى عنده الامر التكليفى له بالامر الكونى لها • وهذا الانخراط فى العبودية لله مع سائر الكائنات على الارض ، حيث أنه ليس له بينهم مكانا سوى القمة كما أراد الله له ذلك بالخلافة •

والسماوات والأرض مركبة بالحق ، ومن ثم كان لزاما على الانسان لكى يصل الى هذه الذات الممتازة تقديرا وتخييرا ، أن يختار الحق من كل فعل وقول ، حتى ينخرط فى سلك الكائنات الاخـرى القائمة بأمـر الله ، أى بالحق •

والمكابرة التى توجب على الانسان المجاهدة الشاقة ، انما هى لوجود عوامل معاكسة ومناهضة للانسان تحاول أن تثنيه ، وتمنعه من الوصـول لتحقيق النيابة لله فى الارض • وعلى رأس هذه العوامل جميعا الشياطين وقوى الشر فى الارض ، وكل ذلك تحقيقا لحقيقة قرآنية عظمى ، هى حقيقة الابتـــلاء •

والانسان اما أن يكون نائبا لله ، أو نائبا لغيره • ومن ثم قال « انى جاعل فى الارض خليفة » فهو لا يمكن الا أن يكون خليفة ونائبا وعبدا لغير نفسه ، وباختياره ، أى اما أن يكون خليفة لله واما أن يكون خليفة لسواه • فاذا لم يحقق خلافته لله تردى الى درك سافل هابط من دركات المخلوقات الاخرى ، وشاهد ذلك قوله تعـالى (ولقـد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل سبيلا ــ الفـرقان : ٤٤) • وذلك باعتبار أن الانعام محققة لذاتها التى أرادها الله لها جبرا • والكافر مهدر لذاته التى جعلها الله له بالاختيار ، ويؤكد ذلك قوله أيضـا (ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجـرى من تحتها الانهـار ، والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم ــ محمد: ١٢) • وفى رحلة التسفل الهابطة بالبشرية الى دركات سحيقة يصل الانسان الى ماهيات وجودية أقل من الانعام فيصبح كالقـردة والخنازير أو حتى

يصبح جامدا كالحجارة قاسيا كالصخر وضرب لنا ربنا سبحانه وتعالى مثلا لهؤلاء الذين تسفلوا أكثر من ذلك فقال عنهم (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله ، من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القـردة والخنازير وعبد الطاغوت ، أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل ــ المائدة : ٦٠). وأكثر من ذلك قوله فى قلوب بنى اسرائيل (ثم قست قلوبكم ، من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وان من الحجارة لما يتفجر منه الانهار ، وان منها لما يشقق فيخرج منه المـــاء ، وان منها لمـا يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون ــ البقرة : ٧٤) . فأثبت تسفل قلوبهم عن كينونة الاحجار العابدة التى تهبط من خشية الله . وذلك ما أخبرنا به بقـوله عن عن الانسان بعامة الا المؤمنين (لقد خلقنا الانســان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ــ التين : ٤ـ٦) .

ومن ثم يمكن القول أن التوحيد الاسلامى هو السبيل الوحيد لتحقيق الخلافة فهو يعنى توحيد الله سـبحانه الهـا وربا للكون كله ، وتوحيـد الانسان وافراده على قمة المخلوقات فى الارض نائبا وخليفة لله العظيم ، وذلك هو أقصى كمال مقدر له كبشر ، لأن الشرك هو أن يجعل الانسان بينه وبين الله مخلوقات أخرى يفضلها على نفسه ، حيث يجعل مرتبتها أعلى من مرتبته ، وتكون تلك عباداته لها مع الله فيحفظ الانســان عن مـرتبته التى يجب أن يكون عليها ، ويتسفل الى أسفل سافلين وما ذلك الا بهدمه للترتب الكونى الذى أراده الله ــ بارادة تشريعيــة ــ له ليكون على قمــة هـذه المخلوقات نائبا عليها . فاما أن يكونوا حنفاء غير مشركين به ، فيصبحـوا خلفاء فى الارض ، وأما أن تهوى بهم الريح فى مكان سحيق فى أسفل سفلين (ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لـكم الانـعام

الا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الاوثان واجتنبوا قول الزور • حنفاء لله غير مشركين به ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ــ الحــج : ٣٠ــ٣١) • ذلك أن يكون مكانه القمة ، ليس له مكان اذا زحزح عنها الا أن يهوى فى مكان سحيق •

ولذلك فقد جاء التكليف من الله بمنهج معين فى الحياة هداية أكثر منه تكليفا ، بمعنى أنه النهج الذى اذا سار عليه الانسان ــ فردا ومجتمعا ــ حقق كماله المقدر وحافظ على الامانة ونجح فى ابتلائه ، وأقام الخــلافة ، واستحق بذلك الملك الاخروى اللامتناهى فى الآخرة •

ومن ثم فالكمال المقدر للفرد أو للجماعــة ، انما هــو كمال بشرى فى الدنيا ، وهو ان كان مقدرا ، الا أن ارادة الانسان الحرة ومبادرته للعمــل هى من عوامل الوصول اليه •

ووسيلة ذلك هو اختيار العبودية لله انتقاء ونجــاة واســتعلاء على العبودية لسواه • وذلك يعنى أن يتلقى الانســان أوامــر الله التخييرية باعتبارها أوامر كونية واجبة النفاذ • ومن ثم يتحقق التوافق والانسجام بينه وبين بقية الكائنات المخلوقة ، فيأخذ كل كائن منها مكانه الحق ، ومكانته التى أرادها الله سبحانه وتعالى لكل منهم فيحتل الانســان قمتها ، حيث كون مهيمنا أو مسيطرا ومالكا زمام أمور كل شىء فى الارض ، مسخرا اياه أمر الله لتحقيق الخــلافة وتحقيق الانسانية باعلاء ذاته فــوق جميــع خلوقات على الارض •

أما اذا ترك التكاليف ايثارا للدنيا ، ورفض الخضوع بجانبه الاختيارى للاه فانه يشذ عن الكون المخلوق ، ومن ثم تتحطم الوحــدة والانســجام

والتوافق بينه وبينها وينبع الشر من بين يديه ، فيفقد الخلافة وتتحطم ذاته ويعجز عن الوصول لكماله •

وليست حقيقة الخلافة فى القرآن حقيقة انسانية بقدر ما هى حقيقة فى مفهوم الالوهية ، ذلك لأن الخلافة تعنى النيابة الانسانية لله فى الارض فهى قائمة على ارادة الله ومشيئته فى أن يكون للمخلوقات التى خلقها ترتيب وتفضيل بينها • فجعل أفضلها على الارض الانسان • كما جعله مفضلا على كثير ممن خلق • ومن ثم فلكى يكون المخلوق موحدا بحق ، لابد بجانب افراده الله سبحانه بذاته وصفاته ، أن يؤمن بالترتيب الذى أراده الله له بين المخلوقات ، ويتعامل معها جميعا على أساس هذا الترتيب • فلم يكن استحقاق ابليس للعنة والطرد من رحمة الله بسبب انكار الالوهية أو الربوبية وانما كان لمجرد رفضه الاقرار بهذا الترتيب بين المخلوقات والتفاضل بينها ، ثم التعامل معها ومع الانسان على أساسه ، حيث يكون الانسان مسيطرا ومهيمنا على كل حى فيها • ومثل ذلك أيضا عدم تحقيق الانسان الخلافة بتقصيره فى التكليف الذى اذا حققه ، فانما يتعامل مع ذاته ومع الكائنات بالتفاضل الذى أراده الله ، وبذلك يكون موحدا لله باقراره الترتيب الكونى للكائنات •

كما جعل الله هذا الترتيب الكونى لها مرتبطا أوثق ارتباط بالسلوك الخلقى الاختيارى للانسان • أى أنه أعطى الانسان مقومات حصوله على هذه المكانة المرموقة ونعنى بها الحرية بمقوماتها الثلاثة • ثم جعل حصوله ووصوله الى هذه المكانة نتيجة لاختياره وعمله ، فالله سبحانه وتعالى يصنع للانسان ذاته وماهيته بهذا العمل وذلك الاختيار •

وكما يتحدد موقف الانسان الفرد من الآخرة بمدى قربه وبعده عن

الكمال البشرى نتيجة عمله فى الارض ، كذلك يتحـدد مـوقف المجتمعات والامم • يقول الله تبارك وتعالى (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفيناه من عبادنا ، منهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير ــ فاطـر : ٣٢) • وقال كـذلك عن المجتمعات واختلافها فى القرب والبعد عن نموذج المجتمع الانسانى الرفيع (ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم فاسقون ــ الرعد : ١١) • فثمة أمة مقتصدة وأمة فاسقة وأمة سابقة فى الخيرات كالافراد سواء بسواء •

ومن ثم كان قول الله سبحانه وتعالى (ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ــ الاسراء ٩) • يعنى أنه يهدى الى أقوم السبل لكى يعيش الناس بشرا محققين لانسانيتهم ويمـوتوا مـؤدين لاماناتهم ، خالدين فى ملك لا يبلى ، ولو أنهم أقاموا القـرآن لنزلت عليهم البركات من السماء ومن تحت أرجلهم ويكونوا أمة سابقة للخيرات •

الحرية أساس لمنهج الحياة الاسلامى :

لقد حوى القرآن من نظم الحياة لجميع شعبها كل ما يحتاجه الفرد من تشريع فى علاقته مع ربه ، ومع ملائكته وأنبيائه ، ومع أفراد نوعه من بنى البشر والمجتمعات منهم كذلك ، ومع الطبيعة التى يعيش فيها وحيالها • فبين لنا القرآن الكريم وفصلت لنا السنة الصحيحة للرسول الكريم ، كل ما يلزم الانسان فى حياته اليومية والاجتماعية والتاريخية ، العـادية منها وغير العادية ، من طريق قويم واختيار سليم فى كل ما يمر به من مواقف ابتلائية • ومن ثم فالاسلام هو الحكمة المهداة من الله الى الناس ، وذلك مقابل العلم المكتسب من التجـربة والقائم على أجهـزة الادراك البشرى والذى هو هاد للاستطاعة المنفّذة للفعل المختار •

وفى علاقة الانسان بربه شرع له الشعائر التعبدية ، وعلى رأسها الصلاة • عبادة يومية ، خمس مرات فى اليوم والليلة • وجعل تاركها المنكر لفرضيتها كافرا أو مرتدا ومستحقا للقتل اذا لم يتب ويرجع عن انكار فرضيتها وتركها • وذلك باعتبار أن الصلاة الخاشعة هى المنهج التربوى ، الواقى من تلوث النفخة الالهية الكريمة ، التى أودعها الله جذور قلوب الناس من أدران المادة ، والحافظ لها من ظلمات الجسد البشرى ، فهى بالنسبة لروح الانسان وقلبه وباطنه ، كالغذاء الذى يمد الجسد المادى بالتماسك والنشاط والبقاء • ومن ثم فتاركها مبدد لاثر النفخة فيه ، كالممتنع عن الطعام ، قاتل لجسده • والانسان باتصاله بربه ، نافخ هذه النفخة وواهبها وعاطيها ، انما يصل نفسه بنور السماوات والارض ، تتغذى منه روحه وتستضىء ، وليس هناك وسيلة يشرعها القرآن لذلك سوى الصلاة والدعاء ، وتلاوة كلام الله • وما جاء من نوافل العبادات التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم • ذلك هو المنهج التربوى القرآنى ، يقوم على تقوية العلاقة بين العبد وربه ، ودوام الصلة بينهما •

وهذا الاساس هو أساس كل المناهج القويمة التى يشرعها القرآن للحياة فى المجتمع البشرى • وذلك أن القرآن والسنة ينظمان للانسان حياته الاجتماعية فى علاقته مع كل البشر : مع أسرته وجيرانه ودولته ، والانسانية جمعاء • والنظم الاجتماعية القرآنية تنبثق من حقيقة الخلافة وتتمشى مع فطرة الانسان وماهيته • وتقوم بحقيقة الابتلاء •

الحرية السياسية :

ففى تنظيم علاقة الراعى بالرعية ، تضمن المبادىء التى ينص عليها القرآن والسنة الحرية السياسية لكل أفراد المجتمع • كما تضمن للحاكم

الطاعة والاستجابة والتعاون مع المحكومين • ويتمثل النظام السياسى الاسلامى فى ثلاثة مبادىء هامة هى : حق الامة أو الرعية فى اختيار الحاكم، ثم حقهم فى مراقبته ومحاسبته على أعماله • والثالث مبدأ الشورى •

أما طريقة الاختيار للحاكم ، فان الذى اتبعه الصحابة هو أن يبايع أهل الحل والعقد الامام أو الخليفة الذى تم الاتفاق عليه • وأهل الحل والعقد هم (أئمة المسلمين وفقهاؤهم ورؤساء عشائرهم وأمراء أجنادهم وذوو الشوكة والمكانة والرأى فيهم)(١) • والبيعة (هى العهد على الطاعة فقد كان المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر فى أموره وأمور المسلمين) (٢) •

وقد تولى الخلفاء الراشدون — وعهدهم هو العهد الذى يمثل مبادىء القرآن أصدق تمثيل(*) — بطريق البيعة من أهل الحل والعقد •

وقد أخطأ ابن خلدون حين قرر حق الامام فى تعيين خلفه على المسلمين ، مستندا بتولية عمر بن الخطاب ، اذ أنه غفل التفرقة بين الترشيح والتعيين حيث رشح أبو بكر عمر ولم يعينه ، وحيث تم تنصيبه ببيعة أهل الحل والعقد بعد وفاة أبى بكر(٣) •

أما حق الامة فى محاسبة الحاكم ، فقد نص على ذلك أبو بكر وعمر وسائر الخلفاء فى خطبتهم الاولى بعد مبايعة الناس لهم بالخلافة ، كما أن

---

(١) د. على عبد الواحد وافى — الحرية فى الاسلام ص ٧ .

(٢) ابن خلدون — المقدمة جـ٢ ص ٧١٩ ، الطبعة الثانية تحقيق د. على عبد الواحد وافى — نشر لجنة البيان العربى .

(٣) الحرية فى السلام ص ٩٨ وما بعدها .

* نقصد أصدق تمثيل فى حدود طاقة البشر وطبيعتهم القابلة للذنب والخطأ

ما حدث من عامة المسلمين لعثمان بن عفان خير دليل على ذلك • وان كانوا قد جاروا عليه باستخدامهم هذا الحق فى غير موضعه ودون مبرر معقـــول ومقبـــول •

والحق الثالث للناس على الراعى هو حق الشورى (والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ـ الشـــورى : ٣٨) فبين أن تلك صفة لازمة للمجتمع المؤمن كالصلاة وسائر الطاعات ، ومن ثم أمر نبيه أن يعامل المسلمين فى أمورهم بهذا المبدأ (فاعـــف عنهم واســـتغر لهم ، وشاورهم فى الامر ـ آل عمران : ١٥٩) •

هذه الحقوق الثلاثة للرعية على الراعى ـ مقابل حقه عليهم فى السمع والطاعة ، ما دام لا يأمر بمعصية • تحقق المساواة التامة بين النـــاس من جهة ، وبينهم وبين الفئة الحاكمة من جهة أخرى • وأساس هذه المساواة هى حياتهم جميعا وفق شريعة الله ، ذلك لان المساواة الحقة بين أفراد مجتمع ما فى القيمة الانســـانية لا تكون الا تحت لواء شرع ونظام ومنهـــج منزل عليهم من ربهم •

حرية العقيدة للافراد والشـــعوب :

والنتيجة الثانية ـ القائمة على حقيقة الخـــلافة ـ فى النظام الالهى القرآنى هى الحرية التامة لكل فرد من الرعية • ذلك لأن الحرية هى وسيلة تحقيق خلافة الفرد فى نفسه وفى مجتمعه ، ومن ثم فلا خلافة بدون حرية ، ولا انسانية بلا خلافة فلن تكون هناك انسانية بلا حـــرية اذا • ولذلك فان التشريع القرآنى يكفل للفرد ضمانات صلبة وراســـخة لحـــريته ، حيال المجتمع ورعايته • فجعل لكل فرد حق الاختيار فى كل أمور حياته وآخرته

هزيلها وخطيرها ما دام هذا الاختيار لا يتضمن اعتداء ظالما على غيره • فيجعل الاختيار بالنسبة للايمان بالله أو الشرك به حقا لكل انسان (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ــ الكهف : ٢٩) • وذلك لأنه ــ كما أثبتنا خلال البحث ــ مخلوق حر ، والحرية مكون أساسى فى طبيعته التى خلقه الله بها • فما دام ذلك حقه الذى أعطاه الله له ، فليس من حق أحد أو أى سلطة أن تسلبه منه ، حتى لو كان ذلك لصالح الايمان والاسلام • فلو أكره حاكم أحدا من رعيته على الاسلام ، لكان ذلك اعتداء منه على حق المكره الذى كفله الله له ، ورفض منه لارادة الله ومشيئته فى خلقه وذلك واضح صريح فى قوله تعالى لرسوله الكريم ، مبينا أنه ليس من حقه أن يكره أحدا على الايمان (ولو شاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ــ يونس : ٩٩) • فما دام الله قد شاء أن يكون الناس أحرارا مختارين بين الايمان والكفر ، فمن يكره انسانا على الايمان وهو مصر على الكفر أو الشرك ، فقد خالف مشيئة الله واعتدى على حق هذا الانسان الذى وهبه الله له •

أما ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فمن قالها فقد عصم منى دماءه وماله • رواه البخارى فى كتاب المغازى) فذلك لا يعنى اكراه الناس على الايمان بالقتال ، ولكن المقصود بالناس هنا أصحاب السلطان الجائرين فى الارض ، المكرهين للناس على الضلال والشرك ، الحاكمين بينهم بشريعتهم وأهوائهم •

هذا اذا أخذنا الحديث على اطلاقه ، أما اذا خصصناه بظروفه وملابساته ، يكن المقصود بالناس العرب ، وحكم العرب حيال هذا الامر يختلف عن حكم سائر الشعوب الاخرى • وذلك أن الرسالة نزلت على

العرب وكلفت بها أمة العرب ، فاما أن تحملها هذه الامة طواعية أو قسرا • فليس هذا سلبا لحريتهم بل هو تكريم لهم وتشريف لهم ان يحملهم ربهم رسالته الى العالمين وينصبهم خلفـــاء له فى الارض ويجعلهم قادة الامـــم ويورثهم الكتاب والنبوة وحسب سنته تعالى ان لم يقبلوها طواعية أو كرها ويكفروا بها فان الله عز وجل يوكل للرسالة قوما ليسوا بها بكافرين ، ورحمة بالعرب فانه عز وجل يعالجهم بشتى أساليب المعالجة ومنها محاولة حملهم على قبولها بالقوة كما فعل مع بنى اسرائيل حيث نتق فـــوقهم الجبل وقال لهم (••• خذوا ما أتيناكم بقوة) وهذا تشريع خاص بأصحـــاب الرسالة وليس لسائر الامم والشعوب الاخرى •

ولقد أثبتت الاحداث التاريخية التالية لعهد النبوة أن حمل العــرب وقتالهم من أجل لا اله الا الله محمد رسول الله كان خيرا لهم وعـــزا حيث سادوا الارض وحكموها وقادوا البشرية الى الحق والنور والحضارة التى لم يتكرر لها نظير من قبل ولا من بعد •

أما سائر الناس من غير العرب ، ففى الحالين ، أى حال أخذ الحديث على اطلاقة أو على تخصيصه للعرب فليس لاحد أن يجـــبرهم على اعتناق أى دين أو مذهب أو مبدأ حتى ولو كان على الحق النازل من عند ربهم •

أما حروب الفتح الاسلامى فهى لم تكن ضد الناس أى الشعوب بل كانت ضد الحكومات والجيوش والقوى الظالمة الحاكمة بغير شريعـــة الله والتى تقف حائلا بين الحق النازل من السماء الذى تبحث عنه هذه الشعوب بفطرتها وبين هذه الشعوب •

ومن ثم فمهمة الجيوش الاسلامية المجاهـــدة تتمثل فى ازالة هـــذا الحاجز المانع حتى يستطيع المسلمون تبليغ رسالة الله التى كلفهم بتبليغها

وحتى تبلغ كلمة الله آذان وأفهام الامم والشعوب وبعد ذلك يكون من حق كل منهم أن يؤمن أو لايؤمن (وقل الحق من ربكم فمن شـــاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ــ الكهف : ٢٩) •

فاذا كان الامر كذلك فانه يتبين لنا ــ أيضا عــلاوة على التوضـــيح السابق ــ اذا علمنا أن العرب يعيشون فى قبائــل تختلف عن الدول حيث كان الرجال فى كل قبيلة همجيش القبيلة المقاتل ، ومن ثم لم يكن ثمة جيش منظم كجيش الدولة الفارسية أو الرومانية هو الذى يقف حائلا بينهم وبين سماع الدعوة والاستجابة لها •بل كان سلطان القبيلة متحررا من سلطان الدولة وكل فرد فيها يعتبر أحد دعائمها بصفته محاربا من محاربيها لذلك قاتلهم الرسول حتى يقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله وانطبق عليهم الحديث بالمعنى الخاص والعام ، وذلك علاوة على كونهم أمة مكلفة بالرسالة وعليها أن تقبلها كرها أو طوعا •

أما الامم الاخرى فقد كان شأنهم مختلفا عن العرب من حيث أنهم لم يكلفوا بالرسالة مثل العرب ومن حيث الاحوال السياسية والاجتماعية والعسكرية فكانوا يعيشون فى دول وأنظمة طاغية مستبدة وحريصـــة على دوام أبنيتها الاجتماعية ، والمقاتلون فيها ليسوا هم الشعوب بل فئة منهم • فكان على الفاتحين المسلمين مقاتلة المقاتلين فقط •

ولذلك فان الجيوش الاسلامية لمـــا انســـاحت فى الارض ، لم تكن تقاتل شعوبا وأمما ، وانما كانت تقاتل جيوشا ودولا وسلطات ، حتى يصبح الناس مختارين أحرارا وحتى يمكن توضيح الحق من الباطل لهم ، بتبلغهم رسالة الله اليهم • ولم يحدث فى تاريخ الفتح الاســـلامى للعالم أو أجبر الجيش الاسلامى أحدامن الناس على الاسلام ويشهد بذلك بقاء أتبـــاع

للديانات الاخرى فى امصار العالم الاسـلامى المفتوح على دياناتهم حتى اليوم رغم اسلام الكثرة منهم • ولذلك فان الآية الكريمة تبين أنه ما دام قد تبين الحق من الضلال ، والرشد من الغى فلا اكراه لاحد فى الدين • وانما الاكراه والقتال يكون لهؤلاء الذين يقفون سدودا وحواجزا بين الناس وبين الحق والايمان ونهج الله القويم وذلك لازالة هذه السدود وهـدم القلاع التى تحجب النور النازل من السماء الى الناس • فاذا زالت وخـلى بين الناس والايمان واستبان لهم النجـدين والطريقين ، تركـوا وشـأنهم ، واختيارهم الحر فقال الله (لا اكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ـ البقرة : ٢٥٦) • ومن ثم فالحديث الشريف يعنى تحرير الناس عقيـديا وفكريا بقتال القوى الظالمة المضـلة لهم ، ثم ترك الناس وشأنهم أى أن القتال شرع فى الاسلام لرفع الاكـراه والجبر عن اختيار الناس ، وازالة عوامل اضلالهم عن الحق تحريرا لارادتهم وعقولهم

ومن ثم فالمبدأ الذى سار عليه المسلمون فى معاملتهم وحروبهم مع أهل الاديان الاخرى واضح صريح ونابع من حقيقة الحرية الانسانية المـؤكدة فى القرآن • فكانوا يتركون من يشاء من أهـل البلد المفتوح على دينـه ، ويقبلون من يشاء أن يشاركهم أخوة الاسلام • ومعاهدة عمـر بن الخطاب مع أهل بيت المقدس عقب فتح المسلمين له ، نشـهد بذلك حيث جاء فيها (هذا ما أعطى عمر أمـير المؤمنين أهـل ايليا مـن الامان : أعطاهم أمانا لانفسهم ولكنائسهم وصلبانهم •• لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من خيرها ، ولا من صلبهم ، لا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم) وكذلك عهد عمرو بن العاص لاهل مصر(هذا ما أعطى عمرو ابن العاص أهل مصر من الامان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصـلبهم وبرهم وبحرهم ، لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينقص) •

وذلك التشريع السياسى العام فى حرية العقيدة ، ينسحب على تشريع الحرية العقيدية بين الزوجين ، فلا يسمح الاسلام للمسلم المتزوج باليهودية أو النصرانية أن يجبرها على ترك دينها أو أن يمنعها من أداء شعائرها التعبدية فى كنيستها ، بل تذهب بعض مذاهب الفقه الاسلامية الى وجوب مصاحبة الزوج المسلم للزوجة الكتابية الى كنيستها أو بيعتها للصلاة اذا أرادت [١].

ولقد أثار مخالفو الاسلام من مستشرقين وغيرهم شبهات حول انتشار الاسلام نتيجة الفتوحات الاسلامية ، زاعمين أن من أسلم من مواطنى البلاد المفتوحة ، انما أسلم تحت السيف . ولكن ذلك ينص ما سبق عرضه من حقائق عن الالوهية والانسان وحقيقة الابتلاء والخلافة . افتراء مناف للصحة والصواب . فلم تكن حقيقة الحروب الاسلامية سوى تحريرا للناس من أوضاع ونظم ظالمة غاشمة . تستعبد الشعوب للحكام من دون الله ، وأصدق تعبير وأوضحه على هذا المبدأ الهام هو قول ربعى بن عامر لملك الفرس عندما سأله عن سبب غزو المسلمين لبلاده قبل موقعة القادسية قال (الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ومن جور الآديان الى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة) ولن تتحقق خلافة الله فى الارض الا بهذا التحرير .

الحرية الاقتصادية :

والشعبة الثالثة من شعب الحرية الانسانية بعد الحرية السياسية والعقيدية هى الحرية الاقتصادية وهى لا تقل خطرا عن الآولى ويقدم

---

(١) الحرية فى الاسلام من سلسلة كتاب اقرأ ص ٦١ د. عبد الواحد وافى

الأسلام كمنهج لضمانها لكل فرد ، نظامه الاقتصادى الاســـلامى المحكم المنبثق من حقيقة الخلافة ، وذلك أن اعتبار الانسان خليفة الله فى أرضـــه يعنى تملكه لها ، واستغلاله لثرواتها ومنتجاتها ، وتعبيد كل ما عليهـــا من نبات وحيوان ومعادن لمعاشه ومتاعه المشروع • وما دام الناس كلهم أيضا خلفاء فى الارض ، فقد أطلقت التشريعات الاقتصادية الاســـلامية طاقات العمل عند كل الافراد فى المجتمع للاستغلال والبناء والتعمير والانتاج وفى شتى ضروب النشاط الاقتصادى • فأباح الاسلام الملكية الفردية ، تمشيا مع الفطرة الانسانية ، واطلاقا للطاقات البشرية الى آخر مدى مقدر لها ، وجعل هذه الملكية هى الأجر الطبيعى ، والمكافأة العادلة لمن يعمل ويجتهد لاستخراج الارزاق للناس من الارض • كما أنه لا يمكن أن تتحقق خلافة لأحد بدون ملكية •

ومن الطبيعى أن تفاوت الناس فى مواهبهم الموروثة التى خلقهم الله بها ، يستتبع تفاوتا بينهم فى طاقة كل منهم على العمل والانتاج واستغلال الارض • ومن ثم يستتبع ذلك فروقا بينهم فى ملكياتهم • ولا يمنع الاسلام ذلك ، ولكنه يجعله مسموحا بشروط البشرية فوجـــود أغنياء فى المجتمعات البشرية أمر قد أراده الله ، وشاءه لابتـــلاء الناس • ولكن الذى يحتمـــه التشريع الاقتصادى الاسلامى حماية للحرية الاقتصادية لافراد المجتمع ، هو أن يكون للفقراء والمساكين واليتامى والعجـــزة ، حـــق فى مال هـــؤلاء الاغنياء ، بقدر كثرة هذا المال ،وتلك هى الزكاة •

ذلك أن الاسلام فى مقابل اطلاق أيدى الناس ، أصـــحاب الطاقات البناءة والعاملة فى ثروات الارض ، يمتلكون من خـــيراتها ما يشاؤون وما يستطيعون ، يجعل لهؤلاء الذين يملكون وسائل الانتاج والقدرات الجسدية

والذهنية والعقلية ، فعجزوا على الكسب والامتلاك كالعجزة واليتامى والمساكين وأبناء السبيل وكل من أقعدته ظروفه الجبرية عن الكسب ،يجعل لهم حقا فى مال الاغنياء لان ما يكسبه المستطيعون نتيجة عملهم واستغلالهم لثروات البر والبحر ، انما هو رزق مقدر من الله للجميع •

ويتضح لنا ذلك الامر بمعرفة مفهوم الملكية فى الاسلام ، باعتباره الاساس الفلسفى للنظام الاقتصادى الاسلامى •

وينبثق مفهوم الملكية فى الاسلام من حقيقة الخلافة ، ولا تؤدى الملكية وظيفتها فى المجتمع على الوجه الاكمل الا بالنظر لحقيقة الابتلاء والخلافة• فما على الارض من وسائل مادية ومواد للانتاج والاستهلاك البشرى من أرض زراعية ونبات وحيوان وعقار ومصانع ومساكن ومعادن ، انما هو ملك لله سبحانه وتعالى • وما جعله الله بين أيدى الناس الا ابتلاء لهم واختبارا ، لينظر ما يفعلون فيه • فالملكية الحقيقية لله وحده ، باعتباره عز وجل المالك الحقيقى والاوحد لكل مافى العالم (له مافى السماوات وما فى الارض وما بينهما وما تحت الثرى ــ طه : ٦) • أما ملكية الانسان لما تحت يديه ، فليست الا تمليكا مؤقتا جعله الله خليفة عليه ليبتليه ومن ثم فهى ملكية استخلاف ، وليست ملكية مطلقة دائمة حقيقية (وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ــ الحديد : ٧) •

وكون البعض مستخلف على المال دون البعض ، قد جعله الله من الظروف الجبرية لقيام التجارب الابتلائية بين الناس على الارض • أى أنه جعلهم أغنياء وفقراء ليبتليهم بعضهم ببعض • وذلك ليرى هل سيؤدى الاغنياء حق الفقراء أم لا •• وجعل بيان حق كلذى حق بالتشريع الالهى الاقتصادى • ومن ثم قال فى الحديث القدسى (الاغنياء وكلائى ، والفقراء عيالى فاذا بخل وكلائى على عيالى ألقيت بهم فى النار ولا أبالى) • وذلك

أن الله سبحانه وتعالى قد أخبرنا أنه قد أنزل لكل مخلوق حى على الارض رزقه ، وما يكفيه ، باعتباره رازقا وعائلا لخلقه جميعا فقال (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسى من فوقها،وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين ــ فصلت : ١٠) • أى أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الارض ــ منذ خلقها مهيأة لتخرج لكل من يولد عليها من الاحياء رزقه وقوته الذى يكفيه الحياة اللائقة به • وذلك سواء للسائلين ، أى لمن يسعى فيها ويأخذ بالاسباب من زرع ورعى وتصنيع وغيره •

ولكن لما كان الاجتماع البشرى يوجب أن يكون ثمة رعية ورعاة ، فان الرعاة من الاغنياء والحكام قد وكلت لهم أرزاق الناس وأقوات الرعايا التى قدرها الله لهم سواء • فان أدوها فقد نجحوا فى ابتلاءاتهم ، وحققوا خلافتهم الاقتصادية لله فى الارض ، وأعادوا للناس حقوقهم الاقتصادية• ومن ثم فان الله أدخل المرأة التى حبست الهرة حتى ماتت جوعا ، النار لانها لم تطعمها أو تتركها تلتقط رزقها المقدر لها من الارض • فهى لم تقتلها ولكنها منعت عنها رزقها الذى قدره الله لها يوم أن خلق الارض مما أدى الى موتها •

وكذلك كل انسان فقير معدم على الارض ، أو جائع أو بائس أو مسكين فى مجتمع ما ، انما هو مسلوب الحق باعتبار أن الثروة قد أعطيت للراعى أو الاثرياء ليوزعونها ، لا ليحتجزونها لانفسهم ، فهم ليسوا مالكيها الحقيقيين بقدر ما هم نواب مستخلفون عليها من الله •

ولقد شرع الاسلام للناس كيف يوزعون الثروات على الفقير والبائس والمحتاج وجعل نظام الزكاة جزء يسير من مال الغنى يؤدى للدولة ، ثم

يوزع على مستحقيه هو النظام الاقتصادى المتكفل باعطاء الجميع حقوقهم (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ـ الذاريات : ١٩) • فجعله حقا قدره الله لهما منذ خلق الارض ، وجعل الزكاة هى وسيلة رجوع هذا الحق لاصحابه •

وليس أدل على أن الارزاق مقسومة بين الناس أن الله سبحانه وتعالى حينما يمسك الرزق على أحد جبرا لابتلائه انما يتم ذلك بتقصير الاخرين فى آداء حق المال الذى فرضه عليهم • وهذا معنى قوله (فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن • وأما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه ، فيقول ربى أهانن كلا بل لا تكرمون اليتيم • ولا تحاضون على طعام المسكين • وتأكلون التراث أكلا لما • وتحبون المال حبا جما ـ الفجر : ١٥ـ٢٠) • أى أن الاكرام والانعام من الله ابتلاء للعبد بمعنى أنه وكله على المال وجعله مستخلفا فيه ليبتليه • بينما التضييق فى الرزق على الاخر ـ وان كان بارادة الله لابتلائه ـ الا أنه فى الحقيقة ناتج من تقصير الذين استخلفهم الله على المال فى أداء الحق المعلوم للسائل والمحروم فنفى أن يكون ذلك الشر منسوبا لله حيث قال « كلا بل لا تكرمون اليتيم » • فجعل سلوك الاغنياء والمستخلفين على المال المخالف لتشريع الله المالى ، السبب فى فقر الفقراء وجوع الجائعين •

ومن ثم فالحرية الاقتصادية لكل فرد فى المجتمع ، لا تتم الا بتنفيذ التشريع المالى الاقتصادى فى القرآن الكريم • ذلك أن الاباحات فى استعمال المال ، وفى اطلاق الملكية ، واستغلال ثروات الارض ، كل ذلك مكفول بالحرية الاقتصادية التى تعتبر حقا للجميع • أما الالزامات حيال هذا الحق، والتحريمات التى ينص عليها الفقه الاسلامى فى بعض استعمالاته

والتشريعات التى تمنع الاستغلال الناتج من اطلاق الحرية الاقتصادية ، انما جاءت كلها لمنع غبن يقع على بعض فئات المجتمع وأفراده ، الذين اقتضت ظروفهم الجبرية عدم استطاعتهم مشاركة الاخرين استغلال الموارد الطبيعية ، لنيل حقوقهم المقسومة لهم بحكم وجودهم كبشر على الارض •

فاذا قام الناس فى المجتمع لاستعمال حقوقهم ، ثم أدوا ما عليهم من التزامات أوجبها الله عليهم نحو الفئات العاجزة ، تحققت الحرية الاقتصادية لكل أفراد المجتمع وحدث التوازن المطلوب •

فاذا قام الناس فى المجتمع لاستعمال حقوقهم ، ثم أدوا ما عليهم من التزامات أوجبها الله عليهم نحو الفئات العاجزة ، تحققت الحرية الاقتصادية لكل أفراد المجتمع بلا استثناء ، وحدث التوازن المطلوب •

الحرية السلوكية :

والشعبة الرابعة ــ من شعب الحرية الانسانية فى واقع الحياة البشرية الاجتماعية خاصة بنظام الحياة الخلقى • وأسس هذا النظام فى القرآن هى كون الانسان حر مختار مسئول عن عمله • وأن الدنيا دار عمل وابتلاء ، والاخرة دار الجزاء ومن ثم فانه لكى ينال كل فرد جزاءه الحق فى الاخرة عن جداره واستحقاق استوجب ذلك أن يكفل له النظام الخلقى حرية الاختيار أثناء حياته البشرية على الارض • أما بالنسبة لما أكره عليه أو اضطر عليه فانه لا يحاسب عليه • فجاء منهج التربية الخلقى فى الاسلام قائما على الايمان بالله واليوم الاخرة ، باعتبار أن الله سبحانه محاسب عادل ، وسينال كل واحد جزاءه يوم القيامة • وبذلك تتكون لدى كل فرد نتيجة تربيته على هذه المبادىء وايمانه بها ــ ملكة فى قرارة نفسه وعمق ضميره ، تكون بمثابة جهاز شرطة قوى وأمين على اختيارات العبد وسلوكه•

وبعدذلك نطلق فى المجتمع الاسلامى الحرية الخلقية التى تكفل لكل فرد أن يتصرف فى موقفه الابتلائى الخاص كما يشاء ويختار ولكن لما كان العمل الخلقى انما هو من الفرد نحو آخرين ، فان هذا الاختيار ــ وان كان من حق الفاعل ــ الا أن تبعات عمله لها أيضا آثارها على حرية الاخرين وحقوقهم •

والنظام الخلقى فى الاسلام يتساند مع النظام السياسى والاقتصادى لضمان الحريات للجميع سواء • ومن ثم حين يطلق حريات الافراد الخلقية، انما يجعل لها الزامات وتبعات ويحاسب الفرد عليها بناء على اختياراته منعا للاعتداء على حريات الاخرين وحقوقهم وحياتهم وأموالهم فجعل للقاتل متعمدا القتل جزاء له ولحفظ حياة الاخرين (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الالباب ــ البقرة : ١٧٩) • بل تضمن التشريع الاسلامى ما يعرف بالحدود حفاظا على حرية المسلمين فى المجتمع باعتبار أنهم جميعا خلفاء لله سواء • كما أنه جعل فى نظامه ما يمكن تسميته بالسبل الوقائية القاضية على التربة المتيحة لانبات الرذيلة والشر فى المجتمع،قبل اقامة هذه الحدود•

الحرية الاجتماعية :

أما الحرية الاجتماعية ، والتى تعنى كون المواطنين جميعا سواء فى الحقوق والواجبات بلا تميز طبقى ، أو تفاوت بينهم من حيث القيمة الانسانية مفهوما وتطبيقا فالقرآن والسنة يشملان من النصوص العديدة ما يثبت ذلك بوضوح وجلاء • وتنبثق فلسفة النظام الاجتماعى فى القرآن من حقيقة الخلافة وتعللها حقيقة الابتلاء كما مر بنا تفصيلا من قبل ــ فوجدنا التفاوت والدرجات بين الناس فى المجتمع فى شتى المجالات ، واقع بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، حيث خلقهم متفاوتين فى المواهب وسعة

النفوس والعقول ، وما عليه كل منهم من الجمال والصحة وأحوال البيئة والظروف الخاصة لكل أسرة ولكل فرد • وقد شاء الله كل ذلك للابتلاء • ولكن هذه الحالات الاجتماعية بين الناس ليست سوى حالات مؤقتة وأسئلة متنوعة يخلق الله العباد فيها تحقيقا للابتلاء •

وبذلك يوجب الشرع على الخادم حب مخدومه وطاعته وآداء واجبه نحوه باعتبار أن ذلك أمر الله ومشيئته لابتلائه ، كما يوجب فى الوقت عينه حب المخدوم لخادمه وحسن المعاملة واحترام آدميته ، وأداء حقه اليه غير منقوص باعتباره انسانا مثله بل باعتباره أخا له ، وباعتبار أنه مبتلى كذلك• ومن ثم فليس الاسلام طبقات بين الناس بمفهوم الطبقات الاجتماعيةوانما هى درجات ويستحيل أنيخلو مجتمع ما من الدرجات التى تعرف فى علم الاجتماع بالسلم الاجتماعى الذى يأخذ الشكل الهرمى • وتلك الاسس التصويرية تحقق الوحدة الاجتماعية بين أفراد المجتمع بالحب والاخاء ، ويصبح كما وصفه الرسول عليه الصلاة والسلام (مثل المؤمنين فى تعاطفهم وتوادهم ، كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو ، تداعت له سائر الاعضاء بالحمى والسهر) •

ولقد اتخذ مخالفو الاسلام من أهل العقائد والفلسفات الاخرى من عدم تحريم الاسلام الرق ذريعة للهجوم عليه ، ورميه بأنه مهدر للكرامة الانسانية غير مقر بالحرية المدنية والشخصية والاجتماعية للناس • ولكن ما مضى من فصول هذا البحث لا يدع مجالا للشك فى أن القرآن يجعل الحرية من المقومات الاساسية للذات الانسانية وبدراسة موضوع الرق بمنهج علمى محايد تتكشف لنا عدة حقائق تاريخية واجتماعية ونفسية تجعل التشريع الاسلامى حيال هذا الامر التشريع الامثل الذى يضمن للجميع حريتهم وحقوقهم ، كما يثبت لنا ذلك أن هذا التشريع نابع ومنبثق من

الاسس العقيدية القائمة على الحقائق الانسانية التى تم عرضها بفصول هذا البحث •

أما عن الحقائق التاريخية فمن المعروف أن الرق كان نظاما سائدا فى جميع أنحاء العالم وقت نزول القرآن ، كما أن أسرى الحروب كانوا موردا هاما من موارد الرق ، فلو حرم التشريع القرآنى الرق لكان ذلك اجحافا فى حق المسلمين حيث يسترق أسراهم ولا يسترقون هم أسرى العدو • ومن ثم يمكن القول أن الظروف التاريخية العالمية فى ذلك الوقت حتمت عدم تحريمه •

وبالنسبة للحقيقة الاجتماعية أن هذا النظام كان واقعا اجتماعيا متوارثا منذ أجيال بعيدة تعود عليه الرقيق وأولياؤهم من المواطنين ، فعمد التشريع الاسلامى الى علاج هذه الظاهرة الاجتماعية التى تتعارض مع مبادئه وحقائقه عن الانسان بالتدريج والتؤدة حتى لا تحدث من الاضرار الاجتماعية ما يغطى ويفوق الفوائد التى ستعود على المجتمع من التحريم السريع •

كما كان نظام الرق يشكل واقعا اقتصاديا كذلك ، ومن ثم كان التشريع الخاص بالرقيق كفيلا بانتهاء هذه الظاهرة الاجتماعية بالتدريج دون مساس بملكيات الناس وحقوقهم أما العامل النفسى فهو خاص بالرقيق أنفسهم ، وذلك أن الاسلام كما مر يثبت الاختيار للانسان الحر النابع من ارادته مقوما أساسيا وذاتيا لانسانيته ومن ثم فقدعمد الى حض الرقيق أنفسهم على العبادة باختيارهم لطلب الحرية والخروج من الرق • كما أن تحرير العبد الذى تطاولت عليه وعلى أجداده القرون فى الرق بقرار حاسم يورثه من الاضطراب والحيرة والارتباك ما يجعله فى محنة قاسية حيث يجد

نفسه مرة واحدة مسئولا عن نفسه فى المجتمع بينما هو لا يشق من الناحية المهنية الا أن يكون عبدا أو خادما فى منزل • ولذلك وجدنا بعض عبيد الولايات المتحدة الامريكية يعودون بعد اصدار قرار عتقهم الى منازل أسيادهم مرة ثانية لانسداد سبل الحياة أمامهم فى المجتمع •

ولقد عمد التشريع الاسلامى لانهاء الرق وعلاج الامر بالتؤدة بعدة وسائل كان من نتيجتها انتهاء الرق تماما فى العالم الاسلامى بينما استمر قرونا عديدة بعد ذلك فى غيره وسبيله فى ذلك تضييق منابع الرق حيث حرمها جميعا ما عدا استرقاق أسرى الحرب حيث أوجبت الظروف التاريخية والدولية فى هذا الوقت ذلك من قبيل المعاملة بالمثل مع البلاد المحاربة للمسلمين • كما أنه أكثر ووسع من مصارفه حيث جعل من تشريعات الكفارات فك الرقاب ، وجعل عتق الرقيق لوجه الله من القربات اليه ، كما أوجب على السيد معاملة عبده معاملة الاخوة والمساواة التامة بينه وبينه وأخيرا جعل فى بيت المال حصة لعتق من يريد من الرقيق ، كما جعل نظام المكاتبة حقا مشروعا لمن يطلب من العبيد التحرر على أن يقضى ثمنه بعد ذلك باعتباره دينا عليه • كل ذلك يثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الاسلام لم يبح الرق بل انه عمل على تقويضه واقتلاعه من جذوره تماما[1] •

وهكذا وجدنا أن الاساس الفلسفى للتشريع الالهى للحياة البشرية فى الارض ــ كما جاء فى القرآن ينبثق من الموقف الوجودى للانسان بين سائر

---

(١) الحرية فى الاسلام ــ (ص ١ = ص ٨٨) •

المخلوقات وقائم أساسا على علاقته بخالقه ومتمشيا مع ماهيته وطبيعته التى خلقه بها المشرع سبحانه وتعالى •

فالانسان ــ كما علمنا ــ ليس روحا خالصا ، كما أنه ليس طينا خالصا ، وانما هو ماهية جديدة متميزة عن الروح والمادة والكمال المقدر لهذه الماهية لا يتحقق بتخليها عن العنصر المادى والاقلال من شأنه ، أو اهمال متطلباته وضروراته واقتصاره على الجانب الروحى فقط • كما انه لا يمكن أن يتم أيضا باغفال الجانب الروحى أو اهماله • ومن ثم جاء التشريع الالهى للحياة الانسانية ملبيا لكل جوانبها متعاليا بقدراته الروحية والعقلية الى الآفاق التى يمكن أن تتصل اليها ، وفى نفس الوقت مشبعا لما يحويه الانسان بين جوانبه من غرائز وشهوات •

فالكمال البشرى هو تحقيق الانسانية ، وذلك لا يتأتى فى الاسلام الا قائما ومركوزا على هذه الماهية الجديدة التى هى وسط عجيب بين الروح والمادة • ومن ثم يتعامل هذا التحديد للكمال الانسانى مع ماهية الانسان ولا يتعامل مع روح فقط كما انه لا يتعامل مع مادة فقط •

ومن ثم فالتوازن بين خصائص العناصر الطينية فيه وبين خصائص العناصر الروحية هو الافق الاعلى الذى يطلب من الانسان أن يبلغه • فليس مطلوبا منه أن يتخلى عن طبيعة أحد عنصريه ليكون ملاكا أو ليكون حيوانا •

ولذلك جاء التشريع القرآنى وسطا بين السبل التى يمكن أن يحيا بها الانسان ومحققا للغاية التى خلق من أجلها ، والتى تحقق له سعادته فى الدنيا والآخرة كما جاء متمشيا مع الفطرة ملبيا لحاجاتها • ولذلك قال الله فى القرآن الكريم عن تشريعه والتشريعات الارضية الاخرى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم

وصاكم به لعلكم تتقون ــ الانعام : ١٥٣) • وفى تفسير هذه الآية الكريمة خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مستقيما على الارض ، ثم جعل خطوطا خارجية عن يمينه وعن يساره ، ووضح أنها السبل • ولا شــك أن المقصود بخطوط اليمين على الخط المستقيم ، هى مناهج الحياة المثالية التى تحاول الاعلاء للروح على حساب الجسد وضروراته فتدمر الذات الانسانية• وكذلك يمكن النظر الى خطوط اليسار المنحرفة عن الخط المستقيم على أنها تعبر عن مناهج الحياة البشرية التى تتعامل مع الجانب المادى فقط مهمــلة النواحى الروحية للانسان وهو تدمير أيضا لذاته •

ومنهج الوصول للكمال المقدر للنفس البشرية على الارض هو تحقيق الخلافة على النحو الذى أراده الله وبالكيفية التى كلفه بها • ومن ثم شرع الله الجهاد فى سبيل ذلك فرضا على كل مسلم • فالجهاد فى الاسلام هــو سبيل المسلمين لدحض قوى الشر فى الارض واقامة حكم الله فيهــا حتى يتحقق لأفراد البشرية جميعا المناخ المناسب والظــروف المحققة لصــحة الاختيار البشرى •

ومن ثم تكون الخلافة نمطا سلوكيا للفرد وأسلوبا لحياة الجماعــة منزلا من عند الله تعالى • والفرصة لتحقيقها هى الحياة الدنيا فقط ، حيث يستطيع الانسان بعد ذلك أن يحقق غايته •

الفصل التاسع

النتائج الغيبية للحرية الانسانية

ان النتيجة الحتمية للحرية البشرية على الارض ، التى تحدث بعد الحياة الدنيا ، هى أن يصير الناس فريقين : فريق فى الجنة وفريق فى السعير .

وتلك حقيقة قرآنية خطيرة ، تحدث عنها كثير وكثير من آيات الذكر الحكيم ، ذلك لان هذا الوجود الاخروى للبشر ، خالد باق فلا فناء ولا تحول بعده (بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ــ البقرة : ٨١ــ٨٢) . ذلك لان من أحاطت به خطيئته ، قد بدد الامانة ، حتى لم يعد لاثر النفخة الالهية الكريمة فى ذاته من النور والخير شىء . فاستحق الخلود فى النار لان المرء كلما كسب معصية وذنبا نكت فى قلبه نكتة سوداء ، حتى اذا أحاطت به خطاياه ، نتيجة اختياره الشر والمعصية على الدوام ، اسود قلبه . عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان المؤمن اذا أذنب كانت نكتة سوداء فى قلبه ؛ فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ، وان زاد زادت حتى تعلو قلبه ، فذلك الران الذى ذكر الله عز وجل فى كتابه (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) [1] .

ولا يقف تأثير اختيار المعاصى على صاحبها الى حد الران بل هناك الختم والطبع . ذلك أن العبد اذا زاد فى الشر امعانا واصرارا على الهوى ،

---

(١) قال الترمذى : حديث صحيح . عن كتاب ذم الهوى لابن الجوزى ص ٦٧

وايثارا للدنيا طبع الله على قلبه وختم على سمعه وبصره وذلك حيث يقول (ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ، ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ــ البقرة : ٦ــ٧) . فالختم على السمع والقلب والغشاوة التى تصيب بصر الكافر ، انما هى نتيجة كفره ومعاصيه .

وأشد من الران والطبع الاقفال على القلوب ، حيث لا تفتح بعدها للهدى أبدا حيث يكون الظلام قد عم تلك النفس وانمحى كل أثر لنور الفطرة وأغلق القلب بأقفال من حديد ليس لها من فاتح ، ذلك مثل قوله (أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ــ محمد : ٢٤) .

وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه حذيفة من أحوال هذه القلوب المنصرفة عن الهدى ، المقلوبة عن وضعها الصحيح والذى خلقها الله به وذلك بما كسبت من خطايا وذنوب ، قال (كنا عند عمر فقال : أيكم سمع ورسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن . فقال قوم نحن سمعناه : لعلكم تعنون فتنة الرجل فى أهله ، وجاره . قالوا : أجل . قال : تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة ، ولكن أيكم سمع النبى صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التى تموج موج البحر قال حذيفة : فأسكت القوم . فقلت أنا . قال : أنت لله أبوك قال حذيفة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء . وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير على قلبين : على أبيض مثل الصفا ، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والارض ، والاخر أسود مربادا كالكوز مجخيا ، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا ، الا ما أشرب من هواه)[1] ولا شك أن القلب الابيض مثل الصفا

---

(١) صحيح ــ مسلم ــ باب رفع الامانة والايمان .

الذى يحدثنا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد حافظ صاحبه عليه ، بمحافظته على نور الفطرة • ومن ثم فقد أدى الامانة •

أما صاحب القلب الاسود المرباد كالكوز المقلوب • فذلك هـو مضيع الامانة حقا ، الفاشل فى تحقيق الخلافة والنيابة لله فى الارض ، مما استتبع فقده للنيابة الحقيقية والملك الخالد الباقى فى جنة كعرض السماء والارض • واستحق النار خالدا فيها ، جزاء وفاقا وعدلا من الله ، وعودة بالمـوازين القسط الى الحق الذى يقوم به الكون كله •

فالانسان على الارض ــ كما مر بنا ــ ليس سـوى خليفة لله تحت الاختيار ، أو نائبا له على سبيل التجربة • وتلك هى حقيقة الابتلاء ومعناها الاجمالى • فاذا نجح فى الاختيار وحقق الخلافة الاختيارية لله فى الارض ، أثبت جدارته واستحقاقه للخلافة الابدية الخالدة ، والنيابة لله فى ملك كبير• واذا فشل ، فبدد الامانة وضيعها فان مصيره النار •

فكون الانسان كائنا مبتلى ناتج من أن النفخة الالهية الكريمـة التى نفخها الله جل وعلا فى الطين فصار انسانا ، اسـتنتج ذلك جمـع الذات الانسانية المتناقضات ، والمتضـادات حيث حـوى فى ذاته أثرا من الخالد الباقى العالم القادر ، المريد للمختار • كما حوى الانسان من عناصر الطين الفانى الضعيف القاصر المحـدد المنسـفل بالنسبة لدرجات الموجـودات الاخرى ، ومن ثم فان موضوع الابتلاء هو محاولة الانسان المحافظة على ما أعطى من روح سامية رغم ضرورات المادة وجبرية الطين وقهر الواقـع الناتج عن تركيب الحياة فى الارض •

ان الابتلاء نجاحه أن يختار المرء فى هذه الحياة الدنيا فيما يجتازه من أحداث وتجارب يومية الطاعة ، حتى لا يحدث خدشا أو كسرا أو تلويثا لما

استودعه الله اياه • وعليه أن يحيا وفق ما أمره الله به ، ويبتعد عما نهاه الله عنه ، ويقوم بما كلفه شرعا عن طريق الوحى حتى يعبر هذه الحياة الدنيا قابضا على أمانته كما هى ، ان الامانة لا تتبدد ولا تضيع ولا تفنى فالروح ، باعتبارها أثرا من آثار النفخة الالهية الكريمة ، ولكنها تتغير وتتحول ــ نتيجة المعاصى والكفر ــ فتتلوث بأدران المادة الملتبسة فيها •

وهذا التغير والتلوث ليس لمجرد وجودها فى هذه المادة لان مجرد هذا الوجود انما بمشيئة الله وخلقه • ولكن ذلك يحدث نتيجة مخالفة الانسان باختياره وارادته للمشيئة الالهية التشريعية لحياة الانسان على الارض • فالعاصى أو المخالف لهذه المشيئة مغير لفطرته مطمس لها ، ملوث للامانة وساعة الوفاة بالنسبة لاى انسان انما هى ساعة الوفاة أو فى القبر • وهو حساب اجمالى خاص بتسليم الامانة كما كانت على حالها ، وبآثار النفخة الالهية وبنورها الربانى أو أن الانسان قد سلمها مكسوة بالرين مغطاة بركام من آثار قاذورات البشرية الشريرة ، يفوح منها رائحة عفن المادة ، ويلفها ظلال الطين •

عن البراء بن غارب قال (خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى جنازة • فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على القبر وجلسنا حوله ، كأن على رؤسنا الطير ، وهو يلحد له • فقال : أعوذ بالله من عذاب القبر ، ثلاث مرات • ثم قال : ان المؤمن اذا كان فى اقبال من الاخرة وانقطاع من الدنيا ، تنزلت اليه الملائكة كأن على وجوههم الشمس ، مع كل واحد منهم حنوط وكفن • فجلسوا منه مد بصره ، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة أخرجى الى مغفرة من الله ورضوان • قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء • فيأخذها ، فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها ، فيجعلوها فى ذلك

الكفن ، وذلك الحنوط ويخرج منها أطيب نفخة مسك وجدت على وجه الارض • قال : فيصعدون بها ، فلا يمرون بها يعنى على ملأ من الملائكة ، الا قالوا : ما هذا الروح الطيب • فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا الى السماء الدنيا فيفتحون له ، فيفتح لهم ، ويشيعه من كل سماء مقربوها الى السماء التى تليها ، حتى ينتهى بها الى السماء التى فيها الله عز وجل فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عين وأعيدوه الى الارض ، فانى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى •

قال : فتعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسان ، فيقولان له : من ربك • فيقول : ربى الله • فيقولان له : ما دينك • فيقول : دينى الاسلام • فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم • فيقول : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم • فيقولان له : وما علمك • فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به ، وصدقت • قال فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى ، فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وأفتحوا له بابا الى الجنة • قال فيأتيه من ريحها وطيبها • ويفسح له فى قبره مد بصره قال : ويأتيه رجل جميل الوجه ، حسن الثياب طيب الريح فيقول : أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعد ، فيقول له : من أنت ، فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير • فيقول : أنا عملك الصالح • فيقول : رب أقم الساعة ، رب أقم الساعة حتى أرجع الى أهلى ومالى •

قال : وان العبد الكافر ، اذا كان فى انقطاع من الاخرة ، واقبال على الدنيا نزل اليه من السماء ملائكة سود الوجه معهم المسوح ، فيجلسون منه مد البصر ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجى الى سخط من الله وغضب ، قال : فتفرق فى جسده ، فينزعها

كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين ، حتى يجعلوها فى تلك المسموح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الارض • فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة الا قالوا : ما هذا الروح الخبيث فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهى الى سماء الدنيا ، فيستفتح له فلا يفتح له ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط) فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى ، وتطرح روحه طرحا ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (ومن يشرك بالله ، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق) فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيجلسان فيقولان له: من ربك فيقول : هاه هاه لا أدرى • فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم فيقول : هاه هاهلا أدرى • فينادى مناد من السماء أن كذب عبدى فأفرشوه من النار ، وافتحوا له بابا الى النار ، فيأتيه من حرها ويضيق عليه فى قبره حتى تختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول له : أبشر بالذى يسؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد • فيقول من أنت فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر فيقول : أنا عملك الخبيث ، فيقول رب لا تقم الساعة)[1] •

وفى ذلك الحديث دلالة كافية على أن ساعة الوفاة للبشر هى ساعة تسليم الامانة • والفوز هو العودة بالروح نقية طاهرة حيث تتسلمها الملائكة

---

(١) رواه الامام أحمد فى مسنده وابن حبان وابو عوانه الاسفراييتى فى صحيحهما وكذلك أبو داود (منقول عن كتاب حاوى الارواح الى بلاد الافراح لابن القيم الجوزية ـــ الطبعة الرابعة القاهرة سنة ١٩٦٢ •

كما استودعها الله اياه من قبل • وأما الكافر الذى لوث فطرته فلم يحافظ على الامانة ولم يؤدها كما تسلمها حيث تخرج من روحه كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الارض وذلك لاستغراقه فى حياته المادية والشهوية ومخالفته ما كلفه به ، وعدم تحقيقه لذاته ووصوله الى مقام الخلافة الانسانية بتوحيد الله عز وجل •

ومن ثم فأوامر الله التشريعية هى المنهج الربانى للنفس البشرية وللمجتمع البشرى ، للمحافظة على الامانة • وليس ثمة طريقا غير شرع الله ودينه ، يمكن أن يسلكه البشر للمحافظة عليها •

ان تحقيق الخلافة للانسان فى نفسه ومجتمعه يعنى نجاحه فى الابتلاء وعودته الى ربه بروحه نقية طاهرة • ومن ثم يكون جزاؤه من الله الحياة الابدية ملكا متوجا فى جزء من ملك الله الذى لا يتناهى ، ساكنا الجنة التى أخرج منها أبويه بعد أن أثبت جدارته واستحقاقه لوراثتها عائدا معها • ومع كل البشر المؤمنين الفائزين (عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » قال : يارب ألم تخلقنى بيدك • قال : بلى قال : أى ربى ألم تنفخ فى من روحك قال : بلى قال : أى ربى ألم تسكنى جنتك • قال : بلى قال : أى ربى ألم تسبق رحمتك غضبك قال : بلى •قال أرأيت ان تبت وأصلحت أراجعى أنت الى الجنة • قال بلى • قال : فهو قوله تعالى « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه » • وله طرق عن ابن عباس وفى بعضها « كان آدم قال لربه اذ عصاه رب ان أنا تبت • وأصلحت • فقال له ربه : انى راجعك الى الجنة »)[1] •

فخلق الانسان اذا انما كان بكرم من الله وتفضل منه عليه لكى يجعله

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣ •

خليفة له فى الوجود الابدى ، كل واحد منهم فى ملك عريض كعرض السماوات والارض ، فى الجنة خالدا فيها له ما يشاء ، ومزيد من الله •

والحقيقة أن تسمية الحياة الابدية فى الجنة ــ لمن يحقق خلافته لله فى الدنيا بالخلافة الابدية أو النيابة الابدية ، تسمية غير دقيقة انها ليست قرآنية ، كذلك لان الخلافة لا تعنى الملك الحقيقى وانما تعنى النيابة عن صاحب الملك • بينما الحياة الابدية فى الجنة هى ملك عريض دائم ، وملك حقيقى يمن الله به سبحانه وتعالى على الفائزين فى ابتلاءاتهم فى حياتهم الدنيا وذلك واضح صريح فى قول الله سبحانه وتعالى فى وصف الجنة وأهلها (واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا ــ الانسان : ٢٠) •

وفى صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال (سأل موسى ربه ما أدنى أهل الجنة منزلة • قال : هو رجل يجىء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له ادخل الجنة • فيقول : أى رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم • فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا فيقول رضيت ربى • فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله • فقال فى الخامسة رضيت ربى • فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله،ولك ما اشتهيت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت ربى) •

وعلى الجملة فان ما جاء فى وصف الجنة ــ قرآنا كان أو سنة ــ بعرضها وقصورها وكيفية دخول أهلها لها وما يستقبلهم عند دخولها • وما جاء كذلك فى خلقهم وخلقتهم ، وطولهم وعرضهم • وما جاء عن أشجارها وبساتينها وظلالها وطلحها وثمارها وتعداد أنواعها وأنهارها وعيونها وأصنافها وجراها التى تجرى عليه وما جاء فى ذكر طعام أهل الجنة وشرابهم ، وما جاء عن آنيتهم التى يشربون ويأكلون فيها ، وكذا ما ذكر عن

لباسهم السندس والاستبرق ، وحليهم الذهبية والفضية وتيجـانهم على الرؤوس وفرشهم وبسطهم وزرابيهم المبثوثة ورفرفهم الخضر وعبقريهم الحسان • وخيامهم اللؤلؤية وسررهم المرفوعة • وما جاء فى ذكر نساء أهل الجنة من الحور العين وأصنافهن وحسنهن وأوصافهن وجمالهن الظاهـر والباطن وكونهن مقصورات فى الخيام قد أنشأهن الله سـبحانه لاوليـائه انشاءا ، وجعلهن أبكارا وعربا أترابا لهم •

كل ذلك وما تقدم ذكره تفصيلا من خدم وحشم وملك عـريض يزيد الله سبحانه وتعالى عليه للمؤمنين فى الجنة برؤينه تعالى والنظر الى وجهه الكريم (وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة ـ القيامة : ٢٣) • وتلك هى الغاية التى شمر لها المشمرون ، وتنافس فيها المتنافسون وتسابق من أجلها المتسابقون • والقرآن الكريم والسنة المطهرة الصحيحة صريحان وواضحان حين نصا على أن المؤمنين سيرون ربهم جهرة فى الجنة كما يرى القمر ليلة البدر • وليس ذلك فى الدنيا ، ولا يمكن أن يكون ذلك فى الدنيا أبدا • لان الدنيا دار ابتلاءوامتحان وعمل وليس دار جزاء وتجليه تعـالى للمؤمنين يرونه فى الجنة انما هو فضل من الله ومنة وتكرم عليهم فى دار الجزاء • وقد جعله الله سبحانه وتعالى لمن أحبه فى الدنيا وآثره على كل ما عداه ، وتشوق الى حبه ورضاه ، وتشوق الى النظر الى وجهه الكريم فى جنة الخـلد وكل ذلك لا يكون الا بما استودعه الله سبحانه الانسان بما نفخ من روحـه • وتلك النفخة هى أصل هذه المحبة لله الازلى الباقى • وأسـاس طمـوح الانسان الى الخلود فى ملك عريض كبير يسكنه فيه الله سبحانه وتعالى ، ويزيد ذلك بالنظر اليه (قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم «للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » قال اذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار نادى

مناد يا أهل الجنة : ان لكم عند الله موعدا ويريد أن ينجزكموه • فيقولون ما هو ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويزحزحنا عن النار، فيكشف الحجاب فينظرون الله ، فما أعطاهم شيئا أحب اليهم من النظر اليه ، وهى الزيادة ــ رواه مسلم) •

هذا الوجود الاخروى فى الجنة يذكرنا بما سبق أن ذكرناه عن الاختيار البشرى فى الدنيا ، حيث بينا انه اختيار بين حريتين أو بين عبوديتين أو بين حياتين أو بين دارين • فاما أن يكون الانسان باختياره الحر عبد الله فى الدنيا وليأمن أوليائه فى الاخرة متمتعا بالجنة والمشيئة الطليقة الحرة حيث يقول الله (لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعدا مسئولا ــ الفرقان : ١٦) ويقول (لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد ــ ق : ٣٥) •

واما أن يكون حرا فى الدنيا ، متحللا من شرع الله وعبوديته له وعبدا ذليلا فى الاخرة وذلك هو جزاء الكافرين حيث ثبت فى حقهم عدم استحقاقهم الخلافة الاخروية الخالدة لعدم تحقيقهم للخلافة الدنيوية المؤقتة • فحجبهم عن ربهم ما أصاب روحهم من تلوث وكدر ونتن ، وأفقدهم شركهم وكفرهم بالله الملك الاخروى العريض (الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون • اذ الاغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون فى الجحيم ثم فى النار يسجرون ــ غافر : ٧٠ــ٧٢) •

ان النتيجة الحتمية للوجود البشرى الحر ، والتجربة الابتلائية التى يخوضها البشر أفرادا وجماعات طيلة هذه الحياة الدنيا أن يكون الناس على سبيلين : سبيل الخير وسبيل الشر • اما من أهل الدنيا واما من أهل الاخرة ومن ثم اما أن يكونوا من أهل الجنة أو يكونوا من أهل النار (وما قدروا الله قدره ، والارض جميعا

قبضته يوم القيامة ، والسماوات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون • ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الارض الا ما شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون • وأشرقت الارض بنور ربها ، ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء ، وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون • ووفيت كل نفس ما عملت ، وهو أعلم بما يفعلون •وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا حتى اذا جاؤها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا• قالوا : بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين • قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين • وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا ، حتى اذا جاؤها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين • وقالوا : الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الارض نتبؤ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين • وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين[1] •

---

(١) سورة الزمر ــ الاية ٦٧ الى نهاية السورة .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	(أ)
● تصدير	١
ابليس والشبهات السبع	١
شبهات ابليس فى مجال الادب	٩
شبهات ابليس فى الفكر الدينى والفلسفى	٢٩
● الفصل الاول	
قواعد منهجية	
للباحث عن الحقيقة فى القرآن والسنة	
تمهيد	٤١
ـ القاعدة الاولى :	
وجوب الرجوع الى القرآن الكريم كله لمعرفة حقيقة قرآنية واحدة	٤٧
ـ القاعدة الثانية :	
افراد الله عز وجل بالالوهية والربوبية يوجب افراد الوحى كمصدر للعقيدة والشريعة	٥١
ـ القاعدة الثالثة :	
الوحى والعقل ومنهج التأويل العقلى	٥٤
ـ القاعدة الرابعة :	

الموضوع	الصفحة
المعرفة بالوحى والمعرفة بالعقل	٦٢
ــ القاعدة الخامسة :	
ضرورة توافق الحقيقة المستنبطة من البحث فى القرآن مع غيرها من الحقائق القرآنية	٦٧
ــ القاعدة السادسة :	
اخلاص النية وسلامة القصد	٧٣
● الفصل الثانى	
الاسس الغيبية للحرية الانسانية	
١ ــ الانسان والزمان	٧٧
٢ ــ الفطرة	٧٩
الفطرة والالحاد	٨١
٣ ــ الامانة	١٠٢
الامانة والخلافة	١٠٨
٤ ــ الانسان والعلم	١١٨
السماء والارض والخلافة	١٣٢
المفاهيم القرآنية الاربعة :	
الفطرة والامانة والخلافة والابتلاء	١٤٥

الموضوع	الصفحة
● الفصل الثالث	
لماذا خلق الله العالم ؟	
ولماذا خلق الله الانسان ؟	١٤٨
التجربة الابتلائية	١٦٦
حقيقة الابتلاء وفلسفة التاريخ	١٨٨
الحقب التاريخية فى القرآن الكريم	١٩٧
● الفصل الرابع	
الجبر والاختيار	
١ ـ الجبر	٢١١
٢ ـ الاختيار	٢١٥
٣ ـ القرآن والجبريون	٢٣١
٤ ـ جوهر الاختيار البشرى فى القرآن الكريم	٢٣٧
● الفصل الخامس	
الاستطاعة	٢٤٢
حقيقة الفعل البشرى	٢٨٣
أساس الوحدة فى الفعل البشرى	٢٨٦
الاستطاعة البشرية والنشر	٢٨٨
حقيقة الشر وأصله فى الحياة الدنيا	٢٩١

al-maktabeh
مكتبة المهتدين

الموضوع	الصفحة
الشر والتجربة الابتلائية	٣٠٨
الافعال المجردة عن الخير والشر	٣٠٩
● الفصل السادس	
المعرفة والعلم	٣١٩
محاولة الكافر يوم القيامة نفي حريته فى الدنيا	٣٣٥
مصير من تبلغه الرسالة السماوية	٣٣٨
الجحود وليس عدم المعرفة هو علة الكفر	٣٤٠
الدين والعلم مقوما الحضارة الحقة	٣٤٢
● الفصل السابع	
القضاء والقدر	
معنى القدر	٣٤٤
معنى الامر	٣٤٦
معنى القضاء	٣٤٨
الارادة والامر	٣٤٩
معنى الارادة الالهية فى القرآن الكريم	٣٥٣
الارادة الالهية واحدة	٣٥٧
الاختيار الانسانى والارادة الالهية	٣٥٩

الموضوع	الصفحة
الاسلام والايمان	٣٦٢
القدر والتدوين	٣٦٤
العناية الالهية والقدر	٣٧٠
الفاعلية الالهية فى الاتجاهات الفلسفية وفى القرآن الكريم	٣٧٣
القدر والابتلاء	٣٨٨
● الفصل الثامن	
العدل الالهى والكمال الانسانى	٤٠١
العدل الالهى	٤٠١
الكمال الانسانى	٤١٠
الحرية أساس لمنهج الحياة الاسلامى	٤١٦
الحرية السياسية	٤١٧
حرية العقيدة للافراد والشعوب	٤١٩
الحرية الاقتصادية	٤٢٤
الحرية السلوكية	٤٢٩
الحرية الاجتماعية	٤٣٠
● الفصل التاسع	
النتائج الغيبية للحرية الانسانية	٤٣٧